جامعة السلطان قابوس
مركز الدراسات العُمانية

سُلَيمَانُ باشَا البَارُونِي

وحضوره في الثقافة العُمانية



المجلد الثاني

164.02 164.02

مطبعة جامعة السلطان قابوس، مسقط - سلطنة عمان ٢٠١٣م

الندوة الدولية :

(سليمان باشا الباروني و حضوره في الثقافة العُمانية)

١٠ – ١١ يوليو ٢٠١٢م

مركز الدراسات العُمانية بجامعة السلطان قابوس

بالتعاون مع

وحدة الدراسات العُمانية بجامعة آل البيت في المملكة الأردنية الهاشمية

بحوث النـــدوة

المجلد الثاني

جميع الحقوق محفوظة لدى :

مركز الدراسات العُمانية -
جامعة السلطان قابوس
البريد الإلكتروني: osc@squ.edu.om

All rights reserved for:

Omani Studies Center
Sultan Qaboos University
Email: osc@squ.edu.om

التحرير :

د.عليان الجالودي د.كمال مقابلة
د.أحمد الحراحشة

الإعداد للطباعة :

قسم البحوث والدراسات- مركز الدراسات العمانية

مطبعة جامعة السلطان قابوس
سبتمبر ٢٠١٣م

فهرس المحتويات

الباب الثالث : المرحلة العُمانية في حياة الباروني

١- د. سالم بن هاشل العبيدي — سليمان باشا الباروني: علاقته بأئمة عُمان وسلاطينها، وجهوده الفكرية والإصلاحية — ٣
٢- أ. محمد بن سليمان الشعيلي — المرحلة العُمانية في حياة الباروني بداخلية عُمان — ٧٢
٣- د. علي حمزة الصوفي — المرحلة العُمانية في حياة الشيخ سليمان الباروني(١٩٢٤-١٩٤٠م) — ٩٩
٤- د. محمود محمد الجبارات — صلات سليمان الباروني النضالية مع سلطنة عُمان خلال الغزو الإيطالي لليبيا — ١٢٩
٥- د. علي بن هلال العبري — حضور الشيخ سليمان باشا الباروني في الثقافة العُمانية أدبيات زيارته لبلدة الحمراء... نموذجاً — ١٥٢
٦- محمد بن سعيد الحجري — حضور الباروني في الشعر العماني بين صورة المجاهد و شخصية المصلح — ١٧٧

الباب الرابع: الباروني مفكراً ومصلحاً

٧- د. بشير فايد — خلاف سليمان باشا الباروني مع الأمير شكيب أرسلان وموقف الشيخ عبدالحميد ابن باديس منه — ١٩٣
٨- د. سعيد بن سليمان الوائلي — الباروني مفكراً ومصلحاً — ٢١٧
٩- د.المنير عبدالحميد بن سعدون — سليمان باشا الباروني مربياً ومصلحاً — ٢٤٦
١٠- أ. عبدالقادر قوبع — حضور سليمان الباروني في الصحافة الإصلاحية الجزائرية (١٩٢٠-١٩٤٠م) — ٢٧٦

الباب الخامس : رحلات الباروني

١١- د.سلطان بن خميس الناعبي — رحلات الباروني وأهدافها — ٣٠٤
١٢- الحاج أحمد حمو كروم — رحلات الباروني وأثرها في التغيير الاجتماعي لحياة الشعوب — ٣٣٥
١٣- أ.زهير بابا وإسماعيل — رحلة سليمان باشا الباروني العلمية إلى معهد القطب وأثرها في تكوينه الفكري والعلمي — ٣٦٩

الباب الثالث

المرحلة العُمانية في حياة الباروني

سليمان باشا الباروني: علاقته بأئمة عُمان وسلاطينها وجهوده الفكرية والإصلاحية

د. سالم بن هاشل بن ضحى العبيدي (*)

مقدمة

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى، ألا يخلو زمن من قائم بالحق ومناصر له ومنافح ومدافع عنه، وهذا أمر مشاهد في الحياة، وقد تعاقب على هذه الحياة رجال صدقوا الله ما عاهدوا عليه ومن تلك الشخصيات التي كان لها أثر ملموس في هذه الحياة، المجاهد الكبير والعلامة النحرير سليمان باشا بن عبد الله بن يحي الباروني، الذي كانت حياته سجلاً حافلاً من المنجزات والعطاءات في شتى مناحي الحياة، فهو السياسي المحنك والقائد المجاهد والمصلح الاجتماعي، لقد جمع الله لهذا الرجل من الصفات والخصال العظيمة التي أهلته للقيام بدوره في هذه الحياة بل تعدت إسهاماته حدود وطنه لتصل إلى بلدان أخرى مثل تونس والجزائر وسلطنة عُمان .

ولقد استقر الباروني في عُمان ما بين سنتي ١٩٢٤-١٩٤٠م، وفي الفترة التي قضاها في عُمان كانت له فيها إسهامات كثيرة وإصلاحات عديدة وإسهاما مني في إبراز ما قام به الباروني خلال تلك الفترة من إنجازات ،كان هذا البحث الذي هو بعنوان: سليمان باشا الباروني علاقته بأئمة عُمان وسلاطينها وجهوده الفكرية والإصلاحية.

يهدف اختيار الموضوع إلى إبراز مدى التواصل الحضاري بين إباضية المشرق وإباضية المغرب، وإبراز دور الشيخ الباروني الفكري والإصلاحي الذي

(*) د. سالم بن هاشل بن ضحى العبيدي، عُمان.

قام به في عُمان خلال مدة وجوده فيها، وسعيه لوحدة الكلمة ورأب الصدع، ومن الدراسات السابقة عن الموضوع: كتاب أبي اليقظان المعنون بـ: إبراهيم سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، ذكر فيه كثيرا من أخبار الباروني وجهوده التي قام بها خلال وجوده في عُمان، واعتمد في ذلك على مراسلات بينه وبين الشيخ الباروني نفسه. وبحث سعيد الهاشمي: غاية السلوان في زيارة الباروني لعُمان، للدكتور سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمي، تحدث فيه عن زيارة الباروني لعُمان وسياحته في مناطق عُمان، وجمع في كتابه كثيراً من القصائد التي قيلت في الباروني استبشاراً بمقدمه الميمون أو مدحاً له، أو حثاً له ليقوم بإصلاحاته أو رثاء له، وتعرض لذكر بعض الأعمال التي قام بها الباروني في عُمان وسليمان الباروني آراؤه السياسية والإصلاحية، ليوسف بن يعقوب المعولي، وهو بحث قدم لنيل شهادة الإجازة العالية من معهد العلوم الشرعية، ذكر فيه العديد من الإصلاحات التي قام بها الباروني في عُمان. وكتاب الرحلة البارونية للشيخ عيسى بن صالح الطيواني، وقد تحدث فيه عن سياحة الباروني في عُمان وتكمن أهمية هذا الكتاب أن المؤلف كان مرافقا للباروني في سياحته الأولى أو اعتمد على من كان مرافقا للباروني في سياحته. وكتاب سليمان الباروني سياسي إباضي مغربي، للفاضلة هادية مشيخي، وهو بحث قدم لنيل شهادة الماجستير في الحضارة المعاصرة إلى الجامعة التونسية، ذكرت في الفصل الثالث عن الباروني في المهجر عن بعض أخباره في عُمان وإصلاحاته. ومحاضرة سمعية لسماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي بعنوان رجل عن ألف رجل، ألقاها في ولاية إبراء بالمنطقة الشرقية بعُمان في ٣٠صفر ١٤١٩هـ.

زيارة الباروني لعُمان :

لقد كانت زيارة الباروني لعُمان منحة ربانية ساقها القدر لعُمان، فالباروني بعد أن ضيقت عليه دول الحلفاء وحوصر فلم يستطع دخول بعض الأقطار التي يريد، مما جعله يرسل رسالة احتجاج إلى جمعية الأمم ورجال السياسة وعلماء القانون (منعتني دول الحلفاء الثلاث فرنسا وايطاليا وانكلترا من الدخول إلى مستعمراتها والبلاد التي تحت سيطرتها مثل الشام وجزيرة العرب ومنها الحجاز وأفريقيا ومنها مصر، فاضطررت إلى الإقامة في باريس بعد أن ذهبت إلى تونس وأعادتني حكومتها بعد أربعة أيام أقمتها فيها ممنوع الاختلاط بالناس والخروج من المنزل تحت مراقبة البوليس، فهل لدول الحلفاء وجه قانوني يسوغ ذلك حتى تحرمني من التمتع بنتيجة الصلح الذي شمل العالم أجمع، مع أني إفريقي طرابلسي المولد لي بها أملاك، ولي في مصر مطبعة ومعاملات تجارية من قبل الحرب الكبرى، ولا يلائم صحتي الإقامة في أوربا وغيرها من البلاد الباردة)[1].

وبعد ما أصبح الباروني لاجئا بدون وطن ،حيث اشتدت عليه الرقابة فمنعته فرنسا وبريطانيا من الدخول إلى مستعمراتها ، جاءت مبادرة من ملك الحجاز فوجه لسليمان باشا الباروني دعوة لزيارته، فمهد له طريق السفر من مرسيليا بفرنسا متعللا بأداء فريضة الحج وكان ذلك سنة ١٩٢٤م، وقد سعى عدة وسطاء أجانب لحمل الملك حسين على عدم السماح له بالنزول في جدة، فكان رده عليهم بأنه لا يجوز أن يمنع أي مسلم من أداء فريضة الحج، وقد مر خلال رحلته بالإسكندرية ثم بيروت[2].

(١) عيسى الطيواني، الرحلة البارونية، ص١٢-١٣ مخطوط.
(٢) موسى بابا وداود بابا، ص٣٥.

وكان سفره من بيروت ٢٢ ذي القعدة ١٣٤٢هـ، فوصلت الباخرة ثغر جدة وفي صباح ٢٩ نزل ركابها إلى البر، فوجد الباروني باشا على الرصيف هيئة يرأسها السيد الشريف طه، مكلفة من عند صاحب الجلالة الملك حسين باستقباله واستقبال بعض أمراء الشرف، وفي عشية ٣٠ وصلت سيارة ملوكية أقلته إلى مكة المكرمة وأدى المناسك وأحل من إحرامه وقدم شكره للملك على عنايته به[1] وبعد إتمامه لفريضة الحج قلد الملك حسين سليمان باشا الباروني نيشان الاستقلال الهاشمي، وعرض عليه الإقامة ولكن الباروني اعتذر عن الإقامة فيها[2]، فعاد إلى جدة وهو في حيرة من أمره، إذ لا سبيل لدخوله مصر أو غيرها من البلاد الإسلامية، فأما أن يقيم في الحجاز، وأما أن يعود إلى باريس وكلا الحالين صعب عليه. ولما علم بوجود باخرة في ثغر جدة قاصدة مسقط عزم على زيارة بلادنا عُمان، وأسرع إلى الباخرة لأنه لا يجد بعد سفرها سبيلا إلى مسقط إلا على طريق بمبي ثغر الهند وهو ممنوع من النزول فيها، وكان في الباخرة جماعة من إخواننا أهل عُمان يرأسها العلامة الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري أحد قضاة إمام المسلمين بعُمان، فسافرت بهم يوم ٢٥ ذي الحجة١٣٤٢هـ، ولما وصلت الباخرة إلى عدن بلغ خبر وجوده فيها إلى مسامع حضرة عظمة السلطان تيمور وهو بالهند، فأمر بواسطة البرق هيئة وزارته بمسقط أن تستقبل صديقه القديم الباروني باشا باحترام، وأن تقبله ضيفا عنده فانتشر خبر قدومه في أنحاء المملكة انتشار البرق وتاقت الأنظار إلى رؤيته، واشتاق أصدقاؤه إلى ملاقاته.

وفي اليوم الثاني من محرم ١٣٤٣هـ وصلت الباخرة ثغر مسقط، فبادرت هيئة الوزارة إليها مستقبلة هذا الضيف المحترم، وأنزلته في الزورق الملوكي ترفرف فوقه الراية الحمراء، راية الدولة السعيدية، فنزل القصر المهيأ له وهناك

(١) الطيواني، ص٣١-٣٤.
(٢) موسى بابا وداود بابا ، ص٣٥.

جاء للسلام عليه صاحب العظمة الأمير نادر أخو عظمة السلطان ورئيس الوزارة وفي معيته أعضاء العائلة الملوكية، ثم العلماء والأعيان وما انفكت الوفود من ذلك اليوم ترد من أطراف المملكة للسلام عليه، وقد طيرت الوزارة البرق إلى عظمة السلطان في وصوله وفيما قامت به من إكرامه، فأجابها شاكراً وأرسل تلغرافاً يهني الباروني بالوصول، فأجابه يشكر فضله الجزيل وهمته الملوكية .

وهذا نص برقية تهنئة وترحيب السلطان تيمور بالباروني (قدوم مبارك لبلادنا، أرجو أن شعبي قد استقبلكم بكل احترام)[1].

وفي السابع من محرم أقام له سمو الأمير نادر مأدبة فاخرة في قصره العالي، حضرها(١٠٠) شخصية من الوزراء والعلماء والرؤساء وأعيان العاصمة، وكانت جامعة لما لذ وطاب من أنواع الطعام، وفي النهاية قام صاحب الفضيلة العلامة الشيخ راشد بن عزيز قاضي القضاة، وتلا على لسان سمو السيد نادر خطبة جليلة ترحيبا بالضيف الكريم، وشكراً للحاضرين على إجابتهم الدعوة، فقام الباروني باشا وأجابه شاكرا فضل سمو الأمير نادر، وعظمة السلطان بكلام موجز بليغ، ثم قدم إليه الشاعر الجليل سليمان بن سعيد الكندي القصيدة الآتية :

نسمة الشرق هيجت لي فؤادي ... تركتني أهيم في كل واد
لست أدري ماذا أقول لما قد ... نلته من عظيم كل مراد
فكأني شربت كأس مدام ... أو كأني علوت ظهر جواد
ليس هذا الهيام ذكراى ليلى ... حاشا ربي ولا لذكرى سعاد
بل هيامي لما انتشقت نسيما ... من سليمان هام مني فؤادي
هذه البشائر جاءت ... تتهادى وبالسرور تنادي

(1) أبو اليقظان، ج٢، ص٢٠٩.

ذا الهمام الباروني جاء هلموا ... يا لقومي للثم تلك الأيادي
صحت في الحي يا لقومي هبط ... ذا سليمان مصدر الوارد
أصبحت مسقط بوصلكم تسمو ... بفخار على جميع البلاد
بوركت أرضها بوطاكم فيها ... يا كريم الآباء والأجداد
كنت اقرأ في الصحف فيكم ثناء ... فإذا أنت فوقه بازدياد
أنت مذكي الحروب قطب رحاها ... وحسام يقد هام الأعادي
أنت شمس العلوم أنت سماها ... بك قامت دعائم الإرشاد
لست ترضى غير المعالي محلا ... تترقى بها عن الأوتاد
كم مخرتها بعزوم ... ووهاد قطعتها في جهاد
هكذا تدرك المعالي بجد ... لا يعجز ولا بكنز رقاد
جئت تسعى إلى المليك اشتياقا ... بك أهلا من قادم بالوداد
ذاك تيمور نجل فيصل شهم ... باسط الكف فاضح للعوادي
عرف الناس قدره فتراه ... لذوي العلم جامعاً وضاوي
فهنيئاً لأهل مسقط طرا ... وعُمان وكل قطر ونادي
بقدوم الباروني خير كريم ... من بني العرب صفوة الأمجاد
إن يوم القدوم يوم عظيم ... فارسموه من جملة الأعياد

وفي يوم السابع عشر من محرم الحرام وردت رسل حضرة إمام المسلمين بعُمان حاملة كتابه الجليل في التهنئة والدعوة إلى الزيارة، وها هو بألفاظه العذبة ومعانيه النورانية: بسم الله الرحمن الرحيم من إمام المسلمين بعُمان محمد بن عبد الله بن سعيد الخليلي إلى أخيه ذي الشرف الباذخ والمجد الشامخ، المجاهد في سبيل الله الحامي لدينه سليمان بن عبد الله الباروني، أما بعد: فإنا نحمد إليك الله لا زلت أخانا محافظا شرف حريتك، ساعياً في عز استقلال بلادك، ألا و إن

أعلام مجدك منشورة، وسيوف عدلك مشهورة، فلله درك حيث أنت هكذا هكذا وإلا فلا لا، الداعي إلى تحرير هذا الكتاب إليك بعد إهداء السلام والتحية والإكرام، إعلامك بأن إخوانك أهل عُمان مسرورون بسلامتك وصحتك مستبشرون بقدومك وطلعتك، وقد وجهنا إليك الرسول الحامل لهذا، طالبين منك الوصول إلينا على بركة الله زائراً إخوانك، مشرفاً أوطانك، فاضرب لنا موعداً لنوجه إليك رجالاً من الخاصة رفقاء الطريق، وأخبر رسولنا بكل ما يلزم والسلام، حرر في ١٣محرم ١٣٤٣هـ.

وفي السابع والعشرين من محرم أقام له حضرة الهمام السيد محمد بن أحمد وزير المالية مأدبة عظيمة في بلدة مطرح، حضرها نحو(١٥٠) شخصية من العلماء وأعيان التجار من عرب وعجم وهنود وبلوش مع هيئة الوزارة، فلم تصل الساعة الخامسة حتى انتشرت الزوارق على وجه البحر، تحمل المدعوين من مسقط إلى مطرح، وكان الضيف المحترم في زورق ملوكي فيه سمو الأمير نادر وسمو السيد علي بن سالم صهره، وصهر عظمة السلطان وهو أكبر أفراد العائلة سناً، فوصل بهم الزورق ثغر مطرح، والراية الحمراء ترفرف فوق رؤوسهم فاستقبلهم الجمهور هناك، وفصدوا محل الضيافة.

وكان جناب وزير المالية عند باب القصر يستقبل الزائرين بنفسه مع بشاشة واحترام، وبعد تناول الطعام على تلك الموائد التي جمعت من أفخر المأكول، ما يسر الناظر والآكل، وقف الأديب الفاضل أحمد بن سعيد كاتب حضرة الوزير وتلا على لسان حضرته خطبة فائقة في الترحيب بالضيف الجليل ثم أنشد قصيدة بين أصوات الاستحسان، منها هذه الأبيات :

أرى اليوم أعلام بمطرح تنشر ترفرف بالبشرى وصحفا تحبر
سروراً وأفراح تقام وكاسات تدار وأنوار الرياحين تنشر

أسائل ما هذا الجلال الذى أرى بمطرح والأقوام فيها تبختر
فقيل الفتى الباروني حل ركابه لدى السيد المفضال ليث غضنفر
فقلت وقد هام الفؤاد بذكره على الرحب يا مقدام حياك معشر
نزلت لدى الشهم الوزير بمطرح دعاك وقد لبيت فالله أكبر

فوقف الباروني باشا ،وأجابه عن الخطبة والقصيدة بكلام رائق ،أخذ بألباب السامعين ،كما أخذت بهم الخطبة والقصيدة ،وتفرقوا وكلهم ألسنة ثناء على الزائر والمزور.

وفي هذه الأيام وردت من العلامة الشاعر الشيخ حمد بن عبيد أحد عمال حضرة الإمام قصيدة تهنئة بوصول الباروني ودعوته للزيارة بعنوان (سمائل ترحب بفخامة الباشا) من أبياتها :

أبشر فهذا الدهر أصبح منعما وأدار أفلاك السعود تكرما
وصفا الزمان وأشرقت أنواره من بعد ما قد كان ليلا مظلما
جاء البشير مهنئا من مسقط بوصول يوسف عصره متقدما
تاهت به من قبل مصر وأهلها وروت لنا عنه الفخار مترجما
حسبي سليمان بن عبد الله من خطبت منابره فأخرست الفما
أسد يذب عن العرين بسيفه متوقد الجمرات حراً مسلماً

فأجابه الباروني بكتاب هذا نصه: إلى حضرة العلامة الفاضل النحرير الكامل متوج القضاء بأحكامه العمرية، ومرصع المجالس بلآلئ علومه الدرية، الأخ الجليل الشيخ أحمد بن عبيد وفقه الله، السلام عليك ورحمة الله: أما بعد فقد شرفني أولا كتابك الكريم الطافح بلاغة، المتدفق سياسة، ثم زادتني شرفا منظومتك الغراء التي كشفت النقاب عما انطوى عليه ضميرك من مواهب الله

على أمثالك، فجاءت تذيب سمو عظمتها الجماد، وتحرك بحماستها فاقد الحس والفؤاد، فبينما أراك تنظم فيها عقود البشرى والسلام، أجدك تصف بأبلغ عبارة ما حل من النكبات بأهل الإسلام، ثم أراك تأتي من الجمل المهيجة بما يذكر القارئ بعهد الفاتحين، وينهض الراقد إلى صفوف الغازين، فكأني أشاهدك وأنت بزي العلم متربعا على دست القضاء، تفصل تارة بين العباد، وتشحذ الهندي البتار لمقارعة الأبطال في معامع الجهاد، وهما صفتان قل من جمع بينهما من الناس، فلله در غذاك، وعالم رباك وإمام ولاك، وعلم حلاك.

وفي الأول من صفر الخير وصلت رسل حضرة الشيخ عيسى بن صالح أمير الشرقية، وأحد رجال الإمام وقواده الأبطال صديق الباروني الحميم وبيدها كتابه الآتي في التهنئة والدعوة إلى الزيارة ونصه بسم الله الرحمن الرحيم: من عيسى بن صالح إلى حضرة الباسل الأمجد العلامة الأوحد الكامل الهمام السري المحترم الشيخ سليمان بن عبد الله بن يحي الباروني سلمه الله تعالى، وحماه سلام عليك ورحمة الله وبركاته ما تليت آياته، محبك المسرور جدا بوصولك يحمد الله ويشكره على ورودك العاصمة مسقط سالما، وقد ورد ألينا كتاب من حضرة السيد الأمجد نادر بن فيصل مبشرا بقدومك إلى ساحتهم ،وانك ضيف أخيه حضرة السلطان، فنعم الوافد والموفود عليه، وقد رأينا من اللازم دينا ومروءة واحتراما إرسال أخينا الشيخ الحاج أحمد بن محمد المغربي إلى حضرتك وحضرة السيد نادر ومجلس الوزارة السلطانية، راغبين منك التفضل بنقل خطواتك إلينا، لنتشرف بقدومك، ولك الفضل وقد عرفناهم بذلك، وما في حصول الرخصة منهم والأمل حسن والظن جميل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٢٧محرم ١٣٤٣هـ.[1].

(١) الطيواني، ص ٣٤-٥١.

وتلبية تلك الدعوات قام الباروني بسياحتين في عُمان، الأولى كانت في ٢٧صفر ١٣٤٣هـ، تنقل فيها في كثير من مناطق عُمان، ثم بدأ سياحة أخرى إلى عُمان ١٣٤٤هـ.[1].

علاقة الباروني بأئمة عُمان

أولا :علاقة الباروني بالإمام نور الدين السالمي :

لم تورد لنا المصادر التاريخية حجم التواصل والعلاقة بين الشيخ الباروني والإمام نور الدين السالمي، ولكن هناك ثمة إشارات ومراسلات تدل على أن هناك علاقة تجمع بين الاثنين، إذ تورد المصادر التاريخية أن الباروني توجه بمقالات ورسائل إلى علماء الأمة الإسلامية، يسألهم فيها عن أهم الطرق وأنجح السبل المؤدية إلى تحقيق الوحدة الإسلامية، فمن ضمن تلك الرسائل رسالة أرسلها إلى قطب الأئمة في الجزائر والشيخ السالمي في عُمان، وعن مناسبة هذه الرسالة يقول الشيخ أحمد بن سعود السيابي (في أثناء الرحلة بين مصر والأستانة، راودت الباروني وزملاؤه فكرة الجامعة الإسلامية، وهي فكرة كيف تتوحد الأمة الإسلامية، وفي هذا السياق كان الأمير شكيب أرسلان (ت١٩٤٦م) له رأي خاص في قضية الوحدة يخالف رأي الباروني، ويظهر أن الشيخ الباروني قد اختلف معه، وقد وقف ابن باديس مع أرسلان، وهنا كتب الباروني إلى قطب الأئمة في المغرب، والإمام السالمي في المشرق، يسألهم عن أفضل الطرق لتوحيد المسلمين[2].

وها هو نص الرسالة التي أرسلها إلى الإمام السالمي:

(١) لمعرفة تفاصيل هاتين السياحتين ينظر الباروني في أطوار حياته ،لأبي اليقظان .
(٢) المعولي:الباروني آراوه السياسية والإصلاحية، ص١٢١-١٢٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وآله الطاهرين :

صورة ما أرسلناه إلى معتبري هداة الأمة علماء وأدباء الفرق الإسلامية وفقهم الله: المرجو من حضرتكم، أيها الأستاذ الذي سنعتمد على أقواله، وأقوال أمثاله ممن تمسك بالمذهب المحترم، إمعان النظر في المقالة المحررة تحت عنوان (الجامعة الإسلامية) في جريدة الأسد الإسلامي الآتية إليكم مع هذا، ثم بعد إطلاق عنان الفكر بحثا وراء عين الحقيقة، نطلب إبداء ما اقتضاه نظركم السامي من الجواب عن الأسئلة الآتية بإيجاز غير مخل بالمراد، خدمة للجامعة والدين ولحضرتكم الثواب والشكر، ويكون الإمضاء هكذا حرره فلان الفلاني البالغ من العمر كذا سنة في البلدة الفلانية، بشهر كذا سنة ١٣٢٥هـ.

١. هل توافقون على أن من أقوى أسباب تفرق المسلمين تعدد المذاهب وتباينها؟

٢. على فرض عدم الموافقة على ذلك، فما هو الأمر الآخر الموجب للتفرق ؟

٣. على فرض الموافقة، فهل يمكن توحيدها بالجمع بين أقوالها المتباينة وإلغاء التعدد في هذا الزمن الذي نحن فيه أحوج إلى الاتحاد من كل شيء؟

٤. على فرض عدم إمكان التوحيد، فما الأمر القوي المانع منه في نظركم ؟وهل لإزالته من وجه

٥. على فرض إمكان التوحيد، فأي طريق يسهل الحصول على النتيجة المطلوبة؟ وأي بلد يليق فيه إبراز هذا الأمر؟ وفي كم سنة ينتج ؟ وكم يلزم من المال تقريبا؟ وكيف يكون ترتيب العمل فيه؟

٦. وعلى كل حال فما الحكم في الساعي في هذا الأمر شرعا وسياسة (مصلح أو مفسد)؟

٧. ما الدليل القاطع على منع الصور التي لا ظل لها، مما يرسم على الورق من صور الملوك والجيوش مثلا لمقصد حسن؟

هذا ولسنا بناشرين مما يأتينا في هذا الباب شيئاً، حتى يجتمع لدينا المطلوب الكافي، لتكون الأفكار مستقلة، لا يقتبس بعضها من بعض، والإرادات على محور واحد وذلك مما لا يفي بغرضنا، وسنرتب لحضرتكم الأسد مجاناً، ما دمتم مسارعين إلى الجواب عما يعرضه من المشكلات على مقتضى مذهبكم الجليل مع الإنصاف التام، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، وعلى حضرتكم السلام. حرر في غرة رمضان العظيم سنة ١٣٢٥هـ[1].

فأجابه الإمام نور الدين السالمي بقوله: قد نظرنا في الجامعة الإسلامية، فإذا فيها كشف الغطاء من حقيقة الواقع، فلله ذلك الفكر المهدي لتلك الحقائق.

نعم نوافق على أن منشأ التشتت هو اختلاف المذاهب، وتشعب الآراء وهو السبب الأعظم في افتراق الأمة ،كما اقتضاه نظرك الواسع في بيان الجامعة الإسلامية، وللتفرق أسباب أخرى، منها: التحاسد والتباغض والتكالب على الحظوظ العاجلة، ومنها: طلب الرياسة والاستبداد بالأمر، وهذا هو السبب الذي نشأ عنه افتراق الصحابة في أول الأمر، في أيام علي ومعاوية، ثم نشأ عنه الاختلاف في المذاهب، وجمع الأمة بعد تشعب الخلاف ممكن عقلا مستحيل عادة، وإذا أراد الله أمرا كان (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم) والساعي في الجمع مصلح لا محالة، وأقرب الطرق

[1] زعيمة البارونية ،صفحات خالدة ،ص٢١.

له أن يدعو الناس إلى ترك الألقاب المذهبية، ويحثهم على التسمي بالإسلام، فان الدين عند الله الإسلام، فإذا أجاب الناس إلى هذه الخصلة العظيمة ذهبت عنهم العصبية المذهبية، فيبقى المرء يلتمس الحق لنفسه، ويكون الحق أولا عند آحاد من الرجال، ثم يظهر شيئا فشيئا فيصير الناس إخوانا، ومن ضل فإنما يضل على نفسه، ولو استجاب الملوك والأمراء إلى ذلك لأسرع في الناس قبوله وكفيتم مؤنة الغرم، وإن تعذر هذا من الملوك فالأمر عسير والمغرم ثقيل، وأوفق البلاد لهذه الدعوة، مهبط الوحي، ومتردد الملائكة، ومقصد الخاص والعام حرم الله الآمن، لأنه مرجع الكل وليس لنا مذهب إلا الإسلام، فمن ثم تجدنا نقبل الحق ممن جاء به، وان كان بغيضا ونرد الباطل على من جاء به وإن كان حبيبا، ونعرف الرجال بالحق، فالكبير معنا من وافقه والصغير من خالفه، ولم يشرع لنا ابن إباض مذهبا، وإنما نسبنا إليه لضرورة التمييز، حين ذهب كل فريق إلى طريق ،أما الدين فهو عندنا لم يتغير والحمد لله .

أما التصوير لذي الروح فإنه حرام، كان للمصور ظل أو لم يكن له، لحديث النمرقة عند الربيع ومالك والبخاري ومسلم، وفيه (إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ،يقال لهم: أحيوا ما خلقتم وكانت الصورة في النمرقة، ومن المعلوم أنه لا ظل لها، وفي حديث ابن مسعود عند أحمد: إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون، وهو عام يتناول ما كان له ظل وما لم يكن، ولا خلاف في منع ذلك، وإنما الخلاف في استعماله، إذا كان رقما في ثوب، أو استعمل للامتهان دون تصويره، ومحل المنع صورة ذي الروح فقط، والله أعلم من عبد الله بن حميد السالمي ،البالغ من العمر ثلاثا وأربعين، (٤٣) سنة تقريباً، الساكن القابل من شرقي عُمان سنة ١٣٢٦هـ[1].

(١) محمد السالمي،نهضة الأعيان ،ص١٢٣-١٢٥.

كذلك مما يدل على وجود علاقة بين الشيخ الباروني والإمام السالمي ما ذكره صاحب نهضة الأعيان من وجود مراسلات بينهما حيث قال (وجدت في قراطيس كتبها الباروني لسيدي الوالد نور الدين السالمي، منها أن آباءه الكرام منذ تسعمائة عام لم يخل الجبل الغربي منهم ،إما عالم أو قاض أو زاهد أو مرشد)[1].

كذلك قيام الباروني بطباعة حاشية الإمام السالمي على مسند الإمام الربيع بن حبيب[2].

ثانيا: علاقة الشيخ الباروني بالإمام سالم بن راشد الخروصي:

لم أظفر بمراسلات بين الشيخ الباروني والإمام سالم بن راشد الخروصي، تبين لنا هل كانت هناك علاقة بينهما أم لا، إلا ما كان من إرشاد الإمام أبي مسلم البهلاني للإمام سالم بن راشد للاستفادة من خبرة الشيخ الباروني السياسية في رسالته التي وجهها إليه حيث جاء فيها (ولا بد لكم من مكاتبة الشيخ سليمان بن عبد الله الباروني، فقد صار بعد حرب طرابلس الغرب وزيرا في مجلس الأعيان في استنابول، ومجلس الأعيان مجلس أبناء ملوك الأتراك، وفي مكاتبة هذا الرجل والتعرف إليه والى الدولة العثمانية بواسطته سياسة معتبرة النفع، عظيمة الفائدة)[3].

ثالثا: علاقة الشيخ الباروني بالإمام محمد بن عبد الله الخليلي :

ربطت بين الشيخ الباروني والإمام الخليلي، علاقة وثيقة جدا، فمن أول وصول الباروني إلى مسقط، أرسل إليه الإمام الخليلي رسالة يثني عليه فيها،

(٢) المرجع السابق، ص٤٤٨.
(٣) ابو الهمطان، ج١، ص٨٢.
(٤) كتاب أبي مسلم إلى الإمام سالم بن راشد، ص١٥، (مخطوط).

ويبين له مدى فرحة العُمانيين وسرورهم بمقدمه الميمون حيث جاء في الرسالة (من إمام المسلمين محمد بن عبد الله بن سعيد الخليلي إلى أخيه ذي الشرف الباذخ والمجد الشامخ، المجاهد في سبيل الله ،الحامي لدينه سليمان ابن عبد الله الباروني، أما بعد فانا نحمد الله إليك، لا زلت أخانا محافظا شرف حريتك، ساعيا في عز استقلال بلادك ألا وان أعلام مجدك منشورة ،وسيوف عدلك مشهورة، فلله درك حيث أنت، هكذا هكذا وإلا فلا لا، الداعي إلى تحرير الكتاب إليك، بعد إهداء السلام والتحية والإكرام، إعلامك بأن إخوانك أهل عُمان مسرورون بسلامتك وصحتك، مستبشرون بقدومك وطلعتك، وقد وجهنا إليك هذا الرسول طالبين منك الوصول على بركة الله زائرا إخوانك مشرفاً أوطانك[1].

فهذه الرسالة تدل دلالة واضحة على عمق العلاقة بين الشيخ الباروني والإمام الخليلي، ومقدار ما يكنه الإمام من الاحترام والتوقير للشيخ الباروني، والاعتراف بجهوده العظيمة في المحافظة على شرف الحرية والسعي في عزة بلاده من خلال استقلالها.

ومما يدل على عمق العلاقة بين الشيخ الباروني والإمام الخليلي، جعل الإمام الخليلي الشيخ الباروني سفيرا له وتفويضه له في حل مشكلة الحرب الحجازية والصلح بين سلطان نجد والملك علي بن الحسين، حيث أرسل الإمام الخليلي رسالة إلى الشيخ الباروني جاء فيها "من إمام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي إلى جناب المجاهد في سبيل الله الغيور في دين الله أخينا الشيخ سليمان الباروني باشا، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،حيث إن العالم الإسلامي في اضطراب واهتمام بقضية الخلافة والأماكن المقدسة، وقد تقرر على ما بلغنا عقد مؤتمر لأجل ذلك ، فإنا نكلف جنابك باسم الأمة العُمانية، أن تحضر هذا المؤتمر الذي سيعقد لهذا الغرض الديني السامي في مصر أو غيرها

(1) أبو اليقظان، ج١، ص٢٠٩-٢١٠.

من البلاد الإسلامية، وليكن رأيك في مسألة الخلافة مطابقا لقواعد الشرع الصحيحة وهي لا تخفى عليك.

أما مسألة الأماكن المقدسة، فليكن رأيك فيها مبنيا على حمايتها من عبث العابثين بها، ووقايتها من تسلط كل يد أجنبي عليها، مهما كانت مقاصدها وصبغتها، وقد استحسنا جدا تكليف جناب السلطان إياك بالتوجه إلى الحجاز، مندوباً من طرفه وحاملاً كتباً نصيحة منه إلى المتحاربين حول بيت الله الحرام، فنعم الرأي رأيتماه، فإن المسألة من أهم ما يجب أن يهتم به كل مسلم، وإننا لا نزال في شغل من ذلك، والمنتظر من جنابك موافاتنا بالأخبار الصحيحة بدون فاصلة والله تعالى نسأله أن يوفقك والمسلمين أجمعين إلى ما فيه خير دينهم ودنياهم"، آمين رمضان المعظم ١٣٤٣هـ[1].

وتبلغ العلاقة بين الباروني والإمام الخليلي قمتها، حيث يعين الإمام الخليلي الباروني رئيسا للوزارة العُمانية ،ويكلفه بتنظيم الدولة تنظيما عصريا، ويصدر أوامره في هذا الشأن .

من إمام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي إلى جماعة المسلمين، ليعلم الحاضر الغائب أني فوضت الأمر في تنظيم المملكة تنظيما صالحًا للشيخ الباروني، فبيده الملكية والعسكرية والمالية والسياسية والداخلية والخارجية، فمن يخالفه أو يقف في سبيل أعماله الإصلاحية، يعاقب ولا يلوم إلا نفسه"[2].

بل كان الإمام الخليلي يصطحبه معه في جولاته التفقدية في المناطق التابعة للإمامة، كما صرح الباروني نفسه بذلك حيث قال "رغم ضعف جسمي

(1) محمد السيفي ،النمير ،جـ٣،ص١٧٦-١٧٧.
(2) المرجع السابق، ج٢، صـ٤٥٢.

من المرض، لم يعذرني الإمام أعزه الله فأمرني بالتشرف بصحبته، إلى الجهة الغربية من عُمان لتفقد أحوالها فامتثلت"[1].

علاقة الباروني ببعض علماء عُمان ومفكريها :

هناك شخصيات عدة التقت بالباروني، أو سمعت عنه فاتصلت به، فجمعت بينها وبين الباروني علاقة متينة، وتبادل ثقافي، وسنحاول في هذا المبحث الحديث عن بعض تلك الشخصيات :

أولا:علاقة الباروني مع الشيخ العلامة ماجد بن خميس العبري:

ربطت بين هذين الشيخين علاقة وطيدة، فعندما زار الباروني بلدة الحمراء، كان الشيخ ماجد من أوائل مستقبليه، حيث يصف الباروني حفاوة الاستقبال بقوله: "وكان لدخولنا إلى الحمراء منظر مطرب، فقد تلبد دخان بنادقهم ومدافعهم في الجو كالسحاب، وكنا نمر بين مزارعها الخضراء، تحف بنا الرجال والخيل والمهر، وقد بلغ عدد البنات والخادمات التي يحملن جرار الماء المغطاة بأكواب الزجاج على رؤوسهن نحو المائة، يراهن الناظر كأسراب الظباء يمينا وشمالاً، ينادين هل من شارب، ويرى الأكواب والجرار تلمع كالنجوم عند مقابلة الشمس، فكان الموكب من أجمل ما شاهدته من المواكب، وعند مدخل البساتين لاقانا العلامة بقية السلف شيخ عُمان علما وسنا الشيخ ماجد بن خميس البالغ من العمر أربعا وتسعين أي قدر عمر قطب الأئمة الشيخ اطفيش رحمه الله"[2].

وكانت بينه وبين الشيخ العبري مطارحات علمية، استطاع فيها الباروني أن يقنع الشيخ العبري بوجهة نظره وصوابها، فقد وصل إليه الباروني مرتين

(1) رسالة من الباروني إلى هاشل المسكري ،(مخطوط) .
(2) أبو اليقظان، ج٢، ص١٥.

لمفاوضته في بعض مسائل تتعلق بتنظيم المملكة على الطراز العصري، وكان من قبل من المتمسكين جدا بعدم تغيير أي شيء وجد عليه الأوائل أو روي عنهم، ولكن بعد اجتماع الباروني باشا به، أصبح في مقدمة الداعين والمحرضين للإمام الخليلي على التنظيم الجديد، حتى أنه كان من المتمسكين بقول من لا يرى من علماء الاباضية إقامة الجمعة إلا في مركز الإمامة نزوى، وفي صحَّار من مدن عُمان التاريخية، التي هي من جملة الأمصار السبعة التي مصرها الخليفة عمر بن الخطاب، وأمر بإقامة الجمعة فيها، لكنه بعد أن اجتمع به الباروني، وحسن له تعميم إقامة الجمعة في جميع مراكز عُمان، أدرك المصلحة فقال: الآن وجب علينا أن نأخذ بالقول المرجوح في المذهب ونترك الراجح، فقوموا بنا لننتخب مكانا نبي فيه جامعا جديداً للحمراء، نقيم فيه جمعتنا عندما يصدر أمر إمامنا الخليلي بإقامتها[1].

وكانت بينه وبين الشيخ العبري مراسلات تتعلق بالأحداث الواقعة في العالم بأسره، ومن ذلك رسالة مؤرخة ٣ربيع الثاني ١٣٤٥هـ، أرسلها الباروني إلى الشيخ ماجد العبري والشيخ إبراهيم العبري، يطلعهما فيها على مجريات الأحداث، ويعبر لهما عن سروره بوصول رسالتهما إليه، حيث جاء فيها وقد شرقني كتابكم الكريم فضاعف أنسي[2].

بل كان الباروني معجبا جدا بالشيخ ماجد بن خميس العبري، حيث أطلق عليه في بعض رسائله لقب بركة المذهب وبقية السلف حيث جاء في رسالته "فأنت بركة المذهب وبقية السلف الصالح في هذا القطر و كان يعترف للشيخ العبري وجماعته بحسن الضيافة وكرم المعاملة فيقول :إني لا أنسى ما دمت حيا تلك الساعات الهنيئة التي مرت من عمري بل من تغربي ،وأنا مشمول بكرمكم

(1) السيفي،ج٤،ص٣٢١.
(2) رسالة مخطوطة لدى الباحث نسخة منها .

الحاتمي مأنوسا معزوزا في مجالسكم العلمية الحافلة بالحمراء الخضراء ،أدام الله لكم أجمعين كل خير وبارك في أعماركم لخدمة هذا الوطن وإعلاء شأن "الدين والوطن".

بل توج ارتياحه وإعجابه بالشيخ ماجد العبري بأن طلب منه الدعاء، "فأطلب منك أن تتوجه إلى البارئ عز وجل بقلبك في مظان الإجابة، وتدعو لي ببلوغ آمالي الخيرية، ودفع كيد الكائدين عني، وانتصاري على أعدائي أعداء الله وعباده المؤمنين، كما أنه قدم هدية إلى الشيخ العبري وهي عبارة عن بشت اعترافا بفضله، إني أقدم لك مع حامل هذا على وجه التبرك بشتا، أرجو التفضل بقبوله وتشريفه بارتدائك إياه، ولك الفضل ودم سالما مبارك العمر، لولدك الطالب لدعائك الصالح سليمان الباروني"[1].

ثانيا: علاقة الباروني بالشيخ إبراهيم بن سعيد العبري :

لعل العلاقة بين الباروني والشيخ إبراهيم العبري، نشأت في فترة مبكرة من قدوم الباروني إلى عُمان، حيث كان الشيخ العبري في نفس السفينة التي أقلت الباروني لعُمان، ثم استمرت العلاقة بينهما، فقد أرسل الباروني رسالة إلى الشيخ إبراهيم العبري جاء فيها (جناب العلامة الجليل الرئيس الأغر إبراهيم العبري وفقه الله ،السلام عليك ورحمة الله وبركاته، عدد ما بيننا من الوداد المتين، وعدد ما أتقن الصانع في تشييد قصر يبرين)[2]، فهذه العبارة من الباروني تدل دلالة واضحة على عمق الصلة بينهما، وجميل الصحبة وحسن العشرة بينهما.

بل يعبر الباروني عن عجزه عن وصف هذه العلاقة حيث يقول: وصلت تتوف صباح اليوم حاملا بين جوانحي من الافتتان بكم وبالإخوان الأفاضل رجال

(1) السيفي، ج٣ ،ص٣٠٠.
(2) المرجع السابق، ص٢٦.

الحمراء كافة، وخصوصا الرئيس علما وعملا الشيخ إبراهيم بن سعيد ما لا أقدر على وصفه على صفحات القرطاس .

وقد أطلق الباروني لقب الرئيس على الشيخ العبري، مما يدل دلالة واضحة على عظيم وثيق الصلة بينهما، وعندما توفي الشيخ ماجد العبري أرسل الشيخ إبراهيم العبري رسالة للباروني يخبره بوفاة الشيخ ماجد العبري[1].

ثالثا:علاقة الشيخ الباروني بالشيخ محمد بن عبد الله السالمي:

يمكن اعتبار علاقة الشيبة بالباشا سليمان الباروني ثقافية من منطلق ارتباطها بالجانب الثقافي الأدبي، فقدم قدم الباروني إلى عُمان مصلحا، ولم تكن علاقة الشيبة به سياسية فقط، وإنما شملت جوانب الحياة الأخرى .

وعندما قام الباروني بزيارة الشيخ عيسى بن صالح الحارثي، كان الشيبة ضمن مستقبليه في الظاهر بالشرقية، وكان الشيخ محمد أحضر هذه الخطبة والقصيدة الآتيتين (حمدا لمن شرف الإنسان بالعقل واللسان، والصلاة والسلام على سيد الخلق المبعوث من ولد عدنان، وعلى آله والتابعين بإحسان، أما بعد فالذي حداني إلى بسط ما سيأتي من الكلام بحضرة العلماء الفخام والرؤساء العظام، هو إشراق بدر التمام في هذا المقام، بعد أن كاده الدهر وعاقته الأسقام، وأعني به السيد المفضال تاج الكمال، حامل لواء الجهاد في الغرب، وصاحب القلم والسنان، الذي كنت أعرفه ولم أره حتى تشرفت برؤيته :

على السماع عشقناكم ولم نركم والأذن تعشق قبل العين أحيانا

(1) المرجع السابق، ص٣٠٠و٢٦٩.

فهنيئا لكم معشر العُمانيين طلوع شمس هذا المحيا، وبزوغ هذا البدر الذي ما زال بهيا، من حنكته التجارب وربته السيادة، وخفقت على رأسه رايات الشرف والسعادة، وشهد له التاريخ بتسلسل المفاخر، وإذ لم يخل جبل نفوسة في المغرب من آبائه الكرام منذ تسعمائة عام، منهم العالم الذي هو المرجع في مشكلات الأحكام، والأمير العادل بين الأيام، والقائم في عصره مقام الإمام، والمشهود بالجود والإقدام، وكما شهدت بذلك الكتب التاريخية ودلت عليه آثارهم المرضية.

أوصافنا لـــم تـــزده معرفة وإنمـــا لـــذة ذكـــرناها

أبقاه الله للإسلام ممتطيا غارب الجد والحزم، راكبا جواد الصبر والعزم، وقائدا لجيوش الأحرار، منظما لجند الوطنية الكرار.

فسائل بنـــي الشرك عن حاله بيـــوم وغـــي عـابس مظلم
إذا هزب الـقرن مـن مثله ونـــادى منادى الوغى بالكمي
وكان كـــلام سليق اللسان كغلـــغلة الأخـــرس الأبـــكم
ولم يشـــف ســـوى قولها سليمان باشـــا ألا فاهجم
ستخبرك ايطـاليا في الوغى بأن الهـمام علـــى الشيظم
يجيد الطعـان ويروى السنان ويجـري العنان إلـــى المـجرم

هذا واني أهنيء نفسي وبلادي عُمان كافة بهذا الشرف، الذي نالته والفخر الذي حازته .

ولقد توطدت علاقة الشيبة بالزعيم الباروني إبان إقامته في نزوى بصحبة الإمام الخليلي، وكان الشيبة وقتها ملازما للإمام، ولربما ساعد في بعض المهام الإدارية التنظيمية التي كان الباروني يضطلع بها .

وتواصلت إثر ذلك علاقة الشيبة بالباروني، فوجد فيه الشخصية العربية الإسلامية الغيورة على تاريخ أمتها وحضارتها، الحالمة بالتنوير في أدق تفاصيله، لذا راهن عليه وبادله المراسلات ، ومن تلك المراسلات هاتان الرسالتان الأولى مرسلة من مسقط بتاريخ ٢٥شعبان ١٣٤٣هـ ونصها ما يلي: "أما بعد، فالسلام عليك وعلى جماعتك كافة، فإني أحمد الله وقد وصلت مسقط على أحسن حال، وسكنت في منزل لجلالة السلطان داخل بستان فيه أشجار وأزهار وخضرة وماء وصحتي في غاية ما يكون والحمد لله، والإخوان يترددون علي صباحا ومساء حتى السلطان نفسه، وقد شرفني كتابك الكريم، وحرك ما بي من الوجد والشوق إليك، وإلى تلك الديار الآنسة العامرة أغاثها الله غيثا مدرارا آمين، أرجو أنك قضيت مصالحك في سفرك، هذا كله كما أرجو أنك عدلت عن حرمان هذه الديار بسفرك إلى زنجبار، وقد تذاكرنا مع جناب الأمير الشيخ عيسى، وبينا ألا يقبل خروجك من البلاد .....الخ فعرفني بالنتيجة لأكون على بال الدليل والبرهان عند الأخ محمد بن الأمير، أما الكتاب الثاني فهو عندي وسيأتيك إن شاء الله، سلامي إلى إخوانك الأفاضل، وإلى الأخ الأديب حمد إذا كتبت إليه في القابل، وها هو ذا كتاب إلى المحترم الشيخ منصور جوابا عن كتابه المرجو إرساله إليه والسلام".

أما الرسالة الثانية فتاريخها ٢ربيع الأنور ١٣٤٤هـ، و فيها يتواصل الباروني مع الشيبة ويعلمه عن عزمه لزيارة الجبل الأخضر يقول: "وصلنا اليوم ازكي والبركة وفرق، واليوم صباحاً وصلنا عاصمة الإمامة نزوى، وقدم أهلها لاستقبالنا كبيرا وصغيراً، وكان لدخولنا إليها منظر يسر الناظرين، ولاقانا حضرة الإمام أيده الله بما هو أهله من إعزاز وإكرام، وفي نبتي الخروج منها إلى الجبل بعد صلاة الجمعة، إذا حصلت الرخصة من الإمام إن شاء الله".

إن هاتين الرسالتين تفصحان عن علاقة ود وتقدير، ترجمها الشيبة حين كتب عنه مبحث في كتابه النهضة ، حيث تناول ترجمته وسيرة أهله ،وما تربطه من علاقات عقدية بوالده نور الدين كما تناول فيه أيضا تفاصيل زيارته لعُمان وما صاحبها من أحداث، مقدرا في الباروني قيمة علمية وميزة حضارية ومستظهرا دوره السياسي وحضوره الفكري[1].

رابعاً: علاقة الشيخ الباروني بالشيخ محمد بن سالم الرواحي

كانت هناك علاقة تربط بين الشيخ الباروني والشيخ محمد بن سالم الرواحي، وتظهر معالم تلك العلاقة، من خلال الرسالة التي أرسلها الشيخ الباروني إلى الشيخ الرواحي إذ جاء فيها "إلى حضرة سليل الفضل، نخبة النجباء ،كريم الشيم المحب على السماع، الشيخ محمد بن سالم الرواحي دام موفقا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد: فقد تلقيت كتابك الكريم بيد الإجلال، وتلوته مسرورا بما انطوى عليه من دلائل أريحية، وهمة عالية ،ونفس زكية، فلله أنت بارك الله فيك، وجعلك من أركان هذه النحلة الطاهرة، ومن رجال هذا العصر لإحياء وطنك العزيز، وتأييد دولتك الراسخة الأقدام من قبل أن يوجد كل الدول الإسلامية الحاضرة الى الآن، هذا وإني على نية السفر إلى مسقط وعُمان لترويح النفس، والله الميسر، وسأكتب إليك إن شاء الله، وقد وصلني تأليف حضرة الشيخ سيف الجليل الذي تفضلت بإرساله، فلك الشكر، وقد أمعنت فيه النظر، ولا بدع فان الدر من معدنه لا يستغرب، بارك الله فيع مره، وأعانه على إحياء آثار السلف الصالح بالدرس والتأليف، أرجو تقديم تحيتي إليه والى والد الجميع الهمام والآل والأصحاب كافة، ومن هنا الشيخان أحمد الكندي وراشد البرواني والتلاميذ النجباء وإبراهيم يقدمون لكم تحيتهم، وقد نجح التلاميذ في

(1) محسن الكندي،الشيبة أبو بشير محمد بن عبد الله السالمي رحلة حياة ومسيرة واقع ،ج١ ص٢٨٦-٢٩٣.

امتحانهم، وفقهم الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، من المخلص سليمان الباروني ٤جمادى الأولى ١٣٥٧هـ،بغداد الأعظمية"[1].

فهذه الرسالة تبين عمق العلاقة بين الشيخين، وتثبت مدى التواصل بينهما والتعاون المثمر البناء في سبيل تحقيق الرفعة والعزة للدين والوطن، ويظهر هذا جليا من صدر الرسالة، إذ يقول الباروني فيها: إلى حضرة سليل الفضل نخبة النجباء كريم الشيم المحب على السماع الشيخ محمد بن سالم الرواحي دام موفقا.

وتبين مدى إعجاب الباروني بشخصية الشيخ الرواحي، وحرص الشيخ الرواحي على التبادل الثقافي بينه وبين الباروني ،وذلك من خلال إرسال كل ما صدر حديثا من الكتب .

خامسا: علاقة الباروني بالشيخ سليمان بن ناصر اللمكي

الظاهر أن العلاقة بين الباروني والشيخ اللمكي ،كانت علاقة هدفها الأول إجراء إصلاحات بعُمان ،من حيث إنشاء المدارس والمستشفيات، وجمع الأموال لهذه الأشياء، فالشيخ اللمكي قام بإرسال أموال كثيرة للباروني لإتمام بناء المدرسة ،والسعي لبناء مستشفى، ويظهر ذلك جليا من خلال المراسلات التي دارت بينهما.

ففي السابع من محرم ١٣٤٨هـ أرسل الباروني رسالة إلى الشيخ اللمكي، يخبره فيها عن تحسن أحواله الصحية، وعن امتنانه وشكره للشيخ اللمكي، لإرساله القسط الثاني لبناء المدرسة في سمائل، ويطلع الباروني الشيخ اللمكي، عن معارضة بعض الناس لأمر بناء المدرسة، حيث جاء في الرسالة (أما ما ذكرته من أقوال بعض من لا خلاق لهم واعتراضاتهم على أمر البناء، فأمر

(1) رسالة مخطوطة ،مكتبة الشيخ حمد بن سيف بن عبد العزيز الرواحي .

يطول شرحه لكن العمل مستمر، والحمد لله و لا عبرة بالأقوال، ودمتم في رعاية الله محفوظين)[1].

فالعلاقة بينهما كانت علاقة قوية ووثيقة، فالشيخ اللمكي كانت له اليد الطولى في تمويل بناء المدرسة في سمائل، وكان الشيخ الباروني يثمن له جهوده وما يبذله لإظهار المدرسة إلى حيز الوجود .

سادسا: علاقة الباروني بالشيخ هاشل بن راشد المسكري

تشير بعض المراسلات التي جرت بين الباروني والشيخ هاشل بن راشد المسكري إلى وجود علاقة حميمة تربط بينهما، فقد أرسل الشيخ هاشل رسالة إلى الباروني في ١٢رجب ١٣٤٧هـ، يطلعه فيها على عزمهم على إصدار جريدة الفلق، ويطلب منه المشاركة في الكتابة في هذه الجريدة ،وقد رد الباروني على الشيخ المسكري برسالة مؤرخة في ٤رمضان ١٣٤٧هـ،يعبر فيها عن سروره البالغ لإصدار هذه الجريدة، إذ جاء في هذه الرسالة (ويعلم الله كم كان سروري وابتهاجي بما بشرتموني به من عزم السادة إخواننا نجباء العرب في مملكتهم الزنجبار على إصدار جريدة تكون لسانهم وعنوان همتهم في تلك الديار التي طالما أعلوا شأنها، وكانت مظهر لقوتهم وصولتهم البرية والبحرية في زمان غير قصير، حفظ التاريخ الصادق ذكرها، فكانت كالجوهر المكنون في جيد الدهر، فلا بدع إذا قام الآن أبناؤهم لإحياء ذلك المجد العظيم (ومن شابه أباه فما ظلم) (والدر من معدنه لا يستغرب).

أما عن المشاركة فيها فقد جاء رد الباروني بقوله (وإني أتشرف وأعد نفسي سعيدا، إذا ساعدني القدر على تقديم ما يراه عشاق الأدب والسياسة مناسبا

---

[1] رسالة مخطوطة ،مكتبة الشيخ محمد بن علي اللمكي.

،لأن يدرج في جريدتكم الغراء، كما أملتم لمجرد حسن ظنكم بي، وفقكم الله إلى القيام بأعبائها حتى تبلغ الدرجة المطلوبة فيها، وبارك في عمركم وعمرها.

وفي ١٦محرم ١٣٤٥هـ أرسل الباروني رسالة إلى هيئة الجمعية العربية الجليلة في زنجبار بواسطة الشيخ هاشل المسكري، وذلك بعد اطلاع الباروني على خلاف بين أعضاء الجمعية العربية ، حيث يرى البعض لزوم توجه وفد من الجمعية إلى سعادة الرزدنت الممثل البريطاني في أيام الأعياد والمواسم الإسلامية للتهنئة، والبعض الآخر يرى منع ذلك.

وقد قدم الباروني حلا وسطا لهذا الخلاف، حيث قال والمسألة بسيطة جدا، وبما أن الجمعية ليست لها صبغة رسمية فليس لها أن تؤمل من سعادة الرزدنت أن يزورها للتهنئة بأعيادها، ولا عليها أن تذهب إلى سعادة الرزدنت في داره، وتقول له: قد جئناك لتبارك لنا في عيدنا الإسلامي، فإن هذا ليس في الشرع ولا في العقل ولا في السياسة في شيء، على أن للمملكة ملكا تتجلى في شخصه الملوكي .....،[1] فتهنئة سعادة الرزدنت لعظمته في الأعياد الإسلامية، وتهنئة عظمته لسعادة الرزدنت في الأعياد المسيحية كاف واف بالمطلوب، بل لو لم يكن في البلاد ملك مسلم، لاقتضت السياسة أن يأتي سعادة الرزدنت بنفسه إلى محل الجمعية، إذا لم توجد بلدية إسلامية، ليهنئ الأمة كما هو جار في طرابلس.

وفي ١٢شوال ١٣٥٠هـ أرسل الباروني رسالة إلى الشيخ المسكري، وفي هذه الرسالة يقدم الباروني شكره للمسكري على تواصله معه، ويطلب منه الاستمرار في ذلك حيث يقول في رسالته "ولك الشكر الجزيل على المواصلة، أرجو أن لا تقطعها مع الإمكان" وفي هذه الرسالة يطلع الباروني الشيخ المسكري

---

[1] كلام غير واضح في الأصل .

عن أحواله وأخبار أسرته حيث جاء في الرسالة "إني في خير وصحة ولله الحمد، وأما العائلة فبعد وفاة واحد منها واعتلال الباقين بحمى الملاريا ومعاناة خمسة أشهر في التداوي بمسقط، تقرر بإشارة الدكاترة لزوم سفرها كلها، فسافرت يوم الثلاثاء الماضي إلى بغداد، نسأل الله لها السلامة والشفاء، وإني استعد للرجوع إلى سمائل بإذن الله".

وقد أرسل الشيخ المسكري رسالة إلى الباروني يعرب فيها عن سعادته لتقديم الباروني حلا للخلاف الواقع بين أفراد الجمعية العُمانية، حيث جاء فيها "بعد أداء واجبات التحية والإكرام، أبدى لسعادتكم بأنني سررت جدا لمكتوبكم الذي بعثتموه إلى هيئة الجمعية العربية، عندما بلغكم خبر اختلاف أعضائها، وبه أرجو أن تزول خيالات وأوهام من أذهان بعض منا، الذين لا يرون الجواز في شرع السياسة، أن نخاطب سعادة الرزدنت المعتمد البريطاني بزنجبار، أن يسمحنا عن المسير إليه في يوم عيدنا للتهنئة".

وقد أوضح الشيخ المسكري في هذه الرسالة للباروني تحول مسؤولية الجريدة إلى شخص آخر غيره، وأسباب هذا التحول "أما الجريدة فقد تحولت مسئوليتها من وقت إلى آخر إلى أحد زملائي، خوفاً من حدوث عراقيل تصيبها لكوني كاتب سر الجمعية ،فبدلت اسمي باسم صاحبي، وهنا زال محذور شيبنا وأغنيائنا -لطف الله بهم -لئلا تقول الحكومة محرر الجريدة سكرتير الجمعية".

كما قدم المسكري في هذه الرسالة مقترحا بإنشاء مجلس للشورى بعُمان "هنا اغتنم إبداء ما نؤمله من سعادتكم، بأن تؤسسوا مجلسا للشورى لحكومة الإمام أبقاه الله، يتألف أعضاؤه من الأمراء ذوي النفوذ كعيسى بن صالح وسليمان بن حمير، ورئيس بني هنأة وبني جابر وهمدان وأمثالهم، ممن فيهم

اللياقة للرأي، ينعقد هذا المجلس في السنة مرتين، ثم يقدم تقريراته لحضرة الإمام للتنفيذ[١].

علاقة الباروني بسلاطين مسقط :

لقد عاصر الباروني خلال فترة حياته ثلاثة سلاطين من سلاطين مسقط، السلطان فيصل بن تركي الذي تولى مقاليد (١٣٠٦هـ/١٨٨٨م) – (١٣٣١هـ/١٩١٣م) وكانت مدة حكمه ٢٥سنة، ثم السلطان تيمور بن فيصل الذي حكم من (١٣٣١هـ/١٩١٣م)-(١٣٥٠/١٩٣٢م)، وكانت مدة حكمه ١٩سنة، ثم السلطان سعيد بن تيمور الذي حكم من (١٣٥٠هـ/١٩٣٢)-(١٣٨٨هـ/١٩٧٠م) وكانت مدة حكمه ٣٨عاماً، وإذا كان الباروني ولد في سنة ١٨٧٣م وتوفي في١٩٤٠م، فيكون الباروني على هذا الأساس، قد عاصر فترة حكم السلطان فيصل بن تركي وابنه تيمور، وثمان سنوات من فترة حكم السلطان سعيد بن تيمور، وسنحاول في هذا المبحث أن نلقي الضوء على علاقة الباروني مع سلاطين مسقط الذين عاصرهم.

أولا :علاقة الباروني بالسلطان فيصل بن تركي

يذكر صاحب نهضة الأعيان "أنه كانت بين السلطان فيصل وقطب الأئمة محمد بن يوسف اطفيش رحمه الله مراسلات وكتب إليه نصائح دينية ودنيوية"[٢].

ولا يستبعد أن يكون الباروني قد اطلع على هذه المراسلات، وتعرف على شخص السلطان فيصل بن تركي من خلال مراسلته لقطب الأئمة، إذ من المعلوم أن فترة حكم السلطان فيصل، كانت من عام (١٨٨٨-١٩١٣م)، وكان التحاق الباروني بمعهد القطب (١٣١٣هـ/١٨٩٥م)، فربما كانت هذه هي النواة

(١) رسائل مخطوطة بين الباروني والمسكري ،مكتبة الشيخ عبد الله بن هاشل المسكري.
(٢) السالمي ،ص٢٤٠.

الأولى لبداية علاقة السلطان فيصل مع الباروني، وعندما أصبح الشيخ الباروني عضوا في مجلس المبعوثان التركي ١٩١٢م وصلته برقية تهنئة من السلطان فيصل بن تركي، حيث صرح بذلك الباروني بنفسه (ولما أعلن الدستور العثماني وافتتح مجلس المبعوثان (النواب) جاءتني برقية تهنئة من السلطان المذكور "وكانت لهذه البرقية صداها في أوساط الدولة العثمانية إذ اطلع عليها أنور باشا وقال للباروني: إننا نرغب في تحسين علاقاتنا مع هذا السلطان، فنعترف بالإمامة العُمانية، ونعين سفيرا ونقبل منه سفيرا ،تقوية منه على محافظة مملكته من تسلط الأجانب، لنطمئن من تلك الجهة على جزيرة العرب، وكادت المخابرة تجري في هذا الشأن ،لكن حدوث الحرب الطرابلسية حال دون ذلك"[١].

وعندما بذلت مساع لدى السلطان تيمور، لمنع الباروني من دخول عُمان رد عليهم قائلاً: "إنه لا يمكن منعه من دخول بلاده لوجود صداقة بينه وبين والده السلطان فيصل بن تركي"[٢].

فالظاهر أن هناك علاقة صداقة قوية جمعت بين السلطان فيصل بن تركي والشيخ الباروني، ومما يدل على هذا الأمر دلالة واضحة، تلك الرسالة التي أرسلها الباروني إلى السلطان فيصل، يطلعه فيها على بعض الأمور، ويوجه إليه فيها نصائح غالية ثمينة، تدل على مدى الترابط القوي بينهما، فقد اشتملت هذه الرسالة على عدة نقاط :

١. حرص الباروني على دفع عجلة التنمية في عُمان بقيادة السلطان فيصل بن تركي، فقد ذكر الباروني سبب إرساله هذه الرسالة بقوله: "حملني عليه حب ترقي دولتكم وظهورها حتى تسلم بإذن الله من جملة المكائد".

(١) محاضرة الباروني عن القطر العُماني ببغداد،مخطوط بمكتبة الشيخ حمد بن سيف الرواحي.
(٢) أبو القاسم الباروني، ص٣٨ .

٢. طلب الباروني من السلطان فيصل كتمان علاقته مع الدولة العثمانية، حتى لا يتخذ هذا الأمر ذريعة للتدخل الأجنبي في شؤون السلطنة حيث جاء في الرسالة "أن لا تظهروا الميل إلينا لأحد من الأجانب، لئلا يغتنموا فرصة اشتغالنا وعدم استعدادكم لدفع قوتهم فيحملونكم ما لا تطيقونه ،أو يحدثون مشكلات تسهل لهم المداخلة في شئونكم".

٣. اطلع الباروني السلطان فيصل على اهتمام الدولة العثمانية بسلطنة عُمان ومساعيها الجادة لحفظ استقلال عُمان، وبين له أهمية استقلال عُمان للدولة العثمانية "وقد اجتمعت اليوم ببعض الوزراء الذين يهمهم أمر دولتكم، وتذاكرنا في وسائل حفظ استقلالكم والاحتياط لذلك .....، وأن استقلال دولتكم أشغل شاغل لرجال هذه الدولة، لأن في استقلالكم منعا للأعداء من الوصول إلى دواخل بلاد العرب والى القرب من الحرمين".

٤. وبين الباروني للسلطان فيصل نية الدولة العثمانية في تطوير علاقاتها مع عُمان، وذلك عن طريق تبادل السفراء بين البلدين "عما قريب تصير المذاكرة على إرسال سفير إليكم، وطلب سفير منكم ،اعترافا باستقلالكم وتأييداً له"..

٥. وقد حذر الباروني السلطان فيصل من إعطاء امتيازات في دولته لأي دولة أجنبية، لخطورة هذا الأمر وضرره "الحذر كل الحذر في التساهل في إعطاء أي امتياز في معدن أو غيره أو الترخيص لأحد من الأجانب في السياحة داخل المملكة، حيث لا يؤمن من تعدي رعيتكم بالقتل أو النهب اللذين هما وسيلة كل احتلال في البلاد الإسلامية، فإن لهم فدائيين مخصوصين يرمون أنفسهم في التهلكة لإيجاد سبب لتدخل دولتهم".

٦. أشار الباروني على السلطان فيصل، بالاهتمام بقضية وحدة الصف وضرورة كون الشعب العُماني لحمة واحدة "يلزمكم إرسال رجال مرشدين إلى جميع جهات المملكة، لينصحوا الرعية ويحذرونهم سوء عاقبة الانقسام والفتن ومخالفة أوامر دولتكم، ويشرحوا لهم أحوال الدول وقوتها ومطامعها، وما يجري من هتك حرمات الإسلام في مستعمراتهم وغير ذلك مما يقربهم إلى الطاعة".

٧. واطلع الباروني السلطان فيصل على تأسيس الدولة العثمانية مكتبة، وطلب منه أن يقدم باسمه هدية للمكتبة ،عدة نسخ من شرح المسند ووفاء الضمانة والأزهار الرياضية والسيف النقاد، وأن يرسل إليه ما طبع من كتب "أسست الدولة مكتبة في مجلس المبعوثان ،اجتمع فيها الآن نحو ٣٠٠٠آلاف مجلد، ولا زالت هدايا الكتب تأتيها من كل جهة، فأرجو من مولانا الملك أن يكلفني بجواب منه بأن أقدم للمكتبة باسمه هدية، عدة نسخ من شرح المسند ووفاء الضمانة والأزهار والسيف النقاد، وأن يرسل إلي مما طبع في تلك الجهات، نسخاً من أبي إسحاق والشيخ درويش وغيرهما، لتكون تذكارا لكم ولدولتكم وللمذهب في هذه المكتبة التي ستجمع من الكتب ما لم يجمع في غيرها".

ثانيا: علاقة الباروني مع السلطان تيمور بن فيصل

لعل العلاقة بين الباروني والسلطان تيمور بن فيصل، كانت امتدادا لعلاقة الباروني مع السلطان فيصل، إذ كان السلطان تيمور مطلعا على وجود صداقة تربط والده مع الباروني، ثم توسعت هذه العلاقة بينهما، فكم كانت سعادة السلطان تيمور بالغة عندما بلغه نبأ سفر الباروني من مكة إلى عُمان وهو في الهند، فأمر بواسطة البرق هيئة وزارته بمسقط أن تستقبل صديقه القديم الباروني

باشا باحترام، وأن تقبله ضيفا عنده[1]، وفعلا أقيمت له مراسم الاستقبال واحتفي به احتفاء الملوك.

وكانت تجمع الباروني مع السلطان جلسات سمر، ففي سنة ١٣٤٤هـ وهو في مسقط، يحضر مجالس السيد تيمور بن فيصل وأهل بيته وأحبابه من الأدباء والعلماء، طلب منه تشطير وتخميس بعض الأبيات، فأجاب الطلب كتابة طبعاً، وترك من كل ذلك نسخة بخطه، وحيث انه كان في راحة جسمية، استطاع أن يتبع عادته في كتابة الشهر والساعة، وهذه هي الأبيات :

حضرة الباشا المحترم بعد أوفر السلام: هذان البيتان يطلب من حضرتك جلالة السلطان تخميسها:

مثل الجاهل في إعجابه مثل الواقف في رأس الجبل
ينظر الناس صغارا وهو في أعين الناس صغير لم يزل

نرجوها بوجه السرعة، المسامحة مخلصكم المحب علي بن سالم، ٧ شوال ١٣٤٤هـ، الساعة ١٢مساء.

مثل الجاهل في إعجابه بعيوب فيه سارت كالمثل
ظنها أسمى صفات فغوى مثل الواقف في رأس الجبل
ينظر الناس صغارا وهو في عقله أصغر من عقل جمل
لو غدا الجاهل فيلا فهو في نظر الناس صغير لم يزل

لم يتمه بل وضع التاريخ، وفي ورقة أخرى وعلى ظهر الرسالة القصيرة المتضمنة للطلب يقول: سمو السيد علي بن سالم، في هذه الساعة وصل جوابك

---

(١) الطيواني، ص٣٤.

في عدم الاكتفاء بالتشطير، الذي أرسله إليك البارحة، وطلبت التخميس فها هو على سبيل الاستعجال واشتغال البال:

إن ترد عيشـــا هـــنيئا ما به كـــدر يســـفر عـــن أنيابه
فدع الـجاهل فـــي ألـــعابـه مثـــل الجاهل فـــي إعجابه
مثـــل الواقف في رأس جبل
يعتلي جـــهلا عـلى كل وفي وتـــرى أن الـــعلا في التلف
يعـرف الحق ولكـــن لا يفي ينظر الناس صغاراً وهو في
نظر الـــناس صغير لم يزل

وكان السلطان تيمور بن فيصل يعامله كما قال للمستعمرين عند اعتراضهم لدخول الباروني إلى عُمان وهو ما معناه :إنه صديق لي وفوق ذلك من أعز أصدقاء والدي، فلا سبيل إلى إغلاق الأبواب دونه، وأسكنه ألطف فيلا في ضواحي مدينة مسقط يحيط بها بستان كبير، وتعرش على شرفته الورود والرياحين الزكية[1]، وكان السلطان يقوم بزيارته في محل إقامته كما صرح بذلك الباروني في إحدى رسائله إلى بعض أصدقائه[2].

وقد بعث السلطان تيمور بن فيصل الشيخ الباروني ممثلا عنه للتدخل بالصلح بين سلطان نجد والملك علي بن الحسين، وزوده برسالة جاء فيها "حامل كتابنا هذا هو الوجيه المحبوب، لدى الدولتين المحترم الشيخ سليمان الباروني أحد علماء مذهبنا، ومن رجال الإسلام المعروفين لديكم شخصا وعملاً، متوجها إلى ساحة ملككم، مضحياً خدماته فيما فيه مصلحة الأمة الإسلامية ولديه إخلاص كامل، وقد أصحبناه كتابنا هذا لينوب عنا في عرض إحساسنا وتألمنا

(1) ديوان الباروني ،ج٢، ٢٣٣،٢٣٤،٢٣٦.
(2) محسن الكندي، ج١، ص ٢٩٢.

العظيم، مما لازلنا نسمعه من استمرار الحرب حول حرم الله المقدس من إخوان مسلمين، كلهم يدينون بتعظيم بيت الله الحرام وشعائره المقدسة، فلا حول ولا قوة إلا بالله"، بل كان السلطان واثقا من رجاحة آراء الباروني وسدادها، لأجل ذلك أبلغ الخصمين باعتماد ما يراه مباشرة دون الرجوع إليه "وحيث إن الحامل المذكور من الثقاة الأمناء عندنا ،فلا حاجة إلى التوصية على اعتماد ما يبديه لديكم من الفكر فيما فيه الصلاح، كما نلتمس من جلالتكم التنزل إلى تسهيل ما يعسر عليه في هذا السبيل ، فإنه وأمثاله الذين حاربهم الدهر"[1].

تبلغ هذه العلاقة مداها، إذ يقلد السلطان تيمور بن فيصل الشيخ الباروني النيشان السعيدي، أكبر وسام في الدولة السعيدية، وحضر التقليد العلماء والوزراء والأعيان، وكانت المناسبة جامعة للتكريم وموادعة السلطان تيمور، وقد عزم على الذهاب لولاية ظفار، وأمل الباروني في مغادرة عُمان إلى مصر بمساعي بعض رجالاتها .

وقد عبر الباروني عن امتنانه واعترافه بفضل السلطان تيمور وجميل كرمه، بقصيدة ألقاه في هذه المناسبة وهذا نصها :

تيمـور يـــا تـــاج الملوك ويـــا مـــتوج فـــخرها
قـــلدتـــني نعمـــا عجـــز ت عـــن الوفاء بشكـــرها[2]

(1) النمير ،ج٣،ص١٧٨.
(2) ديوان الباروني ،ج٢، ٢٣١-٢٣٢.

ثالثاً: علاقة البارونى مع السلطان سعيد بن تيمور

أما علاقة البارونى بالسلطان سعيد بن تيمور، فقد كانت علاقة ود متبادل، ويظهر ذلك جليا من تعامل السلطان سعيد، فعندما عانى البارونى الأمرين في أثناء القيام بجهوده الإصلاحية لتنظيم إمامة عُمان لتكون دولة عصرية، ورأى الأبواب مسدودة أمام ناظريه ،قرر التخلي عن جهوده والرجوع إلى سلطنة مسقط، فعندما رجع إلى السلطان سعيد أكرمه وعينه مستشاراً لحكومته، وكان يوكل إليه بعض الأعمال من ذلك، تشييد مسجد صحَّار التاريخي، وقد قال في هذه المناسبة قصيدة من أبياتها :

صمناك يا رمضان طوعا في صحَّار نحيى الليالي عاملين مدى النهار
نحيى مآثـــر غـــرب أعـلامها أيدي الدهور الدائرات على مدار
لا مثل ما صمناك في باريسهم كرها وفي أحشائنا المطعون نار
صمناك والآذان يطرب سمعنا بصحَّار ذات المجد إذ فيها المنار
لا نسمع الناقوس مثل سماعنا دقاته يدعو الى كفر جهار[1]

بل حتى في المرض الذي مات فيه البارونى ،كانت علاقته بالسلطان سعيد بن تيمور قوية، إذ كان عند اشتداد المرض به، يطلب زيارة الهند للعلاج، فوعده السلطان بقرب ذلك في زيارة رسمية معه، فغضب عندما تأخر السلطان في ولاية ظفار، ولكن السلطان كان لا يغضب منه في الحقيقة رغم حواشيه النفعيين، فتلطف معه حتى هدأ.

فسافر إلى الهند بصحبة السلطان في ١٩٤٠م، وعندما ودع أهله كان يقول: "إن عُمان طيبة بأحبابها والسيد سعيد راعيا للجميع"، فتوفي في فجر

(١) المرجع السابق، ص١٧٤.

٢٣ربيع الأول الموافق ١مايو ١٩٤٠م، ودفن هناك بحضور السلطان سعيد بن تيمور، وجعل على قبره لوحة كانت الدليل للعثور عليه أخيرا بعد (٣٢) عاماً لم يره فيها أحد من أهله ولا تعرف لمكانه[1].

تولية الإمام الخليلي البارونى لتنظيم عُمان :

كان البارونى باشا من يوم نزوله بمسقط في غرة محرم، لا هم له إلا النصيحة والدعوة إلى جمع الكلمة والاتحاد والنهوض لمجاراة الأمم الحية، فكان حديثه وهو راكب وسائر وجالس وعلى فراش المرض، الذي كان ينتابه كل مدة في أكثر بلاد عُمان.

جاهد سعادته في سبيل إيقاظ هذه الأمة إلى واجبها جهادا مستمرا بدون فتور ولا مبالاة ولا يأس، حولين كاملين (١٣٤٣-١٣٤٥هـ)، وقد كلف من طرف رجال الإمام بقبول منصب يليق به، فلم يقبل لعلمه بأن فكرته التي كان يبثها لم تنضج، ولو أنه قبل منصبا مهما كان في ذلك الوقت لما توفق بسهولة إلى إتمام مراده، و لحصلت عراقيل كثيرة في سبيل ما يقصده من الإصلاح.

كان من تأثير هذا الجهاد المستمر، أن عقد عظمة الإمام اجتماعا رهيبا، وضم أقطاب دولته وأهل الرأي فيهم، مثل العلامة الشيخ عيسى بن صالح أمير الشرقية، والشيخ سليمان بن حمير أمير الجبل الأخضر، وأكابر العلماء مثل شيخ مشايخ عُمان الشيخ ماجد بن خميس العبري قاضي المرحوم الإمام عزان بن قيس قبل ٦٠سنة، والعلامة الشيخ سعيد بن ناصر الكندي قاضي قضاة مسقط سابقا، العلامة الشيخ عامر بن خميس المالكي قاضي قضاة الإمام، جمع هؤلاء يستشيرهم في إسناد أمر تنظيم الدولة إلى البارونى باشا، فأجمعوا كلهم مع الإمام بعد تجربة سنتين للبارونى باشا على أنه أهل لأن يقلد أمر تنظيم المملكة

(١) زعيمة البارونية،ص٢١ . .

على الوجه العصري الموافق لروح الشريعة الغراء التي هي مصدر كل صلاح وعمران.

بعد تمام كل هذا، أخذت المخابرات بين عظمة الإمام والباروني باشا في دورها الحاسم، وهو بمسقط منذ شهر ذي الحجة ١٣٤٤هـ، وحينما سافر عظمة السلطان السيد تيمور إلى الهند، قدم الباروني باشا إلى سمائل، حيث يقيم الإمام مؤقتا فطالت بينهما المذاكرة والمداولة في الرأي مشافهة إلى آخر شهر المحرم ١٣٤٥هـ.

لما علم الباروني أن فكرته من توحيد الكلمة بين جلالة السلطان وعظمة الإمام قد حلت في جميع القلوب محل الإجلال والتقدير، وأنه بعد تجربة الإمام ورجاله سنتين ،قد تبين أن الرأي العام عندهم مجمع على وجوب تنظيم المملكة على الوجه العصري لروح الشريعة الغراء، لم يتوان سعادته في إجابة دعوة عظمة الإمام إياه وقبوله باضطلاع أمر المملكة، بما أوتي من عزم وحزم وصدق، وإخلاص وخبرة ودراية.

وبعد الاتفاق التام بين عظمة الإمام ورجاله وبين سعادة الباروني باشا على إسناد أمر تنظيم المملكة تنظيما عصريا موافقا لروح الشريعة الغراء، أصدر الإمام البلاغ التالي: بسم الله الرحمن الرحيم من إمام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي إلى جماعة المسلمين ، ليعلم الحاضر الغائب أني فوضت الأمر في تنظيم المملكة تنظيما صالحا للشيخ الباروني، فبيده الملكية والعسكرية والمالية والسياسة الداخلية والخارجية، فمن يخالفه أو يقف في سبيل أعماله الإصلاحية، يعاقب ولا يلوم إلا نفسه.

كان للانقلاب الجديد في عُمان أثره البليغ في مختلف الطبقات وأبرزها طائفتان :

الأولى: طائفة المحافظين، وفيهم رؤساء وعلماء، ولا سيما من كان بيده وقف من الأوقاف، يستغله لنفسه على حساب المصلحة العامة، فإن النظام الجديد أول ما يمس هذه الطبقة مباشرة، فلمجرد ما أخذ الباروني باشا في تنظيم المالية ، رفع هؤلاء عقيرتهم بالاستنكار بأساليب مختلفة، فمن قائل: إن هذا الأمر بدعة، وكل بدعة ضلالة، ومن قائل: إن هذا من عمل النصارى لا نقبله، ومن قائل: إن هذا لم نجد عليه آباءنا وأوائلنا وهم أدرى منا بالأصلح، فكيف نخالفهم إلى غير ذلك، مما كاد يحدث فتنة في البلاد، ولما بلغ ذلك كله مسامع الباروني باشا، حضر إلى مجلس الإمام وهو غاص بالناس من علماء ورؤساء وغيرهم، فجلس واستأذن في الكلام فأذن له فوضع أمامه ظرفا فيه أوراق، فاندفع مسترسلاً نحو ساعتين بصوت جهوري، يتكلم في كل موضوع من مواضيع الإصلاح التي قررها، مبيناً مضار الحالة الحاضرة ومصالح الإصلاح المقصود ،مستدلا في ذلك ببعض أعمال الخلفاء في عهد الصحابة رضوان الله عليهم ،وببعض الآيات الكريمة والأحاديث النبوية، والإمام يجول ببصره يميناً وشمالاً ناظراً إلى الذين هرعوا إليه من قبل وأتوه معترضين، وهم في غضب شديد، ينظر الإمام إليهم وهو يبتسم كلما سمع حجة دامغة من كلام الباروني باشا، ولما انتهى من الكلام، قال الإمام ما خلاصته: أما المضرة فقد شاهدناها ظاهرة، وأما المنفعة فها نحن نسمعها بآذاننا ونلمسها بأيدينا وديننا المبين، لا يسوغ لنا قطعا سلوك طريق المضرة وتجنب طريق المنفعة، بناء عليه أن هذا الأمر قد قضي باتفاق العلماء فلا أقبل بعد اليوم أي اعتراض.

الثانية: طائفة المستنيرين وأرباب المدارك الواسعة ورؤساء البلاد الراسخين في السياسة وأذكياء الشباب من الأدباء والشعراء وغالب عامة الشعب، فهؤلاء قد تلقوا ذلك الانقلاب العظيم ، بمظاهر البهجة والسرور، إذ تفتحت به أمامهم آفاق من الآمال الواسعة الكبيرة في حياة دولتهم وأمتهم على يد هذا الإمام الجليل

الساهر بحق على خير هذه البلاد بواسطة الباروني باشا، ذلك الرجل العظيم الذي أحسنت دول الحلفاء صنعا في تضييقها عليه حتى ساقه القدر إلى هذه البلاد رحمة ونصيراً.

نعم لقد تلقت هذه الطبقة العالية هذا الانقلاب بمظاهر البهجة والسرور، فأقامت الولائم وعقدت الاحتفالات وتبادلت التهاني وتبارت الخطباء على المنابر وتغنت الشعراء بأعذب الألحان، ومن ذلك القصيدة الرائعة التي أنشدها الشاعر النابغة أبو سلام سليمان بن سعيد الكندي ومما قاله فيها:

قم سليمان فـــي صلاح البلاد ... لا تبـــالي بقـــول أهـل الفساد
إنما أنت عـــالم كيف أصبحت ... أمـــم الـــغرب تـزدري العباد
وهي بالعـــجز أم جـــهل بنيها ... نالت الـمجد أم ســـمت بالرقاد
لا ولكنـــها تـــدك بـــالعلم ... كـل صرح بـــدا بغير عـــماد
فابذل النفـــس والـــنفيس وشمر ... واصرف الجهد من صميم الفؤاد
إن تعارضـــك فـــئة في نظام ... لا تلمـــها لجـــهلها بـــالمراد
هكذا كل من سعى فـي صلاح ... عاكســـته الأيـــام بالحساد
إنما الحق واضح كيف يخفى ... عن بصير فما لـهذا التمادي[1]

الإصلاح السياسي:

بعد أن تولى الباروني أمر تنظيم المملكة العُمانية، أخذ في وضع برنامجه الواسع للإصلاح في شتى المجالات ،ومن المجالات التي أولها الباروني اهتمامه البالغ، المجال السياسي فبدأ ببذل جهوده للإصلاح السياسي، وتجلى ذلك في عدة أمور :

(1) أبو اليقظان، ص ٢٨-٤٢.

كانت العلاقة بين السلطان تيمور بن فيصل والإمام الخليلي متوترة، وعندما وصل الباروني ووجد الجفاء مخيماً بينهما منذ ثورة أحرار عُمان على سلطنة مسقط في جمادى الثانية سنة ١٣٣١هـ، وأحوال بلاد عُمان الداخلية في تفكك وانحلال، والدسائس الأجنبية تدب عقاربها في أطراف جزيرة العرب، وهي تخبو نحو النواحي الشرقية من بلاد عُمان، أدرك سعادته كل هذا وأكثر من هذا، وليس من الهين على نفسه الكبيرة وهمته العالية، أن يقف إزاء هذه الأخطار المحدقة بالقطر العُماني العزيز وبجزيرة العرب المقدسة موقفَ المتفرج، وهو الرجل العظيم العمومي، الذي جعل حياته الغالية وقفا للإسلام والمسلمين، سيما قد زادته سياحته في دواخل عُمان اطلاعاً واكتناهاً لخبايا بعض الأمور هناك.

ورغماً من مبادرة المرض له قبل أن يبادر لوضع خطة العمل، أخذ يفكر في وضع خطته، أثر رجوعه إلى مسقط من سياحته التي دامت من ربيع الأول إلى رجب ١٣٤٣هـ، وآثر أن يعمل للإمام والسلطان معا حيث جاء في بعض رسائله "كلفت مرارا من بعض أهل الحل والعقد بقبول منصب عال مع الإمام، فاعتذرت خوفا من أن ينسب إلي التحيز، وأنا يهمني أن أبقى للطرفين (السلطان والإمام) حتى أتمكن من صلح بينهما يسعد البلاد إن شاء الله.

فقام بأعمال تمهيدية لإزالة الجفاء بين السلطان والإمام، وتقريب المسافات بين الفريقين بما ظهر أثره المحمود من توحيد قواهما لمواجهة الأخطار وجمع كلمتهما ضد الأجنبي وتوجيه أنظارهما لحماية عُمان من كل اعتداء على من أي كان"[1].

وحذر من مغبة الخلاف والاختلاف بين السلطان والإمام، وخطورة هذا الأمر على عُمان وشعبها، حيث أرسل رسالة يتأسف فيها على تقهقر جيش

(1) المرجع السابق،١/٢٤٩-٢٥٠، ٢/١٤.

الإمام محمد بن عبد الله وجنوده عن الظاهرة، ويحذر من مغبة ذلك "إن موقفكم الآن في خطر، وسامحوني إذا قلت إن العُمانيين كافة من رؤسائهم إلى علمائهم إلى إمامهم، ليسوا أهلاً لتأسيس ملك وتدبير حكومة ولو نصبوا ألف إمام، وان هذه السيرة التي أنتم عليها سيرة الموت، مآلها إلى استعباد العدو للبلاد بكل سهولة ومحو معالم هذا المذهب لا قدر الله ذلك، فانه على ما سبرناه من أحوالكم، لا تقفون إمام عدو يقصدكم ولو حقيراً، وقضية الظاهرة التي سلمت لكم عتاتها مفاتيح حصونها بسلام، وأصبحتم فارين منها كأنما تلي عليكم (سيهزم الجمع)كافية في الاستدلال على عجزكم على إدارة الحكم، فالذي أكرره لكم من قبيل النصيحة في الدين ،اتفاقكم مع السلطان على أن يبقى بيدكم ما هو بيدكم الآن ، وبتولى هو إدارة البلاد والدفاع عنها إذا قصدها أحد، عليه المال والسلاح وعليكم الرجال ،وتكون الوزارة منتخبة من طرف الإمام وجماعته ،لتكون الدولة بيدكم فتستريحون أنتم والسلطان ،وتسلم البلاد وإلا فرحمة الله على بلدكم ومذهبكم، جماعة بني بو علي الآن في الهند ،يطلبون سلطنة مركزها صور ومنتاها نزوى أو الرمل، والتضييق جار لينفصلوا أيضا ،فتأملوا في موقفكم هذا، إذا لم تتفقوا مع السلطان فلا تبقى سلطنة ولا إمامة والوزر عليكم بدون شك"[1].

سفارته باسم جلالة السلطان وعظمة الإمام لدى الملك ابن سعود وسمو الملك علي بن الحسين في الحجاز، فوفد إليهما وهو يحمل منهما وثائق في اعتماده سفيراً لهما لدى الملكين المسلمين رجاء إيقاف الحرب بينهما حقنا لدماء المسلمين وإنزال الوئام في جزيرة العرب محل الخصام[2].

كان يريد أن يوحد بين السلطنة والإمامة ،بحيث تكون المملكتان تحت نظام واحد، يشبه النظام الفدرالي باعتبارهم أبناء مذهب واحد ووطن واحد[3]،حيث

(١) النمير ،٣/٢٨٨-٢٨٩.
(٢) أبو اليقظان، ١/٢٥٠.
(٣) المعولي،البارونى وآراوه السياسية ،ص.

قدم مقترحا في ذلك نصه "فالذي أكرره لكم من قبيل النصيحة في الدين، اتفاقكم مع السلطان على أن يبقى بيدكم ما هو بيدكم الآن، ويتولى هو إدارة البلاد والدفاع عنها إذا قصدها أحد، عليه المال والسلاح وعلبكم الرجال ،وتكون الوزارة منتخبة من طرف الإمام وجماعته ،لتكون الدولة بيدكم ،فتستريحون أنتم والسلطان وتسلم البلاد وإلا فرحمة الله على بلدكم ومذهبكم"[1].

وقد أشار لذلك في قصيدته التي ألقاها في جامع نزوى في ربيع الأول ١٣٤٤هـ، حيث يقول فيها:

ولشبل فيصل ول طرفك عاقدا معه الخناصر فالشقاق شقاء
دع ما مضى واعمل لعصر مقبل فلآل فيصل نية حسناء[2]

وقد استطاع أن يزيل الوحشة بين السلطان والإمام بهذه الجهود المخلصة، كما صرح بذلك في مقالته في مجلة المنهاج ،حين ذكر أن معاهدة ثلاثية مدبرة لغزو عُمان ،فلم يستغرب ذلك، وقد كان لهذا النبأ تأثير سيء في صدور المسلمين أينما كانوا، فقال في مقالته :أما مملكة عُمان فلا خوف عليها بإذن الله من المعاهدة إن صحت ،ولو قصد أحد عُمان قبل هذا لحصل بعض تأثير، إذ كانت قبائلها تتقاتل والرؤساء طامحون إلى العصيان، وكل من بيده حصن يرى أنه سلطان القطر.

أما الآن فقد توحدت كلمة البلاد وانقطعت الفتن وأدرك الجميع مضرة الانقسام ،وأحسوا بما يحيط بهم من الخطر براً وبحراً، وأعلن القابضون على الحصون أنهم مستعدون لتسليمها لمن يتصدى للدفاع ،وسيسمع العالم إذ ذاك

(١) النمير ،٣/٢٨٨-٢٨٩.
(٢) ديوان البارونى،٢/٢٤٤.

بدون شك أن عظمة السلطان تيمور قام بما يوجبه عليه حق الوطن والملك، وصوب عمل حضرة الإمام واتحد الدفاع[1].

دعا الإمام الخليلي إلى إقامة علاقات طيبة مع الدول المجاورة له، والتعاون معها بما فيه مصلحة البلدين والاهتمام بالقضايا ذات الاهتمام المشترك ،ورسم الحدود فيما بينها، وسعي كل بلاد إلى تطوير نفسها والرقي بشعبها وبموارده، وتوفير الأمن في إرجاء البلاد، حيث ذكر ذلك في قصيدته التي ألقاها في نزوى:

وامدد إلى نجد يديـــك مصـــافحا صمصامها بل نارها الزرقاء
واعطف إلى سبط الرسول حميد من ضاءت بطلعة بدره صنعاء
واجنح إلى فحل العسيـــر أميـــرها من لم يزل في منعة قعساء
ثم اقبلوا لابـن الحسين بمـــــكة نعم المليك الجد والآباء
وهناك اتحـــــدوا ولا تتـــفرقـوا وتعـــاهدوا ولتشهـــدن حـــراء[2]

حتى يحافظ على علاقة ودية مع الدولة السعودية، فقد أرسل الباروني رسالة توجيهية إلى الحجاج الإباضية للالتزام بنظام الدولة السعودية حيث جاء فيها "ولتكن حركاتكم مدة إقامتكم في البلاد المقدسة موافقة لقوانين الحكومة المحلية المطابقة للحق، واجتنبوا بقدر الإمكان ما يكدرها، وراجعوها برفق فيما تضطرون فيه مراجعتها بواسطة عقلائكم الممارسين لأحوال الحكومات"[3].

(١) أبو اليقظان، ٢/٥-٧.
(٢) ديوان الباروني:٢/٢٤٩.
(٣) رسالة مخطوطة من الباروني إلى الشيخ سالم بن محمد الرواحي .

وجه الإمام الخليلي رحمة الله تعالى إلى ترك مسائل القضاء والفتيا بين الناس إلى القضاة والعلماء الموجودين في دولة الإمامة، ليتفرغ هو لأمور الدولة وشئونها وسياستها خير سياسة.

خل القضا لرجاله واعكف على تنظـــيم جند فـــالنظام دواء[1]

وكانت أوامر الإمام تكتب على أوراق عادية، فأراد الباروني أن ينظم له أموره الإدارية، فوضع له ما يمكن أن يطلق عليه بأنه أوراق رسمية، كتب عليها الوزارة العُمانية الجليلة، يكتب فيها الإمام أوامره، بدلا من أن يكتبها في أوراق عادية.

بين للسلطان سعيد بن تيمور أهمية العلم باعتباره أنه يمثل نهضة الأمة، ويؤكد على سيادتها، ومما يذكر في هذا الصدد أن مشايخ آل حمودة وهم أمراء جعلان بني بو علي، كان لهم ولاء مع آل سعود حكام المملكة العربية السعودية، قاموا برفع علم السعودية على قلعة العيجة، وقد كانت تابعة لهم وقد كان الشيخ الباروني موجودا في تلك الفترة في عُمان، تحت ضيافة السلطان فحثه على التحرك لإزالة ذلك العلم، باعتبار أن العلم رمز يدل على سيادة الدول، فقال له: فإن أنتم أقررتموه فقد سمحتم لجزء من بلادكم، أن يكون بقعة سعودية، فلا بد من القضاء عليه حتى لا يكون هناك ولاء لغيركم، وهنا تحرك السلطان سعيد بن تيمور، فقام بإرسال بارجة بحرية، واستدعى الشيخ عبد الله بن علي آل حموده فطالبه بإنزال العلم فرفض أن ينزله، وهنا أمر فطلقت عليه المدفعية فانزل[2].

(١) ديوان الباروني،٢/٢٤٤.
(٢) المعولي، ص١٦٠.

الإصلاح الفكري:

لقد كانت عُمان خلال تلك الفترة تعيش في ظلام دامس بسبب ما كان يعاني أبناؤها من الجهل والتخلف، فلم يكن فيها مدارس حكومية أو جامعات يدرس فيها الشعب، بل كان نمط التدريس تقليدي مقتصر على دراسة القراءة والكتابة وما يتعلق بأمور الدين ،وهذا الوضع كان له أثر كبير على الحياة الفكرية في عُمان وعلى سير الحركة العلمية ،ولما وصل الباروني إلى عُمان ورأى هذا الوضع المتردي من الجهل ،كان أكبر هم له هو إنشاء مدرسة كبرى في سمائل، وكان ينوي أن تكون أول وأكبر مدرسة ثانوية في سائر بلاد عُمان.

وقد صرف عنايته وجهوده لإبرازها إلى الوجود بنظام عصري على الطراز الحديث، وكان عزمه أن يسافر إلى عواصم الإسلام ليجلب منها الأساتذة والمعلمين الأكفاء، إذا ساعده القدر وتسامحت معه الدول الكبرى لدخول تلك البلاد التي تحت نفوذها، ولكن الأمراض المزمنة أنهكت قواه وأقعدت به عن انجاز هذه الغاية السامية، ولم يحقق منها إلا جزءا يسيرا، وذلك بإتمام الطابق الأول فقط من تصميمه الشامل لطابقين، ومع هذا فقد بقي الطابق الأول مغلقاً، إذ لم يتيسر له أن يسافر لجلب المعلمين إليها من الخارج.

أضف إلى هذا أن أهل عُمان غالبا ما زالوا على الطراز القديم، وما زالوا لم يهضموا الأساليب الحديثة في الحياة، ولا سيما فيما يخص التعليم الذي هو أشد مساسا بالدين وإلا لنسجوا على منواله وأتموا برامجه ولو أقعده عنها المرض[1].

[1] أبو اليقظان، ٤٦/٢.

وحتى ندرك حجم الجهد الذي بذله الشيخ الباروني في إنشاء هذه المدرسة، نلقي عليه من خلال مراسلاته مع الشيخ سليمان بن ناصر اللمكي، ففي رسالته المؤرخة في الثالث من محرم ١٣٤٧هـ، يبين له حصوله على الموافقة من قبل الإمام والشيخ عيسى، إذ يقول في رسالته "وقد حصلت الموافقة من حضرة الإمام والشيخ عيسى، واستحسنت لها أرضا قريبة من الأرض التي اشتريتها لابني فيها بيتا، وهذه الأرض وقف فلزم تعويضها بمال أنفع وأحسن منها للوقف، ونحن بصدد ذلك، وبعد تمام المعاملة نباشر العمل في البناء إن شاء الله".

وكان يسعى لتوفير الدعم المادي لإتمام عملية بناء المدرسة حيث يقول: "قد باشرت بناء المدرسة بحضور أعيان سمائل كافة، ومئات من الفقراء، أكل الجميع الأرز باللحم وشربوا القهوة ١٤جمادى الأولى ١٣٤٧هـ، والعمل مستمر كل يوم بنشاط لأن الحجارة والصاروج المشترى لذلك كثير والله المعين، وقد أرسلت إليك تلغرافا قبل يومين في إرسال ألفي قرش بكل سرعة أرجو أنكم اهتمتم بذلك لأن مرادي مواصلة العمل قبل دخول الحر لأن الحركة فيه هنا صعبة. ويقول في رسالة أخرى (وإني في انتظار الحوالة، وإذا كانت (٣٠٠٠) فأحسن، لأني سأضاعف الصناع والعمال، وأحضر الأبواب والرواش لتتم المدرسة، ونشتغل بمعداتها العلمية كالكتب والأدوات والمعلمين. يقول في موضع آخر "وقد ذكرت لكم فيها عن إرسال القسط الأخير وعلى قول الناس إن البناء قد تم، ولم يبق إلا الصلح: الصقل والأبواب والسقف وسنباشر ذلك حين وصولي بإذن الله وأرسل إليكم صورة الحساب ورسم الحساب".

حتى أثناء سفره إلى بغداد كان موضوع إتمام المدرسة همه الشاغل حيث وكل من يشرف على عملية البناء "وإني بعد شهر أو بعد (٢٠) يوم، أقصد عُمان لأن همتي مصروفة إلى إتمام المدرسة بإذن الله، وأرجو أن أجدها تامة

لأن البناء مستمر فيها تحت نظر وكيل من طرفي" وقال في رسالة أخرى وتركت من يقوم مقامي في تنظيم دفتر البناء وملاحظته، كل يوم وأملي أن أعود بعد شهر ونصف إن شاء الله ، وأجد الطبقة الأولى من المدرسة تامة كما يلزم، فتفتح المدرسة يوم المولد الشريف تبركا. ورغم ما كان يعانيه من المرض حرص كل الحرص على إتمام عملية البناء حيث يقول وصح قول الأطباء الذين نصحوني أن لا أعود إلى عُمان في الوقت القريب، لكن أشغلني أمر البناء وإتمامه فرجعت وعاد الألم عينه بعد وصولي شهر ونصف وأتعبني، إلا انه هان باستعمالي الدواء الذي استصحبته، والآن صحتي في تحسن وسأداوم على الدواء إلى أن يتم البناء .

كذلك كان يسعى لتوفير كادر مؤهل من المدرسين، يتولون مهمة التدريس "وسأفكر في مسألة معلمي الحساب والجغرافيا والتاريخ والخط، وأنا في بغداد، وربما أطلب أحد أصحابنا الاباضية لذلك من مصر أو تونس والله الميسر".

وكان قد تعاقد مع أحد الأطباء ليأتي إلى عُمان فيقوم بعملية التدريس في المدرسة ومعالجة الناس، ولكنه توفي قبل ذلك "أما الدكتور الذي اتفقت معه في العراق على المداواة وإعطاء دروس في المدرسة في الحساب والجغرافيا والطب والخط، فقد توفاه الله في سمائل يوم ٢٠ شعبان، بعد أن عانى من الألم ما لا يوصف والأمر لله، وقد كنت معلقا آمالا على وصوله في عمران المدرسة ومداواة الناس، ولكن أبى الله أن يتم ذلك الأمر ولعله يتسر القصد فيما بعد . أما أدوات التدريس والكتب فقد جلبها معه من بغداد وقد أهدت الي وزارة المعارف ببغداد للمدرسة جملة كتب مدرسية وخرائط وكسوة أرضية عربية وألواح رسوم كبيرة ،قدمت بعضها هدية للمدرسة السلطانية بمسقط.

ولقد عقد العزم على إنشاء مكتبة ملحقة بالمدرسة، حيث يقول: "وقد عزمت على جعل مكتبة فيها للمطالعة، واشتريت جملة من كتب المذهب المعتبرة في عُمان، وأفكر في الكتابة إلى عظمة السلطان السيد خليفة بن حارب سلطان زنجبار بعد تشريفه من أوربا، أن يتفضل بما أمكن من كتب المذهب المطبوعة في المطبعة السلطانية، كقاموس الشريعة والهيميان".

وفعلا كتب إلى السلطان خليفة يطلب منه الكتب حيث يقول في رسالة أخرى "وأرجو عرض احترامي إلى جلالة السلطان المعظم وولي عهده، كما أرجو أن تذكروه إذا أمكن بالتفضل ببعض كتب المذهب المطبوعة في المطبعة السلطانية للمدرسة ،كما ذكرت لكم سابقا لينال ثوابها ويحفظ له التاريخ العلمي ذكرها[1].

٢. أراد أن يرتقي بالعقلية العُمانية، فعندما كان في الخارج كان يرسل جريدة الشورى الإسلامية، وهي جريدة تصدر في مصر ،يصدرها محمد علي وهو صحفي فلسطيني عاش في مصر، وفي آخر حياته انتقل إلى لبنان، وتوفي فيها، وقد كان الباروني يرسلها للعُمانيين ليقرؤها، لكنه لم يستطع أن يصل إلى تلك الإصلاحات التي يصبو إليها نظرا لطبيعة الشخصية العُمانية والتربية التي نشأت عليها .

وكذلك كانت تصل إليه وهو في عُمان جريدة وادي ميزاب ،وقد كان العُمانيين يسرون بوصولها ،ولكن يظهر أنهم لم يكونوا يستوعبون ما كانت تدعوا إليه.

٣. ساهم في الكتابة عن عُمان في الخارج ،فمن ذلك أن مجلة المنهاج كانت تعنى من حين لآخر بنشر أنباء الحركتين الفكرية والقومية ،وكانت تورد ما

(١) رسائل مخطوطة بين الباروني والشيخ اللمكي ،مكتبة الشيخ محمد بن علي اللمكي .

يتعلق بالباروني ومما جاء في ذلك إحدى قصائد الشيخ عيسى بن صالح الطائي قاضي مسقط حيث يقول:

أقـــومي إن للعليـــا رجـــالا لهـــم فـــي نيلهـــا رأي وفكـــر
لها دحروا الكرى بنصال عزم وفـــي وثباتهـــا قصـــد وكـــر
إذا ليـــل الغبـــاوة ومـــد ســـجفا جـــلاه مـــنهم علـــم وخبـــر

وقد كتبت جرائد العراق ومصر عن النهضة التي شهدتها عُمان في تلك الفترة ،وقد أشار الباروني بذلك في إحدى رسائله إلى أبي اليقظان، وقد كتبت جريدة الشورى وجريدة العراق مقالا بعنوان "لا خوف على عُمان من المعاهدة" وقد نقله أبو اليقظان في كتابه مما يدل على الأثر العظيم الذي أحدثه الباروني في سمعة عُمان في الخارج .

ومن ذلك أن جريدة الحياة، أشارت إلى الإصلاحات التي قام بها الباروني في عُمان وموقف الشعب العُماني منها، وقد أشار بذلك في إحدى رسائله التي أرسلها إلى أبي اليقظان بتاريخ ٤ربيع الأول ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م، وهذا نص الرسالة اطلعت في مسقط على ما كتبته الحياة الغراء في عددها الثاني ،واني لأشكرها على وقوفها على الحقائق التاريخية المسرودة في مقالها إلا أنها بالغت فيما كتبته عن عُمان ،ولعلها اعتمدت على الإشاعات التي حصلت عند مباشرتي العمل ،فقد كان من المقرر إنشاء مدارس ومستشفى وتنظيم الجيش والمالية تنظيما عصريا إلى غير ذلك إلا أن ذلك لم يتم حسب المرغوب[1].

كما ألقى الباروني محاضرة عن عُمان بنادي المعلمين ببغداد ليطلع الحاضرين على أحوال سلطنة عُمان، وقد بين في بداية محاضرته اختياره لهذا الموضوع بقوله" وذلك لأني سأحدثكم عن قطر عريق في العروبة والإسلام

[1] المعولي، ص١٦٣-١٦٤ .

والحكم وله شأن في التاريخ قديماً وحديثاً، وهو مع قربه منكم أراه مجهولا عندكم يعرفه الأوربي، وهذا القطر هو عُمان المعروف في دوائر البريد بعاصمته البحرية مسقط ، وإنما قلت هو مجهول عندكم ،لأني رأيت رجال النهضة العربية ودعاة الوحدة أو الاتحاد العربي كثيرا ما يذكرون في مقالاتهم وخطبهم ومجالسهم كل الأقطار العربية على ما فيها من مستعمرات ومحميات من الدار البيضاء في المغرب الأقصى إلى اليمن والبصرة قي الشرق ولا يذكرون قط اسم القطر العُماني ،فكأنه فقد من جزيرة العرب أو كأنه انقلب أعجميا أو هنديا أو أوربيا، مع أنه عربي محض ،إسلامي بحت مستقل بحق بالنسبة إلى كثير من الأقطار العربية ،التي تفوقه في هذا الوقت بالحضارة الجديدة بواسطة داء الاستعمار وديونه القتالية، سبب إهماله: وقد فكرت كثيرا في سبب هذا الإهمال فلم أجد إلا انه منفصل بالربع الخالي عن بقية البلاد العربية، وبحره ممتد إلى الهند فلا اتصال للعُمانيين إلا بالهند ومملكة الزنجبار في شرق أفريقيا، فإنها مهجرهم ومحل تجارتهم لأنها عربية وسلطانها عُماني من العائلة الحاكمة في مسقط، وإن انفصلت عن عُمان بسياسة الاستعمار بعد أن كانت تابعة له إلا أن هذا العذر لا يبرر عمل الكتاب والسياسيين والداعين إلى الاتحاد العربي ،لأن لهم اطلاعا على التاريخ وكتب الجغرافيا التي لم تترك دولة من الدول أو قطر من الأقطار إلا ذكرته، فهم على كل مقصرون، لهذا رأيت أن أحدثكم عنه باختصار تنويرا للأذهان[1].

وكان من إصلاحاته التي يريد أن يقوم بها في هذا الجانب إنشاء مطبعة، واعتبر عدم وجود المطبعة في دولة الإمامة عاراً وخزياً حيث يقول: "ومن العيب أن يكون مذهب ومملكة لا مطبعة لهما، وكلما دعت الحاجة إلى طبع شيء ،

[1] محاضرة الباروني عن عُمان بنادي المعلمين ببغداد.

ولو كانت رسالة صغيرة ترسل إلى الهند أو العراق أو مصر، وقد دخلت المطابع حضرموت البدوية ،والكويت الصغيرة وعما قريب تدخل البحرين وأين عُمان؟"[1].

كما كان من رأيه أن تعمم صلاة الجمعة في جميع مناطق السلطنة بدلا من جعلها في منطقتين، وأقنع بذلك الشيخ ماجد بن خميس العبري، جاء في جريدة وادي ميزاب في حديثها عن الشيخ العبري رحمه الله "حتى أنه كان من المتمسكين بقول من لا يرى من علماء الاباضية إقامة الجمعة إلا في مركز الإمامة نزوى وفي صحَّار من مدن عُمان التاريخية التي هي من جملة الأمصار السبعة التي مصرها الخليفة عمر بن الخطاب ،وأمر بإقامة الجمعة فيها، لكنه بعد أن اجتمع به الباروني وحسن له تعميم إقامة الجمعة في جميع مراكز عُمان أدرك المصلحة، فقال الآن :وجب علينا أن نأخذ بالقول المرجوح في المذهب ونترك الراجح ،فقوموا بنا لننتخب مكانا نبني فيه جامعا جديدا للحمراء نقيم فيه جمعتنا ،عندما يصدر أمر إمامنا الخليلي بإقامتها"[2].

الإصلاحات الاقتصادية :

الاقتصاد في كل زمن هو عصب الحياة، والأمم لا تستطيع النهوض إذا كان اقتصادها هشا ضعيفا ،لذلك بذل الشيخ الباروني جهوده للقيام بإصلاحات اقتصادية واسعة ،تنهض بالمملكة العُمانية وتجعلها في مصاف الدول المتقدمة، فاشتغل بتنظيم المالية فتولى بنفسه محاسبة الذين بأيديهم إدارة أملاك بيت المال وهي كثيرة ومتنوعة، كأوقاف المساجد وأوقاف المتعلمين، وأوقاف المدرسين وأوقاف الطرق والآبار والأنهار والفقراء والغرباء والأكفان وذوي العاهات إلى غير

(1) رسالة مخطوطة من الباروني إلى الشيخ محمد بن سالم الرواحي .
(2) النمير :٣٢٠/٤.

ذلك، وقد كانت كلها لا يصل من وارداتها صندوق الإمام إلا شيء زهيد والباقي يوزع في الجيوب .

وصندوق الإمام كان عبارة عن صناديق الولاة والقضاة والجباة والوكلاء فقد كانوا مطلقي التصرف لا حساب ولا عقاب عليهم.

وقد كان أول ما افتتح به الباروني باشا أعماله، حفظ هذه الأموال في صندوق واحد، في يد رجل أمين غني انتخبه لذلك بمعرفة الإمام ،ولا يصرف شيء منه إلا بأمر منه مصدق من الإمام، لذلك قامت قيامة بغض الانتفاعيين الذين يمس مصالحهم هذا النظام وزلزلوا زلزالا شديدا، حتى أخذوا يختلقون ضد الباروني باشا الاختلافات، بما اضطره أن يعقد مع الإمام مجلسه الحاسم، وهو غاص بالملأ من رجال دولته من بينهم أولئك المعارضون، فكانت النتيجة بعد محاسبة هؤلاء أن زاد عظمة الإمام في تفويض الباشا في أمور مملكته ،وهدد المعارضين له بصارم العقاب، حتى اضطر هؤلاء للاعتذار لدى الإمام الباروني.

وهكذا تنبهت الأمة العُمانية إلى ما كانت غافلة عنه ،وأصبحت تتوق إلى الاقتداء بالأقطار الإسلامية الناهضة[1].

وقد أشار الباروني على الإمام الخليلي بصيانة الأفلاج والعناية بها لأنها مصادر الري والشرب في ذلك الوقت، وأن يسعى لاستخراج ما في باطن الأرض من الثروات المعدنية ،أن يولي هذا الأمر اهتماماً بالغاً، حيث قال مخاطبا الإمام:

جدد مدارسها وصن أنهارها أن الحياة العلم ثم الماء

(1) أبو اليقظان، ٣٠/٢-٤٠-٥١.

عمر مساجدها وحافظ وقفها فبها يصان العلم والعلماء
واستخرجن كنوزها من سهلها وجبالها إن الكنوز غناء

وأشار الباروني بإقامة السدود في عُمان للمحافظة على الثروة المائية وزيادة المنسوب الجوفي للمياه، فمما يروي في ذلك أن الشيخ سليمان الباروني، كان زائراً الحمراء مع جملة من المشائخ العبريين، فمر من طريق وادي المداعم فغضب، وقال :هذا كفر بنعمة الله، إن مثل هذه الأماكن تحتاج إلى سدود لحفظ المياه والانتفاع بها[1].

وجد الباروني أن اتفاقية السيب لا تعطي الإمامة الحق في إقامة ميناء، ونظراً لأهميته باعتباره منفذ للإمامة على العالم في التبادل التجاري والاقتصادي، وإقامة العلاقات مع دول العلم حاول أن ينشئ ميناء في محوت التي تطل على بحر العرب.

قام بتخفيض رواتب المشائخ ومنهم الشيخ عامر بن خميس المالكي مرجع الفتوى والقضاء في عهد الإمام الخليلي، فقد كان يأخذ ثلاثين قرشاً شهرياً، وقد خفض الباروني راتبه إلى النصف فأصبح يأخذ خمسة عشر قرشاً، ولعله فعل ذلك ليخفف عن مالية الدولة كثيراً من الأعباء التي لا تستطيع تحملها، وليصرف تلك الأموال في مشاريع تنموية أخرى، وخصوصاً أن إصلاحه شمل كثيرا من المجالات[2].

(1) النمير ،١٠٢/٢.
(2) المعولي ،١٦٧ .

الإصلاح العسكري :

كان لهذا الجانب حظه الوافر من الإصلاح، الذي سعى الباروني من خلاله للارتقاء بالجانب العسكري، وقد باشر أعماله الإصلاحية، مبتدئا بقلعة سمائل ،فنظم دفاتر حصر فيها الذخائر الحربية ونظم دفاتر العسكرية[1]. وأشار على الامام الخليلي بإنشاء جيش نظامي للبلاد ،وصيانة القلاع والحصون القديمة، والعمل على صيانة الأسلحة القديمة ،وجلب أسلحة حديثة ،وذلك في قصيدته التي ألقاها في نزوى[2]:

خل القضا لرجاله واعكف على تنظيم جند فالنظام دواء
إني أرى حول الإمام عرمرما شاكي السلاح أنوفه شماء
يرنو إلى طلب العلا متوقدا أرواحه للمكرمات فداء
لكن بها من عهد كسرى عدة ما في مدافعها الطوال شفاء
فاستبدلن عتيقها بجديدها إن الحديد جهنم حمراء

وعندما زار الباروني حصن جبرين، وتجول في أرجائه، تأسف على عدم اهتمام العُمانيين به ليكون ثكنة عسكرية لحماية تلك المناطق من كيد الأعداء، فأرسل رسالة إلى الشيخ إبراهيم العبري يبين فيها أسفه على إهمال حصن جبرين ويبين له فيها أهمية هذا الحصن من الناحية العسكرية ،فقد جاء في هذه الرسالة "ثم توجهنا إلى قصر يبرين بدعوة من الشيخ ناصر، ودرنا في غرف ذلك القصر العجيب، ذي النظام الغريب الدال على ما كان للعُمانيين وأئمتهم العدول من الهمم العالية، والاعتناء بالدين والدنيا معاً، إذ هما متلازمان فلا يستغني الدين إلا بالدنيا والدنيا صلة الآخرة ،وقد أدرك ذلك الإمام أبو العرب رحمه الله، فشيد

(1) أبو اليقظان ،٣٠/٢.
(2) ديوان الباروني ،٢٤٤/٢.

هذا القصر في ذلك المكان ليكون مركزا عسكريا يحمي هذه المنطقة من أدم إلى قرب الظاهرة، فلو كان فيه عشرون فارسا ومثلها مهرا،لما بقيت حاجة إلى تسوير بهلاء، ولا كان حول فرق وعاصمة الإسلام خوف، ولكن المتأخرون زماناً وأفعالاً، لم يروا هذا الرأي فأهملوا هذا القصر العظيم حتى استولى عليه الخراب وغير سكانه معالمه، فسودوا جدرانه الناصعة البياض المنقوش فيها الآيات الكريمة، والأشعار الحكيمة، وأصبح قبر الإمام ينهار عليه التراب والخشب من الغرفة المحاذية له المتخربة، وأصبح قبر قاضيه مربطاً للدواب تروث وتبول فوقه، ولو كان هذا القصر عند دولة أخرى لصرفت عليه الأموال الطائلة لمجرد محافظته من التخريب، ولو لم تجعله مركزا للحكومة لأنه أثر تاريخي فاخر يدل على فخر الأوائل وعلو مقامهم، ولولا وجود الخلق لما وجد دليل على وجود الخالق، فإن الأثر يدل على المؤثر، والبعرة تدل على البعير ،وهذه آثار الإنسان تدل على ما كان له من المقام في الحياة الدنيا :

تلـك آثارنـا تـدل علينـا فـانظروا بعـدنا إلـى الآثـار

ولكننا نحن لم نفكر في حكمة الأشياء، فأهملنا فضاعت، وضاعت معها أدلتنا على أن لنا أوائل لهم شأن ومقام معتبر بين الأمم، والأمر لله[1].

وقد ظهرت آثار هذه الإصلاحات في البلاد من خلال استتاب الأمن ،فقد مد الأمن رواقه في سائر الربوع العُمانية ،واجتمع شمل الأمة واتجهت أنظار الأعيان إلى الوحدة. والبرهان على استتاب الأمن أن رجلين من قبيلة الحرث من جماعة أمير الشرقية الشيخ عيسى ابن صالح راجعان إلى بلديهما من دبي فقتلا ليلا طمعا في مالهما ،وبعد البحث تحقق أن القاتل بعض من قبائل الظاهرة والبريمي القريبة من دبي ،فقبض شيخ البريمي على المتهم من قبيلته فحز رأسه

(1) لنمير :٣/٢٦-٢٧.

وأرسله مع رسل الإمام ولكن لما وصلوا به إلى مسقط تعفن، فطافوا به في أسواق مسقط ومطرح ودفنوه.

أما المتهم من قبيلة الدروع، فقد أرسله رئيسها مع عشرة رجال ،سلموه للأمير عيسى بن صالح فأرسله إلى الإمام فأمر بوضعه في السجن في قلعة نزوى[1].

الإصلاح الاجتماعي:

لقد كان للباروني مكانة رفيعة في المجتمع العُماني، مما أهله ليقوم ببعض الإصلاحات الاجتماعية في عُمان، فقد دعا الإمام في قصيدته إلى ترك التفاخر بالقبائل والأنساب وسعى إلى جمع الكلمة ووحدة الصف، فقال:

وامـح التـداعي بالقبائـل انـه سـهم العـداء ومحنـة سـوداء
واجمع قلوبا بـالخلاف تمزقت حتـى يضـم شـتاتهن لـواء[2]

وعندما كان في فنجا وأقيم له حفل رائع لاستقباله ،وبدأ المنشدون في أغانيهم الحماسية إلى أن وقف صبي يراهق البلوغ بيده سيف، وأنشد نشيدا طويلا بصوت حسن حتى أتى ببيت من نشيده فيه دعاء على الحزب الغافري، هكذا نص شطره الأخير" والغافري حكمه يزول" فاستوقفه الباروني باشا، وسأله الأسئلة الآتية: أليس الغافري بأخيك في الدين والوطن، وهو الذي يفدي معك هذا الوطن بماله ونفسه، أليس هو بأخيك عنصراً ولساناً، فقال الصبي: نعم، فقال له: ولم تدعو عليه بالسوء حينئذ، أليس إذا فقد فقدت نصف قوتك، فقال: نعم لكنه ليس من الحزب الذي انتسب إليه وهو الهناوي فهو عدوي، فقال له: إن هذا فكر باطل وخطأ عظيم والذنب عائد إلى من علمك إياه، أما أنت فصغير معذور لكن

(1) مجلة المنهاج،٣٦-٣٧.
(2) ديوان الباروني ،٢/٢٤٤.

يجب عليك أنت وأترابك ترك هذا الفكر من هذه الساعة، ولا تعد إلى ذكر هذا البيت قط، لأن العدو الحقيقي هو الذي لكم بالمرصاد ليبتلع بلادكم ويفقدكم استقلالكم وأنتم غافلون، واستمر في هذا الكلام في هذا الموضوع، والناس ينصتون كأنما على رؤوسهم الطير، ثم ختم كلامه بالدعاء بالتوفيق وجمع الكلمة، فاستحسن الحاضرون ما سمعوه من النصائح ،واعتذروا عن الصبي، وطار خبر هذه الحكاية في سرعة البرق إلى أطراف المملكة، فسرهم ذلك وتقوت آمالهم في حصول فوائد ونتائج نافعة للوطن على يديه[1].

أما الصحة: فقد كانت الأوضاع الصحية في عُمان متردية، والأمراض الفتاكة منتشرة في جميع أنحاء عُمان ومن الأمراض التي كانت منتشرة في تلك الفترة الجذام والبرص الإفرنجي والعمى والرمد والحمى والفتق والسل وغير ذلك.

لأجل هذا رأى الباروني أنه من الضروري إنشاء مستشفى في عُمان، وعقد العزم على إنشائه حيث يقول في إحدى رسائله "واني عازم على إنشاء المستشفى بإعانة الله ،وربما أختار له مكانا غير سمائل أحسن هواء، فإن حاجة البلاد إلى مستشفى وطبيب أشد من كل شيء"، واعتبر الباروني عدم وجود مستشفى في عُمان أمراً يلحق عاراً "إذ من العار أن تكون مملكة ذات تاريخ جليل الشأن مشحونة بجميع أنواع الأمراض الفتاكة ولا مستشفى ولا طبيب ولا دواء فيها" وسعى إلى الاقتصاد في نفقات بناء المدرسة حتى يستطيع بناء مستشفى "سأعمل جهدي في الاقتصاد وأستعين به على بناء مستشفى قريب من المدرسة ،فان البلاد العُمانية جمعت جميع أمراض الدنيا ولا دواء ولا طبيب" وحاول إقناع بعض الأطباء للمجيء إلى عُمان لعلاج الناس فرفضوا "رغبت الأطباء هنا للوصول إلى عُمان للتداوي والربح فلم يرغبوا لعلمهم بعدم استعداد البلاد وعدم وجود نظام فيها وفقدان معدات الراحة" بل تفاءل خيرا إن تم بناء المستشفى أن

[1] الطيواني ،الرحلة البارونية ،ص ٦٥-٦٦.

ترسل بعض الجمعيات الخيرية أطباء وأدوية " وربما نجد بعض جمعيات خيرية تتكرم بطبيب وأدوية، إذا حصل بناء المستشفى"[1] وقد استطاع الباروني إقناع أحد الأطباء بالحضور إلى عُمان، واتفق معه لمداواة الناس وهو الدكتور بشير فؤاد الجمال سوري الأصل ،فقد اتصل بالباروني في سمائل فاستبشر به، وسر الدكتور بالبناية الضخمة التي بناها الباروني لتكون مدرسة عصرية، واتفق معه على إنشاء مستشفى وإلقاء دروس صحية في المدرسة ليلاً، وقرر الإقامة في عُمان فأعفى لحيته وترك شرب الدخان وحافظ على الصلاة، لكن الحمى اشتدت عليه ولم تفده الأدوية التي بها معه لمكافحتها، ولم يمض أسبوعان حتى حصل له خبال وصار يكرر قوله :قد ساقني الله إلى هنا لأدفن في أرض إسلامية لا أجنبي فيها" إلى غير ذلك ،فكلف الباروني من خواصه من يقوم بشئونه ،وكان يسهر الليل كله بجانبه إلى أن توفاه الله ، فاختار لدفنه مقبرة آل الإمام القريبة من المدرسة إكراماً له.

ونظراً للحاجة الملحة للمستشفى فقد سمح الإمام مرة للبعثة الطبية الموجودة في مسقط، أن تأتي مؤقتا إلى سمائل التي هي أقرب المدن الداخلية إلى مسقط، فوصلتها ومعها قافلة كبيرة تحمل صناديق مشحونة بالآلات والأدوية والكتب، وقدمت لها الحكومة محلا مناسباً لتأمين غايتها، وكثر الواردون عليها للتداوي، لكنها لم تقم بواجبها الإنساني أكثر من بضعة أيام ثم بدأت مهمتها التبشيرية، وأخذ الطبيب يجمع المرضى ويدخل عليهم القسيس الذي معه وهو عربي، فيدعو بأن يرفع الله راية المسيح على ربوع هذه البلاد، وأن ينصر أتباعه ويقهر أعداءه، ثم يطلب من الأهلين السذج أن يؤمنوا على دعائه قبل أن يباشر مداواتهم، وهم لا يفهمون من دعائه شيئاً، ثم يوزع عليهم رسائل تتضمن الدعوة إلى الدين المسيحي، فبلغ الخبر إلى الباروني في مكانه وهو مريض بالملاريا

[1] مراسلات الباروني مع الشيخ اللمكي .

فكتب إلى الإمام وهو في نزوى يطلب منه الأمر بإخراج البعثة من البلاد بأسرع ما يمكن وأخبره بما جرى فصدر الأمر بذلك مع رسول خاص،وأحضرت الحكومة للبعثة الإبل الكافية لحمل أثقالها إلى مسقط في ذلك اليوم.

وبعد مدة كتب الباروني إلى رئيس المستشفى كتابا قال له فيه: "أنه يمكن أن يقنع الإمام فيأذن برجوعه إلى سمائل ويقدر له أجرة معتدلة بالنسبة للغني والمتوسط والفقير على شرط أن لا يستصحب معه مبشرا ، وأن لا يشتغل بالسياسة والدين"، فأجاب الرئيس بما خلاصته "إنهم جاءوا من أمريكا لخدمة الإنسانية، ومداوة المرضى مجانا لا بأجرة على شرط التبشير لأنه دعوة إلى الحق لا يتنازلون عنها، والأموال التي تنفق عليهم إنما خصصت لذلك السبيل"[1].

الخاتمة

ونلخص فيها أهم ما تم استنتاجه من هذا البحث :

١. كانت زيارة الباروني لعُمان انقلابا عظيما في حياة العُمانيين ،لكن الرجل كان سابقا لأوانه.

٢. كانت للباروني علاقات متميزة مع أئمة عُمان، فقد ارتبط بعلاقة مع الإمام نور الدين السالمي، والإمام محمد بن عبد الله الخليلي.

٣. ارتبط الباروني بعلماء ومفكرين عُمانيين مثل الشيخ ماجد بن خميس العبري والشيخ إبراهيم بن سعيد العبري، والشيخ محمد بن عبد الله السالمي، والشيخ محمد بن سالم الرواحي، والشيخ ناصر بن سليمان اللمكي، والشيخ عبد الله بن هاشل المسكري.

(١) ابو اليقظان، ٢/٦٨-٦٩-٧٠.

٤. ارتبط الباروني بعلاقة حميمة مع سلاطين مسقط الذين عاصرهم، وهم السلطان فيصل بن تركي والسلطان تيمور بن فيصل ،والسلطان سعيد بن تيمور.

٥. كان لوجود الباروني في عُمان أثر كبير في القيام بجهود إصلاحية عظيمة في الجانب السياسي والفكري والاقتصادي والعسكري والاجتماعي.

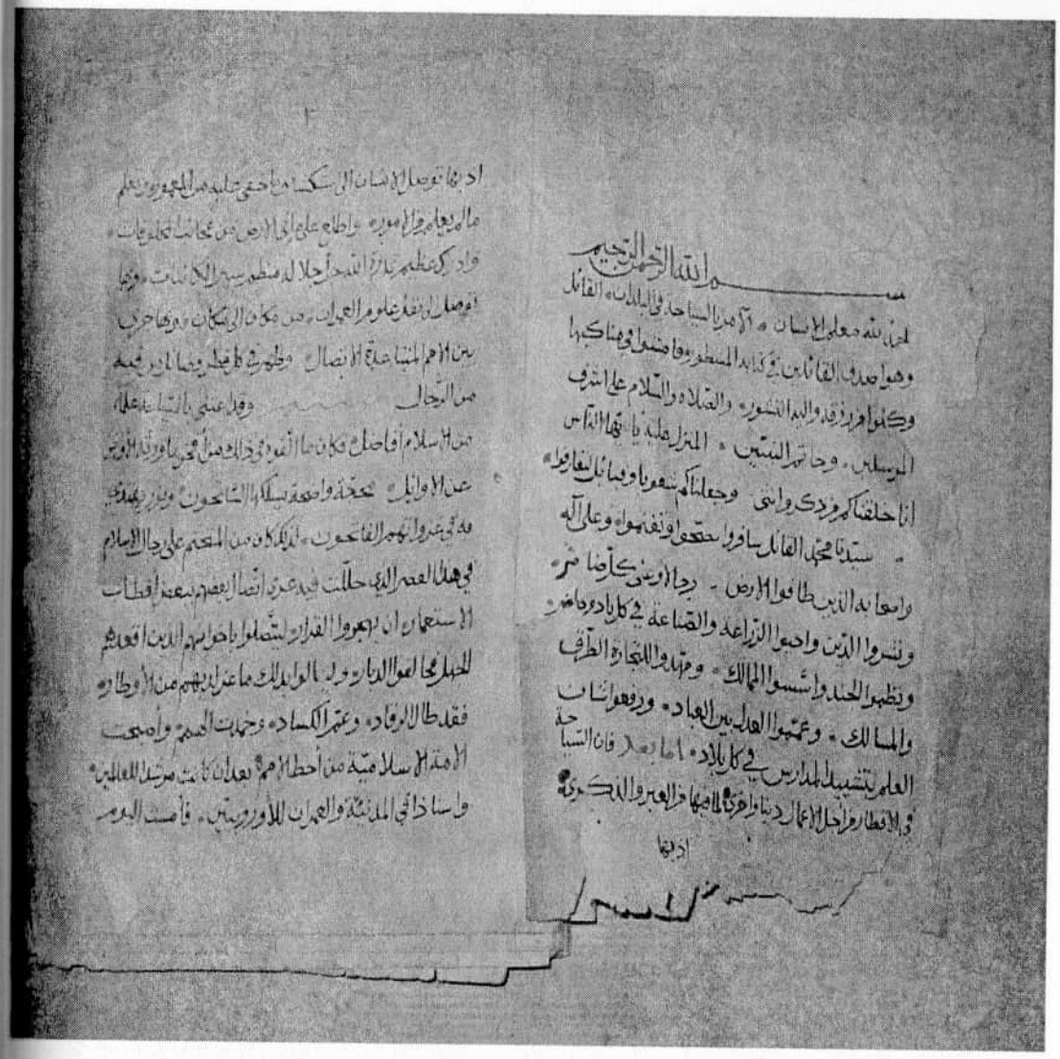
٦. تمثل إصلاح الباروني السياسي في عدة أمور: إزالة الجفاء بين الإمام الخليلي والسلطان تيمور بن فيصل، ودعا الإمام الخليلي إلى إقامة علاقات طيبة مع دول الجوار، ووجه الإمام الخليلي إلى ترك مسائل القضاء والفتيا إلى العلماء والقضاة الموجودين في دولة الإمامة، وبين للسلطان سعيد بن تيمور أهمية العَلم.

٧. تمثل الإصلاح الفكري في: إنشاء مدرسة عصرية في عُمان، والارتقاء بالعقلية العُمانية وذلك باطلاعها على مجريات الأحداث والتطورات في بقاع العالم، والتعريف بعُمان من خلال الحديث عنها في المنتديات والنوادي، والكتابة عنها في الصحف والجرائد.

٨. تمثل الإصلاح الاقتصادي في : إنشاء خزانة تجمع فيها أموال الدولة، واستثمار الموارد الطبيعة الموجودة في عُمان، وإقامة السدود وصيانة الأفلاج .

٩. تمثل الإصلاح العسكري في : إنشاء جيش منظم ومدرب، وصيانة القلاع والحصون، وجعلها ثكنات عسكرية، واستيراد الأسلحة الحديثة.

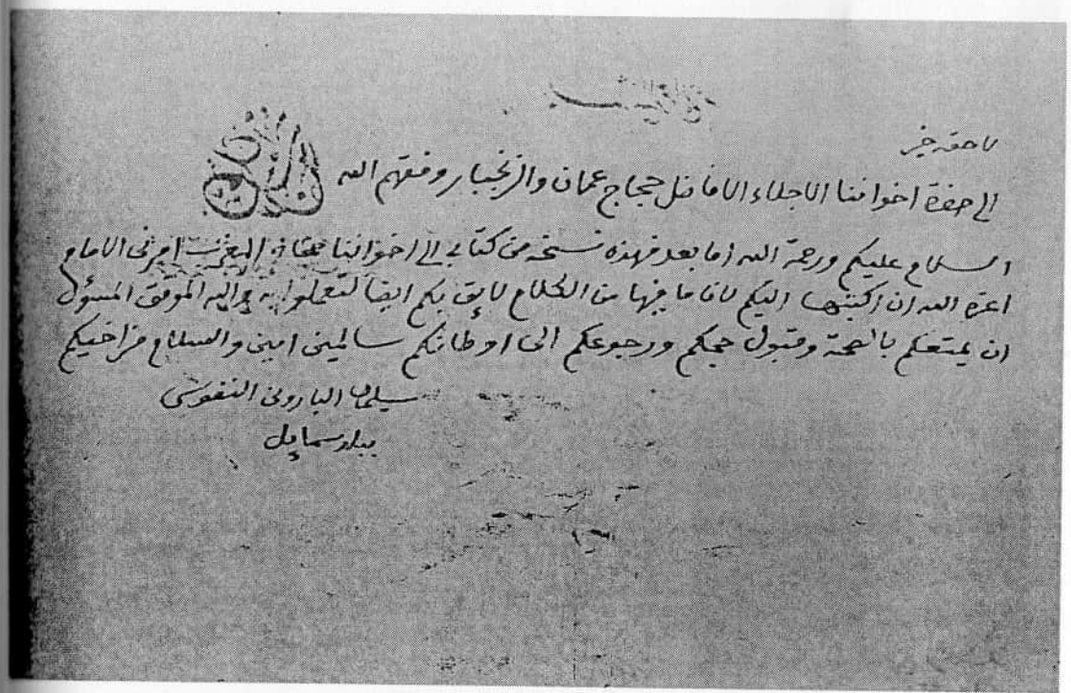
١٠. تمثل الإصلاح الاجتماعي في : العمل على القضاء على العصبية القبلية، والعمل على إنشاء مستشفى في السلطنة.



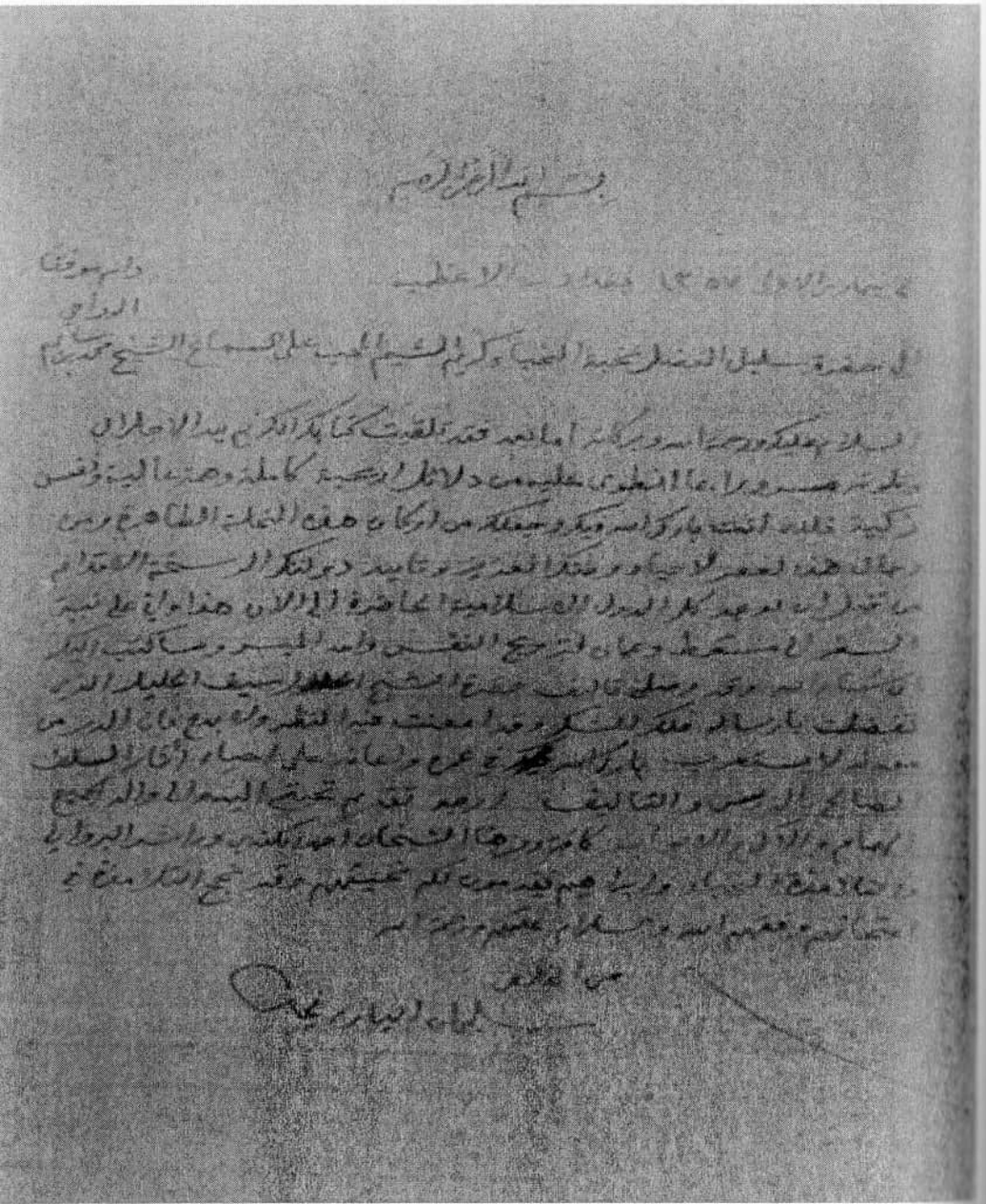
الورقة الأولى من مخطوط الرحلة البارونية للشيخ عيسى بن صالح الطيواني



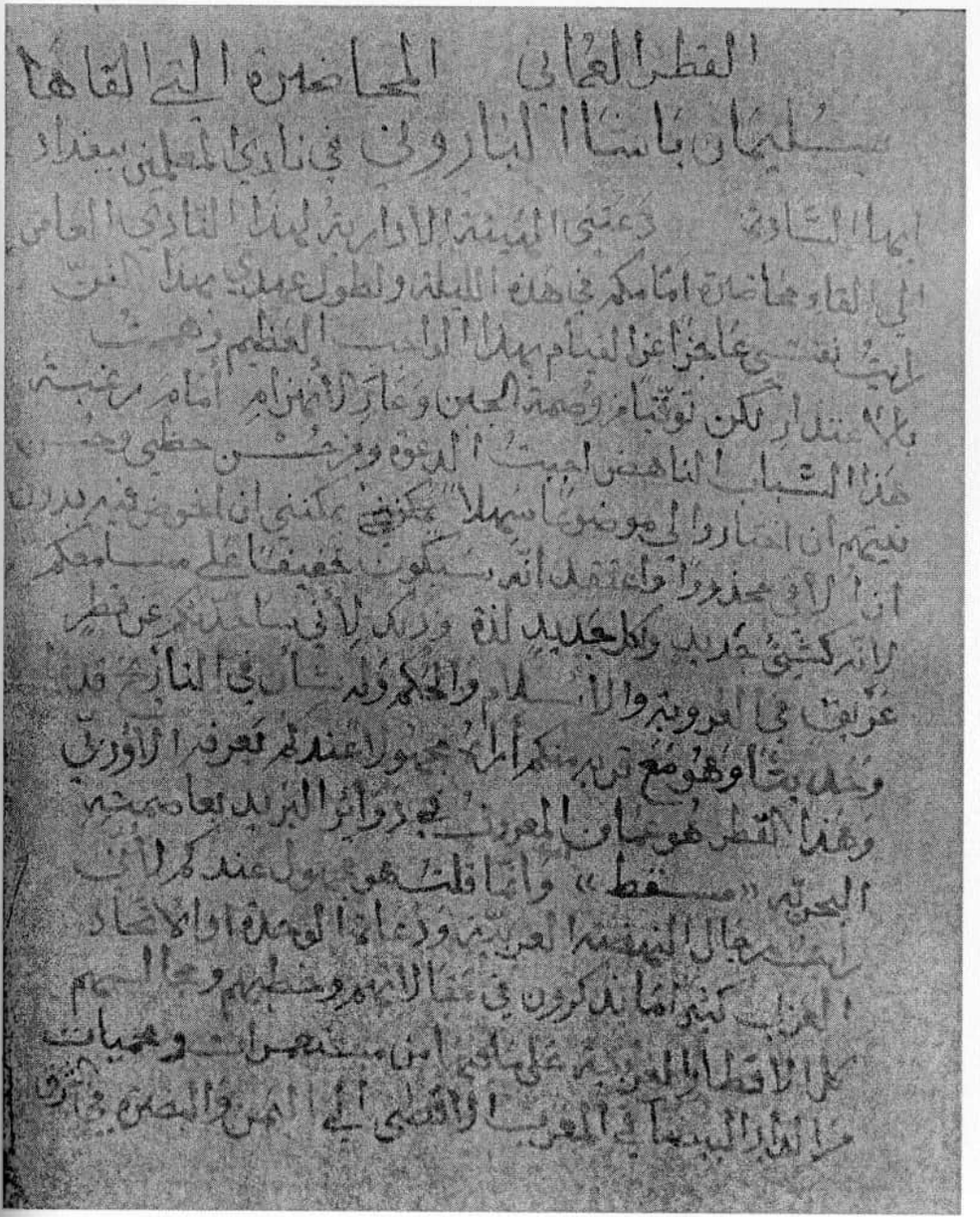
رسالة من الشيخ الباروني إلى الشيخ سالم بن محمد الرواحي



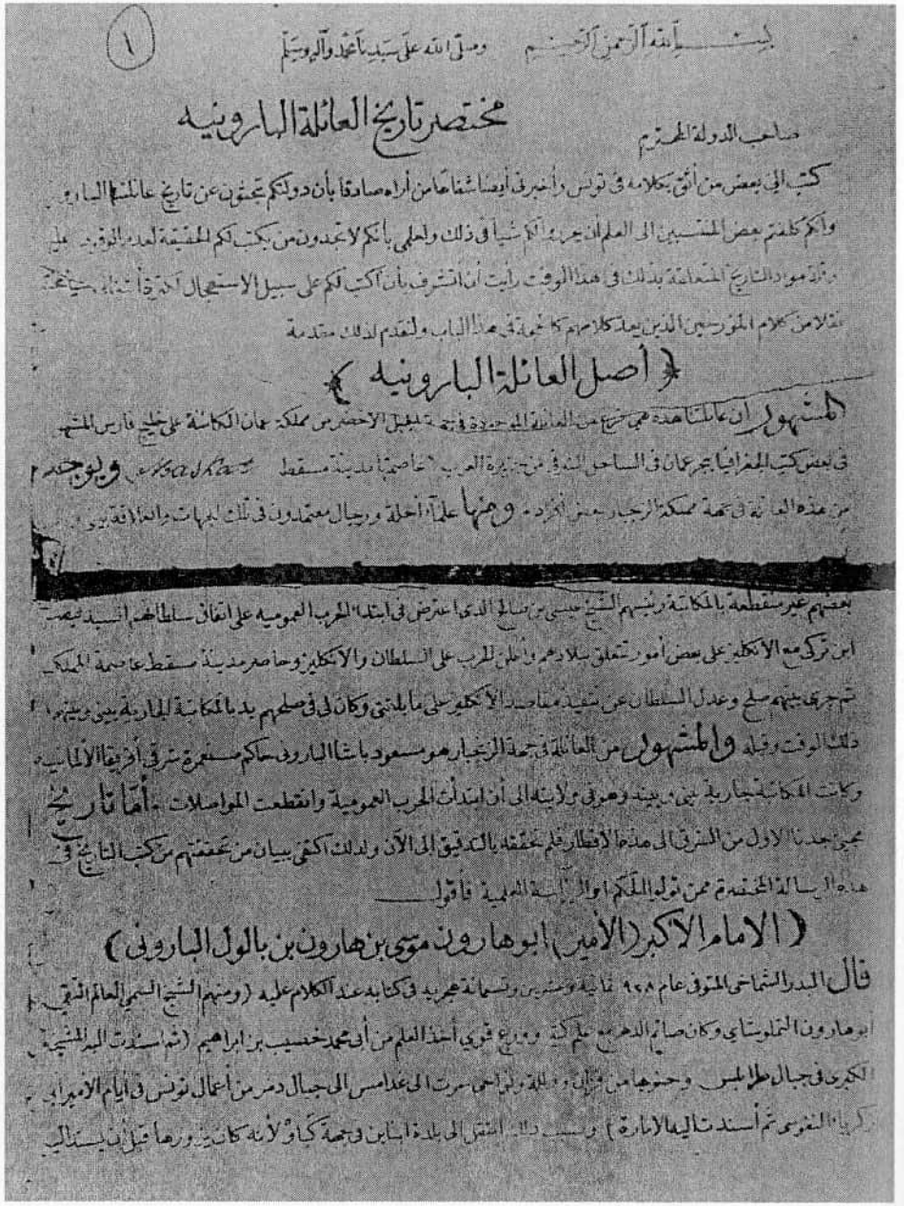
رسالة من الباروني إلى الحجاج الإباضية من عُمان وزنجبار



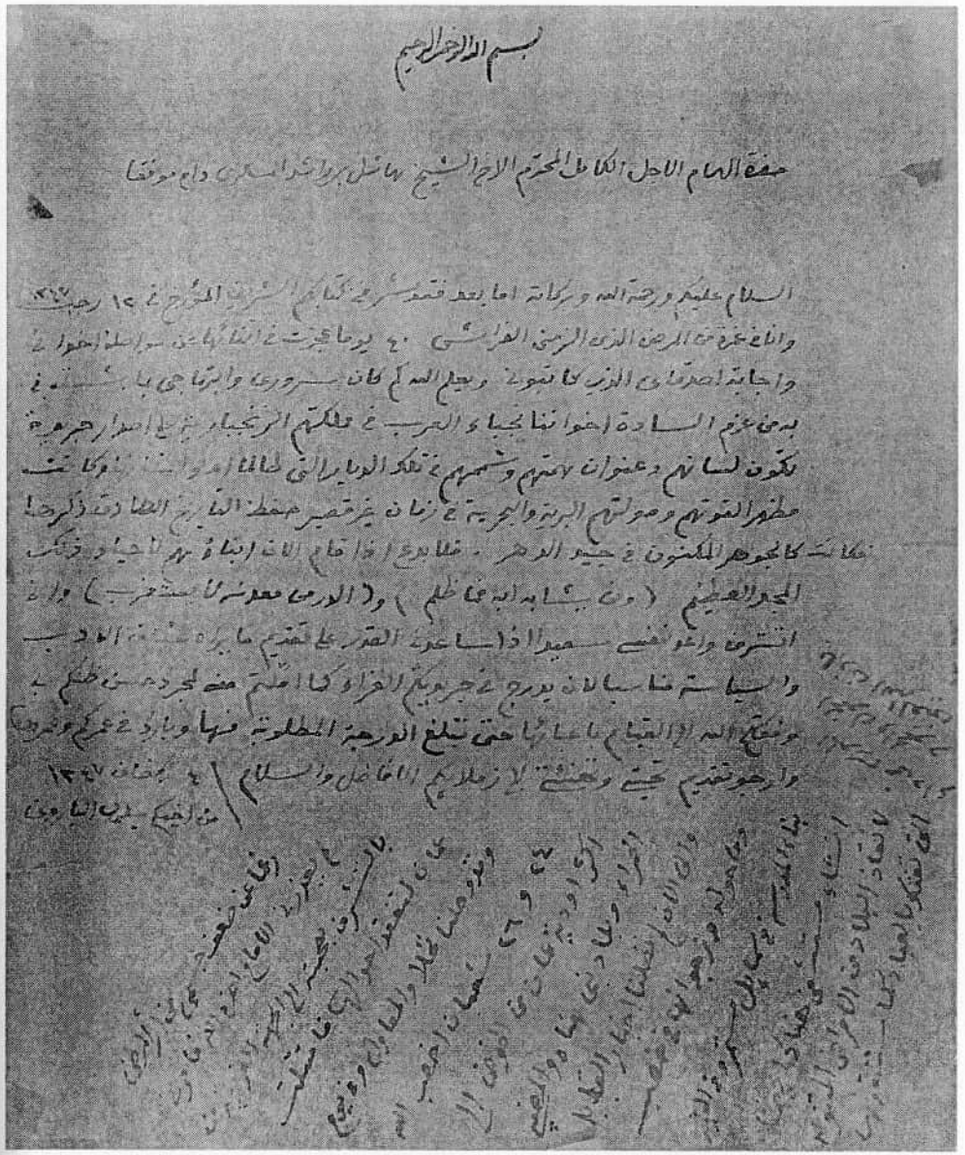
رسالة من الشيخ الباروني إلى الشيخ محمد بن سالم الرواحي



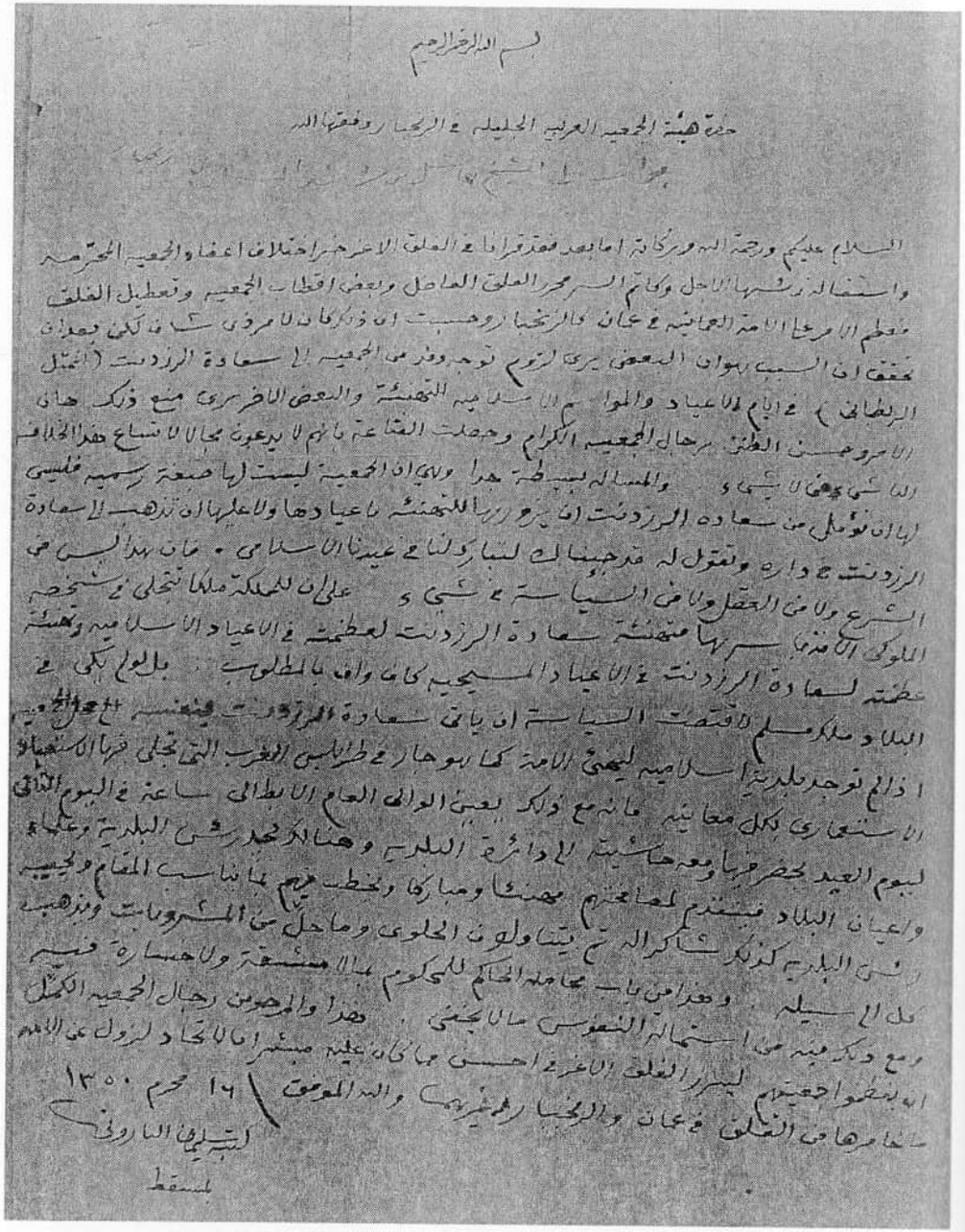
الورقة الأولى من كلمة البارونى عن عُمان بنادي المعلمين ببغداد



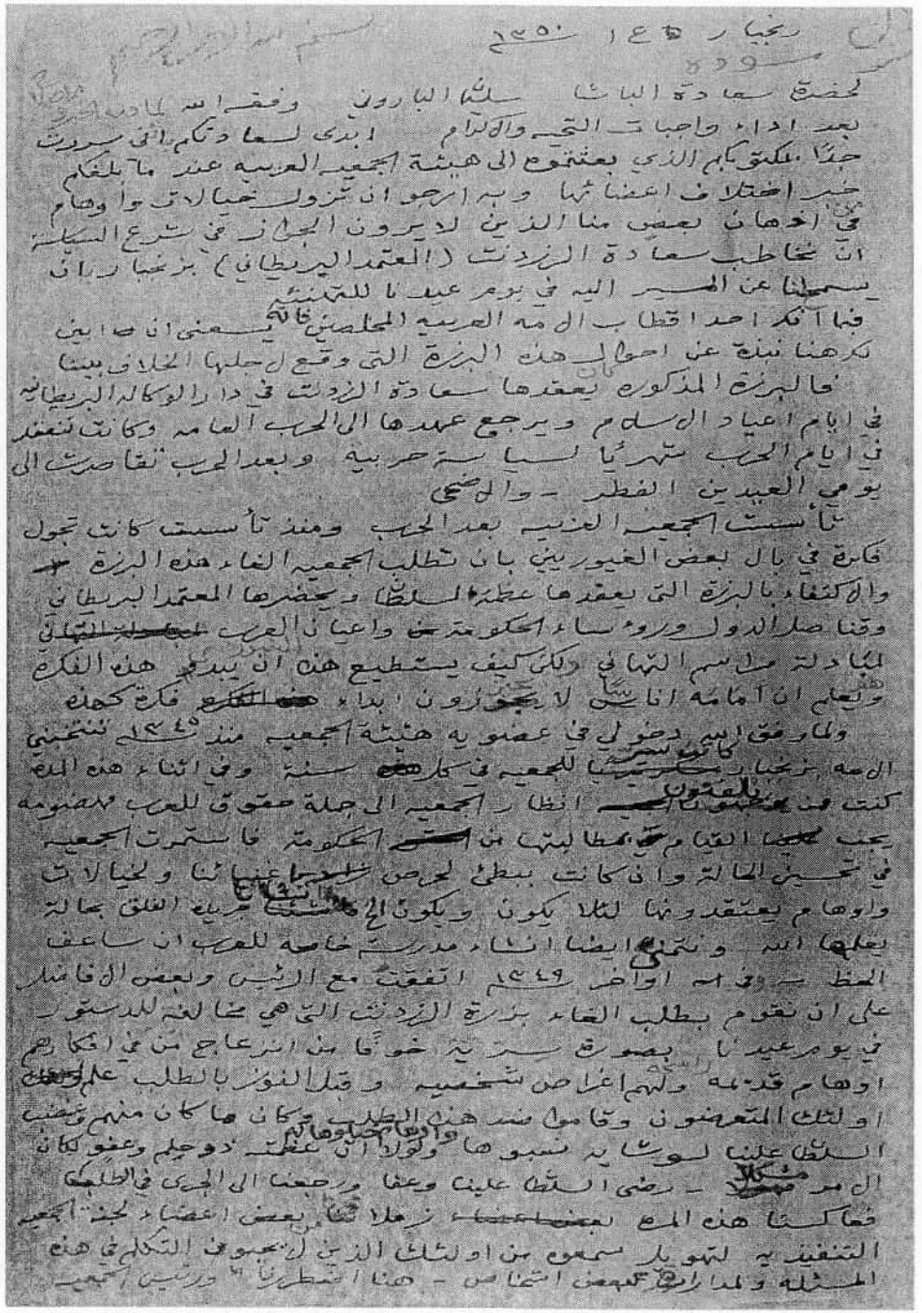
الورقة الأولى من كتاب مختصر تاريخ العائلة البارونية



رسالة من الشيخ الباروني إلى الشيخ هاشل بن راشد المسكري



رسالة من الشيخ الباروني إلى الجمعية العربية بزنجبار
بواسطة الشيخ هاشل بن راشد المسكري



رسالة من الشيخ هاشل بن راشد المسكري إلى الشيخ الباروني

المرحلة العُمانية في حياة الباروني بداخلية عُمان

محمد بن سليمان بن محمد الشعيلي(*)

مقدمة

"إن العقلاء لا يجهلون ما تستلزمه الحال اليوم، وهو أجلى من أن يستتر عن ذوي البصائر. إن للعظماء في التاريخ شأن وأي شأن ، ولطالما كتب الكتاب، ودون الباحثون في مؤلفاتهم وأبحاثهم عن محبيهم ، وخاصة اولئك الذين كان لهم دور الاصلاح في مجتمعاتهم وأمتهم ، ولطالما ظلم التاريخ بعضا من هؤلاء إما قصدا وإما بغير قصد، وسعادة الشيخ المجاهد العلامة سليمان بن عبدالله بن يحيى الباروني (باشا) هو أحد أولئك العظماء الذين طالهم الاجحاف وغمطهم التاريخ، ولو نقر الباحثون في الاعماق؛ لوجدوا ان هذه الشخصية تفوق في بذلها وعطائها الكثير مِن مَن دونت من أجلهم الكتب، وكتبت في سيرهم الابحاث ، وعقدت لأجلهم المؤتمرات ، كيف لا وهو قد بذل الغالي والنفيس ؛من اجل دينه وأمته ، ومن اجل تحرير اوطانه من ذل الاستعمار ، ونافح لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، كما انه بذل جهدا كبيرا لتوحيد الأمة الإسلامية، وإصلاح ذات البين، (مجلة المنهاج ج٢،ص٦٢٤)[1]. كما سترونه في هذا البحث ان شاء الله تعالى. فمن محرم عام ١٣٤٣هـ وبعد أن قضى حجه ركب الباخرة القاصدة من جدة إلى مسقط بصحبة حجاج مملكة عُمان، ولما وصل إلى مسقط استقبل استقبالا حاراً بحفاوة وتكريم، وأعد له نزلا خاصا في مسقط بأمر سلطانها- آن ذاك- السلطان تيمور بن فيصل. كما تلقى فور وصوله رسالة من الإمام الخليلي يدعوه فيها إلى زيارة داخلية عُمان مهد الإمامة

(*) محمد بن سليمان بن محمد الشعيلي، جامعة السلطان قابوس، عُمان.

(١) المنهاج مجلة علمية سياسية اجتماعية أبو اسحاق ابراهيم اطفيش الجزائري ج٢، ص٦٢٤.

وهو ما سنحاول الحديث عنه -إن شاء الله تعالى- مع عرضنا لبعض الوثائق النثرية والنظمية، التي تمت بصلة للباروني باشا حسب الإمكان والله الموفق.

المحور الأول: حياة الشيخ العلامة سليمان بن عبدالله بن يحيى الباروني الإباضي (باشا)

١- اسمه ونسبه:

فذ من أفذاذ العلماء في العالم الإسلامي، وزعيم من زعماء النهضة العربية الإسلامية الحديثة. قال عنه سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي -مفتي عام سلطنة عُمان- في محاضرة له:(بأن الشيخ سليمان بن عبد الله الباروني رجل عن ألف رجل)[١]، فهو من العائلة البارونية الموجودة في جبل نفوسة من طرابلس الغرب، ويذكر أبو اليقظان في كتابه:(سليمان الباروني في أطوار حياته) أن "العائلة البروانية الموجودة في شرقية عُمان وزنجبار تنحدر من شجرة واحدة مع عائلة الباروني، والجد الأكبر الباروني هو الإمام أبو هارون موسى بن هارون بن بالول الباروني، وقد ذكر أبو اليقظان في كتابه تسلسل عائلة الباروني وجلهم من العلماء الأتقياء والفقهاء المتبحرين، أما والده فهو العلامة الجليل الشيخ عبد الله بن يحيى بن أحمد الباروني، وقد وصفه قطب الأمة الشيخ اطفيش في بعض رسائله بقوله: "الشيخ عبد الله بن يحيى هو عالم ورع. أخذ العلوم الدينية عن العلامة الكبير الإمام الشيخ أبي عثمان سعيد بن عيسى الباروني نزيل جربة ت١٢٨٢هـ[٢]؛ إذن فالباروني من أسرة عريقة في العلم والفضل والتقوى، ويمكن للباحث المطلع أن يجد في ما كتب عن هذه الأسرة ما يشفي الغليل ويبرئ العليل.

---

(١) مادة سمعية بيد الباحث.

(٢) ينظر سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، بقلم أبي اليقضان الحاج إبراهيم بن عيسى، الدار العُمانية، ص٣٤.

٢- مولده:

ولد الباروني عام ١٢٨٧هـ الموافق ١٨٧٠م في مدينة جادو من جبل نفوسة هكذا ذكره أبو اليقظان الحاج إبراهيم، وذكر الزركلي أنه ولد في مدينة كاباو من بلاد طرابلس الغرب، ويتفق صاحب معجم أعلام الإباضية مع الشيخ أبي اليقظان في مكان الولادة، بينما رجحت ابنته زعيمة الباروني أن ولادته كانت في سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٨٧٣م هكذا ذكره محمد مسعود جبران في كتابه "سليمان الباروني آثاره"[١]ولعل هذا أقرب؛ لأن أهل مكة أدرى بشعابها[٢]. أما اليوم والشهر فان المراجع التي بين يدي لم تسعفني بشيء عن ذلك، ولعل المستقبل يأتي بمن يحصل على ذلك من خلال البحث ،والتحري فيما خفي من وثائق لم ترى النور بعد.

٣- نشأته:

نشأ الباروني بين حجر والديه، وبعد أن تعلم القراءة والكتابة وأخذ مبادئ العلوم على يدي والده، الذي كانت له الحظوة الكبرى بين العلماء والأدباء ، ورؤساء الدولة العثمانية وولاتها -آن ذاك- بطرابلس الغرب، فقد كان من المجتهدين في نشر العلم والوعظ والإرشاد، ومكافحة الجهل والأمية بين ابناء وطنه، من هنا بدأت نشأة الشيخ الباروني، الذي يصدق عليه المثل السائد[٣]: (هذا الشبل من ذلك الأسد)، فمن وصيته له لما ارتحل إلى تونس سنة ١٣٠٥هـ ليلتحق بجامع الزيتونة المعمور بالعلم والعلماء كتب إليه هذه القصيدة الرائعة،

---

(١) سليمان الباروني آثاره، محمد مسعود جبران، ط. الدار العربية للكتاب، ١٩٩١م، ص٢٥

(٢) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، ص٤٧.
معجم الأعلام، الزركلي، ج٣، ص١٢٩، ط٦ عام ١٩٨٤م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
معجم أعلام الإباضية، مجموعة مؤلفين، ج٢، ص٢٠٦، ط٢ عام ١٤٢١هـ الموافق ٢٠٠٠م، دار الغرب الإسلامي.

(٣) الباروني في اطوار حياته بتصرف ص٣٥

التي بها من النصح والتوجيه، والحث على طلب العلم ما يكفي لمن يتدبرها، نقتطف منها هذه الأبيات:

بني تنبه واستمع لمقالتي وكن واعيا لها بقلب مباشر
تعلم بني العلم والزمه دائما قرينا مع التقوى وفعل الأوامر
تعلم بني العلم فالعلم زينة وذخر وفخر للفتى في المحاضر
تعلم فإن العلم تاج وهيـ بة لحامله بين الرجال الأكابر
تعلم فإن العلم لا شيء مثله إذا صين بالتقوى وترك الجرائر

ويقول:

لعمري إن ضيعت وقتك باطلا لكنت على حد من العمر حائر[1]

كانت رحلته إلى تونس عندما كان في سن الثامنة عشر، بقي بها خمس سنوات في جامع الزيتونة يتلقى العلم على أيدي علماء أجلاء وأساتذة فضلاء، ثم ارتحل إلى مصر؛ فدرس في الأزهر الشريف مدة ثلاث سنوات، ثم غادرها إلى الجزائر؛ ليتتلمذ على يدي الشيخ قطب الأئمة محمد بن يوسف أطفيش، كان ذلك في عام١٣١٣هـ/١٨٩٥م فأفرد له القطب دروسا خاصة في شتى فنون العلم؛ لما توخاه فيه من النجابة والنباهة. والتقى هنالك بالعالمين الجليلين الذين كان لهما بعد ذلك صيت على المستوى العالمي وهما: الشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى حمدي، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن ابراهيم بن يوسف اطفيش، وكان من بين اساتذته الشيخ عثمان المكي شيخ من مشايخ جامع الزيتونة، والشيخ العلامة محمد النخلي (رجب ١٣٤٢هـ)، وهذا الأخير رثاه الباروني بقصيدة مطلعها:

(١) الباروني في أطوار حياته،ج١، ص٤٠-٤١.

سطا الموت وهو الصائل المتغطرس فأودى بأقطاب سموا وتنافسوا
كأستاذنا النخلـــي مـن فجعت به مجالس قطر المغربين فعبسوا[1]

٤- وفاته:

بعد هذه الرحلة مع هذا السياسي العظيم، والعالم العامل، والشاعر الأديب، والخطيب المصقع الذي لم تبهره المناصب، ولم تزعزع عقيدته الأهواء، والذي عاش هذه الحياة الحافلة معتزا بإسلامه وعقيدته شغوفا بتحقيق آماله. وقف القلم عن سيلانه حيث وافت المنية هذا الزعيم البطل في أرض الهند بمدينة بمباي وهو ابن اثنتين وسبعين سنة في يوم الأربعاء ٢٣ /ربيع الأول ١٣٥٩ هـ /٥/ ١٩٤٠م[2].

وقد رثاه الكثير من الشعراء في العالم الإسلامي نذكر بعضا من مقتطفات بعض المراثي التي بين أيدينا، فمن ذلك مرثاة أبي القاسم الباروني من ليبيا حيث قال:

بني الشرق ما بال النجوم تجوب إذا حلت الذكرى وجد نحيب
ونجم السها ساه من الهم مطرق ووجه الثريا قد علاه شحوب

ويقول فيها :

هو البطل المقدام في كل غارة صؤول على جيش الطغاة غلوب

ورثاه الشاعر العُماني سليمان بن سالم الكندي بقصيدة نونية جاء فيها:

إن العروبة والشـــهامة والحجى قد ضمنت قـــبرا بـــه الـــباروني

(١) المرجع السابق، ج١، ص٤٨.
(٢) سليمان الباروني في اطوار حياته ج٢ ص٢٤٣ معجم اعلام الاباضية ج٢ ص٢٠٦ الاعلام للزركلي ج٣ ص ١٢٩ سليمان الباروني اثاره ص٥٨.

خاض الـــــوغى شرقا وغربا يمـــــنة وبيســـرة وبسهلها وحزون
ذهب الذي نصب المعالم للعلى ودعا إلـــــى إحيـــاء علوم الدين
ولكم له من حكمة منشورة ومؤلف كـــــالجوهر الـــمكنون
شهدت على آثاره أسفاره أزهاره حـــــفلت بجـــــم فنـــون
قد غاض بحر العلم وانطمس الهدى بذهاب هذا الطالع الميمون[1]

المحور الثاني: حياته العلمية والعملية

إذا أمعنا النظر في حياة الباروني العلمية، وجدنا أن الرجل لم يكن من أولئك الذين يحبون الانكماش والانضواء على أنفسهم ، وإنما كان من أول أمره يمزج العلم بالعمل، ويرى أن أي واحد منهما لا ينفك عن الآخر؛ فالعلم لا يصلح بدون عمل ، والعكس بالعكس. كما أنه يلمح منه شمول الاطلاع في شتى العلوم بدون أن يستثني شيئا منها، فعبارة (لا دخل للدين في السياسة) لم تكن من منهجه، ولا في قاموسه، وإنما كان يرى أن الدين هو الأساس للسياسة والحكم كما هو واضح في مسيرته ومنهجه. فإن طرقنا باب التأليف وجدنا للرجل من المؤلفات العلمية الادبية، والسياسية، والتاريخية، والفكرية، والثقافية، والاجتماعية، فضلا عن المراسلات التي كانت بينه وبين العلماء والملوك والسلاطين، فمن تأليفه:" كتاب الأزهار الرياضية في ملوك وأئمة الاباضية"، و"مختصر تاريخ الإباضية" ، وله مؤلف في تاريخ العائلة البارونية، لا يزال مخطوطا هذه في التاريخ ، وأما في الأدب فله ديوان شعر مطبوع يدل على شاعريته وعبقريته، وله تعليقات على كتاب "سلم العامة والمبتدئين" وهو من تأليف والده. اما اعماله التي قام بها فهي كثيرة جدا، وسأذكر بعضا منها ، على النحو التالي:

(١) مرجع سابق ص٥٨ ــ ٥٩ وغاية السلوان ص ١٥٤ .

١-تأسيسه لجريدة الأسد الإسلامي في مصر سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦م .

٢-إنشاؤه جريدة الباروني باسطنبول سنة ١٣٣١هـ ١٩١٣م .

٣-تأسيسه لمطبعة الأزهار البارونية بالقاهرة سنة ١٣٢٤هـ ١٩٠٦م .

٤- إنشاؤه المدرسة البارونية بسمائل بداخلية عُمان.

وحول هذا الموضوع -أي موضوع المدرسة- وجدت له مراسلات للمشايخ بأفريقيا وخاصة زنجبار، ففي مكتبتي الشيخين/ محمد بن ناصر بن سليمان اللمكي، وحمد بن سالم بن محمد الرواحي، وثائق عدة ما يدل على سعيه للتبرع لهذا المشروع العظيم، من خارج عُمان، وهي وثائق لم تنشر بعد، وبحوزة الباحث نسخة رقمية منها، وأخرى مصورة، ففي رسالة للشيخ سليمان بن ناصر اللمكي رقم (١٤٩ dsco) المؤرخة ٣ محرم ١٣٤٧هـ يقول:" شرفني كتابكم في مسألة المدرسة، وأجبتكم عليه أرجو وصوله وقد حصلت الموافقة في حضرة الإمام والشيخ عيسى واستحسنا لها أرضا قريبة من الأرض الذي اشتريتها من مدة ؛ فهذه الأرض وقف فلزم تعويضها بمال أنفع وأحسن منها للوقف ونحن بصدد ذلك، وبعد تمام المعاملة نباشر العمل في البناء"، وفي وثيقة رقم (١٤٨dsco) يقول بعد أن ذكر حالته الصحية:" لكن أشغلني أمر البناء وإتمامه"، بينما نجده في رسالة تحت رقم (١٤٧dsco) يتحدث عن الحوالة المالية، ويذكر أنها الثالثة من الشيخ سليمان اللمكي، كما أنه يذكر اتفاقه مع أحد الدكاترة في العراق على الدوام في المدرسة، وإعطاء الدروس كالحساب، والجغرافيا، والطب، والخط ولكن لم يتيسر ذلك بسبب الأمراض التي ألمت بهذا الدكتور والذي توفي حسب ما تذكر الوثيقة في سمائل يوم ٢٠ شعبان ولم يذكر السنة، وفي وثيقة أخرى مؤرخة ٣ صفر ١٣٤٧هـ ، تحت عنوان "الوزارة العُمانية الجليلة" وثيقة رقم (١٤٦ dsco) في هذه الوثيقة يذكر بعض المبالغ التي وصلته من الشيخ اللمكي وهي:

ألفان وخمسمائة وستة وستون ربية، كما يذكر أنه سيضع حجر الأساس للمدرسة في يوم المولد النبوي تبركا، كما يشير في نفس الوثيقة إلى إنشاء المستشفى والمطبعة والجريدة، ويتأسف على مملكة ذات تاريخ عريق، ومجد تليد حيث يقول ما نصه: "إذ من العار أن تكون مملكة ذات تاريخ جليل الشأن مشحونة بجميع الأمراض الفتاكة، ولا مستشفى، ولا طبيب ولا دواء فيها"، ويقول:" ومن العيب أن يكون مذهب ومملكة لا مطبعة لهما، وكلما دعت الحاجة إلى طبع شيء ولو كانت رسالة قصيرة ترسل إلى الخارج ...الخ"، وهكذا في معظم الوثائق يشيد بالشيخ اللمكي وما يتفضل به من أياد بيضاء لإتمام هذه المشاريع كما في وثيقة رقم (dsco١٤٥) المؤرخة في ٢٠ شوال ١٣٤٨هـ وهي وثائق عدة، عسى أن يقيض الله لها من يقوم بنشرها وإخراجها إلى النور مبينا ما ترمي إليه من أفكار عالية ورأي ثاقب. وقد كان من بعض أفكاره انشاء السدود المائية.

أما في رسالة إلى الشيخ سالم بن محمد الرواحي تحت عنوان: "الوزارة العُمانية الجليلة ١٣٤٥" رقم (dsco٥٦٦٨) بتاريخ ٤ شوال ١٣٤٧هـ، يقول:" كنت كتبت إليك أن تطلع إخواننا حجاج عُمان والزنجبار على كتابي إلى حجاج إخواننا المغاربة، لكن لما اطلع عليه حضرة الإمام –أعزه الله– أمرني أن أكتب إليكم نسخة منه وهو هكذا" في هذه الوثيقة يحث حجاج المغرب، وعُمان والزنجبار على الوحدة والوفاق، وعدم الخلاف في تلك البقاع الطاهرة. كما يحثهم على إظهار شأن المذهب الحق بمظهره الصحيح فيقول: "وليكن حضوركم إلى الحرم الشريف في وقت معلوم تتفقون عليه مع إخوانكم حجاج المشرق في عُمان، وتناصحوا وليرشد بعضكم بعضا في هذه المدة الوجيزة التي أنعم الله عليكم بالاجتماع فيها في أقدس بقاع الأرض وأطهرها؛ مهبط الوحي ومهد النبوة، والمطلع على هذه الوثيقة يجد فيها من النصائح والإرشادات شيئاً كثيراً، كقوله "واعتنوا بالنظافة في مأكلكم، ومشربكم، وملبسكم، ومسكنكم وأبدانكم" ،وقوله "ولا

تنفروا أصحاب الفرق الأخرى من أنفسكم بعد إرشادكم إياهم، إلى ما يسألونكم عنه من حقائق المذهب، وأحيلوا الجواب في ذلك إلى أعلمكم، ولا تغضبوا ولا تنازعوا أحداً لمجرد استفهامه منكم[١] وقد أورد صاحب غاية السلوان بعض مراسلاته للجرائد والمجلات العربية والإسلامية والعالمية في نحو من اثنين وعشرين مجلة وجريدة كانت تنشر بعضا من مقالاته منها على سبيل المثال:

جريدة العالم العربي، جريدة الرابطة العربية، جريدة الدفاع، جريدة الوقت، جريدة اللواء، جريدة الصواب التي تصدر في تونس، جريدة الشباب، جريدة المقطم، جريدة النور، جريدة الحياة الجزائرية، جريدة وادي ميزاب، جريدة النيل، جريدة الأهالي، مجلة المنهاج، جريدة الأمة، جريدة البلاغ المصري، جريدة النهضة، جريدة الزمان، جريدة الرابطة العربية، جريدة الأمة الجزائرية، جريدة الألف الباء البغدادية، جريدة الجهاد[٢] .

هذا في مجال نشر العلم والمعرفة والفكر والسياسة ولا يخفى على المتتبع لسيرته وتحركاته، ما كان يقوم به من سعي حثيث لجمع الكلمة وتوحيد الصف ورأب الصدع فمراسلاته السياسية ، والإسلامية إلى علماء ورؤساء وملوك العالم ،والهيئات العالمية شاهد على ذلك وقد اعترف له بذلك القريب والبعيد، أما الأعمال التي قام بها في هذا المجال:

١- تقريبه بين الإمام الخليلي إمام مملكة عُمان والسلطان تيمور بن فيصل.

---

(١) وثائق رقمية واخرى مصورة بمكتبتي حمد سالم الرواحي ومحمد بن ناصر اللمكي بحوزة الباحث نسخة منها.
(٢) غاية السلوان ٢٤ ٢٥.

٢- محاولته التقريب بين الملك السعودي عبدالعزيز وشريف مكة سلطان الحجاز[١].

٣- عمله الدؤوب على وحدة أهالي ليبيا إباضية ومالكية بربرا وعربا لتكوين جيش موحدا يواجه غزو ايطاليا سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م .

٤- مساعدة الحزب الدستوري التونسي ماديا ومعنويا[٢].

رحلته إلى عُمان:

قام بهذه الزيارة بطلب من السلطان تيمور بن فيصل سلطان مسقط عام ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م في شهر يوليو عن طريق البحر قادما من الديار المقدسة بعد أداء فريضة الحج، فوصل مسقط في ٧ محرم في ١٣٤٣هـ/١٨اغسطس ١٩٢٤م فاستقبله وزراء السلطان في أُبهة، وإجلال، وجمال ولما استقر في مسقط وصلته برقية من السلطان حيث انه كان في الهند يقول فيها "قدوم مبارك لبلادنا، أرجو أن شعبي قد استقبلكم بكل احترام"[٣] وبعد ستة أيام تلقى الباروني رسالة من الإمام محمد بن عبدالله الخليلي يدعوه فيها لزيارة إخوانه في مملكة الإمامة هذا نصها:.

بسم الله الرحمن الرحيم

من إمام المسلمين محمد بن عبدالله بن سعيد الخليلي إلى أخيه ذي الشرف الباذخ والمجد الشامخ المجاهد في الله الحامي لدينه (سليمان بن عبدالله الباروني)

(١) معجم اعلام الاباضية ج٢ ص٢٠٨ والباروني في أطوار حياته ج٢ ص٥٩
(٢) معجم اعلام الاباضية ج٢ ص٢٠٧
(٣) سليمان الباروني في اطوار حياته ج١ص٢٠٩ غاية السلوان ٣٧ ٣٨.

أما بعد/ فإنا نحمد الله إليك لا زلت أخانا محافظا شرف حريتك ساعيا في عز استقلال بلادك . إلا وأن أعلام مجدك منشورة، وسيوف عدلك مشهورة، فلله درك حيث أنت هكذا هكذا وإلا فلا فلا.

الداعي لتحرير الكتاب إليك، بعد إهداء السلام والتحية والإكرام، إعلامك بأن إخوانك أهل عُمان مسرورون بسلامتك وصحتك، مستبشرون بقدومك وطلعتك، وقد وجهنا إليك هذا الرسول طالبين منك الوصول، على بركة الله زائراً إخوانك مشرفا أوطانك، فاضرب لنا موعدا لنوجه إليك رجالا من الخاصة، رفقاء الطريق، وأخبر رسولنا بكل ما يلزم لنحيط بذلك علماً، والله الميسر والسلام .

حرر في يوم ١٣- محرم سنة ١٣٤٣هـ[١]

لبى الباروني دعوة الإمام الخليلي فوصل سمائل في الثامن عشر من المحرم ١٣٤٣ هـ حيث كان الإمام هناك في ذلك الوقت، فأطلقت المدفعية ٢١ طلقة ترحيبا بمقدمه، وكان الإمام في مقدمة مستقبليه، "فأنشدت الشعراء التهاني، ونشرت الخطباء المثالث والمثاني"[٢]، فمن ذلك القصيدة التي ألقاها الشيخ محمد بن صالح الطائي بين يدي إمام المسلمين -أبي عبد الله الخليلي- وقت ملاقاته لحضرة المقدام الباروني، في موكب رهيب من العلماء وقادة الجيش في يوم ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٤٤هـ، نقتطف منها:

أهلا بليث الجحفل الجرار مروي العداء بحسامه البتار
أهلا بمنصور اللوى عالي الذرى جلد لكل كريهة صبار
كهف الندى غيث إذا ضن الحياء جادت يداه بديمة مدرار

(١) نهضة الاعيان ص ٤٤٤ -٤٤٥ الباروني في اطوار حياته ج١ ص ٢٠٩ – ٢١٠ غاية السلوان ٣٧ -٣٨ والمنهاج ج٢ ٦٨١-٦٨٤ .
(٢) نهضة الأعيان، ص٤٤٥.

ويقول:

آل البروني شدتم صرح الهدى ورفعتم منه رفيع منار
فخراً سليمان بن عبد الله قد بهرت صفاتك ناظم الأشعار
حييت يا بطل العلا من زائر أنزل بخير حما وخير مزار
هذي عُمان دار قومك طالما خبطت نفوسة فيك مذ أعصار
شرفت سمائل إذ نزلت بسرحها بجوار فخر العرب خير جوار
أعني إمام المسلمين محمداً عين الزمان وصفوت الأبرار

ثم تحرك بعد ذلك الموكب السامي في ٢٥ ربيع الأنور ونزل وادي بني عبس الغربي، وكان الاستقبال حافلاً، فألقيت القصائد أيضاً، من ذلك قصيدة للشيخ محمد بن حارث الرواحي، مطلعها:

أهذا الذي في الغرب عمت فضائله وطارت إلى شرق البلاد شمائله
حسام لـــدين الله لم تثن عزمه صواعق إرهاب العدا ومعاوله
هو الأسد الكرار في حومة الوغى إذا اشتبكت سمر القنا ومناصبه

وزار بلدة الجناة من نفس الوادي في ٢٦ ربيع الأول١٣٤٣هـ، وكان في ضيافة الشيخ الماجد أحمد بن حامد الراشدي الرواحي، فقال شاعرهم هذه القصيدة، نقتطف بعض أبياتها:

مـــا للمدافع والبـــنادق تنـــطق والخيـل تـمرح والصوارم تبرق
والناس في فـــرح وأعـــياد وفـــي بشـــر ورايـــات الإمامة تخفق
بطل الحروب أبو الفوارس من غدى فـوق المـــجرة والسمـاك يحلق
ذاك الـــــبروني الـذي أروى العدا بحســـامه الـــبتار فـــهو موفق

بشرى بنـــي عبـــس بيوم قدومه يـــوم عـــظيم نـــوره يتـــألق

إلى أن يقول:

أيـــد إمـام المسلـــمين محمدا واعضده فهو لذاك صب شيق[1]

والجدير بالذكر أن الباروني في هذه الجولة زار إزكي والحمراء وبهلا وله في ذلك رسائل ومذكرات يصف فيها كرم الضيافة وحسن الاستقبال. ومن الحمراء صعد إلى أعلى قمة في الجبل الأخضر، وهي من القمم التي تحصن فيها الفرس لما طاردهم العرب وقضوا على أثرهم بعُمان، وترآت له تلك المدن والقرى المحيطة بالجبل من كل نواحيه، كأنها الجموع الواردة للحجيج أو البيت العتيق، فقال مرتجلاً:

قف هاهنا وانظرن نزوى وقلعتها ومسقطا قابلا جعلان والجارا
وانظر صحُار وحـي البحر ملتفتا إلى البريمي تجدها حصنها نارا
وأقبل بوجهك للعينين متجها نحو الحجاز وحي الغرب والدارا
هنا سليمان أحيا الليل مبتهلا وهاهنا أوقد الباروني النارا
يتلو الكتاب يناجي الله منفردا والليل داج وكان الدمع مدررا

وقال وهو صاعد إلى جبل شمس، إحدى قمم الجبل الأخضر، بجانب بلدة الحمراء:

فـــي جانب الحمراء طود شامخ متمنـــطق مـــتعمم بســـحاب
يممـــت قمته الرفيـــعة راجلاً وســـجدت للـــخلاق في محراب
ومع الأثير بعـــثت منـــه تحيتي لجميع من في الأرض من أحبابي

(١) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته، ص٢٢١-٢٢٤ وغاية السلوان ص٨٤-٨٩

ومع الشعاع رفعت صاعدة إلى عرش الإله مطالبي ومتابي
أرجو من المولى قبول جميعها وشمول كل أقاربي وصحابي[1]

كان هذا في ١٦ ربيع الانور ١٣٤٤هـ وفي ١٠ ربيع الثاني انعقد بأمر عظمة الإمام مؤتمر بهلا حضره أقطاب الأمة العُمانية من العلماء وقواد الجيوش ورؤساء القبائل وكان من بينهم الباروني باشا. وقد تداولوا فيه عن التدابير الواجب اتخاذها إزاء أزمة البلاد من عُمان[2].

رسالتان من الإمام الخليلي والسلطان تيمور بن فيصل:

الأولى –من تيمور بن فيصل:

إلى سمو الملك علي بن الحسين وهذا نصها:

من تيمور بن فيصل إلى حضرة صاحب الشرف العالي أخينا الملك الشريف علي بن الحسين المحترم دام إقباله وإجلاله. السلام عليكم و رحمة الله.

أما بعد..... فإن أخاكم يحمد الله جل شأنه في عزمه، وفضله تعالى يرجو أنكم في صحة تامة مؤيدين بروح من مالك الملك ،متوجين بالفوز في كل حركة فيها راحة إخواننا المسلمين ءامنين . حامل كتابنا هذا هو الوجيه المحبوب لدى الدولتين المحترم الشيخ سليمان باشا الباروني أحد علماء مذهبنا، ومن رجال الإسلام المعروف لديكم شخصا، وعملا متوجه إلى ساحة ملككم مضحيا خدماته فيما فيه مصلحة الأمة الإسلامية، ولديه إخلاص كامل لسيادة والدكم والدنا، وقد أصحبناه كتابنا هذا؛ ليذوب عنا في عرض إحساساتنا، وتألمنا العظيم مما لا زلنا نسمعه من استمرار الحرب حول حرم الله المقدس بين أخوان مسلمين كلهم

(١) المنهاج ج١ ص٣٦١ ، الباروني في اطوار حياته ج٢ ص ١٦-١٧
(٢) المنهاج ج١ ٣٦١-٣٦٢ البارني في اطوار حياته ج٢ ١٦-١٨

يدينون بتعظيم بيت الله الحرام، وشعائره المقدسة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .نسأله تعالى أن يلهم الجميع ما فيه حقن الدماء، وسرور العالم الإسلامي، ووقاية الأماكن المقدسة من كيد الكائدين، وحيث أن الحامل المذكور من الثقاة الأمناء عندنا فلا حاجة إلى التوصية على اعتماد ما يبديه لديكم من الفكر فيما فيه الصلاح، كما نلتمس من جلالتكم التنزل إلى تسهيل ما يعسر عليه في هذا السبيل؛ فإنه و أمثاله الذين حاربهم الدهر، ولا يزال حربا لهم ممن يجب أن تسهل السبل أمامهم؛ ليقوموا بخدماتهم الخيرية الإسلامية .

وفي الختام أرجو دوام اتصال حبل المودة المتين وقبول احترامي الخالص والسلام[1].

رمضان ١٣٤٣هـ

وفي نفس العام، وبعد أن رجع الباروني إلى مسقط، أرسل إليه الإمام محمد بن عبدالله الخليلي رسالة أخرى، وهي تعبر عن نفسها شارحة موقف الإمام واهتمامه بقضايا الأمة الإسلامية، حيث رشحه لحضور المؤتمر الإسلامي الذي سيعقد في مصر آن ذاك غير أن الباروني لم يتيسر له حضور المؤتمر بسبب أن المستعمر في ذلك الوقت لم يسمح له بدخولها ، وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

من إمام المسلمين بعُمان / محمد بن عبدالله الخليلي ، إلى جناب المجاهد في سبيل الله، الغيور في دين الله، أخينا الشيخ سليمان الباروني – وفقه الله –، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

(١) سليمان باشا الباروني في أطوار حياته ج٢ص(٢٥٠-٢٥٢)المنهاج ج١ ص ٢٨٨ غاية السلوان ٤٦-٤٨ .

حيث أن العالم الإسلامي في اضطراب، واهتمام بقضية الخلافة و الأماكن المقدسة ، وقد تقرر على ما بلغنا عقد مؤتمر لأجل ذلك، فإنا نكلف جنابك باسم الأمة العُمانية أن تحضر هذا المؤتمر الذي سيعقد لهذا الغرض الديني السامي في مصر، أو غيرها من البلاد الإسلامية ، وليكن رأيك في مسألة الخلافة مطابقا لقواعد الشرع الصحيحة، وهي لا تخفى عليك.

أما مسألة الأماكن المقدسة فليكن رأيك فيها مبنيا على حمايتها من عبث العابثين بها، ووقايتها من تسلط كل يد أجنبية عليها مهما كانت مقاصدها، وصبغتها ، وقد استحسنا جدا تكليف جناب السلطان إياك بالتوجه إلى الحجاز مندوبا من طرفه ، وحاملا كتاب نصيحة منه إلى المتحاربين حول بيت الله الحرام، فنعم الرأي رأيتماه ؛ فإن المسألة من أهم ما يجب أن يهتم به كل مسلم.

وإننا لا نزال في شغل من ذلك. والمنتظر من جنابك موافاتنا بالأخبار الصحيحة بدون فاصلة ، والله تعالى نسأله أن يوفقك والمسلمين أجمعين إلى ما فيه خير دينهم ودنياهم آمين. رمضان المعظم ١٣٤٣ هـ [١]- [٢].

من هنا يدرك الباحث المنصف اهتمام أئمة الإباضية بالأمة الإسلامية، وسعيهم إلى لم الشمل، ورأب الصدع، وتوحيد الصف، وما السعي الحثيث الذي قام به هذا المجاهد الغيور، والشجاع الهصور من نصائح للملوك والرؤساء ، وعلماء الأمة لأجل إنشاء الجامعة الإسلامية؛ لتوحيد الأفكار ونبذ التفرق والخلاف الذي هو السبب في تناحر الأمة، وتفرقها إلا دليلا واضحا على اهتمامهم البالغ بقضايا الأمة الإسلامية، ففي سنة ١٣٢٦هـ أرسل سؤالا إلى

(١) نهضة الأعيان بحَرية عُمان ص٤٤٤-٤٤٩ أبي بشير محمد الشيبة ابن نور الدين عبدالله بن حميد السالمي
(٢) الباروني في أطوار حياته ج١ (٢٥٠-٢٥٣) –أنوار الأبرار وإشراقات الأخيار قصص ومواقف من حياة الإمام محمد بن هبدالله الخليلي اعداد يحيى بن أحمد بن علي بني عرابة(بحث بحوزة الباحث)ص١١٦ المنهاج ج١ ٢٨٨ غاية السلوان ٤٦-٤٨.

الإمام العلامة عميد المسلمين وقدوتهم في عُمان الشيخ نور الدين عبدالله بن حميد السالمي _رحمه الله تعالى_ وهذا نصه:

المرجو من حضرتكم –أيها الأستاذ – الذي سنعتمد على أقواله وأقوال أمثاله ممن تمسك بالمذهب المحترم، إمعان النظر في المقالة المحررة تحت عنوان (الجامعة الإسلامية في جريدة الأسد الإسلامي) الآتية إليكم مع هذا. ثم بعد إطلاق الفكر بحثا وراء عين الحقيقة، نطلب إبداء ما اقتضاه نظركم السامي من الجواب عن الأسئلة الآتية بإيجاز غير مخل بالمراد خدمة للجامعة والدين ، ولحضرتكم الثواب والشكر ، ويكون الإمضاء هكذا: حرره فلان بن فلان الفلاني البالغ من العمر كذا سنة ، في البلدة الفلانية ، بشهر كذا ، سنة كذا .

هل توافقون على أن من أقوى أسباب اختلاف المسلمين تعدد المذاهب و تباينها؟

على فرض عدم الموافقة على ذلك، فما هو الأمر الآخر الموجب للتفرق؟

على فرض الموافقة فهل يمكن توحيدها، والجمع بين أقوالها المتباينة، وإلغاء التعدد في هذا الزمن الذي نحن فيه أحوج إلى الاتحاد من كل شيء؟

على فرض عدم إمكان التوحيد، فما الأمر القوي المانع منه في نظركم ، وهل لإزالته من وجه؟

على فرض إمكان التوحيد، فأي طريق يسهل الحصول على النتيجة المطلوبة؟ وأي بلد يليق فيه إبراز هذا الأمر ؟ وفي كم سنة ينتج ؟ وكم يلزم له من المال تقريبا؟

كيف يكون ترتيب العمل فيه ؟ وعلى كل حال فما الحكم في الساعي في هذا الأمر شرعا وسياسة مصلح أم مفسد؟

ما الدليل القاطع على منع الصور التي لا ظل لها مما يرسم على الورق مثلا من صور الملوك والجيوش لمقصد حسن؟

فأجابه نور الدين السالمي – رضوان الله تعالى عليه – بما نصه :

الجواب:

قد نظرنا في الجامعة الإسلامية، فإذا فيها كشف الغطاء عن حقيقة الواقع فلله ذلك الفكر المبدي لتلك الحقائق.

نعم نوافق أن منشأ التشتت هو اختلاف المذاهب، وتشعب الآراء ، وهو السبب الأعظم في افتراق الأمة على حسب ما اقتضاه نظركم الواسع في بيان الجامعة الإسلامية. وللتفرق أسباب أخرى ، منها :

التحاسد والتباغض والتكالب على الحظوظ العاجلة ، ومنها:

طلب الرئاسة ، والاستبداد بالأمر ، وهذا هو السبب الذي نشأ عنه افتراق الصحابة في أول الأمر في أيام علي ومعاوية ، ثم نشأ عنه الاختلاف في المذاهب، وجمع الأمة على الفطرة الإسلامية بعد تشعب الخلاف ممكن عقلا مستحيل عادة ، وإذا أراد الله أمرا كان (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) ، والساعي في الجمع مصلح لا محاله. وأقرب الطرق له أن يدع الناس إلى ترك الألقاب المذهبية، ويحضهم على التسمي بالإسلام ؛ فإن الدين عند الله الإسلام ، فإذا أجاب الناس إلى هذه الخصلة العظيمة ذهبت عنهم العصبية المذهبية ولو بعد حين ، فيبقى المرء

يلتمس الحق لنفسه ، ويكون الحق أولا عند آحاد من الرجال، ثم يظهر شيئا فشيئا حتى يرجع إلى الفطرة وهي دعاية الإسلام التي بعث بها محمد –عليه الصلاة و السلام – وتضمحل البدع شيئا فشيئا فيصير الناس إخوانا(ومن ضل فإنما يضل على نفسه). ولو أجاب الملوك والأمراء إلى ذلك ؛لأسرع في الناس قبولهم وكفيتم مؤونة المغرم، وإن تعذر هذا من الملوك فالأمر عسر والمغرم ثقيل، وأوفق البلاد لهذه الدعوة، مهبط الوحي، ومتردد الملائكة، ومقصد الخاص والعام : حرم الله الآمن؛ لأنه مرجع الكل وليس لنا مذهب إلا الإسلام، فمن ثَم تجدنا نقبل الحق ممن جاء به، وإن كان بغيضا ونرد الباطل على من جاء به، وإن كان حبيبا، ونعرف الرجال بالحق، فالكبير عندنا من وافقه، والصغير من خالفه. ولم يشرع لنا ابن إباض مذهبا وإنما نسبنا إليه لضرورة التمييز حين ذهب كل فريق إلى طريق. وأما الدين فهو عندنا لم يتغير و الحمدلله، أما التصوير لذي الروح فإنه حرام كان للمصور ظل أم لم يكن لحديث النمرقة عند الربيع، ومالك، والبخاري، ومسلم وفيه أن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم، وكانت الصورة في النمرقة ومن المعلوم أنه لا ظل لها، وفي حديث ابن مسعود عند أحمد ومسلم (إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون) وهو عام يتناول ما كان له ظل وما لم يكن، ولا خلاف في منع ذلك ،وإنما الخلاف في استعماله إذا كان رقما في ثوب، أو استعمل للامتهان دون تصويره ومحل المنع صورة ذي الروح فقط والله أعلم.

من عبدالله بن حميد السالمي البالغ من العمر ثلاثا وأربعين سنة تقريبا، الساكن القابل من شرقي عُمان ١٣٢٦ هـ[1].

(1) العقد الثمين نماذج من فتاوى نور الدين فخر المتأخرين وسابق المتقدمين، عبد الله بن حميد بن سلوم السالمي، ج١، ص١٢٦-١٢٨، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عُمان، ط١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، نهضة الأعيان ص١٢٥.

وقد أورد صاحب كتاب "سليمان الباروني آثاره " أن الباروني أرسل بتاريخ غرة رمضان المعظم سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م إلى "معتبري هداة الأمة ، علماء وأدباء الفرق الإسلامية"[1] هذا السؤال نفسه ليجد الجواب الشافي وليس لعلماء مذهبه فحسب مما يدل على شمولية فكره وسعة أفقه وفقهه الواقع.

المحور الثالث: الباروني في داخلية عُمان:

الباروني في حضرة الإمام الخليلي وأول جمعة في نزوى:

وفي أول جمعة من ربيع الأول سنة ١٣٤٤هـ ألقى الباروني باشا بعد صلاة الجمعة بجامع نزوى، وقد غص برجال العلم والحرب، والسياسة، والأدب، وبسائر الوفود، ورؤساء القبائل خطاباً فخماً، وقصيدة رائعة بين يدي عظمة الإمام أفرغ فيها آرائه السياسية إزاء المشاكل الراهنة كتوجيهات لعظمة الإمام؛ ليتوخاها في سياسته الداخلية، والخارجية، وكمنهاج للسير بدولة الإمامة إلى الإمام، وهذه بعض مقتطفات منها، قال:

في هذه الملحمة الرائعة التي سطرها هذا العالم العبقري، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع، والمحنك السياسي، الذي يصدق عليه قول الشاعر:

اذا ارتجل الخطاب بدا خليج بفيه يمده بحر الكلام
كلام بل سلام بل نظام من الياقوت بل حبب الغمام

والتي أوضح فيها أفكاره وما يقصده من إصلاح، وتوحيد للكلمة، ونصح للإمام، حيث انه رأى في اعتلاء الإمام لعرش الإمامة؛ اقتداء بالخلفاء الراشدين، ونصراً مؤزراً لهذا الدين.

(١) سليمان الباروني آثاره، ص٣٩-٤٠.

وبدت لعصر الراشدين دلائل إذ لاح من جبل الشراة سناء
فأضاء واسطة البلاد وأشرقت بعُمان شمس إمامة سمحاء
وعلا إمام المسلمين محمد عرشا تطأطأ دونه الجوزاء
فانهض وشمر فالعوائق جمة ولذا الزمان سياسة خرقاء
خل القضا لرجاله واعكف على تنظيم جند فالنظام دواء

ويقول فيها: محذراً من الفرقة والخلاف، التي كثيراً ما تكون سببا للتداعي والبغضاء.

وامـــح التداعي بالقـــبائـل إنـــه سهـــم العدو ومـــحنة ســـوداء
واجمـــع قلوبا بالـــخلاف تمزقـــت حتى يضـــم شتاتـــهن لـــواء

كما نراه قبل كل شيء حرك عزائم الرجال الذين رآهم بين يدي الإمام شائكي السلاح، أرواحهم بين أيديهم لا هم لهم إلا طلب العلا ، وذكرهم بعصر السلف الصالح من عهد الخلفاء الراشدين وإلى يومهم هذا، كما أنه أسدى النصح للإمام بدون مجاملة ودون إطراء.

إني أرى حول الإمام عرمرما شاكي السلاح أنوفه شماء
يرنو إلى طلب العلا متوقدا أرواحه للمكرمات فداء
لو نظمت آساده لارتج من زأراتها أرض وماد سماء
و أرى الحصون على الجبال تزينها كالتاج تلك الراية البيضاء
تهتز أن قذفت صواعقها الربى وتضيق من أصدائها الأرجاء

إلى أن يقول فيها:

هذي نصيحة مـــخلص في دينه مـــا شابـــها مـــدح ولا إطـراء

إني امرؤ ترك المديح لأهله ... مذ أنشبت أظفارها الهيجاء
فاعذر ففي نصحي مديح كامل ... وعليك يا قطب الشراة ثناء
أوليتني ما لم أكن أهلا له ... والفضل منك سعادة ورضاء
دم يا إمام المسلمين مؤيداً ... منصور جند حولك الكبراء
ما ابن البروني ساح في أقطارها ... وعليه من دول الصليب جفاء

وسعى سعياً حثيثاً من أول وهلة لتقريب وجهات النظر، بين الإمام والسلطان، وبين الإمام وحاكم اليمن-آن ذاك- وحاكم الحرمين الشرفين. أنها لوحة تدل على عبقريته وبعد نظره، ففيها يوصيهم بالاتحاد وترسيم الحدود، والاهتمام بعمارة البلاد، ويحذرهم من الفرقة والخلاف، كما يحثهم فيها على التنمية بشتى أنواعها من زراعة وصناعة وتجارة، وتعليم، وتنظيم جيش، وغيرها من الأمور التي ترفع مستوى البلاد إلى مصاف الدول المتقدمة، ويذكرهم فيها بتاريخ الأجداد وكيف كانوا.

ولشبل "فيصل" ولّ طرفك عاقدا ... معه الخناصر فالشقاق شقاء
دع ما تقدم واعملن لمقبل ... فلآل فيصل همة ووفاء
وامدد إلى نجد يديك مصافحا ... صمصامها بل نارها الزرقاء
واعطف إلى سبط الرسول حميد من ... تاهت بطلعة بدره صنعاء
وهنالك اتحدوا ولا تتفرقوا ... وتعاهدوا ولتشهد الدهماء
ودعوا وساوس من يفرق واذكروا ... مجد الجدود ليسعد الأبناء
وضعوا الحدود بصورة مقبولة ... ترضي الإله فيطرب العقلاء
وليعن كل بعد ذا ببلاده ... وكنوزها فلها بتلك عناء
فعساكر وتجارة وصناعة ... و زراعة ومدارس عليا

إذ ذاك يرجع للجزيرة عزها ... ولها جميع المسلمين فداء
أما التطاحن والعدا بمراصد ... فعلى الجميع مذلة وبلاء
وعليهم الوزر العظيم وعاره ... وعليهم تتسلط الأعداء[1]

فهو كما وصفه سماحة الشيخ الخليلي حيث قال : "إن الرجل كان سابقا لأوانه"[2].

في زيارة لأمير الشرقية :

في أول شهر ربيع الآخر لعام ١٣٤٣ هـ استدعاه أمير الشرقية الشيخ عيسى بن صالح الحارثي لزيارته، كان أول نزول له ببلدة (الدريز)، وهي بلدة معظم سكانها من قبيلة البراونة وهي قبيلة الباروني حسب رأي بعض المؤرخين لهذه القبيلة. وكان في رفقته الشيخ العلامة سعيد بن ناصر الكندي وأبنائه لما وصل الموكب السامي تلقاه الأمير بوجوه قومه، و نطقت البنادق، ودوت المدافع كالرعد القاصف، وصهيل الخيل يجلجل في الميدان كما أنشدت الأشعار ابتهاجا بمقدم الباروني باشا، فمن ذلك ما أنشده الشاعر الشيخ / سعود بن حميد بعد مقدمة بسيطة قال فيها:

هذه نفثات سحر حلال، نطق بها لسان الحال ، شكرا لحضرتك الكريمة في هذا اليوم السعيد، الذي هو للمسلمين أعظم عيد، وماذا عسى أن ينظم الناظم وينثر الناثر المجيد، ومآثرك البهية تنادي هل من مزيد ؟ قصيدة مخمسة :

أهلاً بهذا الطالع السعيد ... أهلاً بهذا الموكب الحميد
أهلاً بهذا السيد العميد ... أهلاً بهذا البطل الصنديد

---

(١) المنهاج ج١ ص ٣٥٣ -٣٥٦ سليمان الباروني في اطوار حياته ج٢ ص ١٢ -١٣ غاية السلوان ص١١٧ – ١١٨

(٢) مادة سمعية بحوزة الباحث

لا زال في يمـن وفي تسديـد

من كسليمان إذا ما نادى إلى البراز الليث إذ تمادى
قسمه بين النسور زادا وأردف الطعان والجلادا

لازال في نـــصر وفي تأييد

هذي الدريز تشكر الوصولا تأرجت رياحها القبولا
فكادت الحيطان أن تميلا شوقا إلى أكفكم تقبيلا

شعارها سعدا لـذي الجـدود

وكيف لا ونسب الباروني نيط بهم كاللؤلؤ المكنون
أكرم بهم من نسب مصون سواء البرواني والباروني

يـا حبذا بالـحسب الحميـد

إلى أن يقول فيها:

ونسأل المنان نصراً عاجلاً به يوازر الإمام العادل
ويفتحن عليه فتحاً كاملاً آمين يا من لا يخيب الآملا

يا خير مأمول بـلا تقييد

وابق لنا أميرنا المرضيا عيسى الهمام السند الوليا
واجعل إلاهي عيشه مرضيا بجاه خير خلقه النبيا

وآلـه وصحبه الشهـود[1]

(1) سليمان الباروني في أطوار حياته ج١ ص٢٢٥-٢٢٧،غاية السلوان ص٩٠-٩١.

"أما المضرة فقد شاهدناها ظاهرة ، وأما المنفعة فها نحن نسمعها بأذاننا، ونلمسها بأيدينا ،ودیننا المبين لا يسّوغ لنا سلوك طريق المضرة وتجنب طريق المنفعة"[1].

وبناءً عليه إن هذا الأمر قد قضي باتفاق العلماء فلا أقبل أي اعتراض فيه.

ثم أمر الإمام بإعلان ذلك في الأسواق بما نصه : "من إمام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي إلى جماعة المسلمين ليعلم الحاضر الغائب أني فوضت الأمر في تنظيم المملكة تنظيما صالحا للشيخ الباروني، فبيده الملكية، والعسكرية، والمالية، والسياسة الداخلية والخارجية، فمن يخالفه أو يقف في سبيل أعماله الإصلاحية يعاقب ولا يلوم إلا نفسه"[2].

وما أن سمع الناس هذا الندى من الإمام إلا وقام الشعراء، والأدباء منهم بإلقاء ما جادت به قرائحهم نظما ونثراً، تأييداً لرأي الإمام، ووقوفاً مع المصلح، فمن ذلك ما جادت به قريحة الشاعر الشيخ عيسى بن صالح الطائي حيث قال:

أقومـــي إن للعليـــاء رجالا لهم فـــي نيلـــها رأي وفكر
لها نحروا الكرى بنصال عزم وفي وثبـــاتها قـــصد وكر
ففرق بين من ساس البرايا وجربها ومن في الـــناس غمر

ويقول فيها:

سليمـــان أقم للديـــن صرحـا لقـــد أودى به طـمـــع مضـــر
تخيـرك الإمـام العدل فاخـــدم رضـاه واثبتن فـــلأنت بـــــدر

(1) سليمان الباروني في اطوار حياته ج٢ ص٣٢
(2) نفس المرجع ج٢ ص٣٠-٣٢ مجلة المنهاج ج٢ ص٦٢٤،معجم أعلام الأباضية ج٢ ص٢٠٧ ، نهضة الأعيان بحرية عُمان ص٤٤٧.

ولا تحجم إذا استعصى جهول تساوى عند زيف وتبر
فطعم الماء في الأفواه عذب وفي فم من به الأسقام مر
فهذا القطر قم فيه عزيزا يحفك من إله العرش نصر

ومن ذلك القصيدة الرائعة التي أنشدها أبو سلام سليمان الكندي نقتطف منها الأبيات التالية قال:

قم سليمان في صلاح البلاد لا تبالي بقول أهل الفساد
إنما أنت عالم كيف أضحت أمم الغرب تزدري بالعباد
هي بالعجز أم بجهل بنيها نالت المجد أم سمت بالرقاد
لا ولكنها تدك بعلم كل صرح بدا بغير عماد
إن تعارضك فئة في نظام لا تلمها لجهلها بالمراد
هكذا كل من سعى في صلاح عاكسته الأيام بالحساد
لكن الجهل حطنا فانحططنا ونسينا مكائد الأضداد

إلى أن يقول فيها:

فالإمام المؤيد اليوم ولاك من الأمر ما إليه تنادي

ويقول فيها:

رب أيد إمامنا العدل وانصر وأجره من كيد كل معاد
ذاك قطب الهدى الخليلي من قد نشر العدل والهدى في البلاد[1]

(١) المنهاج ج٢ ص٦٣٢-٦٣٣ سليمان الباروني في اطوار حياته ج٢ ص٤٠-٤١.

الخاتمة:

وبعد، ومن خلال هذه الورقة التي حاولت فيها تبيين بعض ما قام به هذا المجاهد العظيم والسياسي المحنك من دور بناء في السنوات التي قضاها في عُمان ، يمكن لنا أن نستخلص بعض النتائج التالي:

١. سعيه الحثيث لتأسيس الجامعة العربية ومراسلاته لزعماء العالم الإسلامي والعربي.

٢. وقوف الباروني ضد الاستعمار الايطالي لبلاده وتكوينه لحزبه الاصلاحي المجاهد في ليبيا.

٣. أن الباروني رجل أمة ، وقائد فذ ، فهو عظيم من عظماء التاريخ الإسلامي ، وقائد من قواده.

٤. يمكن القول بأن الباروني هو أحد المصلحين في العالم بدون أي تحفظ وذلك للأسباب التالية :

أ- تأسيسه لجريدة الأسد الإسلامي في مصر عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.
ب- إنشاؤه جريدة الباروني باسطنبول ١٣٣١هـ/١٩١٣م.
ت- تأسيسه لمطبعة الازهار البارونية بالقاهرة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.
ث- انشاؤه المدرسة البارونية بسمائل في داخلية عُمان.
ج- مساندته للحزب الدستوري في تونس ماديا ومعنويا.

٥. يعود الفضل للباروني في عودة العلاقة بين الإمام الخليلي إمام مملكة عُمان، والسلطان تيمور الذي كان حاكما في مسقط وبعض مناطق الساحل آن ذاك إلى طبيعتها.

المرحلة العُمانية في حياة الشيخ سليمان الباروني (١٩٢٤-١٩٤٠م)

د. علي حمزة الصوفي(*)

مقدمة

تعد شخصية الشيخ سليمان باشا الباروني ، ومضة من ومضات الفكر و الجهاد والإصلاح والسياسة والعلم في النصف الأول من القرن العشرين بالبلاد العربية و الإسلامية، فهو الأديب والمؤرخ والمفكر والمصلح والسياسي والرحالة والمدرسة الدينية (الإباضية) والعلمية التي سطعت في خلجات المغرب العربي وتواصلت وتناغمت مع المشرق العربي والإسلامي.

ترجع أصول الشيخ سليمان باشا الباروني إلى إحدى العائلات العُمانية العريقة (البروانية) فلم يكن استقراره في المرحلة الأخيرة من حياته (١٩٢٤-١٩٤٠م) في سلطنة مسقط وعُمان بعيداً عن أجداده وأصوله، على الرغم من إجراءات منعه من السفر من قبل المستعمرين الإيطاليين والفرنسيين والبريطانيين إلى البلاد العربية.

تعتبر المرحلة العُمانية في حياة الشيخ الباروني، إحدى المراحل التاريخية المهمة في مسيرته الجهادية والفكرية والإصلاحية، فقد أسهمت تلك المرحلة الصلات والروابط الدينية والفكرية بين المشرق والمغرب العربي الإسلامي، فضلاً عن تعزيز أواصر اللحمة والتعايش السلمي بين الأمة الإسلامية والوقوف في وجه الأطماع الاستعمارية.

(*) د. علي حمزة الصوفي، جامعة الموصل، العراق.

تقلد الشيخ الباروني في هذه المرحلة من حياته عدة مناصب وكُلف بعدة مهام من إمام عُمان(محمد بن عبد الله الخليلي) فقد كلفه بالمشاركة باسم الأمة العُمانية بحضور المؤتمر الإسلامي في مصر أو غيرها من البلاد الإسلامية لمناقشة قضية الخلافة والأماكن المقدسة، كما كلفه بمهام الإفتاء والقضاء وبعض الأمور الشرعية والفقه، وقُلدَ الباروني منصب وزير الدولة في حكومة الإمام الخليلي. بينما اعتمد سلطان مسقط (سعيد بن تيمور آل بوسعيد)عليه في تنفيذ مخططاته وإضفاء الشرعية الدينية على نفوذه في حكم البلاد.

يصفه صديقه الحميم الشيخ أبو اليقظان إبراهيم، وهو الذي خبره عن قرب ودرس أفكاره ومواقفه بالوصف الآتي: (له نظر واسع لسعادة الإنسانية عموماً، وإلى عزة الإسلام خصوصاً، وإلى إعلاء كلمة الله بوجه أخص، وله اعتزاز كبير بالقومية الإسلامية، ورأي عمومي لمصالح المسلمين ، وشغف عظيم بالاتحاد الإسلامي إلى حد الفناء فيه دون اعتبار لأي جنس ، وكانت سياسته دائماً في الجمع لا في التفريق، وفي التكديل لا في التبديد، وفي التأليف لا في التشريد، وفي التبشير لا في التنفير، وفي التيسير لا في التعسير، مهما وجد لذلك سبيلاً).

تمهيد لسيرة الشيخ سليمان الباروني قبل المرحلة العُمانية :

هو سليمان بن عبد الله يحيى الباروني النفوسي الطرابلسي، أحد ألمع قادة الجهاد والزعماء السياسيين في ليبيا، مؤرخ وأديب ومجاهد بالسيف والقلم(١).

(١) خير الدين الزركلي،الإعلام قاموس وتراجم .لأشهر الرجال و النساء من العرب والمستعربين و المستشرقين ،ج ٣،ط١٧، دار العلم للملايين ، (بيروت ، ٢٠٠٧م) ، ص ١٢٩.

من مواليد مدينة (جادو) في جبل نفوسة سنة ١٨٧٠م، يعود أصله إلى القبيلة البروانية ذات الأصل العُماني وقد نشأ في عائلة عرف تاريخها منذ القرن الرابع الهجري في مدينة طرابلس بمسيرتها الجهادية و العلمية [١].

في سنة ١٨٨٧م سافر إلى جامع الزيتونة بتونس حيث تتلمذ على يد شيوخ إجلاء، من أبرزهم عثمان المكي و محمد النخلي . في سنة ١٨٩٢م سافر إلى القاهرة حيث درس بالجامع الأزهر مدة ثلاث سنوات. في سنة ١٨٩٥م شد الرحال إلى بني يزقن من وادي ميزاب جنوب الجزائر، حيث جلس إلى قطب الأمة الشيخ أطفيش الذي وجد عنده الرعاية و العناية، وكان الشيخ أطفيش مرجع (الإباضية)[٢] في العلم الشرعي و اللغوي، وقد توطدت علاقته برجال العلم، وأعيان الفضل بميزاب ، وأقام هناك حتى سنة ١٨٩٧م[٣] .

خلال مسيرة الباروني العلمية ورحلاته وتواصله مع الشيوخ والعلماء والأئمة و المراجع الدينية ، ظهرت العديد من الأقاويل والاتهامات والمذكرات القضائية التي سبقت محنته وسجنه ووصوله إلى أرض الوطن، فصدرت بحقه وشاية تقتضي بأنه يعمل ضد الدولة العثمانية و لفائدة دولة أجنبية[٤]. وأشارت إحدى الوثائق العثمانية إلى ذلك بعد أن قدمت عريضة اتهام بحق الشيخ سليمان الباروني تزعم أنه ترأس منظمة تسعى سراً لتأسيس وإحياء الدولة الرستمية في الجبل الغربي ، وأن الباروني اتخذ لنفسه لقب إمام المكان المسمى تاهرت في

(١) الشيخ أبو اليقظان إبراهيم ،سليمان الباروني باشا ،ج١ ،المطبعة العربية ،(الجزائر ،١٩٥٣م)، ص٣٢ .
(٢) يطلق عليها البعض اسم (حركة أو مذهب) ، وغالباً ماقلل المؤرخون غير الاباضيين من جذور هذه الحركة وأهميتها مكتفين بالربط بينها وبين الخوارج ، وينسب اسم الحركة إلى (عبد الله بن أباض) من العراق .للمزيد ، ينظر: عوض خليفات ،نشأت الحركة الاباضية ، مطبعة دار الشعب، (الأردن ، ١٩٧٨)؛ هاني سليمان الطعيمات ، الاباضية مذهب لا دين ،ط١ ،دار الشروق للنشر والتوزيع ،(الأردن ،٢٠٠٣) .
(٣) من أعلام الفكر الاباضي المعاصر ، الشيخ سليمان الباروني باشا، ص١ ، بحث منشور على (شبكة الانترنيت) www.4shared:com/office/V3RNioZ-/_.html
(٤) (شبكة الانترنيت)www.facebook.comnote.phnote?id=341514605860051

صحراء الجزائر، وإنه تسلطن وتولى الخلافة في ١٥ شعبان سنة ١٣١٤هـ[١]. هذه المراسلات والمعلومات التي احتفظ بها الباروني حسب ادعاء الوثيقة العثمانية في تلك الفترة، وخصوصاً إن بعضها كان بخط يده، جعلت البعض يتهمه بأنه من ذوي الآراء السقيمة وإنه يدعو إلى السلوك المعوج من الجمعية الفسادية (المنظمة)، لذلك كله اعتبرت هذه الأفعال جناية بحقه، فتقرر لزوم محاكمته جنائياً وإصدار مذكرة توقيف غير مؤقت بحقه[٢].

سجن الباروني في البداية شهرين، وحمل السلطات على إطلاق سراحه بكفالة، وبعد مساجلات ومداولات في المحاكم و تداخلات القبائل والعشائر، تم إطلاق سراحه وأفرج عنه بعفو سلطاني صدر سنة١٩٠٢م[٣].

واجهت سليمان الباروني المحن الشديدة والعسيرة منذ مطلع شبابه، فغادر إلى طرابلس سنة ١٩٠٢م إلى يفرن مركز الجبل الغربي، وبها أسس مدرسة سنة ١٩٠٤م سماها (المدرسة البارونية)[٤]، وتولى الإشراف عليها والده الشيخ عبد الله الباروني ،وكانت مدرسة نظامية تدرس العلوم الشرعية و اللغوية، وأنشأ إلى جوارها المكتبة البارونية إلتي ضمت نفائس الكتب والمخطوطات، وتابع في هذه الفترة تأليف كتاب الإزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية[٥].

بعد ذلك بسنتين وتحديداً سنة ١٩٠٦م سافر إلى مصر، وهناك أتيحت له الفرصة والإفادة من الامتزاج بالحياة الثقافية و العقلية و عقد هناك صلات

(١) وثائق تاريخ ليبيا الحديث . الوثائق العثمانية(١٨٨١-١٩١١م)، ترتيب ومراجعة وتقديم: الدكتور احمد صدقي الوجاني، جمع وترجمة : الحاج عبد السلام ادهم ، منشورات جامعة بنغازي ، مطابع دار صادر ، (بيروت ،١٩٧٤)، وثيقة رقم (٩٥) في ٢٥مايو ١٨٩٩م ، ص ١٥٦ .
(٢) وثائق تاريخ ليبيا الحديث. المصدر السابق، ص ١٥٧-١٥٨.
(٣) (شبكة الانترنيت)www.facebook.com.
(٤) وتسمى أيضاً بمدرسة(ات بخبو)، ولم يكن سليمان الباروني هو مؤسسها، إنما هو أعاد الحياة فيها وأعاد فتحها من جديد، مؤسسها هو (سالم أبو الهول اليفرني) وكانت سنة ١٧٩٨م حسب ما ورد في ديوان الباروني نفسه، هذه المدرسة كان لها جهود كبيرة في تحفيظ القرآن وتعليم الفقه الإباضية والعقيدة الإباضية. (شبكة الانترنت) www.tamezgha.maktoopblog.com/1616310.
(٥) من أعلام الفكر الإباضي المعاصر، المصدر السابق، ص٣.

حميمة مع مشاهير إعلام الحركة الأدبية والفكرية والسياسية ، وتأثره بحركة الإصلاح الديني و التحديث في تلك الفترة . في سنة ١٩٠٦م أنشأ مطبعة الإزهار البارونية، وفي عام ١٩٠٨م اصدر جريدة (الأسد الإسلامي) التي لم يصدر منها إلا ثلاثة إعداد فقط، إلا أنها وضحت أفكاره وطموحاته التي انصبت في الجوانب الدينية و السياسية والإصلاحية، فضلاً عن تأليف وطبع مجموعة من الكتب و النشاطات الفكرية والأدبية[١].

كانت الدولة العثمانية تمر بظروف استثنائية وأزمات حادة في تلك الفترة، وسنوات حكم السلطان عبد الحميد الثاني في أنفاسها الأخيرة ،الذي كان قد تبنى تنفيذ نظرية الجامعة الإسلامية و الإصلاحات الدستورية بمراحلها الأولية والمشروطية [٢].

اهتم الباروني بفكرة الجامعة الإسلامية ، فقد كتب مقالاً في جريدته عن مفهوم الجامعة الإسلامية والعوائق المانعة من ظهورها إلى حيز الوجود، ودعا إلى إنشاء حزب للدفاع عن الدين الإسلامي، كما رد الباروني على المعتمد البريطاني في مصر اللورد كرومر الذي ألف كتابا زيف فيه الحقائق و الرغبات الإصلاحية[٣].

مع تصاعد حركة الإصلاحات الدستورية في الدولة العثمانية، ولد في صيف ١٩٠٨م (الدستور العثماني الجديد) الذي وسع الحريات في أفق (الدولة العلية)، وكان الدستور يقتضي أن يؤسس مجلس المبعوثان الذي هو مجلس برلمان الأمة، وكانت طرابلس الغرب إحدى ولايات الدولة العثمانية ومن

(١) علي محمد محمد الصلابي، تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا، ط٢، دار المعرفة، (بيروت،٢٠٠٦م)، ص١٤٩(شبكة الانترنت)www.facebook.com

(٢) للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد سهيل طقوس، تاريخ العثمانيين (من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة)، ط٢، دار النفائس، (بيروت،٢٠٠٨م)، ص٤٢١ وما بعدها

(٣) الصلابي، المصدر السابق، ص ١٩٦-١٩٧، (شبكة الانترنت)www.facebook.com

مقاطعاتها الجبل الغربي الذي رشح بالإجماع هذا الشاب الطموح الذي أخذت الأيام تعلمه أشياء جديدة في العمل السياسي، وتوسع من أفقه المعارف والأسفار، وترشح إمكاناته الخلقية والخلقُية لكل ذلك، ودخل سليمان الباروني ابن الثمانية و الثلاثين عاماً الانتخابات ونجح نجاحاً ساحقاً ،وغدا نائبا في البرلمان العثماني[١].

في الأستانة تعرف الباروني على البارزين من رجال الفكر والسياسة العرب و الترك، كما نبه الباروني إلى خطر الإيطاليين وأطماعهم في ليبيا، وأشار خلال عضويته في مجلس المبعوثان العثماني إلى ضرورة حماية طرابلس الغرب والدفاع عنها، ورفع تقريراً سرياً بذلك نوه فيه إلى الأخطار التي تمر فيها الدولة العثمانية بأدق ظروفها التاريخية، واشترك في عضوية جمعية الاتحاد والترقي في تلك الفترة[٢].

لم يتخلى نائب الجبل الغربي سليمان الباروني عن خدمة ورعاية مصالح الليبيين في تلك الفترة، فتشير إحدى الوثائق العثمانية إلى فحوى رسالة من سليمان الباروني إلى الصدر الأعظم ومضبطتان من الأهالي، وإن إحدى النسختين هي المضبطة المحتوية على تواقيع خمسين من أعيان قضاء نالوت المحادة لتونس والثانية هي المضبطة التي وردت من أعيان وتجار غدامس المحادية للجزائر، في كلا المضبطتين يشتكون من الإجحاف الذي لحقهم بأعراضهم وأملاكهم من لجنة تحديد الحدود ، وقدم الباروني أربعة اقتراحات إلى الصدر الأعظم يوضح فيها الحلول والسبل لمعالجتها[٣].

(١) من أعلام الفكر الإباضي المعاصر، المصدر السابق، ص٤.

(٢) (شبكة الانترنت)www.facebook.com .

(٣) وثائق تاريخ ليبيا الحديث، المصدر السابق، وثيقة رقم(١٥٧) في ٢٧ شباط ١٩١٠م، ص٢٧٨-٢٨١.

بقي الباروني في الأستانة حتى غزت إيطاليا ليبيا في سنة ١٩١١م، فعاد لوطنه لينضم إلى مواكب المجاهدين ليقاتل الإيطاليين ببسالة الشجعان وعزيمة المؤمنين المخلصين، للفترة من (١تشرين الأول١٩١١م –٩تشرين الأول١٩١٢م) حيث عقدت معاهدة أوشي بين إيطاليا والعثمانيين والتي بمقتضاها تخلت الأخيرة عن المجاهدين في ليبيا وسحبت جيوشها من طرابلس على أمل إيجاد صلح وإيقاف القتال بين المجاهدين وايطاليا التي لم تكن تحتل سوى بعض المدن الساحلية فقط، وينفرد الباروني بموقف بطولي مشرف ألا وهو عدم الاعتراف بمعاهدة أوشي التي عقدها الأتراك منفردين مع الطليان، والاستمرار بالقتال حتى تعترف ايطاليا بالحكم الذاتي للبلاد، وانظم الباروني في موقفه هذا كل من المجاهدين الكبيرين : الشيخ سوف المحمودي ومحمد بن عبد الله البوسيفي[١].

وتنفيذاً للسياسة التركية في تلك الفترة، عين الباروني بمرسوم (فرمان) سلطاني والياً وقائداً عاماً على ولاية طرابلس، وألحقوها بحكم استانبول، وتعزى أسباب تعيينه إلى انه لايزال محسوباً عندهم عضواً في مجلس الأعيان (البرلمان) عن طرابلس، ولشهرته وإخلاصه لها[٢].

بدأ سليمان الباروني مفاوضة الإيطاليين في طرابلس ولكنهم رفضوا الاعتراف بمبدأ الحكم المحلي، أو الاستقلال الداخلي لطرابلس، ثم اقترح الشيخ المجاهد مشروعا ينص على بعض المزايا والحقوق للأهالي مع إصدار عفو صريح عنهم، ورحل بعد ذلك إلى الأستانة، حيث منحه السلطان رتبة الباشوية

(١) حسين علي خشيم، صحفحات من جهادنا الوطني، ط٢، دار مكتبة الفكر، (طرابلس، ١٩٧٤)، ص ص ٥٤-٥٥.

(٢) محمد مسعود فشيكة، رمضان السويحلي البطل الليبي الشهير بكفاحه للطليان ، ط١،الناشر الفرجاني، (طرابلس ،١٩٧٤م)، ص١٣٠-١٣١.

وعينه عضوا في مجلس الأعيان مدى الحياة، وظل مقيما في تركية حتى إعلان الحرب العالمية الأولى سنة١٩١٤م[١].

قررت الحكومة العثمانية في سنة١٩١٦م، تأسيس هيئة في الأستانة لغزوا شمال افريقية، بالاتفاق مع رجالها اللاجئين، وطلبت الهيئة تعيين سليمان الباروني والياً عاماً على المناطق المحررة، ووافقت الحكومة[٢].

في ٢٤ نيسان ١٩١٦م، نزل الباروني بغواصة ألمانية في مصراته مصحوبا بكثير من الأموال المعدنية والورقية التركية، واستقبله أعيان وأهالي مصراته وحكومتها استقبالا كبيرا وتفاءلوا خيرا بقدومه[٣]. وفي سبتمبر من نفس العام ظهر الباروني في طرابلس يحمل فرمانا من السلطان العثماني بتعيينه حاكما على ولايات طرابلس وتونس والجزائر، واتخذ الجبال مقرا له وأخذ ينضم المقاومة في طرابلس ويزعج الإيطاليين بمعاركه طوال سنة ١٩١٧م ، ويرسل رسله إلى الجزائر وتونس لنشر الدعوة إلى المقاومة. وكانت ألمانيا تمد المجاهدين بالأسلحة والذخائر والضباط الألمان وتتصل بهم بواسطة الغواصات، ولما انتهت الحرب العالمية الأولى وهزمت الدولة العثمانية، قرر الشيخ سليمان الباروني البقاء رغم ذلك واشترك في تكوين الجمهورية الطرابلسية[٤].

الواقع إن هذه المساعدات الألمانية، كانت تأتي من الأتراك لحكومة الباروني لأغراض دعائية وسياسية لهم فائدتها، لا مساعدات نزيهة لتشجيع الطرابلسيين على قتالهم لعددهم، بدليل أنهم بعد انكسارهم في الحرب وافقوا على أن يقطعوا جميع المساعدات عن الطرابلسيين التي كانوا يمدونهم بها بحرا.

(١) جلال يحيى ، العالم العربي الحديث . الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، دار المعارف ، (الإسكندرية ، ١٩٨٤م) ، ص ٦٣٣.

(٢) حسن صبحي ،مذكرات في تاريخ شمال افريقية الحديث والمعاصر، مؤسسة شباب الجامعة ،(الإسكندرية ، ١٩٧٣م) ، ص ١٨١

(٣) فشيكة ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٤) صبحي، المصدر السابق، ص ١٨١-١٨٢.

والباروني كان مطلعا على أسرار وتقلبات السياسة الدولية، ولم تكن الحقائق خافية عنه، من الأتراك وسيطرة حزب الاتحاد والترقي على حكمهم، وخصوصاً ميولهم السيئة نحو العرب، وإنما دوافعه الوطنية حملته فيتلك الظروف الطرابلسية أن يستفيد منهم لصالح أبناء قومه، ومن أي جهة تعلن تأييدها المادي والأدبي لهم[١].

تأثرت ليبيا في بداية الحرب العالمية الأولى وانقسمت إلى معسكرين هما، زعماء الغرب (سليمان الباروني ورمضان السويحلي) وكذلك أحمد الشريف السنوسي وقفوا مع تركيا وألمانية، أما محمد إدريس فهادن الانكليز، وبعد هزيمة تركيا وألمانية في الحرب العالمية الأولى تغيرت الموازين، وآل أمر طرابلس الغرب إلى فكرة الجمهورية الطرابلسية[٢]. وكان الباروني أحد الأعضاء الأربعة المشاركون في تأسيس هذه الجمهورية في يوم السبت١٣صفر١٣٣٧هـ/ ١٦ تشرين الثاني ١٩١٨م، وتم تشكيل مجلس إدارة الجمهورية من الأعضاء الأربعة وهم كل من: (رمضان بك السويحلي وأحمد بك المريض وعبد النبي بك بالخير وسليمان الباروني)[٣].

عقد الطرابلسيون صلح (سواني بني آدم) مع إيطاليا سنة١٩١٩م[٤]، وتحديداً في ليلة ١٧ نيسان في قرية سواني بني آدم غرب مدينة طرابلس نحو ١٢ كيلومتر، واعتبر الطرابلسيون ذلك الصلح انتصاراً سياسيا وحربياً على خصمهم المتشامخ عليهم بقوته العسكرية، وأصدرت ايطاليا القانون الأساسي

(١) فشيكة ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ ..
(٢) الصلابي ، المصدر السابق ،ص٣٧٥-٣٧٦
(٣) احمد إسماعيل راشد ، تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر (ليبيا . تونس. الجزائر. المغرب .موريتانيا)،ط١، دار النهضة العربية ،(بيروت ،٢٠٠٤) ،ص ٤٤٧؛ خشيم ،المصدر السابق،ص٥٦ ؛فشيكة ،المصدر السابق ،ص١٩٥؛الصلابي ،المصدر السابق،ص٣٨٦ .
(٤) الزركلي ، المصدر السابق ، ص ١٢٩؛يحيى ، المصدر السابق ،ص ٦٤١.

الذي جعل الفرد الطرابلسي ،في مصاف الفرد الإيطالي في الحقوق السياسية والاجتماعية[١].

اشتمل القانون الأساسي (الدستور)على (٤٠) فصلاً، ولكن قواعده الأساسية ارتكزت في (٦٠) مادة منه، وختمت مواد الدستور بتوقيعات السادة الآتية أسمائهم وهم :عن العرب (سليمان الباروني – أحمد المريض – رمضان الشتيوي– أحمد الصويعي نيابة عن عبد النبي بالخير). وعن الطليان : الجنرال ماجورتارديتي رئيس الدائرة السياسية – الجنرال باسكانو رئيس هيئة أركان حرب الجيش الايطالي[٢].

ماطل الإيطاليون في تنفيذ نصوص القانون الأساسي (الدستور)، ثم خرقوا الصلح، وعادت الحرب[٣] والانتكاسة والفتن الجهوية في البلاد، وما نتج عنها من الكوارث، هو عدم الظهور بين الأعضاء الوطنيين الثمانية لأسمي الزعيمين الكبيرين سليمان باشا الباروني وعبد النبي بك بالخير، مع أنهما عضوان بارزان في مجلس إدارة الجمهورية الطرابلسية[٤].

لم يستطع الزعماء أن يتغلبوا على أهوائهم الشخصية ،فانتهى بهم الأمر إلى مقتل رمضان السويحلي، وعبد النبي بالخير توفي في الصحراء الكبرى أثناء هجرته إلى تونس بسبب العطش ، وأحمد المريض توفي في الفيوم بمصر، ومحمد إدريس السنوسي أصبح لاجئا سياسيا، فيما هاجر الشيخ سليمان الباروني

(١) الصلابي ، المصدر السابق ، ص ٣٩٩.
(٢) فشيكة، المصدر السابق ، ص ص ٢٠٧-٢٠٩
(٣) خشيم، المصدر السابق، ص٥٦.
(٤) فشيكة، المصدر السابق، ص٢٢٤.

البلاد ورفض العيش في ظلالها وفضل الهجرة والغربة مرة أخرى[1]، فغادر طرابلس إلى الأستانة ليتقلد منصب العضوية في مجلس الشيوخ (الأعيان)[2].

غادر الباروني طرابلس إلى الأستانة في تشرين الثاني ١٩١٩م، و لكنه صادف قدومه إليها انقلاب الكماليين بقيادة مصطفى كمال، فخابت أماله وعادا أدراجه إلى طرابلس بداية سنة ١٩٢٠م، وعاش بعيداً عن السياسة وأضوائها[3]، فلم تلبث السلطات الإيطالية إن طلبت منه في سنة ١٩٢٢م مغادرة البلاد، وتحت المؤامرة والتهديد غادر وطنه دون أن يودع أهله وأولاده[4].

حملته ريح الاغتراب إلى الأستانة مرة أخرى، ثم أنقره، ولكنه وجد الأمور قد تغيرت وأصبح الحكم للكماليين، وهم أعداء الخلافة، ولم يستقر به المقام هناك فحاول السفر إلى الشام أو مصر أو تونس أو الجزائر، ولكن الاستعمار الإنكليزي والفرنسي والإيطالي أجمع على محاصرة المجاهد خوفاً منه، ولم يجد حيلة إلى الخروج سوى التنكر تحت جواز سفر يحمل اسم (سليمان بن عبد الله العثماني)، فاجتاز رومانيا في طريقه إلى أوربا واستقر في باريس ، ولكن ما إن تفطنت السلطات الفرنسية إلى الحقيقة حتى فرضت عليه المراقبة الشديدة ومنعته من مغادرة فرنسا، وراح يتنقل بين باريس ومرسيليا، غير أنه لم ييأس مرة أخرى فاستصدر جواز سفر جديد باسمه المنتحل وسافر إلى تونس، واكتشف أمره وأعيد إلى منفاه فرنسا مرة أخرى[5].

غادر الباروني فرنسا سنة ١٩٢٤م بعد شفاعة الشريف حسين له لدى الفرنسيين، فذهب للحج ولم يستقر طويلاً في الحجاز ، فانتقل بعد ذلك واستقر

(١) الصلابي ، المصدر السابق ، ص ٤١٦.
(٢) فشيكة، المصدر السابق، ص٢٢٤.
(٣) من أعلام الفكر الإباضي المعاصر، المصدر السابق، ص١٠.
(٤) (شبكة الانترنت) http://www.al-shouraffa.com/wp-contnet/uploads/2012/05/
(٥) من أعلام الفكر الإباضي المعاصر، المصدر السابق، ص١٠.

في عُمان[1]. ولتبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياته وأسفاره وإصلاحاته المعروفة بالمرحلة العُمانية ١٩٢٤-١٩٤٠م والتي نحن بصدد بحثها.

قسمت المرحلة العُمانية للشيخ سليمان الباروني إلى عدة فقرات، وهي كما يأتي :

رسالة من إمام المسلمين في عُمان(محمد بن عبد الله الخليلي ١٩١٩-١٩٥٤م)[2] إلى الشيخ سليمان الباروني محررة في رمضان١٣٤٣هـ الموافق شهر آذار/ مارس من سنة ١٩٢٥م، يكلفه فيها بالمشاركة باسم الأمة العُمانية بحضور المؤتمر الذي تقرر عقده في مصر أو غيرها من البلاد الإسلامية لمناقشة قضية الخلافة والأماكن المقدسة، على أن يكون رأيه في مسألة الخلافة مطابق لقواعد الشرع الصحيحة، على أن يكون رأيه في مسألة الأماكن المقدسة مبنياً على حمايتها من عبث العابثين بها ووقايتها من تسلط كل يد أجنبية عليها مهما كانت مقاصدها و صبغتها، ويبلغه فيها انه قد استحسن تكليف سلطان مسقط (سعيد بن تيمور ١٩١٣- ١٩٣٢م) إياه بالتوجه إلى الحجاز مندوباً من طرفه و حاملاً كتب نصيحة منه إلى المتحاربين حول بيت الله الحرام[3].

(١) (شبكة الانترنت) www. Al-shouraffa.com . من أعلام الفكر الإباضي المعاصر، المصدر السابق، ص١١.
(٢) من مواليد بلدة سمايل ١٨٨١م، هو حفيد الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي احد ابرز زعماء قبيلة بني رواحة الهناوية ،انتخب إماما في(٥٦)من عمره،لما اتصف من تقوى وورع ومكانة دينية بين القبائل وله معرفة واسعة بالمذهب الاباضي ،مارس القضاء فضلاً عن منصب الإمامة والأمور السياسية بعد المشاورة .موسوعة عُمان :الوثائق السرية [سيرمز لها لاحقاً بـ (م .ع.و.س)] ، إعداد و ترجمة : محمد بن عبد الله بن حمد الحارثي،إعداد وإصدار: مركز دراسات الوحدة العربية،(بيروت ، ٢٠٠٧م)، الوثيقة رقم(٥٥١)،ج ٣،(نبذة عن شخصية الإمام محمد بن عبد الله الخليلي-تقرير قسم البحوث بدائرة العلاقات في الشركة العربية الأمريكية للزيت(ارامكو)في سنة١٩٥٢م..)،ص٤٩-٥٣؛ جون سي.ولكنسون، الإمامة في عُمان، ترجمة :الفاتح حاج التوم وطه احمد طه، ط١، وزارة شؤون الرئاسة – مركز الوثائق والبحوث، مطابع مركز الوثائق والبحوث ،(الإمارات العربية المتحدة،٢٠٠٦)، ص٣٦٧-٣٦٩.
(٣) (م.ع.و.س) ، ج١ ،المصدر السابق، ص٤٢٨-٤٢٩ .

في ١٠ربيع الثاني ١٣٤٤هـ، انعقد بأمر عظمة الإمام مؤتمر عظيم في حصن بهلا غربي (نزوى)[١] حضره أقطاب الأمة من العلماء و قواد الجيش ورؤساء القبائل و كان من بينهم سعادة الباروني باشا . وقد تداولوا فيه عن التدابير الواجب اتخاذها إزاء أزمة البلاد الشرقية من عُمان . وكان الباروني قد أشار في مذكراته و تحت عنوان جزيرة العرب . لا خوف على عُمان من المعاهدة ما ذكر في جريدة الشورى و جريدة العراق عن وجود معاهدة ثلاثية لغزو عُمان، و نوه الباروني إلى وحدة الأمة العُمانية سلطانا و إماما وتوحيد كلمة البلاد ضد الأخطار البرية والبحرية و الدفاع عن سلطنة مسقط وعُمان[٢].

توضح إحدى الرسائل الصادرة من عاصمة الإمامة نزوى وموجهة من الباروني لأخيه مؤرخه في١١رجب١٣٤٥هـ لنماذج من إحكام الإمام في عُمان: ففي سنة١٣٤٤هـ قتل رجلان من قبيلة أمير الشرقية الشيخ (عيسى بن صالح الحارثي ١٨٩٦-١٩٤٦م)[٣] عند رجوعهما من دبي طمعاً في مالهما و سلاحهما، وبعد البحث والتحقيق ظهر أن القاتل من لصوص البدو الساكنين من جهة الظاهرة (البريمي)[٤] القريبة من دبي ، فقبض رئيس البريمي على المتهم وجز رأسه وأرسله إلى مسقط فتعفن فطافوا به في أسواق مسقط ومطرح ودفنوه . أما رئيس الدروع فقبض على المتهم المنكر وأرسله مع عشرة رجال إلى الشيخ

(١) هي إحدى ولايات المنطقة الداخلية ويتبعها إداريا نيابتي الجبل الأخضر وبركة الموز،ويبلغ عدد قراها٤٣، وتشتهر ولاية نزوى ماضيا و حاضرا بمركزها التجاري الهام واتخذها قديما أئمة عُمان عاصمة لهم. وزارة الثقافة العُمانية،سلطنة عُمان ومسيرة الخير- المنطقة الداخلية والوسطى،(مسقط ، ١٩٨٦م)، ص٤١.

(٢) (م.ع.و.س) ، ج١، المصدر السابق ، ص ص ٤٣٠-٤٣٤ .

(٣) للمزيد عن حياته ،ينظر: (م.ع.و.س)،الوثيقة رقم (٥٥٢) ،ج٣ ،المصدر السابق ،ص ص ٥٤-٥٦ .

(٤) وهي من واحات شبه الجزيرة العربية ، و تتألف من مجموعة من قرى اختلفت المصادر في عددها ما بين (٦-١٢) قرية موزعة ، و ثلاث منها تتبع سلطنة مسقط وعُمان (البريمي وحماسا وصعرا) و ثلاث أخرى غير مسكونة و البقية تتبع مشيخة أبو ظبي . تبلغ مساحة البريمي حوالي (٣٧) كيلو متر مربع ، وأصبحت المساحة بحدود (١٩٨٥) كيلو متر مربع عندما أثير النزاع حولها عام ١٩٤٩م . ولا توجد فواصل طبيعية تفصل البريمي عن مسقط و عُمان و أبو ظبي ، و تبعد البريمي عن الإحساء السعودي نحو (٤٠٠) ميل . عرض حكومة المملكة العربية السعودية ، التحكيم لتسوية النزاع الحدودي بين مسقط و أبو ظبي و المملكة العربية السعودية ،ج١، (القاهرة ،١٩٥٥)، ص ص ٣١-٣٢. وللمزيد، ينظر : أمير علي حسين ، الخلاف الحدودي حول ، واحة البريمي بين السعودية و عُمان و أبو ظبي ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمةإلى كلية الآداب في جامعة البصرة ، ٢٠٠١م.

عيسى، فأرسله إلى عظمة الإمام فأمر بوضعه في السجن، المضيق في قلعة نزوى والتحقيق جار. كما قتل رجل بلوجستاني ابني عمه في عُمان وهرب ، ثم ألقي عليه القبض وبلغ الخبر أولياء المقتولين في بلوجستان فحضروا وحوكم الجاني بين يدي عظمة الإمام، و ثبت عليه الجرم ولم يقبل الأولياء الدية فأعدم رمياً بالرصاص بحضور الإمام في سمايل[١]. هكذا يجري القصاص في عُمان. وإذا تأملنا هذه النماذج المذكورة آنفا من الإحكام من إنفاذ الإمام الخليلي حكم القصاص طبق الشرع العزيز وأسوة بسلفه إمام (سالم بن راشد الخروصي١٩١٣-١٩١٩م)[٢].

وإذا لاحظنا تضامن أهل المملكة في إنفاذ الإحكام الشرعية سواء ما كان تحت نفوذ جلالة السلطان أو ما كان تحت نفوذ عظمة الإمام، تبين لنا ما كان لمملكة عُمان من سطوة وسلطة على عتاة الأمن و العابثين بالراحة و النظام[٣].

نشرت جريدة العالم العربي الصادرة في ٢٩ كانون الأول / ديسمبر١٩٣٢م فصلاً للباروني باشا تحت عنوان مناورات الانكليز نحو عُمان ورد فيه ما يلي :

قد اطلعت على نبذة من رسالة (إيران) جاءت في العالم العربي عدد (٢٦٥٧)، وتعجبت من تسمية المراسل الشارجة (الشارقة) المدينة ، و من تلقيبه شيخها بالسلطان ! لأن الشارقة عبارة عن بلدة صغيرة لا تبعد عن مدينة دبي الشهيرة بأسواقها العامرة ولؤلؤها الفاخر أكثر من نصف ساعة، و أما رئيسها

(١) (م.ع.و.س) ،ج١، المصدر السابق ، ص ٤٣٦.

(٢) في عام ١٩١٣م اجتمعت مجموعة من العلماء ورؤساء القبائل في مدينة تنوف العُمانية ، و قررُ ترشيح العالم سالم بن راشد الخروصي إماما لعُمان، كان بن ناجح إمامة الخروصي يقوم على أربع نقاط : (إسقاط نظام السلطنة ، إنهاء الوجود و النفوذ البريطاني ، العمل على توحيد البلاد،إعادة إقامة الإمامة على كل البلاد . وتوافدت القبائل الهناويةوالغافرية على مبايعة الإمام الجديد و الحصول على اتفاق بينهما . حسين غباش،عُمان. الديمقراطية الإسلامية (تقاليد الإمامة والتاريخ السياسي الحديث ١٥٠٠-١٩٧٠م)، نقله إلى العربية : د.أنطوان حمصي، ط٤، دار الفارابي ، (بيروت ، ٢٠٠٦م) ، ص٢٧٧- ٢٧٨ .

(٣) (م.ع.و.س) ،ج١، المصدر السابق ، ص٤٣٦-٤٣٧ .

فشيخ قبيلة صغيرة بالنسبة إلى قبائل دبي العظيمة . و المفهوم أن المراسل ترجم ذلك عن عبارة أجنبية ، ولا غرابة لأن السياسة قد تصور الحبة جبلاً لمآرب خاصة . نعم شاع قبل سنتين أن قنصل بريطانية في الخليج يخاطب بعض مشايخ سواحل عُمان الشمالية ومنهم هذا الشيخ على إنشاء محطة للطائرات حتى إنه على ما قيل هدد بعضهم، ومنّى بعضهم بأماني كبيرة ، وتوسط ببعض رؤساء العرب من خارج عُمان ولم يفلح ، و لا نعلم الشيء الذي أخضع هذا الشيخ اليوم[1]! وبما أن الاعتراض كان منتظراً من عظمة سلطان مسقط السيد (تيمور)[2]. إذ ذاك وقف أهل الرأي في دواخل عُمان ينتظرون، ولما تحققوا أن السلطان لم يتكلم لأسباب جهلوها أو تكلم ولم يؤثر كلامه، أرسل عظمة الإمام أبي عبد الله الخليلي بواسطة أمير الشرقية الشيخ عيسى بن صالح احتجاجا إلى قنصل بريطانيا في مسقط بيّن له فيه : "إن مخاطبة القنصل للمشائخ مباشرة و في البلاد دولة مخالف للأصول ، و أن الأمة العُمانية تعتبر بلادها كتلة واحدة كما هي عليه منذ عرفت (من قطر المجاورة للبحرين ، إلى ظفار المجاورة لحضرموت)، و إن الأمة العُمانية لا تعترف باتفاق ما من شيخ عُماني مع دولة أجنبية مطلقاً و لا تقبل في داخل حدودها المذكورة غير الراية العُمانية أبداً ، وان كل حركة تصدر من القنصل أو غيره في هذا السبيل تعتبره الأمة العُمانية تعدياً على حقوقها وتصدياً للإخلال باستقلالها التام الذي حافظت عليه إلى اليوم و ستحافظ عليه إلى النهاية"[3].

هذا ما كان عليه العُمانيون من قبل ، أما بعد هذا الحادث الخلل – حادثة الشارقة – فالله أعلم بما سيكونون عليه تجاه بريطانية صديقتهم ؟ إنما الذي

---

(1) (م.ع.و.س) ،ج١، المصدر السابق ، ص ٤٣٧ .

(2) للمزيد من التفاصيل عن فترة حكم السلطان تيمور بن فيصل بن تركي آل بو سعيد (١٩١٣-١٩٣٢م)، ينظر: خليل إبراهيم المشهداني،التطورات السياسية في عُمان وعلاقاتها الخارجية (١٩١٣-١٩٣٢م) ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب في جامعة بغداد ، ١٩٨٦م .

(3) (م.ع.و.س) ،ج١، المصدر السابق ، ص٤٣٧-٤٣٨ .

أعلمه (الكلام للباروني)هو أنه لما شاع سابقاً عزم بريطانية على سلخ الجزء الشمالي من عُمان و تمليكه لأجنبي باسم ملك، قام أرباب النفوذ والفكر في أكثر جهات عُمان يسعون إلى تكوين حزب باسم (حزب الاتحاد العُماني) للتوفيق بين الإمامة و السلطنة و توحيد المملكة كلها من قطر إلى ظفار مع المحافظة على بعض امتيازات لبعض مواقع لأهميتها[1].

نقلاً عن جريدة فتى العرب ، نشرت خبر وصول الزعيم الباروني إلى مسقط ، واشتد به مرض الملاريا فاستأذن من عظمة السلطان تيمّور في الدخول إلى (دواخل المملكة)[2] لتبديل الهواء وإجابة دعوة عظمة إمام عُمان، وصديقه القديم الشيخ عيسى بن صالح أمير الشرقية، فأذن له واستقبل استقبالاً شيقاً في البلدان التي مر بها بأمر من الإمام وأقيمت له احتفالات وتلقاه الأمير عيسى في مركزه (القابل) ،كما زار الباروني أمير الجبل الأخضر الشيخ(النبهاني)[3]، ووصل نزوى بعد رجوع الإمام إليها، حيث لأحكم إلا لكتاب الله وشريعته ورسوله(صلى الله عليه وسلم)، و حيث لا أثر لأجنبي بل لا يسمح للأجنبي بالدخول مطلقاً، حتى إن العربي الغريب إذا لم يكن موثوقاً به ثقة تامة فأنه يمنع من الدخول أيضا)[4].

تنقل الباروني في دواخل المملكة العُمانية ،واطلع على أثارها ومراكزها الدينية والتاريخية، فيذكر الباروني أنه زار آثار الإمام المحدث (أبو الشعثاء

---

(1) (م.ع.و.س) ،ج١، المصدر السابق ، ص ٤٣٩.

(2) كان طراز الحكم في مملكة عُمان (سلطنة مسقط وعُمان) ، مقسم بين الساحل العُماني (مسقط والسواحل) تحت حكم السلطان ،إما دواخل عُمان فكانت تحت حكم الإمام . و الإمام في الداخل كالسلطان في الساحل، والشيخ في المنطقة الممتازة هو الحاكم المطلق وفي كل ولاية وآلٍ وقاضٍ شرعي وجند بقدر سعة الولاية له ، ولا يسود البلاد ألاحكم الشريعة الإسلامية سواء في ذلك الساحل والداخل ، والحدود الشرعية تقام في منطقة الإمام من دون هوادة . (م.ع.و.س) ،ج١، المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .

(3) هو الشيخ سليمان بن حمير النبهاني رئيس قبيلة بني ريام وأمير منطقة الجبل الأخضر ،والده حمير بن ناصر القائد الغافري الذي لعب دوراً محورياً وأساسيا في تكوين وتأسيس الإمامة الجديدة عام ١٩١٣م . للمزيد ، ينظر: (م.ع.و.س) ، الوثيقة رقم (٥٥٣) ، ج٣، نبذة عن شخصية سليمان بن حميد النبهاني، أمير الجبل الأخضر– تقرير قسم البحوث بدائرة العلاقات في الشركة العربية الأمريكية للزيت (ارامكو) في سنة ١٩٥٢م،ص٥٧ -٦٠.

(4) (م.ع.و.س) ،ج١،المصدر السابق ،ص٤٣٩-٤٤٠ .

جابر بن زيد الأزدي العُماني) المكنى بـ (ابن عباس) الذي نقل عنه ثقاة الحديث، وكذلك زار الباروني ضريح ابنته الشعثاء[1].

عندما استقر الباروني في نزوى عاصمة الإمامة العُمانية، واستجابة لحماسته في إصلاح شؤون البلاد على النهج العصري سياسة وصحة وثقافة أصدر الإمام الخليلي بياناً انطلق المنادون به بإعلان في الأسواق ،وقد جاء فيه ما يلي :

من إمام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي إلى جماعة المسلمين : ليعلم الحاضر الغائب إني فوضت الأمر في تنظيم المملكة تنظيماً صالحاً ... للشيخ سليمان الباروني فبيده، الملكية، والعسكرية، والمالية، والسياسة الداخلية، والخارجية، ومن يخالفه أو يقف في سبيل إعماله الإصلاحية يعاقب، ولا يلوم إلا نفسه[2]. فأخذ يدير البلاد بحكمة وروية لينهض بها على قدر الإمكان مع السعي إلى إصلاح ذات البين وإزالة ما بقي في النفوس من التنافر، و قرب الباروني بين السلطان المستقيل (تيمور) و الإمام (الخليلي)، حتى أصبحا يتبادلان الرسائل من دون واسطة، رغماً من عدم اعتراف السلطان بالإمامة الجديدة ، والباروني صديقهما معاً ومؤتمن في نصائحه عند الجميع، كما بذل الباروني جهداً متميزاً في تنشيط وتطبيق بنود معاهدة (السيب)[3] التي عقدت في سنة ١٩٢٠م، التي بقت حبراً على ورق إلى عهد حضور الباروني باشا[4].

إن واردات البلاد ساحلاً وداخلاً من الزكاة، إذ يستوفي السلطان والإمام زكاة المزروعات وتمرة النخيل وزكاة المواشي و زكاة عروض التجارة و زكاة

---

(١) (م.ع.و.س) ،ج١،المصدر السابق ،ص٤٤١ .
(٢) من أعلام الفكر الاباضية المعاصر، الشيخ سليمان باشا الباروني، ص١٢ .
(٣) للمزيد من التفاصيل عن معاهدة السيب ، ينظر : (م.ع.و.س)،الوثيقة رقم(١٥٤)،ج ٢، نسخة العُمانيين من اتفاقية السيب (R/15/6/204)،٢٢٤-٢٢٦؛ (م.ع.و.س) ،الوثيقة رقم(١٥٥)، ج ٢، نسخة حكومة مسقط من اتفاقية السيب (R/15/6/204)، ص٢٢٧-٢٢٨
(٤) (م.ع.و.س)،ج١ ، المصدر السابق ، ص٤٤٢-٤٤٤.

حلي النساء و زكاة النقود، وهناك أجرة دكاكين أكثر الأسواق لأنها أميرية، وبساتين النخيل الأميرية وهي كثيرة في منطقة الإمام. وهناك أوقاف بعضها عائد إلى بيت المال والبعض إلى مراجعها المتنوعة، وبعضها للمدارس والمساجد والفقراء ولتعمير الطرق وتداوي المجذومين وعابر السبيل وغيرها. وللجميع جباة يجدد تعينهم كل سنة، والأهالي يسلمون ما لاتصل الجباه إلى إحصائه بطيبة خاطر. وتطرق الباروني أيضا إلى أوضاع السكان والجندية والنفير العام ومحصولاتها الزراعية و (المعادن والنفط)[1] المحتمل اكتشافه، ومسألة عدم رغبة الأهالي بدخول المستثمر الأجنبي إلى البلاد ، ويرجحون أن يبقوا على ما هم عليه من التأخر المادي والمعنوي ولا يتقربون من الأجنبي مطلقاً[2].

هذه النظرة والرغبات قد تكون احد الأسباب التي أبقت البلاد في عزلة وانغلاق وانزواء في كافة المجالات وبالتحديد في عهد السلطان سعيد بن تيمور (١٩٣٢-١٩٧٠م)،وفي نفس الوقت قد يكون التسلط البريطاني الاستعماري على السلطنة سبباً مساهماً في الانعزال و فق سياسته التسلطية ومصالحها الاقتصادية[3].

قدر لأهالي عُمان في السنين السابقة إن يؤخذوا من قبل بعض المسلمين، و الذين ظهر أخيرا أنهم جواسيس، بل إن بعض غير المسلمين جاؤوهم بقيافات عربية وأسماء مسلمة، يجيدون قراءة القرآن وينتسبون إلى الأقطار العربية البعيدة، فاحترموهم وقربوهم ثم بعد خروجهم تبين لهم أنهم غير

---

(١) بدأت بوادر الصراع بين السلطنة والإمامة وبتحريض من بريطانيا حول التنقيب عن النفط في أراضي مسقط وعُمان،اثر منح السلطان سعيد امتيازاً للتنقيب في٢٤حزيران١٩٣٧م لشركة استثمار بترول عُمان وظفار المحدودة التابعة لشركة نفط العراق ولمدة ٧٥عاماً .إبراهيم محمد إبراهيم شهداد، تطور العلاقة بين شركات النفط ودول الخليج العربية منذ عقود الامتياز الأولى حتى عام ١٩٧٣م،ط١،مطابع قطر الوطنية ،(الدوحة ، ١٩٨٥م)،ص١٦٠-١٦٢.
(٢) (م.ع.و.س) ،ج١، المصدر السابق ، ص٤٤٥ -٤٤٧ .
(٣) للمزيد من التفاصيل ينظر : إبراهيم بن فوزان الفوزان ، دول الخليج العربية وعوامل نهضتها الثقافية الحديثة ،ط١ ،مطابع القصيم، (الرياض،١٩٩٨م) ، ص١١٧ – ١١٩.

مسلمين. و من جملة الجواسيس اتصل احدهم بالمرحوم الإمام (سالم بن راشد آل الخروصي ١٩١٣- ١٩١٩م)[١] في أول الحرب الكبرى بصفته مهاجراً فأحسن رفادته و قربه واحترمه لغربته وأدبه ،ولم اطمئن سأل الإمام قائلاً: ما رأيكم في هذه الحرب العامة ، وفي الدولة العثمانية؟ فقال له : لو نجد طريقاً إلى الاتصال بها، ولو كانت تمدنا بسلاح لزحفنا بجيوشنا لنصرتها. فقال له : إذا اكتب كتاباً إلى قائد اليمن (سعيد باشا) وأنا أتعهد بإيصاله إليه فكتب كتاباً فسلمه له فذهب، وبعد مدة تحقق انه سلم الكتاب إلى دولة أجنبية وأنه جاسوس. لذا فالإمام اليوم لا يسمح لأي أوربي بالدخول إلى بلاده، و أبعد مكان يقدر الأوربي أن يصله مصحوباً بأحد من طرف مسقط هو بلدة (بوشهر) التابعة لمسقط ،أما الغريب ولو عربياً إذا لم يكن معروفاً واشتبه به فيطرد[٢].

إن الحالة الصحية في مسقط عُمان غير حسنة[٣]،وذلك لان الحميات كثيرة في البلاد بسبب وفرة المستنقعات حول مسقط ومطرح و في بعض الاودية الداخلية، و لفقدان الأدوية والأطباء، و لدى الآهلين أشخاص يطببونهم على القواعد القديمة، و كثير ما يستعملون الكي بالنار ، لذلك عانى الزعيم الباروني وعائلته كثيراً من الم الملاريا حتى اشرفوا على الهلاك واضطرت عائلته إلى الانتقال إلى بغداد[٤].

لم يدخل البلاد (سلطنة مسقط وعُمان) طبيب حذق الطب الحديث لحذرهم من الأجنبي كما أسلفنا ،إلا واحداً مات ضحية حبه لخدمة الإنسانية، وهذا الرجل

(١) للمزيد ، ينظر : غباش ،المصدر السابق، ص ٢٧٧-٢٨٠ .
(٢) (م.ع.و.س)، ج١، المصدر السابق ، ص ٤٤٧- ٤٤٨.
(٣) يذكر احد القادة البريطانيين (ديفيد سمايليD.Smiley) وهو ممن عملوا في سلطنة مسقط وعُمان رأي السلطان سعيد بالتحديث في احد المناسبات قائلاً: (نحن لا نحتاج إلى مستشفيات هنا فهذه البلاد فقيرة جداً ولا تستوعب سوى عدد محدود من السكان).فضلاً عن تدهور الحالة الاقتصادية وانتشار الجهل والفقر والقبلية.
J .B .Kelly ,Hadramout ,Oman ,Dhufar ,the experience of Revolution ,Middle Eastern studies ,vol 12,London ,May 1976 ,P.218 ;
دكتور هاريسون، رحلة طبيب في الجزيرة العربية ، ترجمة: محمد أمين عبد الله ،ط٢ ، مطابع دار جريدة عُمان ، (مسقط ، ١٩٨٩)، ص ٥٩ - ٦٢ .
(٤) (م.ع.و.س)، ج١، المصدر السابق ، ص ٤٥٠.

الفذ هو الدكتور بشير فؤاد الجمال، سوري الأصل ، تعلم في المدارس العثمانية وكان أول طبيب يداوي جيش الباروني أثناء الحرب الطرابلسية سنة ١٩١١م. وعندما علم أن الباروني في عُمان قرر الالتحاق به و وصل مسقط واشتدت عليه حمى الملاريا ، ولم يمضي أسبوعان حتى حصل له خبال و توفي هناك[١].

أُسست في مسقط مستشفى منتظم على النمط العصري من قبل الإرسالية الإنجيلية الأمريكانية، وأخذت باسم خدمة الإنسانية تداوي مجاناً وتعطي الأدوية مجاناً، وهي في الحقيقة تخدم التبشير أكثر من الطب، و توسلت بشتى الوسائل للدخول إلى داخل البلاد فلم تنجح، لكن الإمام بناء على إلحاح الكثيرين و شفقته على الفقراء، سمح مره للبعثة أن تأتي مؤقتاً إلى سمائل التي هي أقرب المدن الداخلية إلى مسقط، فوصلت و معها قافلة كبيرة تحمل صناديق مشحونة بالآلات والأدوية والكتب، وقدمت الحكومة لها محلاً مناسباً لتأمين غايتها، لكنها لم تقم بواجبها الإنساني أكثر من بضعة أيام ثم بدأت مهمتها التبشيرية و أخذ الطبيب يجمع المرضى و يدخل عليهم القسيس الذي معه وهو عربي ، فيدعوا بأن يرفع الله راية المسيح على ربوع هذه البلاد، ثم يطلب من الآهلين السذج أن يؤمنوا على دعائه، ثم وزع عليهم رسائل تتضمن الدعوة إلى الدين المسيحي، فبلغ الخبر الباروني في مكانه، وهو مريض بالملاريا، فكتب إلى الإمام وهو في نزوى يطلب منه بإخراج البعثة من البلاد بأسرع ما يمكن ،فصدر الأمر وأحضرت الحكومة للبعثة الإبل الكافية لحمل إثقالها وعادت إلى مسقط[٢].

بعد فترة كتب الباروني إلى رئيس المستشفى السلطاني في مسقط قائلاً : (أنه يمكن أن يقنع الإمام فيأذن برجوعه إلى سمائل ويقدر له أجرة معتدلة

(١) (م.ع.و.س)، ج١، المصدر السابق ،ص٤٥٠-٤٥١ ؛ من إعلام الفكر الاباضي المعاصر ، المصدر السابق، ص١٢.
(٢) (م.ع.و.س)، ج١، المصدر السابق ،ص ٤٥١ .

بالنسبة إلى الغني والمتوسط والفقير، شرط أن لا يصطحب معه مبشراً و أن لا يشتغل بالسياسة والدين).وأجابه رئيس المستشفى : (أنهم إنما جاؤوا من أمريكا لخدمة الإنسانية ومداواة المرضى مجاناً لا بأجرة على شرط التبشير، لأنه دعوة إلى الحق لا يتنازلون عنها، والأموال التي تنفق عليهم إنما خصصت لذلك السبيل) . ومنذ ذلك اليوم منعت البعثة من الدخول بتاتاً إلى البلاد[1].

كلف الباروني من السلطان تيمور بحمل رسالة وساطة لإصلاح ما كان بين ملك نجد عبد العزيز آل سعود و ملك الحجاز علي بن الحسين من مناوشات و حروب، و هذا التكليف يدل على المكانة التي يتمتع بها هذا المجاهد العظيم من تضحيته في سبيل الأمة الإسلامية، و لم يصرفه ما هو فيه من مرض و أتعاب عن الاهتمام بقضايا أمته حيثما كان، و لكي تتبين مكانته لدى عارفي قدره آنئذ نستشهد ببعض ما جاء في رسالة السلطان تيمور بن فيصل إلى الملك علي بن الحسين: "حامل كتابنا هذا هو الوجيه المحبوب لدى الدولتين المحترم الشيخ سليمان الباروني أحد زعماء مذهبنا و من رجال الإسلام المعروف لديكم شخصياً وعملاً ... وقد أصحبناه كتاباً هذا لينوب عنا في عرض إحساسنا وتألمنا العظيم مما لازلنا نسمعه من استمرار الحرب حول حرم الله المقدس..."[2].

بينما يرسل الوكيل السياسي و القنصل البريطاني في مسقط الرائد (جي . أف. مورفي G.F.Murphy) في تقرير قدمه إلى المعتمد السياسي في الخليج الفارسي العقيد الركن (أل.بي.هاورتHaworth. H .B .L) ،قائمة توضح أسماء الشيوخ الحاليين للقبائل الرئيسة في عُمان، ويلاحظ إن الشيخ

(1) (م.ع.و.س)، ج١، المصدر السابق ،ص ٤٥١-٤٥٢.
(2) من أعلام الفكر الاباضي المعاصر ،المصدر السابق ، ص١٢ .

سليمان بن باشا الباروني يدرج ضمن منطقة بدبد مع شيوخ سرور[1]. وهذا يدل على عمق العلاقة والتواصل الاجتماعي والعشائري بين الباروني وشيوخ عُمان .

وتشير إحدى الوثائق البريطانية إن السيد داوسون زار منطقة سمائل في شهر حزيران/يونيو١٩٢٧م، وكتب في تقريره مايلي :"إن الباروني هو من أهم الشخصيات المعروفة حيث يتداول وزير المالية وضباط سلاح الجو الملكي الذين كانوا يودون الذهاب إلى البرلمان علانية – ولربما تكون شائعات فقط – أنهم منعوا من ذلك من قبل الباروني شخصياً[2]. وهذا يدل أيضا مدى أهمية ودبلوماسية الشيخ الباروني في وجوده بمنطقة متنازع عليها بين عُمان و أبو ظبي والسعودية .

كان العُمانيون ينشرون في صحافة أبي اليقظان، و نشير هنا إلى بعض القصائد والمقالات فيما يلي: " تهنئة صاحب الدولة الشيخ الباروني " قصيدة للشيخ عيسى بن صالح الطائي قاضي قضاة مسقط ، و" تهنئة أخرى لسعادة الباروني باشا " للشاعر سالم سليمان" [3].

كما نشرت جريدة وادي ميزاب (العدد ١٩ في ١٩٢٧/٢/١١م) ، عن مجلة المناهج لأبي إسحاق أطفيش قصيدة للشاعر الشيخ أبي سلام الكندي تحت عنوان" ربّ أيّد إمامنا العدل وانصر" جاء في الديباجة ، لما طرق سمع شاعر عُمان الشيخ أبي سلام الكندي ، وهو في قرية بشر، خبر تقليد إمام المسلمين المعظم بعُمان(محمد بن عبد الله الخليلي) أعزه الله رئاسة الحكومة لحضرة الهمام

(1) (م.ع.و.س)، الوثيقة رقم(١٥٧)، مج٢ ،تقرير الوكيل السياسي حول شيوخ القبائل في عُمان سنة١٩٢٧م (R /15/6/241) مرفق به قائمة بأسماء الشيوخ الحاليين للقبائل الرئيسة في عُمان (R/15/6/40) في ٨ حزيران/يونيو ١٩٢٧م ، ص٢٣٣.
(2) (م.ع.و.س)، الوثيقة رقم(١٥٨)، مج٢، تقرير الوكيل السياسي حول أخفاقات الدولة في التعامل مع القبائل في سنة١٩٢٧م، (R /15/6/40) في ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٧م، ص٢٤٥.
(3) محمد بن قاسم ناصر بو حجام، التواصل الثقافي بين عُمان والجزائر، ط١، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، (سلطنة عُمان،٢٠٠٣م)، ص٨٢.

الغيور الشيخ (سليمان باشا الباروني)، تحركت قريحته الوقادة، وارتجل هذه القصيدة، قائلاً :

قُم سليمان فـــي صـلاح البلاد ... لا تبـــال بقـول أهـل الفساد
إنما أنت عالم كيف أضحت ... أمـــم الـغرب تـزدي بالعباد
هي بالـــعجز أم بجهل بنيها ... نالـــت المـجد أم سمت بالرقاد
لا و لكنـها تـدك بعلم ... كـل صـرح بـدا بـغير عماد
فأبذل النـفس والنفيس وشمرّ ... واصرف الجهد من صـميم الفؤاد
ربّ أيّد إمـامنـا العدل وانـصر ... و أجـره مـن كـيد كل معاد
ذاك قطب الهدى الخليلي من قد ... نشر العدل وألهنا في العباد[1]

كما تابعت الصحافة اليقظانية باهتمام كبير أنباء الإصلاحات التي تقوم بها السلطنة والإمامة، فجاء في أحد أعداد جريدة وادي ميزاب (العدد ٧٩ في ٢٠/ ٤ / ١٩٢٨م) مقالة تحت عنوان : (النهضة العُمانية الحديثة) : (هبّ الشعب العُماني في جملة الشعوب العربية الشقيقة في هذه السنوات الأخيرة إلى الإصلاح والنهوض ، و إدخال النظم العصرية الجديدة ، التي لا تخرج عن دائرة الإسلام إلى داخل البلاد ، وقد أنبأنا في وقته عما قامت به حكومة عظمة الإمام الخليلي من الإصلاحات العامة بتدابير وزيرها الأكبر الشيخ سليمان الباروني). ولا ننسى ما أزمعت عليه حكومة مسقط من إدخال كثير من الإصلاحات في بلادها[2].

اهتمت الصحافة اليقظانية بأخبار الشيخ الباروني باشا ، الذي قلد منصب وزير الدولة في حكومة الإمام محمد بن عبد الله الخليلي ، تابعت الأنباء الواردة

(١) المصدر نفسه، ص٨٣ – ٨٤.
(٢) بو حجام، المصدر السابق، ص٨٦.

عنه ، وسجلت و نشرت بعض التهاني التي تلقاها – شعراً ونثرا – بمناسبة تقلده الوزارة، نقلت بعض أنشطته في عُمان، وبعض إنجازاته هناك . كتبت جريدة وادي ميزاب(العدد ٤ في ٢٢/١٠/ ١٩٢٦) مقالة تحت عنوان : (سليمان باشا الباروني يعيّن وزيرا لمملكة عُمان، تطور عظيم بعُمان) جاء في آخر المقال : (وبلسان القطر الجزائري عموماً و وادي ميزاب خصوصاً، يرفع (وادي ميزاب) على كاهل التبجيل والاحترام إلى عظمة الإمام وعطوفة الشيخ الباروني وبلاد عُمان مراسم التهاني الفائقة بهذا التطور العظيم ، و يرجو لهم من الله تعالى التوفيق والتسديد إلى أن يبلغوا بالعرب والبلاد العربية قمة المجد والفخار ، حتى ترفل في حلل الجلال والكمال) [1].

كما نظم الشيخ عيسى بن صالح الطائي قاضي قضاة مسقط قصيدة هنأ فيها سليمان الباروني بتقليده وزارة مملكة عُمان : من بين ما ورد فيها :

أقومي إن للعليا رجالاً ... لهم في نيلها رأى وفكر
لها نحروا الكرى بنصال عزم ... وفي وثباتها قصد وكرّ
إذا ليل الغباوة مدّ سجفا ... جلاه منهم علم وخبر
فكم ظلمات جهل قد محوها ... كما يمحى من الأسفار سطر
سليمان أقم للدين صرحا ... لقد أودى به طمع مضرّ
وجدّد عهد من سلفوا ملوكا ... أئمتنا ، لهم شأن وذكر
تخيرك الإمام العدل فاخدم ... رضاه ،واثبتن فلأنت بدر
ولا تحجم إذا استعصى جهول ... تساوى عنده زيف وتبر
فطعم الماء في الأفواه عذب ... وفي فم من به الأسقام مرّ

(١) المصدر نفسه، ص٩٠.

فهذا القطر قم فيه عزيزا يحفك من إله العرش نصر[1]

لا بد من الإشارة هنا في هذا السياق، إلى أن الصحافة لم تكن معروفة في سلطنة مسقط وعُمان قبل سنة ١٩٧٠م[2]. حيث إن العُمانيون عرفوا الصحافة في المهجر الأفريقي، و كانت أقدم صحيفة عُمانية عرفت هي صحيفة (النجاح) التي أصدرها في زنجبار الشاعر الشيخ أبو مسلم الرواحي سنة ١٩١٠م، وجاءت بعدها صحف أخرى أنشأها العُمانيون هناك أشهرها (الفلق) التي صدرت سنة ١٩٢٩م وواصلت الصدور حتى سنة ١٩٦٣م. وتابع العُمانيون المقيمون في زنجبار و إخوانهم في عُمان تلك الصحف وراسلوها ،كما تابعوا الصحافة التي كان يصدرها بعض أعلام الإباضية في شمال أفريقيا مثل (الأسد الإسلامي) التي أصدرها في القاهرة الشيخ الليبي سليمان الباروني سنة ١٩٠٨م ، وصحيفة (المنهاج) التي أصدرها في القاهرة الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش الجزائري سنة ١٩٢٥ م، وصحف الشيخ أبو اليقظان الميزابي الجزائري التي كانت تصدر في الجزائر وتواصل صدورها من سنة ١٩٢٦م وحتى سنة ١٩٣٨م[3].

بينما نشرت جريدة وادي ميزاب في (العددين ١٩و ٥٧) ، أخبار أعمال الشيخ الباروني باشا و نشاطه ، وعن حالته الصحية ، و ما أصيب به من الفالج حتى تدورك بالعلاج المعروف عندهم لهذا الداء، ولازم محلاً واحدا في الحصن محفوظاً عن الهواء إلى أن شفي شفاء تاماً بعد نحو عشرين يوماً.

---

(١) المصدر نفسه، ص٩٠ -٩١.

(٢) في ٢٣ تموز/يونيو ١٩٧٠م ،ارتقى السلطان قابوس بن سعيد عرش السلطنة ،لتنطلق برعايته مرحلة الانفتاح الجديدة في مسيرة النهضة العُمانية الحديثة ،وإعلان نهاية مرحلة الانغلاق والعزلة القديمة قبل عام ١٩٧٠م. للمزيد ، ينظر:عبد الحميد الموافي، عُمان . بناء الدولة الحديثة ، ط ١ ، مطابع الأهرام التجارية ، (القاهرة، ٢٠٠٢)؛ سيرجي بليخانوف ، مصلح على العرش قابوس بن سعيد سلطان عُمان ، ترجمة:خيري الضامن ، دار الكتب والوثائق القومية ،(القاهرة ،٢٠٠٤) .

(٣) (شبكة الانترنيت) www.alharah.com.

و من بين النصوص التي نشرت في الصحافة اليقظانية (سعادة الباروني باشا في جرائد مصر)، و(في شرق بلاد العرب وزارة سليمان باشا الباروني في عُمان)، و(كبير شعراء عُمان يهني سعادة الشيخ الباروني للشاعر احمد بن سلطان آل سليم) . كما نشرت جريدة النور مقالاً تحت عنوان (الباشا الباروني والإشاعة الكاذبة)، رداً على ما راج من أخبار اعتزال الباروني للوزارة العُمانية ، إلى غير ذلك من النصوص و الأخبار التي تناولت شخصية الباروني باشا الوزير في حكومة الأمام الخليلي[1].

وما دمنا في مجال الشعر والصحافة ، نستذكر جزء من قصيدة الإمام المجدد المصنف الشاعر القدوة القائد المجاهد سليمان باشا الباروني ، أثناء الحرب الايطالية الليبية :

هذا هو الشعر الذي شهد الحروب الهائـــلات

وعليه أمطرت القنابل كالصـــــواعق نـــازلات

خاض المعامع لإيهاب على الجياد الصافنات

حباً لتطهير المواطـــن من بني الإيطاليات[2]

إن الناظر في سيرة هذه الشخصية العظيمة يبهر بهذه الأخلاق العالية الرفيعة التي تحلى بها الباروني، فنذكر منها على سبيل المثال، قوة التحمل جسمياً ونفسياً، فلا تتركه محنته إلا لتسلحه إلى أخرى، من محنته مع الدولة العثمانية سجناً وإبعاد أو ملاحقته إلى الحرب ضد الاستعمار الايطالي، إلى النفي والأبعاد من بلد إلى بلد. وقد اشتهر الباروني بين عارفيه – رغم ذلك – بالإيثار والفضل والكرم والإخاء و الصدق والنزاهة و الورع و التقوى و الشجاعة

---

(١) بو حجام، المصدر السابق، ص٩١-٩٢.

(٢) (شبكة الانترنيت) www.tamezgha.com

ورباطة الجأش حتى قال عن نفسه (لا أعلم أني بكيت عند وفاة أقاربي من والدي إلى أولادي ، ولا نزلت مني دمعة واحدة في أشد المحن التي لاقيتها في الانهزامات الشنيعة والدقائق الحرجة)[1].

هذه الشخصية الفريدة صقلتها المؤهلات العلمية وحب الاطلاع والتبحر في خلجات الشريعة الإسلامية، فقد نال الباروني شهادة حفظ القرآن الكريم وشهادة الجامع الأعظم الزيتونة بتونس، وشهادة الأزهر الشريف المختلفة بمصر، وشهادة معهد القطب محمد بن يوسف بالجزائر، فضلاً عن شهادة الأكاديمية الفرنسية بقسم التاريخ والجغرافيا. و هو يجيد اللغات العربية والتركية والأمازيغية كتابة وخطابة. وله مؤلفات متعددة نذكر منها: (مختصر تاريخ الإباضية- كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية – ديوان الباروني – تاريخ الحرب في طرابلس). ونال عدة أوسمة و نياشين منها : (نيشان البحرية الذهبي العثماني – الرصيعة العثمانية – نيشان الجندية العثماني – نيشان الصليب النمساوي الأعلى – نيشان الصليب الألماني الأعلى – النيشان الهاشمي – النيشان السعيدي- النيشان العُماني)[2].

إما أبرز العوامل المكونة لشخصية الباروني فهي :نشأته في أسرة دينية علمية أدبية سياسية، تعلمه على علماء أفذاذ، تنقله وكثرة أسفاره، كثرة قراءته وتنوع ثقافته[3].

في هذا السياق، نستعرض رسالة الشيخ المجاهد سليمان الباروني المرسلة إلى قناصل دولة انكلترا وروسيا وفرنسا إبان الاحتلال الايطالي لليبيا : "سلام واحترام .. لا يخفى على أنظاركم إن دولة إيطاليا قد قدمت على بلادنا بدون

(١) من أعلام الفكر الاباضي المعاصر ، المصدر السابق ، ص١٦ .
(٢) خشيم ، المصدر السابق ، ص ٥٢ ؛ (شبكة الانترنيت) www.al-shouraffa.com
(٣) من أعلام الفكر الاباضي المعاصر ، المصدر السابق ، ص ١٧ -١٨ .

وجه مشروع فهتكت الحرمات وقتلت الصغار والنساء وذبحت الشيوخ وغصبت الأموال وأخربت الديار ..."[1]. وتعد هذه المخاطبات والمراسلات إحدى الومضات الجهادية في مسيرة الشيخ سليمان الباروني ،وهناك العديد من هذه المراسلات والمخاطبات نقلتها وجمعتها ابنته (زعيمة) بعد وفاته.

سكنت الحمى عظامه واستحكمت علة ضغط الدم في جسده المنهك المثقل بالهموم والانفعالات[2].

عندما اشتدت عليه وطأة المرض سافر على نفقة السلطان سعيد إلى بومباي بالهند للمعالجة وكان ذلك صبيحة يوم المولد النبوي الشريف ١٢ ربيع الأول ١٣٥٩هـ /١٩٤٠ م[3].

وقدر له أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في مدينة بومباي، بعد رحلة حافلة مليئة بالعذاب، ولم يمهله المرض طويلاً ولقي وجه ربه الكريم فجر٢٣ربيع الاول١٣٥٩هـ/١٩٤٠م[4]. وبعد ٣٢ سنة من وفاته أعيد جثمانه إلى أرض الوطن ليدفن بها سنة ١٩٧٢[5].

ولن نطوى صحيفة هذا المجاهد العظيم الذي يجهله الكثيرون دون أن نستشهد بما قالته عنه ابنته(زعيمة) وهي تلخص جهاده في سبيل الوطن والدين، وكانت إلى جانبه في اللحظات الأخيرة: (إن أبي ظل معتبراً نفسه إلى اللحظة الأخيرة مركزاً للمقاومة الوطنية سلبية كانت أم إيجابية ، ورغما من أن مرضه زاد عليه حتى بات لا يستطيع القيام بأعباء عمله الجليل إلا أنه كان يستطلع

(١) للاطلاع على نص الرسالة،ينظر : صفحات خالدة من الجهاد ، جمع وترتيب :زعيمة سليمان الباروني ، مطابع الاستقلال الكبرى،(طرابلس،١٩٦٤م) ، ص١٨٤ .
(٢) (شبكة الانترنيت) http://www.meditrrancentre.net/biographies.htm ؛ (شبكة الانترنيت) www.facebook.com
(٣) من أعلام الفكر الاباضي المعاصر ، المصدر السابق ، ص١٨.
(٤) خشيم ، المصدر السابق ، ص٥٦ .؛ (شبكة الانترنيت)www.meditrrancentre.com
(٥) (شبكة الانترنيت)www.tamezgha.com

أخبار الوطن دائماً إذ كان يتتبع أخبار الراديو إلى الهزيع الأخير من الليل وهو كبير الأمل بإمكان خروج إيطاليا من أرض الوطن واندحارها اندحاراً كلياً)[1].

الخاتمة

عاش الشيخ المجاهد سليمان الباروني سبعين عاماً، قضاها في خدمة وطنه وقومه ودينه، حارب خلالها العدو الدخيل بسيفه أحيانا كثيرة، وبقلمه حيناً آخر، ثم مات مهاجراً مشرداً بعيداً عن وطنه وأهله. حياته متعددة الجوانب ،كثيرة الاتجاهات ،كل منها يحتاج لدراسة والبحث والكتابة، فهو الإباضي المجاهد المتواضع العالم المؤرخ الأديب الصحفي الاجتماعي السياسي الدبلوماسي النائب المطارد السجين المغامر المغترب العليل.

هذه الصفات والمفردات منحته النفس الإيماني العميق والصبر الراسخ والعفة والتواضع والقناعة والمعرفة والغنى، ونلمس ذلك من خلال رسالة بعث بها إلى صديقه الحميم أبي اليقظان وهو في (مرسيليا) بتاريخ ١٧يناير/ كانون الثاني١٩٢٤م،يقول فيها: (إن صاحب هذه الرسالة هو على ما تعلمونه ، وبناته اللواتي لبسن افخر الثياب وأكلن ألذ الطعام ،وسكن أعظم قصر في أجمل موقع في الأرض، يأكلن اليوم خبز الشعير، ويلبسن الصوف ،ويغزلنه بالأجرة لمن كان يتلقى إحسانهن صباحاً ومساءا وتلك حال لا تدوم بأذن الله، ويسكن دويرات بين كثبان رمل (زواره) .. ولو مد صاحب الرسم يده ،أو لان جانبه لكان أغنى من قارون، ومع ذلك كله لم يتأثر حزناً ولم يسهر أسى وأسفاً، بل هو لم ييأس ولم يزل يقول : يودون موتي ولكنني على رغم أنفسهم لا أموت).

(١) من أعلام الفكر الاباضي المعاصر ، المصدر السابق ، ص ١٥.

لم تساعد الباروني ظروفه على تنفيذ مخططاته السياسية والتعليمية والمالية في تنظيم الدولة هو أنه كان على حد تعبير أبي اليقظان إما على الفراش يعاني المرض، وإما على الحصان يعاني العناد ومشقات السفر. وجسد الباروني بالمرحلة العُمانية من حياته، العديد من الانجازات والإصلاحات وفق مقتضيات المكان والزمان للمرحلة الأخيرة من حياته.

ونختم بحثنا المتواضع بكلمات قالتها ابنته (زعيمة) رحمها الله في حق أبيها: (كان قلبه –رحمه الله – خالياً من شوائب الحقد والضغينة، خالياً من أدران الحسد وحب الذات، مجبولاً على حب الغير، مفطوراً عن التفاني في سبيل عقيدته التي أوقف حياته ونضاله وكفاحه في سبيلها طول حياته حتى الرمق الأخير ... أنه لم يكن معصوماً كالأنبياء، ولكنه كان شريفاً تقياً نقياً، مسلماً عربياً طرابلسياً، فدائياً قولاً وعملاً).

صلات سليمان الباروني النضالية مع سلطنة عُمان خلال الغزو الإيطالي لليبيا

د. محمود محمد الجبارات (*)

مقدمة عن الغزو الإيطالي

لا شك أن إيطاليا خططت لاحتلال ليبيا بعد "التأمل التام، والتهيئة اللازمة، وبعد الاتفاق مع الدول العظمى"[1] ولم يكن في نيتها أن تتراجع عن ذلك رغم ادعاء إيطاليا آنذاك أنها أقدمت على الغزو بغرض الاحتلال باسم المدنية والإنسانية[2] أو إحياء هذا القطر، معتمدة في ذلك على قوتها البرية والبحرية، ولكن الحقيقةَ وضُحَتْ لاحقاً، وتبيَّن أن الغزو الإيطالي لليبيا كانت له أهداف عدة منها الاقتصادي وثانيها السياسي والعسكري وثالثها الاستعماري ورابعها توجيه الأنظار عن القضايا الداخلية الإيطالية.

وقد كان الواقع الدولي يشجع إيطاليا على هذه الخطوة، وذلك بسبب تضارب مصالح الدول الاستعمارية الأوروبية، فقد كانت روسيا ضد النمسا، وبريطانيا ضد ألمانيا، فضلاً عن أن كل دولة كان لها مصلحة تتعارض مع الأخرى في ظل التنافس الاستعماري، فقد كانت بريطانيا تحاول تخليص إيطاليا من الحلف الثلاثي (ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا)[3] فيما كانت بريطانيا نفسها

(*) د. محمود محمد الجبارات، جامعة البلقاء التطبيقية، الأردن.

(1) الجابري، محمد صالح، يوميات الجهاد الليبي في الصحافة التونسية ص٣٠٨، (١٩١٢ – ١٩٣٢م)، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٢م، ج٢، ص٣٠٨، سيشار إليه لاحقاً: يوميات الجهاد الليبي.

(2) يوميات الجهاد الليبي، ص ٣٠٨.

(3) مالجيري، فرانشسكو، الحرب الليبية (١٩١١ – ١٩١٢م)، ترجمة: وهبي البُوري، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م. انظر: ص ٣٦٧ – ٣٩٠، سيشار إليه لاحقاً: الحرب الليبية.

تطمح أيضاً إلى أن تحل دولة أوروبية ضعيفة في منطقة عازلة بين مصر وتونس والجزائر والمغرب، حيث تتنازع بريطانيا مع فرنسا وألمانيا على النفوذ.

وكانت الصحافة البريطانية قد تبنّت معاداة إيطاليا، والضغط على الحكومة البريطانية لكي لا تتخذ خطوات ودّية مع إيطاليا، فيما أدعت الحكومة البريطانية بأنها تقف على الحياد بينما كانت تؤيد خفية إيطاليا لأسباب عدة لعلّ أبرزها[1] أنها كانت ترغب في أن يكون بين مصر والمستعمرات الفرنسية في شمال أفريقيا حاجز من دولة أوروبية ثالثة لا تكون قوية بحيث تسُوّل لها نفسها التفكير في التوسع على حساب مصر. كما أنها حاولت القضاء على المنافسة الإيطالية لبريطانيا في الشرق الأدنى وخاصة العراق، حيث عرضت عليها الدولة العثمانية امتيازات واسعة فيها إذا ما تخلّت عن ليبيا، فيما ستنهك الحرب إيطاليا وتجعلها أكثر انصياعاً لمطالب بريطانيا في الشرق العربي. وكانت بريطانيا تأمل في أن تعرقل مساعي ألمانيا لصالح الدولة العثمانية خلال الغزو للوصول إلى حل يعزز جهود ألمانيا للحصول على امتيازات أخرى في العراق؛ ولذلك فلم تفلح جهود ألمانيا ومبادرة الدولة العثمانية عن طريق البرتو تيودولي في حل النزاع دبلوماسياً.

وكانت قناعة وزير الخارجية الإيطالي دي سان جوليانو التي دونها في مذكرة رسمية يوم ٢٨ تموز ١٩١١م أنه " يجب شن حرب واحتلال ليبيا بسرعة، وأن بريطانيا ستنظر لهذا العمل بأسف ... ولكنها لن تستطيع أن تمنعه إذا تم بسرعة"[2] ورغم المساعي الدبلوماسية للدول الكبرى، فقد نفذت إيطاليا الغزو، وفي ٢٨ أيلول ١٩١١م ظهر الأسطول الإيطالي في مياه طرابلس وبدأ الغزو.

(1) وزارة الأنباء / ليبيا، ليبيا قبل المحنة وبعدها، المملكة الليبية، وزارة الأنباء والإرشاد، سلسلة الكتاب الليبي (٢)، مصلحة المطابع، طرابلس، ١٩٦٣م، انظر: ص ١٤٣.

(2) الحرب الليبية، ص ٤٦٠.

مقاومة الليبيين للغزو

رغم أن الدولة العثمانية لم تفاجأ في عملية الغزو إلا أنها لم تكن مستعدة لمقاومة هذا الغزو، ومع ذلك فقد كان سليمان الباروني الذي كان آنذاك عضواً في مجلس المبعوثان العثماني ويقضي إجازة، في طرابلس الغرب أدى خلالها واجب العزاء لوالده بوفاة والدته، وكان عشية ظهور الأسطول الإيطالي في مياه طرابلس الغرب في يفرن مركز الجبل الغربي، فاجتمع الناس عنده على اختلاف انتماءاتهم العشائرية ومشاربهم الفكرية والمذهبية، ومنهم رؤساء القبائل العربية، وتباحثوا في وضع ميثاق يؤطر عملهم للدفاع عن وطنهم، ويبنون على أساسه قواعد الجهاد ضد الغزو الإيطالي، وقد وقف مع المجاهدين رجال القبائل، والمدن الليبية، ومن العرب والأتراك في مواجهة إيطاليا، ورغم خلافات بعض القيادات السياسية والقبلية مع الدولة العثمانية، فقد كان معظم الأعيان من قيادات قادة المقاومة للاحتلال الإيطالي ... وعقد المجاهدون عدة اجتماعات لتنسيق جهودهم مع العثمانيين[1].

وبادر سليمان الباروني بالاتصال مع قائد الحامية العثمانية في ولاية طرابلس الغرب إسماعيل نشأت بك، واتفق على أن تكون القيادة الرسمية في الشق الغربي من ليبيا بقيادته، وقد كلف بقيادة المجاهدين في الأول من تشرين الأول ١٩١١م، وعُيِّن والياً وكومندانا للجيش التركي الموجود في ساحة طرابلس[2].

(١) الباروني، زعيمة سليمان، صفحات خالدة من الجهاد، مطابع الاستقلال الكبرى، ١٩٦٤م، ص ١٠٧، وسيار إليه لاحقاً: صفحات خالدة.

(٢) رحومة، مصطفى حامد، المقاومة الوطنية ضد الغزو الإيطالي في منطقة بوكماش (١٩١٢م)، طرابلس، مركز دراسة جهاد الليبين ضد الغزو الإيطالي، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م. انظر: ص ٣٨، سيشار إليه لاحقاً: المقاومة الوطنية.

وقد كان من أُسس جمع الناس في الجهاد هو تشكيل "الجيش الإسلامي في الطرابلسي" وأن المجاهدين إخوان في الإسلام متجاوزين الخلافات المذهبية (مالكي / إباضي)، أو العنصرية (عرب / بربر) ويلاحظ أنه كان هناك تزاوج بين القبائل والفلاحين الإباضين، وأنهم ارتبطوا تاريخياً واجتماعياً بالقبائل الأخرى، وكانت التركيبة في صفوف القبائل من المجاهدين فيها مالكية وإباضين[1] وقد واجه المجاهدون الغزو من خلال ظاهرة الصفوف التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، وهي ظاهرة استراتيجية في أوقات الحروب الأهلية لمواجهة الدولة والغزو الخارجي. ثم وجه نداء عام للمسلمين في طرابلس[2].

كانت مجموعات المجاهدين غير منضبطة، "وما يقودها للصمود والاستماتة إلا الشعور بالواجب تجاه الوطن والدين"[3] وكانت هناك قناعة لدى قيادات المجاهدين من الأعيان ومنهم سليمان الباروني بأن الدولة العثمانية جادة في الدفاع عن طرابلس الغرب؛ خاصة وأن معظم القبائل والفلاحين؛ رغم رفضهم الضرائب العثمانية، ورغم قمعها وقصورها، نظروا للدولة العثمانية كدولة إسلامية في مواجهة إيطاليا المسيحية.

شجب الرأي العام الإسلامي الغزو الإيطالي، وقدم متطوعون مسلمون إلى ولاية طرابلس الغرب من مصر وتونس والجزائر، تشاد، والهند للمشاركة في الجهاد الليبي[4].

(١) حميدة، علي عبد اللطيف، المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، سلسلة اطروحات الدكتوراه (٢٦)، دراسة في الأصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لحركات وسياسات التواطؤ ومقاومة الاستعمار، (١٨٣٠ – ١٩٣٢م)، مركز دراسات الوحدة العربية. ص ١٦٠، سيشار إليه لاحقاً: حميدة، المجتمع والدولة.

(٢) صفحات خالدة، ص ٣٨.

(٣) المقاومة الوطنية، ص ١٦١.

(٤) حميدة، المجتمع والدولة، ص ١٦٤.

حياة الباروني العلمية ودوره في مقاومة الاحتلال

هو سليمان عبد الله الباروني (١٨٧٠ – ١٩٤٠م)، مجاهد وسياسي ومؤرخ، ومفكر وأديب وفقيه إباضي، وُلِدَ ببلدة جادو حاضرة متصرفية فساطو / ولاية طرابلس الغرب (ليبيا حالياً) من أسرة الباروني المعروفة في جبل نفوسة (الجبل الغربي) منذ نحو ثمانمائة عام كان ربع القامة، أسمر اللون، أسود اللحية وطويلها هادئ الطبع، حري بالثقة، شديد الدهاء، مفرط الذكاء، حاد البصر[١]. تلقى تعليمه الأولي في بلدته، وكان والده شيخاً ورشح لمنصب الإفتاء.

وأرسله والده في العام (١٣١٠ هـ / ١٨٩٢م) إلى مصر للدراسة في الأزهر وأخذ عن أساتذته المشهورين، ثم ارتحل إلى الجزائر عام (١٣١٣ هـ/ ١٨٩٥م) وتبحّر في علوم الإباضية لمدة ثلاث سنوات على يد شيخ المذهب الإباضي محمد بن يوسف الميزابي، وعاد إلى طرابلس نحو عام (١٣١٦ هـ/ ١٨٩٨م) وقد تأثر بما رأى في تيهرت فألف كتابه "الأزهار الإباضية".

وقد سافر أو أقام في العديد من البلدان منها: مصر، الجزائر، تونس، العراق، مسقط وعُمان، تركيا، فرنسا والهند.

وفي شبابه أسس في عام ١٩٠٤م مدرسة في يفرن سمّاها "المدرسة البارونية" ولذلك أطلق عليه البعض لاحقاً "المعلم المقاتل"[٢].

شخصية فذة لها جوانب متعددة لا تجتمع إلا عند عظماء الرجال فهو مجاهد معروف، وكان من أبرز رجالات الرعيل الأول من المجاهدين ضد الغزو الإيطالي، حيث قاتلهم في سواني بنيادم وغيرها حتى عام ١٩١٢م، وبعد معاهدة

(١) المرزوقي، محمد، عبد النبي بالخير، داهية السياسة وفارس الجهاد، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٨م، ص ٩٤.
سيشار إليه لاحقاً: المرزوقي. وانظر: يوميات الجهاد الليبي، ص ٣٢٣.
(٢) مجموعة محررين، سليمان الباروني: المعلم المقاتل، دار العودة، لبنان، ٢٠٠٣، ص ١٤ – ١٥ وص ٢٧.

لوزان بين الدولة العثمانية وإيطاليا، أعلن استمراره في الجهاد منسحباً إلى يفرن في جبل نفوسة المنيع، وأسس خط حرب يبتدئ من ورفلة ماراً أمام غريّان والزعترية ومنطروس، وبير الخشب في جهة العزيزية ويمر أمام صرمان والعجيلات والعلالقة وزوارة من بلاد الساحل.

في العام ١٩١٨م انتخب عضواً في أول جمهورية عرفها العالم العربي الحديث وهي "الجمهورية الطرابلسية"؛ وقاتل الإيطاليين حتى عام ١٩٢٢م حيث سئم من الاقتتال الليبي الداخلي الذي كان على شكل حرب أهلية تغذية السلطات الاستعمارية الإيطالية، وسافر إلى العراق ثم إلى سلطنة عُمان.

وهو رجل سياسة محنك؛ انتخب من قبل إباضيي جبل يفرن ونفوسة مع محمد فرحات الزاوي، وعمر منصور الكيخيا ممثلين لولاية طرابلس الغرب (ليبيا) في مجلس المبعوثان العثمانية سنة ١٩١٠م، وكان ينافسه في المنطقة خمسة مرشحين، ففاز فوراً ساحقاً وحصل على ثلاثة أضعاف عدد الأصوات التي حصل عليها الذي يليه[١]، وتابع تطورات الحركة الوطنية في مصر عن كثب، وتعرّف على زعيمها مصطفى كامل ومن بعده محمد فريد، وكان مناصراً للحزب الوطني في مصر ضد الاستعمار البريطاني.

كانت له آراء خاصة في الدولة العثمانية استوجبت النقمة عليه واضطهاده في عهد السلطان عبد الحميد فسجن ونفي وُشّرد مرات عدة، ومع ذلك كان يستقبل من أهالي منطقته بترحاب كبير، وصدر عنه عفو في العام ١٣١٨ هـ/آب ١٩٠١م، وكان مؤيداً في البداية لجمعية الاتحاد والترقي ثم للدولة العثمانية لأنها تجسد هوية جامعة تمثلت في الجامعة الإسلامية، وباعتبارها خلافة إسلامية.

(١) الدجاني، أحمد صدقي، ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي: أو طرابلس الغرب في العهد العثماني، (١٨٨٢ – ١٩١١م)، الطبعة الأولى، ص ٤٢٧، سيشار إليه لاحقاً: ليبيا.

أما الباروني المفكر والمؤرخ والأديب فإننا نعرف بأنه وضع كتاباً في ثلاثة أجزاء عنوانه "الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية" وقد أحرقت السلطات العثمانية جزأه الأول، ولم يظهر منه إلا جزؤه الثاني فقط، وقد أرخ فيه الباروني للمذهب الإباضي، ونشر جزءه المذكور في القاهرة. كما تأثر الباروني بآراء جمال الدين الأفغاني ودعوته للعودة بالإسلام إلى نبعه الأول، ولذا فإننا نراه يهتم بالقضية الإسلامية وفكرة الجامعة الإسلامية؛ وقد وصف بأنه متحرّرُ الفكرَ، ويأخذ بأسباب الحضارة الحديثة[1].

وأما اهتمام الباروني بالصحافة فقد أسس في القاهرة عام١٣٢٤هـ/١٩٠٦م مطبعة سماها مطبعة الأزهار البارونية، ثم أصدر في فترة لاحقة، في القاهرة أيضاً؛ في أول نيسان ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م جريدة "الأسد الإسلامي" التي كانت تصدر في أربع صفحات، ولم يصدر منها سوى ثلاثة أعداد وأغلقت بعد أن هاجم فيها اللورد كرومر. وهو شاعر أيضاً، وله ديوان شعر، وقد عقد صداقات شخصية مع الشعراء: حافظ إبراهيم وإسماعيل صبري، والأديب مصطفى لطفي المنفلوطي[2].

ارتحل مع ابنه إبراهيم الذي انتقل لدراسة الحقوق في جامعة بغداد ثم عُيّن في القصر الملكي ببغداد وابنته زعيمة إلى العراق ثم إلى سلطنة عُمان عام ١٩٢٤م بعد أدائه فريضة الحج إثر تسهيلات قدّمها له الشريف الحسين بن علي شريف مكة، وملك العرب، وذلك رغم اختلاف مواقفهما من الدولة العثمانية، ورغم انتقادات الباروني لموقف الشريف الحسين خلال الحرب العالمية الأولى،

(١) الهاين، مصطفى سعد، أثر العامل الديني في الجهاد الليبي، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص ١٥، سيشار إليه لاحقاً: أثر العامل الديني.

(٢) فيرو، شارل، الحوليات الليبية: منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، طبعة مزيدة ومنقحة، نقلها عن الفرنسية وحققها بمصادرها العربية ووضع مقدمتها النقدية د. محمد عبد الكريم الوافي الفصل الثاني: العهد العثماني الثاني (١٨٧٩ – ١٩١٢م) ملحق بقلم: اوغستان بيرنار، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، الجماهيرية الليبية، ١٩٨٣م، انظر: ص ٧٤٢ – ٧٤٣.

والثورة العربية الكبرى، وتوسّطت له الحكومة العربية بناءً على رغبته لدى السلطات البريطانية ليزور مسقط وعُمان، فوافقت له السلطات البريطانية ورحبت به الأسرة الحاكمة في عُمان، ورحب به شخصياً السلطان تيمور بن سعيد البوسعيدي ببرقية أرسلها له خلال وجوده في الهند[1] وأقام في سلطنة عُمان حتى عام ١٩٤٠م.

توفي في الثلاثين من نيسان ١٩٤٠م في بومبي بالهند بعد وصوله إليها بقليل للعلاج، وكان بمعية السلطان سعيد بن تيمور، وكان قد بلغ السبعين من عمره، والمعروف عنه أنه أقسم ألا يحلق شعره حتى يتحرّر وطنه؛ فظل ملتزماً بقسمه وشعره مسدل على كتفيه حتى وفاته. وقد كرمته ليبيا فاستقدمت رفاته في بداية سنة ١٩٧٣م من الهند بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً على وفاته؛ فدفن في احتفال مهيب في أرض الوطن الذي نذر حياته له.

كان الباروني يسعى إلى يقظة العالم الإسلامي، وتوحيد كلمة المسلمين في مواجهة الخطر الأوروبي، في الوقت الذي رأى فيه أن ولاية طرابلس الغرب أصبحت: "خامدة النفوس ميتة الهمم لا حراك لها، يجول في عامرها فارس الجهل، ويرمح في خلائها جواد النهب والقلاقل، لا يرى أهلها للعلم فضلاً ولا للمعارف شأناً، ولا للوطن عزاً ... يرى المتنبه فيها معاكسة الحكومة (العثمانية) في كل مشروع سيادة، والغبي يعدها عبادة"[2] فوصف حال الأمة بمرارة؛ ودعا إلى الإصلاح متأثراً بأفكار عبد الرحمن الكواكبي، مع الإشارة إلى علّة التعدّد المذهبي، وكان قد تهيأ من خلال دراسته في الأزهر والجزائر لتجاوز الانغلاق المذهبي إلى أفق الإسلام الواسع، وكان ذلك ممارساً عملياً من خلال علاقته الطيبة بالمالكية والإباضية، والتقائه مع دعاة الجامعة الإسلامية وكان يرى أن:

(١) لم تشر الوثائق البريطانية المتعلقة بسلطنة عُمان لمثل هذه البرقية؛ وإنما وردت هذه الإشارة في ما كتبته زعيمة الباروني في: صفحات خالدة، ص ١١٢ – ١١٣.

(٢) ليبيا، ص ٤٢٣.

"أساس الافتراق: الإمارات والممالك والملوك، والمذاهب والفرق وطرق الطوائف في الدين ... وأن نسبتها كنسبة الامتيازات للدول".

وإن انقسام المسلمين وتشرذم نظامهم السياسي أصبح: "بحيث صارت كل مدينة من مدن الايالة الواحدة تعلن استقلالها مع أختها، وتنتخب لها أحد مرهقيها تبايعه بالإمارة أو السلطان ... وكان هم هؤلاء الأمراء تبديد أموال الجبايات في الشهوات، والإنفاق على من حولهم من البطانة وأعوان الفساد .. فتحوّلت أنظار أولئك الأمراء إلى استلاب الأرزاق"[1]؛ وكان يحرص على عدم المساس بشخص السلطان عبد الحميد، ووجهة نظره أن الأتراك العثمانيين "على العموم من أشد الناس تمسكاً بالدين فلا خوف عليهم ولا منهم، إذا سلموا من استبداد الملحدين فيهم[2] وكانت قناعته: "أن الشرق لم يقعده العجز المالي بقدر ما أقعدته أغلال السياسة"[3].

صلات الباروني مع سلطنة عُمان (١٩١٠ – ١٩٢٣م)

كان الباروني واحد من أبرز قادة المقاومة في ولاية طرابلس الغرب (ليبيا حالياً) ضد الإيطاليين مع فرحات بك، وهما اللذان بفضل نفوذهما الشخصي، وشدة تحمسهما في الخُطب التي يلقيانها على العرب والبربر، حدثت هذه الحركة العظيمة التي أوقفت في وجه العدو المهاجم عرب السهول الهادئين، وبربر الجبال الميالين للحرب"[4] وقد تقلّد كل منهما بندقية، وبذل نفسه لخدمة أركان حرب الدولة العثمانية.

(١) صفحات خالدة، ص ١٥٤.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٩٧.
(٣) نفسه، ص ١٣.
(٤) أثر العامل الديني، ص ٢٦.

وكان لنفوذهما على القبائل العربية والبربرية أعظم التأثير على سير الأحداث، ومارسا سلطة أدبية، بما يحضيان به من ثقة، على سائر المجاهدين، فيما عُرف الباروني بأنه كان "أكثر قادة الجهاد تأثراً بالمدنية وتمسكاً بها وانفتاحاً عليها[1].

وجاء الغزو الإيطالي إلى ليبيا بعد تمهيد، وقد قاومه الباروني قبل وقوعه وخلال الأعوام (١٩١٠ – ١٩١١م) من خلال عضويته في مجلس المبعوثان العثماني[2] ولما بدأ الغزو كان الرأي العام الإسلامي متعاطفاً مع المقاومة الليبية، وقد حاول الباروني تنظيم هذه المقاومة بعد وصول القوات الإيطالية إلى طرابلس، ونتيجة لتعاطف الرأي العام الإسلامي فقد قدم متطوعون من أقطار إسلامية مختلفة للقتال إلى جانب المجاهدين ضد الغزو الإيطالي، ولاحظ الباحث أن المجاهدين رحبّوا بتلقي المتطوعين والتبرعات من مختلف الجهات، بما فيها جمعية الهلال الأحمر الإنجليزية، التي أرسلت تبرعات من مسلمي الهند إلى المجاهدين، ورحَّب الباروني شخصياً بذلك مثنياً على "الدولة الإنجليزية المعظمة"[3] ولا نعرف إن كان جزءٌ من هذه التبرعات كان من عُمان.

وقبل أن يهتم الباروني بعلاقاته مع عُمان ومسقط، اهتم بعلاقاته مع شيوخ المذهب الإباضي في تيهرت بالجزائر، ثم طوّر علاقاته مع السلطنة قبيل انتخابه عضواً في مجلس المبعوثان العثماني عام ١٩٠٨م، وازدادت نشاطاته واتصالاته بعد أن أصبح عضواً في هذا المجلس وكانت اتصالاته تتم من خلال الأستانة[4].

(١) المصدر السابق، ص ١٥
(٢) شكري، محمد فؤاد، ميلاد دولة ليبيا الحديثة: وثائق تحريرها واستقلالها، ج٢، القاهرة، مطبعة الاعتماد، ١٩٥٧م. انظر: ج٢، ص ٤٢٨.
(٣) صفحات خالدة، ص ٤٢٨.
(٤) المصدر السابق، ص ١٥٦ – ١٥٨.

ويظهر من خلال أوراقه أنه كان حريصاً على استقلال سلطنة عُمان من جهة، وعلاقتها الودّية مع الدولة العثمانية من جهة أخرى، وأنه كان يعمل على تعزيز علاقات عُمان مع الدولة العثمانية من خلال الطلب خطياً من السلطان فيصل بن تركي وإمام وشيوخ السلطنة أن يقدموا على سبيل الإهداء مجموعة من الكتب المتعلقة بعُمان والمذهب الإباضي إلى مكتبة مجلس المبعوثان التي أنشأتها الدولة العثمانية، وطلب أن يكلّفه السلطان أن يُقدِّم باسمه عدة نسخ من "شرح الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب بن عمرو الفراهيدي الأزدي" من علماء القرن الثاني الهجري لمؤلفه نور الدين السالمي (ت: ١٩١٤م)، ونسخ من "وفاء الضمانة بأداء الأمانة في فن الحديث"، أربعة أجزاء للشيخ محمد بن يوسف أطفيش (ت: ١٩١٤م).

ونسخاً من "الأزهار في فقه الأئمة الأطهار" للمهدي لدين الله أحمد بن يحيى الحسني (ت ٨٤٠ هـ /١٤٣٦م) ونسخاً من ديوان "السيف النقاد" لمحمد بن إبراهيم بن قيس لتكون هذه الكتب كما ذكر الباروني بخطه: "تذكاراً لكم (للسلطان) ولدولتكم وللمذهب في هذه المكتبة"[1] كما أنه طلب كتباً أخرى لهذه الغاية من الأمير عيسى بن صالح الحارثي (١٨٧٤ - ١٩٤٦م) أمير شيوخ قبيلة الحرث وأكثر الأشخاص نفوذاً في الداخل العُماني في النصف الأول من القرن العشرين، وكان من مؤيدي إمامة سالم بن راشد الخروصي (ت: ١٩٢٠م) وبعد وفاة الأخير اختار دعم إمامة محمد بن عبد الله الخليلي (ت: ١٩٥٤م) وانتخب إماماً بعد وفاة الخروصي[2] كما طلب كتباً من الشيخ عبد الله بن عبد الحميد وقد وصلته دفعة فطلب المزيد. وكان الباروني حريصاً على متابعة

(١) صفحات خالدة، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) Anthony, John Duke, Historical and Cultural Dictionary of Sultanate of Oman and the Emirates of Eastern Arabra, The Scare Crow Press, Inc. Metuchen, N. J., 1976, p. 47. Historical سيشار إليه لاحقاً:

الإصدارات الجديدة من الكتب في عُمان، وخاصة كتب المذهب الإباضي، ويحرص على تنقيحها وإخراجها بصورة سليمة لغوياً وتاريخياً، وزيادة الإعداد المطبوعة منها ونوعيتها، بهدف نشر المذهب الإباضي[1].

وحرص الباروني على إيجاد أية صلة لعائلته المقيمة في ليبيا منذ أكثر من ثمانية قرون بالقبائل العربية العُمانية، وقد أرسل استفسارات خطية حول هذه الصلة إلى شيوخ ووجهاء السلطنة؛ كان منهم الشيخ عبد الله بن عبد الحميد الذي سبق أن ذكر للباروني أن هناك قبيلة تعرف بالنسب الباروني في عُمان[2] محاولاً فيما يبدو، إيجاد تفاهمات ووسائل تواصل وتفاهم مع إباضية عُمان ومعرفة نسبهم وعلمائهم ووجودهم الأول.

وبالمقابل كان الباروني يفكر كرجل دولة خلال عضويته بمجلس المبعوثان العثماني وكتب لسلطان عُمان أن استقلال عُمان "أشغل شاغل لرجال هذه الدولة"[3] ويبدو أنه أجرى مباحثات تفصيلية مع رجال الحكم العثماني الجديد/الاتحاد الترقي حول سلطنة مسقط وعُمان، وأنه بحث سّراً معهم تبادل السفراء بين السلطنة والدولة العثمانية. وأبدى حرصه على وحدة السلطنة، وتجنّب فتن الأجانب وعدم تلبية مطالبهم في الحصول على امتيازات المعادن وحرية المرور والتجوّل في السلطنة، مشيراً إلى تجربة طرابلس الغرب مع إيطاليا في هذا المجال وأنهم فشلوا في إثارة الفتن فيها[4].

ومن خلال ما خطَّه فإن الباروني يبدو مطلعاً ويَعِيْ أهمية موقع السلطنة الاستراتيجي في حماية الجزيرة العربية والأماكن المقدسة، وإحساسه بما تحيكه الدول الأجنبية، ولذلك فقد نصح أمراء وشيوخ سلطنة عُمان بما نصه: "والذي

(١) المصدر السابق، ص ١٥٨.
(٢) نفسه، ص ١٥٤
(٣) نفسه، ص ١٥٥، وص ١٥٧ ــ ١٥٨.
(٤) نفسه، ص ١٥٤ ــ ١٥٥.

أراه واجباً على العلماء والعقلاء منكم إيقاظ رؤساء القبائل وعامة الناس في كل جهة (من السلطنة)، ونصحهم إلى الانقياد للملك (سلطان عُمان) والاتحاد والتعاون والتعارف وترك الفتن، مع بيان ما يُهدّد البلاد من الخطر، وما للأعداء من القوة والطمع فيهم وفي دولتهم"[1] وكان أيضاً حريصاً على إبراز المستجدات وما حققه الإباضية في طرابلس الغرب، حيث أبلغ برسالة إلى أهل عُمان أن "والي طرابلس وحاكم الجبل وقائم مقام نالوت سعوا في نقل مركز حكومة الجبل إلى زواغة لتنزع الحكومة من أيدي أهل الجبل خصوصاً الإباضية" وأضاف أنه صرف جهده لمقاومة ذلك ووفق وتم عزل الوالي ونقل حاكم الجبل[2].

لاشك أن الباروني كان مجاهداً صلباً في مواجهة الجيش الإيطالي، وقد حمل السلاح وقاد المجاهدين ، وخطط ونفّذ الكثير من الهجمات على الجيش الإيطالي في ليبيا؛ وكان آنذاك عضواً منتخباً في مجلس المبعوثان العثماني، وقد استمر في الجهاد ضد الإيطاليين رغم توقيع معاهدة السلام المعروفة بـ" أُوشي لوزان" التي وقعتها الدولة العثمانية مع إيطاليا؛ وكان من نتيجتها تخلي الدولة العثمانية عن دعم المجاهدين وإعطاء مواطني طرابلس الغرب حرية في إدارة أنفسهم بصورة مستقلة.

ومن الملاحظ أنه في الوقت الذي كان الغزو الإيطالي على طرابلس الغرب يشتد؛ وتشتد حاجة المجاهدين للسلاح؛ فإن السلطنة وسواحل الخليج العربي شهدت طلباً متزايداً على السلاح والذخيرة لأسباب تتعلق بالتهديد الروسي لإيران، وقد ارتفعت أسعار المسدسات من (١٣٠) روبية إلى (١٥٠) روبية وتضاعف سعر الجمال[3] وتضاعف سعر الذخيرة من (٤٥) روبية لكل ألف

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٦.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٧.
(3) Political Diaries of The Persain Gulf, Archive Edition, Vol. 4, (1922 – 1927), 1990, Vol. 4, p. 301 P.D.P.G وسيشار إليه لاحقاً:

طلقة إلى (٩٠) روبية لكل ألف[1] كما أن هذه التجارة كانت داخل الخليج العربي وعلى شواطئه؛ ولكن أحياناً تجد هذه الأسلحة طريقها بحراً إلى "الساحل الشرقي لأفريقيا الألمانية"[2].

وحاول قادة الجيش الإيطالي استمالة الباروني إلى جانبهم مقابل امتيازات يمكن أن تمنحها إيطاليا له، ولكنه رفض كل الإغراءات التي كان منها ما حملته رسالة الجنرال سالساتو مازو المطوّلة المؤرخة في ١٦ كانون الثاني ١٩١٢م والتي عرض فيها الجنرال الإيطالي على الباروني أن "تمنحكم (إيطاليا) تمام العفو عن كل ذلك (جهاده ضد الإيطاليين)، ولكنها مستعدة أن تكافئ خدمتكم (معاضدتهم في الحرب) بصورة تفوق تصوركم" وكان رد الباروني واضحاً وحاسماً ومختزلاً في الأول من ربيع الأول ١٣٣٠ هـ / ١٨ شباط ١٩١٢م نصه: "إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلو عليَّ وأتوني مسلمين، خاضعين للعلم العثماني المقدس"[3].

كما حاولت إيطاليا ترغيبه في رسالة لاحقة مؤرخة في ١٤ شعبان/١٣٣١ هـ/١٨ تموز ١٩١٣م بمنحه معاشاً وافراً قدره (٦٠٠٠) فرنك شهرياً، أو أن يؤلف لهم رسالة في تاريخ وأحوال طرابلس، أو أن يسافر لغير مصر والآستانة وفرنسا للسياحة أو أن يؤلف إليهم دون مقابل، ولكنه رفض وتوجّه إلى شرق ليبيا لدعم المجاهدين في بنغازي[4].

ورغم أن المجاهدين في ليبيا تلقوا تبرعات واستقبلوا متطوعين من مختلف أنحاء العالم إلا أننا لم نجد في حسابات الإعانات التي تلقاها الباروني بوصفة أحد قادة المجاهدين منذ بداية الغزو الإيطالي أي مبلغ مالي كان مصدره سلطنة

(1) P.D.P.G Vol. 7, p. 267
(2) P.D.P.G Vol. 6, p. 5

(٣) يوميات الجهاد الليبي، ص ٣١٠.
(٤) صفحات خالدة، ص ٤٤٤.

عُمان، كما إننا لم نجد ذكراً لتبرعات أشخاص بشكل فردي، توحي أسماؤهم بأنهم من السلطنة، قدموا تبرعات للباروني خلال هذه الفترة[1].

ولم تشر الوثائق البريطانية إلى أية معلومات عن نشاطات الباروني في مقاومة الغزو الإيطالي قبل العام ١٩٢٣م، ويمكن أن يُفسّر ذلك بما ذكرته الوثائق البريطانية نفسها المتعلقة بالشمال الأفريقي بشكل عام وليبيا بشكل خاص، ولعّل أبرز الملاحظات التي أوردتها هذه الوثائق والتي يمكن أن تبرّر هذا النقص في المعلومات هي الملاحظات التالية[2]:

أولاً: تنّوع الاهتمامات البريطانية وتزايد صعوبة الاتصالات مع الشمال الأفريقي، رغم الإقرار بأن الأحداث الجارية في مكان ما من الشمال الأفريقي ستؤثر على الأوضاع السياسية في أجزاء أخرى مثل الجزيرة العربية، والتي لها ارتباط مباشر حتى بين منطقتين متباعدتين.

ثانياً: إن الاهتمام البريطاني بدأ متأخراً بالحركات الإسلامية في الشمال الأفريقي، وكذلك علاقة هذه الحركات بالجزيرة العربية، وقد دعت مذكرة حول الأوضاع السياسية في الشمال الأفريقي إلى تفعيل تبادل المعلومات وتدويرها بين مختلف الهيئات البريطانية في المنطقة وبين المركز في لندن بخصوص هذه المسألة.

ثالثاً: قلة عدد البريطانيين العاملين في المغرب العربي فقد أشارت الوثائق إلى أن وجود الرسميين البريطانيين كان محدوداً في هذه المنطقة؛ إذ كانت هناك قنصلية في المغرب، وأخرى في الجزائر وضابطين بريطانيين في تونس، ولم ترد أية إشارة إلى وجود بريطاني رسمي في ليبيا خلال هذه الفترة.

---

(1) المصدر السابق، ص ٤٢٨.

(2) Burdett, A. L. Arab Dissident Movements (1905 – 1955), Vol. 2, 1921 – 1932), Archive Edition, 1996, P. 161 – 169.

رابعاً: هناك صعوبة خاصة مرتبطة بعمل البريطانيين في ليبيا وهي صعوبة الحصول على معلومات عمن أسمتهم الوثائق البريطانية "بالسكان البدو وبربر جبال الأطلس والريفيين".

خامساً: إهمال السلطات البريطانية في متابعة الحصول على المعلومات من خلال القوافل التجارية والحجاج المغاربة.

وقد لاحظ الباحث أن اتصالات الرسميين البريطانيين مع قادة الحركة السنوسية في ليبيا، خلال هذه الفترة ،كانت تتم من خلال القاهرة أو الإسكندرية ،وكان يجري انتظار زيارات قادة الحركة إلى مصر أو مشاركتهم في قافلة الحج إلى مكة؛ وربما لهذا السبب لم تذكر الوثائق البريطانية أية إشارة عن الحركات الإسلامية في ليبيا خلال فترة الدراسة، كما أنها لم تذكر موقف الباروني من موضوع الخلافة الذي حظي بنقاش واسع خلال هذه الفترة، وكان للباروني رأي فيه[1].

إقامته في السلطنة (١٩٢٤ – ١٩٤٠م)

أوردت الوثائق البريطانية المتعلقة بالسلطنة اسم الباروني لأول مرة عام ١٩٢٤م حيث ورد فيها أنه قدم إلى مسقط في ٤ آب ١٩٢٤م بسفينة حجاج قادمة من جدة التي قدم إليها من مكة بعد أدائه الحج. ووصفته بأنه" مناضل من طرابلس، متآمر وغير مرغوب فيه، وكانت السلطات البريطانية قد رفضت طلبه تسهيل زيارته إلى مسقط عام ١٩٢٣م، وأنه يتمتع بسمعة أنه رجل مبارك (مقدس) في مسقط، وأقيم له لدى قدومه إلى مسقط مهرجان في الهواء الطلق من قبل مجلس الوزراء وأصحاب المقامات الرفيعة في مسقط، وقدم طلباً للوكيل

---

(1) Burdett, Anita L. P., Islamic Movements in Arab world, (1913 – 1966), vol. 1 (1913 – 1924), Archive Editions, 1998, p. 616 – 643.

السياسي البريطاني في مسقط لزيارة السلطان في بومبي وقد رفض طلبه"[1] ولم تشر الوثائق البريطانية لما ذكرته ابنته زعيمة أن السلطان رحّب به في برقية أرسلها من الهند[2].

بعد أدائه للحج الذي قدّم له الشريف الحسين بن علي تسهيلات ليؤديه، وتوسطت له الحكومة العربية، بناءً على رغبته، لدى السلطات البريطانية ليزور مسقط وعُمان[3] وقد تم ذلك فعلاً، رغم ما كان بينه وبين الشريف من مواقف متعارضة من الدولة العثمانية ومن الخلافة.

سافر الباروني إلى بوشهر وقضى فيها أسبوعين، ثم انتقل إلى السيب حيث قضى فيها عدة أيام وغادرها في ١٥ تشرين الأول ١٩٢٤م إلى سمايل في الداخل العُماني، وكان يواكبه حينها خمسون رجلاً أرسلوا من قبل الإمام وقد توقف في طريقه بـ "خندة" و"فنجة".

ولأنه حل ضيفاً على الحكومة المحلية في مسقط؛ فقد صرف له السلطان مبلغ (١٢٠٠) روبية لتغطية احتياجاته الشخصية[4] حيث كان السلطان في الهند، "وقد غادر سمايل إلى الشرقية بدعوة من الشيخ عيسى بن صالح الحارثي (١٨٧٤ – ١٩٤٦م) أمير شيوخ قبيلة الحرث في الشرقية، وأكثر الأشخاص نفوذاً في عُمان الداخل في النصف الأول من القرن العشرين، وهو من مؤيدي إمامة سالم بن راشد الخروصي (ت: ١٩٢٠م)، وبعد وفاة الأخير اختار الشيخ عيسى دعم الإمام محمد بن عبد الله الخليلي[5]، وقد استقبل بحفاوة وأكرم من

(1) P.D.P.G. Vol. 7, August 1924, p. 249.

(٢) صفحات خالدة، ص ١١٢ – ١١٣.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ١٠٧.

(4) P.D.P.G. Vol. 7, Octobar, 1924, P. 257 – 258.

(5) Historical P. 47.

قبل العُمانيين، ولكنه مرض هناك ولم يَعُدّ قادراً على العودة إلى مسقط وبقي في الشرقية حتى نهاية العام ١٩٢٤م[1].

أرسل الباروني رسالة إلى الملك فيصل في العراق وطلب منه أن يعيّنه في وظيفة؛ وقد جاء في رد الملك فيصل الذي أُرسل بواسطة قنصلية مسقط أنه لا توجد وظائف شاغرة حالياً، ولكن يمكنه القدوم للعراق في زيارة قصيرة.

ولاحظت الوثائق البريطانية أن الباروني كان "مسؤولاً عربياً من طرابلس، وأنه يقدم نفسه على أنه عالم؛ وأنه بدلاً من ذهابه إلى العراق فإنه يتجّول بصورة مكثفة في الداخل العُماني، ويزور معظم الشيوخ الذين يعارضون سلطات السلطان آنذاك؛ وخاصة الإمام محمد بن عبد الله الخليلي وعيسى بن صالح الحارثي، وقد راسل مع صحف مصرية تبين مما نشره أنه ليس صديقاً لبريطانيا العظمى أو لأي قوة مسيحية، رغم أنه يتظاهر بأنه ضد إيطاليا فحسب[2].

والمقولة السابقة فيها الكثير من الدقة؛ ولكنها لا تخلو من محاولة التحريض على الباروني بوصفه متآمراً يتصل مع معارضين قبليين أو مذهبيين للسلطان في حين أن اتصالات الباروني، كما سنرى لاحقاً، قد أثمرت في تعزيز اتجاهات التقارب بين السلطان والإمام وشيوخ القبائل، وكان يحاول تعزيز سلطة ونفوذ السلطان ويعمل على استقرار النظام في السلطنة.

وأول ما يرد من مؤشرات ما ذكرته الوثائق البريطانية نفسها : من أن الباروني بحث مع آخرين العلاقات السعودية العُمانية، "وكان رأيه أن المخاطر التي تهُدِّد عُمان يجب أن تؤخذ بترو، ولكن لا بُدّ من أن توحّد القبائل العُمانية

(1) The Persain Gulf Administration Reports (1873 – 1947), Vols. Archive Editions, 1986, See Vol. VIII, P. 56 P. G. A. R. وسيشار إليه لاحقا:

(2) P.G.A.R. Vol. VIII, p.3

المعارضة للنفوذ السعودي، وأن تجبر القبائل الواقعة تحت التأثير الوهابي (هكذا وردت) على الاستجابة للرغبة العامة للقبائل العُمانية"[١].

ومع ذلك فإن الوثيقة البريطانية علّقت على ذلك بالقول إن الباروني أخذ دوراً قيادياً في عُمان من خلال إقامته عند الشيخ صالح بن عيسى وأنه (أي الباروني) سّبب الكثير من المشاكل للفرنسيين والإيطاليين في السنوات السابقة، وأنه اعتقل اعتقالاً سياسياً في باريس قبل ثمانية عشر شهراً، ولم يتم السماح له من قبل فرنسا أو إيطاليا "بالعودة إلى أي مكان في حوض البحر المتوسط الأفريقي فقدم إلى الجزيرة العربية، وهو قائد ديني من فرقة العبادي، و(الإباضية) الفرقة القوية في عُمان"[٢].

ورغم أن السلطات البريطانية في الخليج العربي تعتبره مناضلاً، متآمراً غير مرغوب فيه، مثير للمشاكل؛ فإن هذه السلطات لم تستطع أن تقدم على أي خطوة لإبعاده من السلطنة، ويبدو أن ذلك عائد إلى أن السلطان قلّده وساماً عسكرياً رفيعاً واعتبره واحداً من الأسرة المالكة[٣] (Sayidiya)(السعيدية).

ثم نلاحظ أن الباروني عاد في آذار سنة ١٩٢٦م من الداخل العُماني إلى مسقط، ثم ذهب في حزيران ١٩٢٦م إلى سمايل بدعوة من الإمام محمد بن عبد الله الخليلي، وبقي لدى الإمام الذي عينّه مستشاراً مالياً؛ ونلاحظ أيضاً أن الوثائق البريطانية أشارت إلى أنه لا توجد مؤشرات عداوة آنذاك بين السلطان والإمام وأن علاقاتهم بدت ودّية في العام ١٩٢٦م، ثم استمرت في العام ١٩٢٧م حيث وصفت هذه العلاقات بأنه علاقات صداقة بين الإمام والحكومة العُمانية[٤].

(1) P.G.A.R. Vol. VIII, p. 66.
(2) P. G. A. R., 1926, Vol. VIII, P. 30
(3) P. G. A. R., 1925, Vol. VIII, P. 66
(4) P. G. A. R. 1926, Vol. VIII, P. 30

وأن الإمام عيّن مجلساً في نزوى لإعادة تقدير (يبدو قيمة الزكاة) في مناطقه تألف من: الباروني، وسعيد بن ناصر الكندي، وعامر بن خميس المالكي والي نزوى، وماجد بن خميس العبري من الحمرا، وذلك بهدف زيادة عائدات الإمامة، ولاحظت الوثائق أن هذه المحاولة كانت ناجحة عند تطبيقها على سكان الرستاق ونزوى وسمايل[١].

ورغم اتصالات الباروني الوثيقة مع الإمام الخليلي ومع زعماء القبائل العُمانية الذين وصفتهم الوثائق البريطانية بأنهم معارضين للسلطان، فقد كانت علاقة الباروني كما ذكرت الوثائق البريطانية نفسها، بالسلطان وثيقة جداً حتى أنه استطاع أن يأخذ إذناً من السلطان للمواطن البريطاني السيد داوسون (Dowson) صاحب الوكالة التجارية (Hill Brothers) الذي قدم من البصرة إلى مسقط في الثالث من حزيران ١٩٢٧م بالمرور إلى سمايل لزيارتها، وعلى أنه أمريكي، رغم أنه مواطن بريطاني وأبلغ من قبل السلطات البريطانية بأن عليه مغادرة مسقط مباشرة عائداً من حيث أتى[٢].

وفي ٢١ آب ١٩٢٨م غادر سعيد بن سليمان الباروني السلطنة إلى استانبول من خلال العراق؛ واستمر الباروني في مجلس نزوى[٣] وفي أيلول ١٩٢٨م تقرر أن يصبح الباروني والسيد محمد ابن الشيخ عيسى بن صالح قيّمين على قضايا العائدات (للإمامة) وحدّد المجلس مخصصات الإمام بـ (١٥٠) دولاراً أمريكياً شهرياً[٤].

(1) P. G. A. R. 1927, Vol. VIII, P30
(2) I bid., p. 30
(3) P. G. A. R. 1928, Vol. VIII, P. 35
(4) Ibid, p. 36

وفي العام ١٩٢٩م أشارت الوثائق البريطانية إلى الباروني بلقب شيخ وأنه غادر السلطنة إلى العراق في حزيران وعاد إلى سمايل في أيلول ١٩٢٩م وأنه لم يُوَّفق في الحصول على وظيفة لدى الملك فيصل[١].

وفي الفترة اللاحقة ومنذ العام ١٩٣٠م وحتى عام ١٩٣٨م تغفل الوثائق البريطانية الإشارة إلى الباروني؛ ولكنها إشارات بوضوح خلال هذه المدة أن علاقة السلطان مع الإمام من جهة، ومع القبائل من جهة أخرى، كانت ودّية حتى أن الشيخ عيسى بن صالح واثنان من أولاده وبعض أتباعه زاروا السلطان في مسقط عام ١٩٣٧م؛ مما اعتبرته السلطات البريطانية حدثاً ذو أهمية[٢] ومع ذلك فقد عادت هذه الوثائق وذكرت في العام ١٩٣٩م أن الباروني رغم أنه شخص مثير للمتاعب؛ إلا أنه أقام بهدوء في مسقط، وعُيِّن مستشاراً للسلطان في الشؤون الداخلية، وأن بدء الحرب العالمية الثانية أعطت "لهذا الرجل المُسِّن أملاً جديداً، وتوّقع أن إيطاليا ستقف إلى جانب ألمانيا، وكانت لديه وجهة نظر أن طرابلس ستستعيد استقلالها، وأنه أبدى استعداده لمساعدة فرنسا في التأثير (على الرأي العام) في طرابلس"[٣]. وما ورد أعلاه في الوثائق البريطانية يدحض زعم السلطات البريطانية في الخليج من أن الباروني كان متآمراً ويتصل بمعارضي السلطان؛ بل تشير الوثائق بوضوح إلى دوره في تقريب وجهات النظر بين السلطان وبين الأمام وشيوخ القبائل.

وفي الثامن من شباط ١٩٤٠م أوردت الوثائق البريطانية أن الباروني كان يجلس في حضرة السلطان في قصره، ويحضر اجتماعات ولقاءات يُدعى لحضورها كبار المسؤولين ومنهم: السيد نادر بن فيصل أكبر أعمام السلطان

(1) P. G. A. R. Vol . VII, 1929, P. 44.
(2) P. G. A. R. 1937, Vol. VIII P. 51.
(3) P. G. A. R. Vol. IX, 1939, P. 38 – 41.

والسيد شهاب بن فيصل وزير الخارجية، والسيد أحمد بن إبراهيم وزير الداخلية، والمقيم السياسي في الخليج العربي[١].

وقد رافق الباروني السلطان في زيارته إلى بومبي لاستشارة إخصائي عيون في نيسان ١٩٤٠م، إلا أنه توفي بعد أن وصلها بقليل في ٣٠ نيسان ١٩٤٠م بسبب هبوط في القلب، ومع أنه أمل أن يعود إلى شمال أفريقيا للعمل من أجل تحرير بلاده إلا أنه لم يعد إليها؛ وبعد ستة أسابيع من وفاته وردته رسالة رداً على رسالته السابقة من جنرال فرنسي يرحب بخدماته في شمال أفريقيا بهدف التعاون من أجل تحرير ليبيا[٢].

الخاتمة

من خلال المصادر الأولية الوثائقية والأدبية والإعلامية، حاول الباحث أن يُلقي الضوء على صلات المناضل والمؤرخ والفقيه الإباضي سليمان الباروني النفوسي، عضو مجلس المبعوثان العثماني عن ولاية طرابلس الغرب (ليبيا)، واحد قادة الجهاد الليبي خلال الغزو الإيطالي للولاية، مع سلطنة عُمان.

ويُمكن تقسيم هذه الصلات إلى مرحلتين: الأولى خلال الفترة الممتدة من عام ١٩١٠م أي قبيل الغزو الإيطالي ولغاية عام ١٩٢٣م وكانت صلاته مع عُمان قد تمت من خلال الآستانة عاصمة الدولة العثمانية، وخلال عضويته بمجلس المبعوثان العثماني، ثم عودته إلى طرابلس الغرب عشية الغزو وتنظيمه وقيادته المجاهدين ضد الغزو بالتنسيق مع مسؤولي الدولة العثمانية فيها؛ والمرحلة الثانية تبدأ منذ اضطراره لمغادرة طرابلس الغرب حاجاً للديار المقدسة،

(1) P. D. P. G. Vol. 14 (1940 – 1941), P. 47 – 48, M. I. S. No. 4.
(2) P. G. A. R., Vol. IX, 1940, P. 46.

ثم مقيماً في سلطنة عُمان خلال الفترة اللاحقة من حياته وذلك منذ العام ١٩٢٤م وحتى وفاته عام ١٩٤٠م.

وقد مهدنا لهذا البحث بمقدمة عن الغزو الإيطالي، وعن المقاومة الليبية لهذا الغزو، ثم عرضنا سيرة حياة الباروني ودوره في مقاومة الاحتلال الإيطالي. وتبين لنا أن الباروني كان أحد أبرز قادة الجهاد الليبي ضد الغزو الإيطالي، وقد حمل السلاح وقاد وخطط ونفذ هجمات المجاهدين ضد القوات المسلحة الإيطالية المحتلة.

ووصلت الباروني مساعدات ومتطوعين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وتراسل مع السلطان سعيد بن تيمور، ومع الشيوخ ووجهاء عُمان ، وعبَّر عن موقف داعم لاستقلال السلطنة، ولعلاقة ودّية بينها وبين الدولة العثمانية، وتبادل الآراء حول هذه الموضوعات مؤكداً خلالها لأعيان وشيوخ عُمان على ضرورة تمسكهم بالولاء للسلطان ودعمه ورفض تحريض وفتن الدولة الأجنبية.

كما حاول الباروني خلال إقامته في السلطنة تقديم خلاصة خبرته ومعرفته، وقدراته التنظيمية في خدمة المذهب الإباضي في مجالي الاستشارة وتنظيم واردات الإمامة من جهة، والتقريب بين الإمام والسلطان من جهة أخرى، وكان مقرباً إليهما طيلة إقامته في عُمان، وكان يحظى باحترام في مجلس السلطان والمجلس الاستشاري للإمام على حد سواء، رغم كل ما كانت تثيره السلطات البريطانية حول نشاطاته من شكوك لدى السلطان. وكان يعمل من خلال السلطنة لهدفه الاستراتيجي المعلن وهو تحرير ليبيا.

حضور الشيخ سليمان باشا الباروني في الثقافة العُمانية
أدبيات زيارته لبلدة الحمراء... نموذجاً

د. علي بن هلال بن محمد العبري(*)

مقدمة

فقد تعددت مظاهر التواصل العلمي والثقافي والفكري العُماني المغاربي منذ نشأة المذهب الإباضي في القرن الأول الهجري، وكان اللقاء في موسم الحج وتبادل الكتب العلمية والمراسلات بين اقطاب المدرسة الاباضية المشارقة والمغاربة أبرز صور ذلك التواصل، أما الزيارات المتبادلة والرحلات العلمية بين الجانبين فكانت محدودة جدا بسبب بُعد المسافة وعوامل أخرى، و تعتبر زيارة الشيخ سليمان باشا الباروني(١٢٨٧هـ/١٨٧٠م-٢٣ربيع الأول ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م) إلى القطر العُماني وإقامته فيه في العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجري أبرز مظاهر هذا التواصل حتى ذلك الوقت.

هذا ولا تخفى على الباحثين في سيرة الشيخ المجاهد والمصلح الكبير سليمان باشا الباروني، الأسباب السياسية والجهادية التي كانت السبب في خروجه من وطنه ليبيا . والذي قاده إلى زيارة عُمان والإقامة فيها، فقد قاد هذا البطل العظيم مقاومة شرسة ضد المستعمر الإيطالي للتراب الليبي، ورفض كل محاولات المساومة مع المحتل، وكان النفي هو الوسيلة التي يلجأ إليها المستعمر مع كل من يعجز عن القضاء عليه بالوسائل الأخرى، فنفي الشيخ الباشا الى باريس، وكان من قدر الله أن هيأ للشيخ من أعانه على الخروج إلى المشاعر المقدسة لأداء فريضة الحج، وبعد أداء المناسك قرر التوجه الى عُمان فركب

(*) د. علي بن هلال بن محمد العبري، جامعة السلطان قابوس، عُمان.

الباخرة التي تقل الحجاج العُمانيين العائدين إلى مسقط،، فوصل مسقط في شهر محرم عام ١٣٤٢هـ.

لقي الشيخ الباشا استقبالا عظيما، واحتفى به العُمانيون قائد وزعيما وضيفا كبيرا، وتبارى الشعراء في الترحيب به أينما ذهب وحيثما حل، وممن قال الشعر مرحبا بالشيخ الباشا الشيخ القاضي عيسى بن صالح الطائي والشاعر أبو سلام الكندي[١]، وسالم بن ناصر[٢]، وأحمد بن سلطان آل سليم من مدينة دبي[٣] والشيخ إبراهيم بن سعيد العبري[٤]، وبلغ صدى ذلك الحدث التاريخي إلى أسماع الأديب والشاعر الجزائري أبي اليقظان الحاج إبراهيم الميزابي فنظم قصيدة عصماء في أمجاد عُمان ومناقب العُمانيين[٥].

كان الشيخ سليمان باشا يرى عُمان وطنا واجبا عليه أن يبذل في سبيله كل ما لديه من معرفة وخبرة وعلم، ورأى فيه الوطن الذي يمكنه أن يحقق فيها معاني العزة والحرية والكرامة والرفعة، فرأى فيه العُمانيون الأخ الصدوق، والناصح الأمين، فتلقوه لقاء الحبيب لحبيبه، فأخلص القول وبذل النصح، وكانت له في الإصلاح محاولات، وعلى تربة عُمان بصمات، وحفظ الأرشيف العُماني صفحات ستبقى برهانا على التواصل العُماني المغاربي الذي يزداد في هذ العصر عمقا وشمولاً.

كانت تلك الزيارة حدثا مثيرا في الحراك السياسي والاجتماعي والثقافي في المجتمع العُماني في ذلك الوقت، وأصبحت أحداثها مثار اهتمام الباحثين في

(١) قال فيه ١٤ قصيدة ، أنظر: الكتاب المسمى بنشر الخزام للشاعر الغيور الشيخ ابو سلام سليمان بن سعيد بن ناصر الكندي، مخطوطة مصورة بمكتبة وقف الحمراء الرقم العام(٤٤٤٣)، الرقم الخاص(٨١١)، ص٢٠ - ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ج٢، ص٢٦ -٢٧.

(٣) نفس المرجع، ج٢، ص٧٤-٢٦.

(٤) أبو اليقظان الحاج ابراهيم، سليمان الباروني باشا وأطوار حياته، ص١٥ .

(٥) مخطوطة مصورة بها قصائد فقهية وأدبية لعدد من شعراء عُمان، محفوظة بمكتبة وقف الحمراء الأهلية(الصفحات غير مرقمة) ورأيت من المناسب إلحاق القصيدة وجواب الشيخ القاضي عيسى بن صالح الطائي عليها بهذه الورقة لأهمية القصيدتين.

التاريخ العُماني وفي سيرة الشيخ الباروني على حد سواء، فلم يكن الشيخ بالزائر الغريب، ولا الضيف الذي لا يلبث أن يغادر البلد فور انتهاء الضيافة، ولم يجد الباشا في عُمان ما خفف عنه مرارة الغربة عن مسقط رأسه ووطنه الذي جاهد من أجل تحريره واستعادة حريته وسيادته فحسب، بل وجد نفسه في جزء من وطنه، فهو المسلم الذي يرى بلاد الإسلام كلها وطناً واحداً.

حرص الشيخ الباروني خلال زيارته الأولى على السياحة في القطر العُماني فبالإضافة إلى مسقط ونزوى زار الشيخ عددا من البلدان الأخرى منها . على سبيل المثال . سمائل وإزكي وبهلا والقابل، وتنوف، والحمراء موضوع هذه الورقة، ولاريب أن جولة الشيخ في بلدان عُمان شرقها وغربها لم تكن لمجرد السياحة والمتعة والضيافة، وإنما من أجل الاطلاع على أوضاع المجتمع العُماني.

يحاول الباحث الكشف عن جانب من حياة الشيخ الباروني وحضوره في الثقافة العُمانية من خلال تتبع زيارته الى بلدة الحمراء الواقعة غرب مدينة نزوى، ورحلته الى الجبل الأخضر في شهر ربيع الأول سنة١٣٤٥هـ، وما ورد عنها من أدبيات في الوثائق، وما سجله الشيخ من انطباعات عنها، مع ربطها بالروايات الشفهية التي تحتفظ بها الذاكرة العُمانية، وأخيرا الكشف عن عدد من الوثائق التي تبين حرص الشيخ على التواصل مع طلبة العلم في بلدة الحمراء بعد انتهاء زيارته لها.

ومن أبرز المصادر التي سجلت زيارة الشيخ الباروني الى بلدة الحمراء وارتقائه الجبل الأخضر: مجلة "المنهاج" التي كان يصدرها في مصر العالم العامل الداعية الكبير الشيخ أبو اسحق إبراهيم أطفيش – رحمه الله – وكتاب "نهضة الأعيان" تأليف الشيخ المؤرخ أبو بشير محمد ابن العلامة نور الدين

عبدالله بن حميد السالمي ، وتبصرة المعتبرين تأليف سماحة العلامة الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري المفتى العام السابق لسلطنة عُمان، وبعض المعلومات الواردة لم يعزها الباحث إلى مرجع معين باعتباره من أبناء بلدة الحمراء وعلى معرفة بطبيعة المنطقة ومكوناتها البيئية .

المشهد الأول: توجيه الدعوة وقبولها

تبدأ قصة زيارة الشيخ الباروني لبلدة الحمراء بوصول وفد من أهل بلدة الحمراء إلى بلدة تنوف الواقعة في منتصف الطريق تقريبا بين نزوى والحمراء حيث حل الشيخ الباشا ضيفا على الشيخ سليمان بن حمير النبهاني[1]، وقد حمل الوفد دعوة من الشيخين ماجد بن خميس وإبراهيم بن سعيد العبريين[2] إلى الشيخ الباشا لزيارة الحمراء.

ومن الطبيعي أن تلقى هذه الدعوة موافقة الشيخ الضيف رغبة منه في لقاء العلامة الكبير بقية السلف الصالح الشيخ ماجد بن خميس العبري، أكبر الشخصيات العلمية في عُمان ومن أكابر أهل الحل والعقد فيها، فهو ممن عاصر السيد الامام عزان بن قيس البوسعيدي وجاهد معه وعمل له واليا على ولاية بهلا، ثم كان ممن اعتمد عليهم الامام السالمي – رحمهم الله جميعا– في مشاوراته وتحركاته لتأسيس الإمامة الأخيرة[3].

(١) المنهاج ٢٨٤/٢.
(٢) ذكر الشيخ الباروني في مذكراته ـ حسب ما ورد في كتاب أبي اليقظان ـ أن الشيخ ابراهيم العبري كان في ذلك الوقت متقلدا قضاء ولاية الرستاق وأنه لما سمع بقدومه الى الحمراء استقال من القضاء وحضر الى الحمراء، والصحيح أن الشيخ العبري كان في وقت زيارة الشيخ الباروني للحمراء متقلدا منصب مشيخة قبيلة العبريين في الحمراء بعد وفاة شيخهم ابن عمه "مهنا بن حمد" الذي توفي في مدينة جدة بعد عودته من أداء فريضة الحج وكان برفقته الشيخ ابراهيم، أما استقالته من قضاء الرستاق فقد كانت في عصر امام سالم بن راشد الخروصي المتوفي سنة ١٣٣٧ هـ. لذلك وجب التنبيه هنا.
(٣) العبري، تبصرة المعتبرين

وأما السبب الثاني فيما يبدو فربما رغبة الشيخ الباروني في التعرف على أعلى قمة في الجبل الأخضر وهي المعرفة اليوم بقمة "جبل الشمس"، ولاريب أن الباروني القادم من جبال نفوسه تتوق نفسه الى صعود الجبل الأخضر العُماني وخصوصا قمته العالية التي يمكن للإنسان أن يراها من مسافة ٤٠ أو ٥٠ ميلا شامخة بين قمم الجبال الأخرى المحيطة بها.

لبى الشيخ الباروني الدعوة فعاد وفد الحمراء يزف البشري، فكان لابد من إعداد برنامج استقبال حافل يليق بمكانة الضيف الكبير، ويعبز عن المحبة والتقدير والاحترام الذي يكنه له أهل عُمان لكل ضيف قادم اليهم لاسيما من تربطهم به رابطة الدين والعقيدة والتاريخ، فكيف بشخصية الزعيم البطل الشجاع سليمان باشا الباروني؟!!!

المشهد الثاني: رصاص الاستقبال ومدافع الترحيب

انطلق موكب الباشا من تنوف إلى الحمراء الواقعة غربا على بعد نصف يوم مشيا على الأقدام[1]، وما إن أطل موكب الباروني على بلدة القرية الواقعة على بعد ميلين من بلدة الحمراء حتى انطلقت البنادق بدوي الرصاص والمدافع المحشوة بالبارود معلنة أرجاء المنطقة بوصول الموكب الباروني، فكانت الحمراء على موعد من مواعيد أيامها الخالدة.

وهنا أحيل القارئ الكريم إلى اللوحة الأدبية التي رسمها قلم الشيخ الباروني نفسه وهو يرى ذلك المشهد العجيب والمنظر البديع والاستقبال البهيج على أطراف ضواحي الحمراء ونخيلها الباسقة، فيقول:" وكان لدخولنا إلى الحمراء منظر مطرب، قد تلبد دخان بنادقهم ومدافعهم في الجو كالسحاب، وكنا نمر بين مزارعها الخضراء تحف بنا الرجال والخيل والمهر، وقد بلغ عدد النساء اللاتي

(١) هذا بحسب تقدير الشيخ الباروني نفسه، وبالمقاسات المعروفة اليوم تبعد مسافة ٢٥ كيلو متر تقريبا.

يحملن جرار الماء على رؤوسهن نحو المائة يراهن الناظر كأسراب الظباء يمينا وشمالا ينادين هل من شارب ويرى الشيخ الضيف الأكواب . تلمع بسبب انعكاس الشمس . كالنجوم، فكان الموكب من أجمل ما شاهدته من المواكب".

هكذا سجل قلم الباشا تفصيل المشهد بكل تفاصيله وجزئياته، وكأنه شريط سينمائي: أصوات بنادق تتداخل معها أصوات المدافع تصم الآذان وترجف منه الأرجاء، ودخان كسحابة تلبد السماء، طرق تحفها حقول القمح والمزارع الخضراء، رجال متمنطقين بالخناجر وأحزمة الرصاص وعلى أكتافهم البنادق وبأيدي بعضهم العصي، الخيل العتاق والصافنات الجياد يمتطيها الفرسان، كوكبة من الرجال والفرسان، تقترب منهم مائة من الفتيات العفيفات يلفهن الحياء يلوحن بأواني الماء المصنوعة من الفخار، يملأن الأكواب بالماء الزلال فيأخذ الرجال تلك الأكواب التي تفيض ماء زلالا يناولون بعضهم بعضا، وبين حين وآخر تتعالى من بعضهن أصوات: "هل من شارب هل من شارب؟؟ ".

وفي ختام الشريط يسجل الشيخ شهادته الصادقة النابعة من القلب، قائلاً: "فكان الموكب من أجمل ما شاهدته من المواكب"[1].

المشهد الثالث: لقاء الأحبة وحفل الاستقبال

قال الشيخ سليمان باشا "وعند مدخل البساتين لاقانا العلامة بقية السلف شيخ عُمان علما وسنا الشيخ ماجد بن خميس البالغ من العمر أربعا وتسعين سنة – أي قدر عمر قطب الأئمة الشيخ أطفيش رحمه الله– "[2].

(١) سليمان الباروني باشا،ص١٥.
(٢) المرجع السابق

ها هو الموكب الباروني يقترب من بساتين الحمراء من نخيلها الباسقة وأشجارها اليانعة، وإذا بالشيخ الكبير والعلامة الجليل ماجد بن خميس الذي جاوز التسعين عاما يأتي ماشيا الى أطراف البلد.

لكن الصورة لم تكتمل بعد، ولنا أن نتصور ذلك المشهد، ولو على سبيل الافتراض: ها هو الشيخ الباروني يلمح من بعيد تلك الثلة من أعيان البلد في مقدمتهم الشيخ يلمحه على بعد عشرات الأمتار فلا يمسك قدميه عن الإسراع في المشي، وكأنما شيئا يجذبه كيف، ولا أظن أن الدموع الفرحة قد سالت على خدي الشيخين أو ربما حبسهما الوقار ولسان حالهما يقول:

وأعظم مـا يكـون الشـــوق يوما إذا دنت الخيام من الخيام

وينطلق الجميع وسط البساتين وتحت ظلال النخيل إلى حارة الحمراء ويخترق الموكب السكة بين البيوت الشاهقة فتطل النساء والأطفال من النوافذ على استحياء ليروا الشخصية الزائرة التي طوقت سمعتها الأرجاء.

المشهد الثالث . قال الشيخ الباشا:" وبعد الاستراحة أنشد الشيخ إبراهيم المذكور ءانفا القصيدة الآتية، وذلك في يوم ١٤ ربيع الأولى ١٣٤٤هـ"[1].

ومع أن الشيخ الباروني لم يذكر مكان الاستراحة إلا أنه من المعلوم أن البيئة العمرانية العُمانية تحتوي على عدد من المرافق التي ربما توجد في بعض الاقطار الاسلامية الاخرى ولكن بمسميات مختلفة ومن تلك المرافق العامة " السبلة " فلا تكاد حارة في بلدة الا وفيها مجلس أو أكثر وهذا المجلس" السبلة " قاعة عامة مفتوحة للجميع ما تتسع لأكبر عدد من الناس يجتمع الأهالي فيها بصفة يومية وفي بلدة الحمراء يجتمعون فيها مرتين على الأقل مرة في الصبح

(١) المرجع السابق.

ومرة بعد الظهر، وفي الحمراء مجلسين عامين المجلس الأول يسمى سبلة الصلف ويقع في وسط الحارة مطلا على البساتين، أم الثاني فيسمى سبلة السحمة ويقع جنوب البساتين وهذا الأخير غالبا ما يكون مقرا لإقامة الضيوف عندما يكونون أكثر من شخصين.

لا ندري في أي المجلسين تمت مراسم الاستقبال، كما لم يذكر الشيخ الباروني اللحظات الأولى التي قضاها في المجلس ولعل قوله الاستراحة اشارة الى أن الأهالي الشيخ ومن معه يأخذون قسطا من الراحة بعد وصولهم، ليخففوا عنهم عناء المشي من تنوف حتى الحمراء وهو مسافة يحتاج قطعها في ذلك الوقت الى عدة ساعات.

قال الشيخ الباروني: " وهذا نص القصيدة

شـــرفت عُمـــان وأهلهـــا بوفـــود مـــن حـــاز العلـــى
الســـيد البطـــل الكمـــي الليـــث جـــواب الفلـــى
باشـــا ســـليمان الهمـــا م المرتضـــى زيـــن المـــلا
ذاك ابـــن بـــارون النفـــو ســـي الشـــهير ابـــن الجـــلا
ذاك الـــــذي بعلومـــــه ظلـــم الجهالـــة قـــد جـــلا
ذاك الـــــذي بســـــيوفه قطـــع الغلاصـــم والطلـــى
كـــم وقعـــة فـــي حـــر نـــا ر جحيمهـــا الأعـــداء صـــلى
كـــم فـــي طـــرابلس أبـــا د المشـــــركين وجنـــــدلا
لا تنثنـــــي عزماتـــــه عـــنهم ولـــو عظـــم الـــبلا
غـاص الخضـم وسـار فـي ظلماتـــــه مســـــتكملا
مـــا غاصـــه للآلـــئ بـــل للعـــداء مستأصـــلا
تلقـــاه إن عظـــم الـــبلا متبســـــما مـــــتهللا

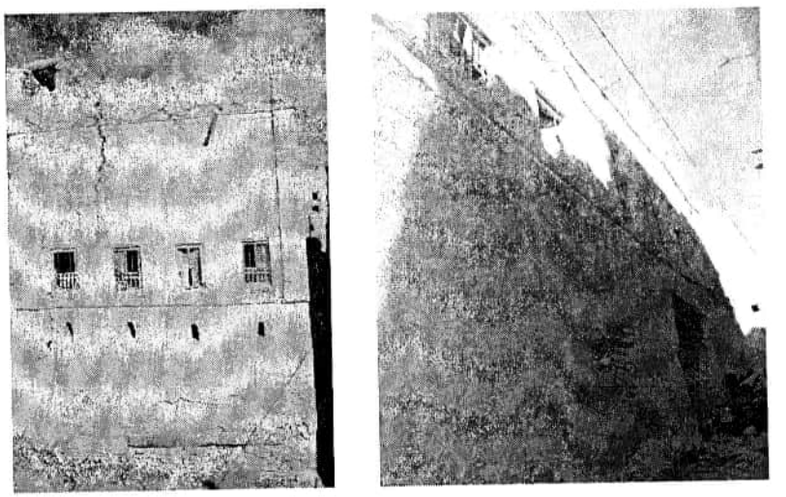
لا غـــرو إن غـــدر الزمـــا ن بـــــه فأصـــــبح أعـــــزلا
فلكـــــم عزيـــــز أذلـــــه ولكـــــم غنـــــي أرمـــــلا
فعســـى المهـــيمن أن يعيـــ ـــــد زمانـــــه متفضـــــلا
ويقيمـــه فـــي العـــالمين مجاهـــــــدا متبـــــــتلا
وإليكهـــا يـــا مـــن بذكـــ ر مديحـــه شـــعري حـــلا
عـــذراء ترفـــل فـــي الدمقـــ س فكـــن لهـــا متقـــبلا
واطلـــب لإبـــراهيم مـــن مـــــولاك إدراك العـــــلا
وصـــلاة ربـــي والســـلا م علـــى النبـــي ومـــن عـــلا

لقد وفق الشيخ ابراهيم العبري في اختيار كلمات القصيدة وقافيتها، فحرف الألف يوحي بالسمو والارتفاع مع عدم التكلف والكلمات تعكس . بحق . شخصية الباروني المجاهد المدافع عن وطنه وحريته الذي يأبى الذل فهو ؟السيد" و"البطل" و "الكمي" و"الليث"

أما كلمات مثل: "جواب الفلى" و" وسيوفه" و"قطع الغلاصم والطلى" فتجلب إلى ذهن الباشا والمحتفلين به صور المعارك الضارية، وكأني بالباشا يتوثب في مجلسه غير راض ببعده عن ساحات الوغى وميادين القتال.

ثم لا يلبث الشيخ العبري أن يخفف على القائد البطل بعضا من الأسى والحزن على ما أصابه من نكبات الزمان فيبين في بضعة أبيات أن الدهر متقلبة أحواله، متغيرة صروفه، فيغني الفقير ويفقر الغني ويذل العزيز ويعز الذليل، ثم يواسي البطل المغترب بالدعاء الى الله وحسن الرجاء في قدرته على إعادة الكرة إلى الشيخ المجاهد فيذيق أعداء الاسلام ما أذاقهم في الجولات السابقة من الويلات والنكبات، ثم يلتفت الى الضيف الكريم بالخطاب المباشر طالبا منه

قبول قصيدته وأن يدعو لـ "إبراهيم" لنيل بالعلا التي تتوق إليه نفسه، مختتما بالصلاة على النبي ومن نال شرف العلى، وفي مقدمتهم . بكل تأكيد صحابته الأبرار وآله الأطاهر، والتابعين الأخيار.



المشهد الرابع: مكان الإقامة

أما المكان الذي أعد لإقامة الشيخ الباروني فإنه بحسب الروايات الشفهية. قد نزل في البيت المعروف باسم "بيت الأدماني" المجاور لـ"سبلة الصلف"[1]، وهو من البيوت القديمة، بني الطابق الأسفل منه قبل مائتي عام أما الطابق الأعلى فأضيف في العقد الأخير من القرن الثالث عشر الهجر، ليكون مقرا لإقامة الضيوف في ذلك الوقت.

عاشت الحمراء خلال فترة إقامة الشيخ الباشا أياما سعيدة، وكان اسم الشيخ وسيرته الجهادية على كل لسان في البلد، وكان الأهالي يتسابقون في

(١) مجلس أو قاعة، وهي مرفق عام مفتوح لكل لجميع أهل البلاد ولكل قادم أو عابر سبيل ينزل فيه ويقيم فيه مدة إقامته في البلدة ،وسميت بهذا الاسم اشتقاقا من السبيل، وهو الطريق.

إكرامه بما يتوفر لديهم من الفواكه المحلية والمطبوخات الشهية، والحلويات اللذيذة، ومن طرائف القصص في هذا المجال ما رواه الأحفاد عن الآباء عن الجدود أنه الشيخ ماجد كان ذات يوم ومعه عدد من الأهالي ، في جلسة مع الشيخ الباروني في مقر إقامته، فقربت بعض المأكولات في أثناء تناول القهوة، ومنها الحلوى المعروفة باسم " الخبيصة" . حلوى تصنع في البيوت من البيض والسمن والدقيق وبعض المواد العطرية كماء الورد والهيل . ويبدو أن الشيخ الباشا قد طعم سابقا . هذه الحلوى وأعجبه مذاقها فأخذ الإناء ووضعه في الرف وقال هذا خاص لسليمان، فتبسم الحاضرون لهذا الداعبة من الشيخ وقالوا له و أشاروا عليه ان يعطي منها الشيخ الكبير[1].

بقي الشيخ في بلدة الحمراء بضعة أيام، يخرج خلالها مع مضيفيه الى بساتينها، وإلى القرى المحيطة بها، وإلى وديانها وسفوحها، وكان يبدى انطباعاته عن كل ما يشاهده، ومن ذلك أنه مر ذات يوم على وادي من أودية الحمراء يسمى وادي "المدعام" وكان الماء يتدفق منه ويغور في الأرض فقال إن ذهاب هذا الماء إضاعة للنعمة وكفر بها وقال ينبغي إقامة سد في هذا الوادي[2].

المشهد الخامس: صعود الجبل الأخضر

قال الشيخ الباشا:".... من الحمراء صعدت إلى إحدى قمم الجبل الأخضر المشهورة بالارتفاع (٩٠٠٠ قدم) ".

يطلق أهل عُمان على أعلى قمة في الجبل الأخضر اسم القنة" وهي كلمة عربية أصيلة، ولاشك أن الشيخ قد سمع من مضيفه في الحمراء وصفا دقيقا ومفصلا عن طبيعة الجبل وتضاريسه وأوديته وأشجاره، وعن الأهمية الاقتصادية

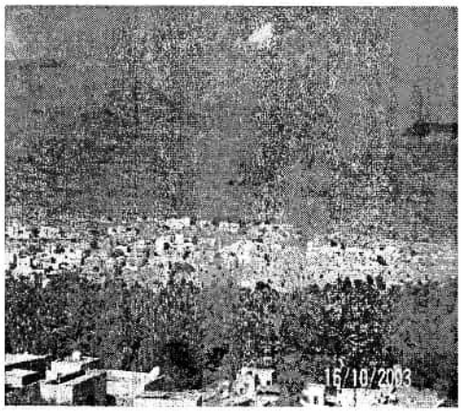
(١) ناصر بن محمد بن عامر العبري وكان ابوه "محمد" أحد تلامذة الشيخ ماجد، وقد ظهر اسمه حيث كتب الباروني بخط يده في احد تلك الصحف المحفوظة في مكتبة الوقف:" إلى الاخ محمد بن عامر العبري المحترم".

(٢) محمد السيفي، النمير،ج١٠٢/٢، من مرويات ناصر بن محمد العبري من أعيان بلدة الحمراء.

والمائية بل والأمنية التي يوفرها الجبل للقطر العُماني لسكانه ومن جاورهم على وجه الخصوص، ولأهل عُمان جميعاً، فكان ذلك الحديث حافزاً إضافياً رغبه إلى الوصول إلى قمة الشاهقة، ولا غرابة في ذلك ، أليس هو الأسد الذي يعشق صعود الجبال وفي الجبل الغربي أذاق الطليان مرارة الهزيمة أكثر من مرة؟! ها هو القدر أتاح له العودة الى تلك الوثبات ولو من باب المناورة والمحاكاة.

وإذا لم يكن من عدم تنفيذ رغبة الشيخ الضيف عذر فلابد من الاستعداد، وهكذا بدأت مرحلة التحضير للرحلة البارونية الى القنة العُمانية، فبادر المعنيون بالأمر بإعداد الزاد الذي ينبغي أن يكون مما خف وزنه ودامت صلاحية الانتفاع منه وعادة ما يتكون من أربعة أصناف وهي: التمر والخبز والليمون والقاشع "سمك السردين المجفف" ، كما تم إعداد فريق من أهل الجبل العارفين بمسالكه وشعابه.

ومن طرائف الخبر – أيضا- عدم تمكن أولئك الأدلاء من نطق كلمة الباروني" ففيما يرويه الأحفاد عن الآباء عن الأجداد، أنه لما حضر أولئك النفر ليصطحبوا الشيخ في رحلته كانوا يصحفون نطق كلمة الباروني إلى "النيباري" ، وكلما أرادوا السؤال عنه أو عن بلاده أوعن معرفة شيء عنه قالوا "الشيخ النيباري"، فكان لابد . مؤقتا من التسليم باللقب العائلي الجديد للشيخ الباشا حتى إنجاز المهمة، فصدرت به بطاقة تعريف شفوية مؤقتة يصعد بها الجبل(!!)



بلدة الحمراء وتبدو القنة " جبل الشمس" في شمال الصورة

التعريف بالجبل الأخضر: الجبل الأخضر هضبة جبلية شاهقة الارتفاع تتوسط سلسلة جبال شمال عُمان الممتدة من مسندم شمالا الى رأس الحد جنوبا، وتتخلل هذه الهضبة أودية تنحدر من قممها الشاهقة وعلى سفوحه تكونت عدة مدن وقرى وواحات زراعية خصبة[١].

وترتفع أعلى قمة فيه عشرة آلاف قدم عن سطح البحر، وتسمى بـ"قمة الشمس" وسميت بذلك " لارتفاعها ولأنها أول ما تقابل نور الشمس صباحاً وآخر ما يغيب عنها مساء"[٢] وينقسم إلى جزئين من حيث التكوين العمراني، فالشرقي منه هو ما يعرف اليوم . في التقسيم الإداري للسلطنة . باسم نيابة الجبل الأخضر وهو نيابة تابعة لولاية نزوى، وفيه عدد من القرى المليئة بأشجار الرمان والمشمش والعنب والتفاح والخوخ والجوز وغيرها من الفواكه في مسطحات زراعة متدرجة بشكل هندسي بديع[٣].

---

(١) بدر بن سالم العبري، الجبل الأخضر(١) ، صحيفة عُمان، السنة الأولى، العدد٤ السبت ٩ ديسمبر(كانون الأول) ١٩٧٢م الموافق ٤ذي القعدة ١٣٩٢هـ ، ص٧ .

(٢) بدر بن سالم لعبري، الجبل الأخضر(٢) مقال بصحيفة عُمان، السنة الأولى، العدد٥ السبت ١٦ ديسمبر(كانون الأول) ١٩٧٢م الموافق ١١ذي القعدة ١٣٩٢هـ ، ص٧ .

(٣) عُمان مسيرة الخير،ص٤٥٠، إصدار وزارة الاعلام سلطنة عُمان ٢٠١٠م

أما الجزء الغربي منه فهو الذي يشرف من الجهة الجنوبية على بلدة الحمراء وما جاورها من قرى، ويعرف الجزء العلوي منه اليوم باسم "جبل شمس " وهي "القنة" التي زارها الشيخ الباروني، وتمتاز الأجزاء المرتفعة من هذا الجزء بوجود أشجار "البوت" و"النمت"[1] و"العلعلان" و"العتم" وأنواع من الأشجار التي تستخرج منها الزيوت ذات الفوائد الطبية والنباتات ذات الروائح الزاكية، كما يمتاز بهوائه البارد العليل في فترة الصيف وبرودته الشديدة في الشتاء حيث تصل فيه المياه الى درجة التجمد وأحيانا تظهر الثلوج في أوقات الأمطار الشتوية فيبدو الجبل كأنه شيخا في حالة استرخاء ملتحفا بعمامته البيضاء.

قال الشيخ:" فصعدنا في يوم وأقمنا يوما وليلتين، ورجعنا في يوم".

لابد من وقفة هنا عند قوله – رحمه الله – "صعدنا في يوم" فإن صعود هذا الجبل مشيا على الأقدام في يوم واحد في تلك المدة الزمنية ليس بالأمر الهين إلا على رجال كالأسد الباروني، الذين خبروا الجبال وألفوا شواغفها، وكأني بالأسد الباروني يثب من صخرة إلى أخرى لا يكاد يلمس الصخرة إلا بأطراف أصابعه.

المشهد السادس: تحديد المكان وأريحية وابتهال

قال الشيخ – رحمه الله – "وهناك قلت الأبيات الاتية وذلك في يوم ١٦ ربيع الأنور ١٣٤٤هـ" ، هنا ثلاث لافتات توثق مشاعر الشيخ وهو في تلك البقة الشاهقة من أرض عُمان:

ففي اللافتة الأدبية الأولى بين الشيخ موقع الجبل والمعالم المكانية القريبة منه والبعيدة وارتفاع قنته وطبيعة الطقس الباردة في ذلك الصيف القائض الذي

[1] البوت شجرة ثمرتها سكرية وقت جنيها أوائل فصل الصيف، وحجمها مثل نصف حجم حبات الزيتون، والنمت كذلك إلا أنها أصغر حجماً.

احتاج فيه إلى ايقاد النار ليلا، من غير أن ينسى واجب شكر النعمة فقام الليل قانتا وساجدا، وما كان الشيخ الأواب والمجاهد الوثاب ليترك لوحته بدون ذكر تلك الخلوة الإيمانية التي قضاها في ذلك المكان في هدأة الليل، وكل ما حوله في سكون الشجر والطير والحيوان ، وهو وحده من بينهم يقضي ليله يتلو آيات ربه قانتا وراكعا وساجدا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، تتحدر الدموع من عينيه، فهو أهل لأن يكون ممن يشملهم بشارة النبي بقول:" ورجل ذكر الله خاليا حتى فاضت عيناه" يقول رحمه الله :

قف ها هنا وانظرن نزوى وقلعتها	ومســـقطا قابلا جعلان والجار
وانظر صحُّار وحي البحر ملتفتا	إلـــى البريمي تجد حصنها نارا
واقبـل بوجهـك للعينـين متجهـا	نحو الحجاز وحي الغرب والدارا
هنـا سـليمان أحيـا الليـل مبـتهلا	وهـــاهنا أوقـد الباروني النار
يتلو الكتاب يناجي الله مـــنفردا	والليل داج وكـــان الدمع مدرارا

يرمي الشيخ ببصره وبصيرته، يجول بهما في تلك الجهات ويحدد ببوصلته القلبية والعقلية التي لم تخطء في رسمها فيق ويستوقف معه القارئ خلف الزمان والمكان لينظر الى الحواضر القريبة والبعيدة مبتدئا بأم القرى العُمانية –نزوى– وقلعتها الشهباء، ثم يرمي ببصره وبصيرته شرقا فيذكر مسقط تلك المدينة التي كانت أول أرض عُمانية وطئها قدمه، ثم جنوبا فيذكر القابل وما وراءها من بلاد جعلان وما حولها من القرى الصحراوية والساحلية، ثم يلتفت الى الشمال فيذكر صحُّار عاصمة عُمان في الجاهلية وصدر الاسلام، ويدير البوصلة نحو الغرب فتتراءى له البريمي وحصنها الشهير، وبحركة خفيفة يطلب صاحبه ان يقبل نحو العنين وهي داخل مرمى البصر ليرمي ببصره بعيدا نحو الحجاز التي قدم منها بعد أداء الركن الخامس من أركان الإسلام، وهنا يأخذ الباشا صاحبه الى ما وراء

الأفق البعيد الى الغرب الى حيث الديار والأهل و إلى شمال افريقيا وجبل نفوسه، فيرسل التحية القلبية.

أما اللافتة الثانية فتسجل تلك اللحظات التأملية في ذلك المكان العجيب الذي لم ينس الشيخ فيه أحبابه فاغتم تلك اللحظة الكونية العجيبة حين تصافح أشعة الشمس تلك البقعة الشاهقة إيذانا بنهار جديد، فبسط يديه بمطالبه التي تجري على لسان المؤمن المجاهد البعيد عن الوطن والأهل والأصحاب الذين لم ينساهم في هذه الموقف الرباني فيشملهم بدعائه ورجائه، يقول:

في جانب الحمراء طود شامخ متمـــنطق متعـــمم بســـحاب
يممت قمته الرفيعة راجلا وسجدت للخلاق فـــي محراب
ومع الأثير بعثت منه تحيتي لجميع من في الأرض من أحبابي
ومع الشعاع رفعت صاعدة إلى عرش الإلـــه مطـــالبي ومتابي
أرجو من المولى قبول جميعها وشمول كـــل أقاربي وصـــحابي

أما اللافتة الثالثة والأخيرة، فهي لوحة الطبيعية الصرفة، فهنا ماء زلال لا يكدره مكدر ولا تقوى أفضل مصافي الماء الاصطناعية على مضاهاته طهارة نقاء وعذوبة وصفاء، وحول الماء تتمايل الشجيرات التي تفوح بالروائح الزاكية التي تعبق المكان، ثم أشجار العلعلان العملاقة التي تضرب بجذورها بين الصخور، وتمد أغصانها نحو السماء تعانق السحب التي تتراكم شيئا فشيئا بإثارة الرياح المبشرة القادمة من البحر الذي يترآى للناظر من بعيد، أو من الصحراء الممتدة من شواطئ بحر العرب الى أعماق الربع الخالي، ويأتي ذكر أصوات

الطيور ذات الألوان المختلفة والأحجام المتفاوتة، فتضفي على المكان روعة وجمالا ،ومتعة وجلالا، تقول اللوحة[1] :

أصفى المياه شربت أعلى قمة فوق السحاب إلى السماء قريبه
فيها الرياحين الذكيـــة أعبقت ومناظر للعلـــعلان غـــريبه
فيها الهواء منقح وطيورها فوق الغصون لدى الصـباح عجيبه

الخاتمة: ما بعد الزيارة

أولا: المراسلات: حفظت الذاكرة العُمانية عددا لابأس به من المراسلات المتبادلة بين الشيخ الباروني والعُمانيين وفي كتاب الصحافة العُمانية في المهجر للدكتور محسن الكندي نماذج بارزة من تلك المراسلات أكدت الأهمية الكبرى لتلك المراسلات في قراءة التاريخ العُماني وسيرورة أحداثه السياسية ومظاهر الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعلمية.

وبين يدي هذه المقالة رسالتان الأولى من الشيخ الباروني إلى الشيخ ماجد وتلميذه الشيخ إبراهيم، والرسالة الثانية من الشيخ إبراهيم إلى الباشا الباروني.

١. رسالة الشيخ الباروني الى الشيخين العبريين:

أما رسالة الشيخ الباروني إلى الشيخين العبريين فمصدرة من مدينة سمائل بتاريخ٢٣ صفر ١٣٤٥هـ ، وكعادته في تحرير رسائله ذكر الشيخ الباروني جملة من الأحداث المحلية والعربية والعالمية، منها: خبر محاولة اغتيال غير موفقة تعرض لها الملك السعودي عبد العزيز من بعض بطانته، وتشكيل جمعية في الحجاز تطالب بطرده من الأراضي الحجازية، والحرب بين الملك السعودي

(١) المنهاج ص٢٨٤.

وإمام اليمن، ويمتد تقريره الإخباري إلى ذكر تجدد الحرب في المغرب الأقصى بعد تسليم الزعيم المجاهد عبدالكريم الخطابي، وما يعانيه الشعب التركي من قتل وبطش وإفساد متعمد من النظام الجديد المتمثل في شخص أتاتورك ونظامه.

ومن المعلومات التاريخية الملفتة للقارئ ما يشير إلى امتداد سلطة الدولة العُمانية إلى إقليم "جواذر" الذي أنظم في منتصف القرن العشرين الى دولة باكستان الاسلامية.

بسم الله الرحمن الرحيم

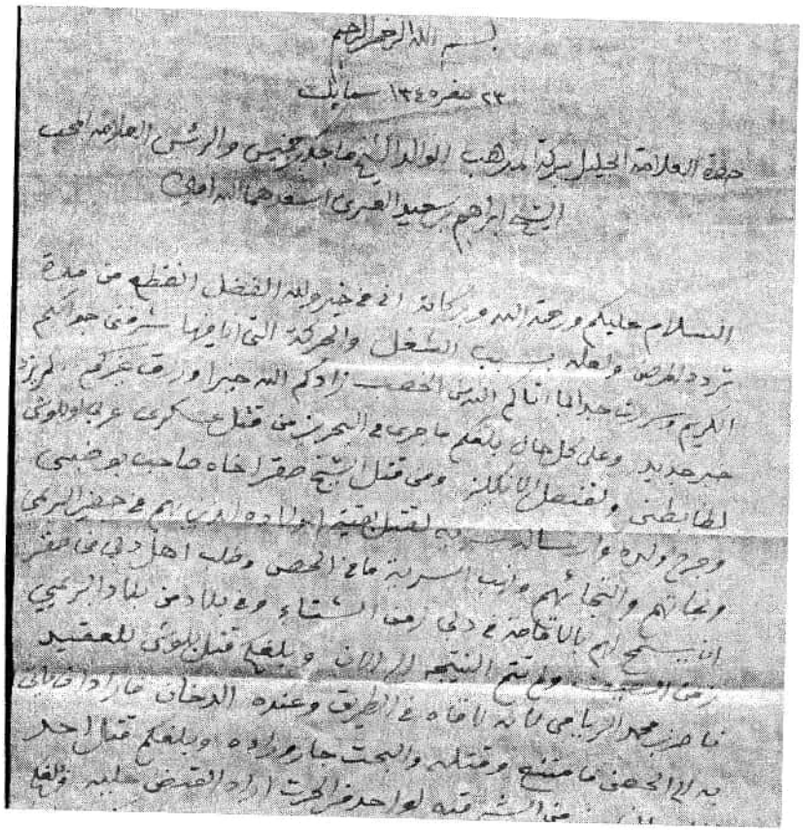
٢٣صفر ١٣٤٥هـ سمائل

حضرة العلامة الجليل بركة المذهب الوالد الشيخ ماجد بن خميس والرئيس العلامة المحب الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري أسعدهما الله آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إني في خير ولله الفضل، انقطع من مدة تردد المرض ولعله بسبب الشغل والحركة التي أنا فيها، شرفني جوابكم الكريم وسررت جدا بما أتاكم الله من الخصب، زادكم الله خيرا ورزق غيركم. لم يزد خبر جديد، وعلى كل حال بلغكم ما جرى في البحرين من قتل عسكري عربي أو بلوشي لضابطين ولقنصل الانكليز ومن قتل الشيخ صقر أخاه صاحب بوظبي وجرح ولده وارساله سرية لقتل بقية أولاده الذين هم في حصن البريمي ونجاتهم والتجائهم ونهب السرية ما في الحصن وطلب أهل دبي من صقر أن يسمح لهم بالإقامة في دبي زمن الشتاء وفي بلاد من بلاد البريمي زمن الصيف ولم تتح النتيجة إلى الآن، وبلغ قتل بلوشي للعقيد ناصر بن محمد الريامي لأنه لاقاه في الطريق وعنده الدخان فأرادوا أن يأتي به إلى الحصن فامتنع وقتله والبحث جار ورآءه وبلغكم قتل أحد الخدم الفارين من الشرقية لواحد من الحرث أراد القبض

عليه، وبلغكم قتل عسكري بلوشي في "جواذر" لواحد من مستخدمي الحكومة هناك وفراره إلى مكران، وبلغكم أن بعض بطانة ابن المسعود المقربين عنده أرادوا اغتياله ولم يتوفقوا، وأن جمعية تشكلت في الحجاز ضده تطلب إخراجه وأن جماعة من أكابر مصر توجهوا إلى اليمن ليسعوا في الصلح وعدم الحرب بين الإمام يحيى وابن سعود، وأن الحرب في الغرب تجددت بعد تسليم الأمير عبدالكريم، ولا تزال قائمة في الشام، وأن حكومة الالحاد التركية شنقت كثيرين من علماء ورجال الترك المعتبرين لتمسكهم بالإسلام ولا زال الشنق لكل من لم يلبس القبعة (لباس النصارى على الرأس)، ولكل من يمنع نساءه من الرقص مع الأجانب والاختلاط بهم، وقد شكلت جمعية كبيرة من قواد الترك وعلمائهم لقتل رئيس الملحدين وإخوانه فقبض عليهم ومنهم الآن في السجن نحو (٢٠٠) كلهم من أعاظم الرجال والحكم بالشنق عليهم مستمر والأمر لله، إيطاليا تتحفز للوثوب على قسم من بلاد الترك ومعها اليونان بتحريض من الانكليز، ودولة الحبشة تستغيث للدول في اتفاق الانجليز والطليان على تقسيم مملكتها ولا مغيث لها. عائلتي وأولادي كلهم في خير والحمد لله وبلادنا خصبة مستريحة والسلام على الإخوان كافة. حضرة الإمام في "محرم" متجه إلى الشرقية رافقته السلامة. من هنا الشيخ الكندي والإخوان يسلمون عليكم ودمتم في احترام.

من أخيكم سليمان الباروني



٢. رسالة الشيخ ابراهيم العبري الى الشيخ الباروني:

أما الرسالة الثانية ،فهي من الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري شيخ قبيلة العبريين آنذاك، وتحمل الرسالة خبر وفاة الشيخ العلامة الكبير ماجد بن خميس، الذي وافاه الأجل في اليوم الرابع والعشرين من شهر محرم سنة ١٣٤٦هـ بعد أربعة وتسعين عاما، وفي الرسالة خمسة أبيات شعرية رثى بها الشيخ إبراهيم أستاذه الكبير، وهذا نص الرسالة:

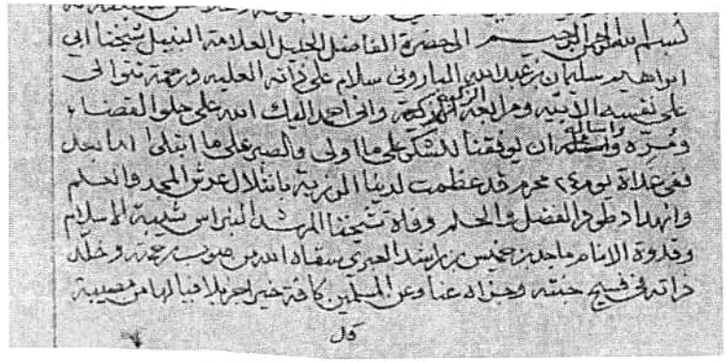
بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة الفاضل الجليل العلامة النبيل شيخنا أبي إبراهيم سليمان الباروني

سلام على ذاته العلية ورحمة تتوالى على نفسه الزكية الأبية ومرابعه الزكية العطرة الذكية، وإني أحمد إليك الله على حلو القضاء ومره وأسأله أن الشكر على ما أولى والصبر على ابتلى، أما بعد ففي غدوة يوم ٢٤ محرم قد عظمت لدينا الرزية بانسلال عرش المجد والعلم وانهداد طود الفضل والحلم وفاة شيخنا المرشد النبراس شيبة الإسلام وقدوة الأنام ماجد بن خميس العبري سقاه الله من صوب رحمته وخلد ذاته في فسيح جنته وجزاه عنا وعن المسلمين كافة خيراً جزيلاً فيا لها من مصيبة قد أصابت القلوب بسهام الأحزان وشتت جنود الصبر في كل مكان :

يا نور علم قد خبا	وبدر تم قد أفل
غادرتنا لا نهتدي	سبل الهدى من الطفل
غادرتنا في غربة	مستوحشين في الطلل
هل عودة كلا فلا	يعود مود قد رحل
صبرا فإن الله قد	أوصى به فيما نزل

فسبحان من استأثر بالبقاء كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون إنا لله وإنا إليه راجعون فلك فيه حين العزاء ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم هو المتقدم ونحن به ان شاء الله من اللاحقين وعليكم السلام وعلى الحاضرين من المشايخ والإخوان ومن هنا الأخوة آل زهران من ولدك إبراهيم بن سعيد بن محسن العبري حرر في يوم ٢٤ محرم سنة ١٣٤٦هـ"



رسالة الشيخ ابراهيم إلى الشيخ الباروني

ثانيا: الصحف : حرص الشيخ المصلح على التواصل مع أهل الحمراء ولاسيما شيوخ العلم وطلبته منهم، فكان يرسل إليهم الصحف التي تصل إليه، ومن تلك الجرايد[1]:



١. جريدة القبلة: وهي جريدة دينية سياسية اجتماعية تصدر مكة المكرمة مرتين في الاسبوع والعدد الموجود هو العدد(٦٢٩) صدر يوم الاثنين٢ ربيع الأول ١٣٤١هـ السنة السابعة حسني الصبان في المطبعة الأميرية بأجياد.

(1) احتفظ بها أحد تلاميذ الحمراء في زمن الباروني وهو الشيخ محمد بن عامر العبري، وقد اهداها ولده ناصر لمكتبة وقف الحمراء.

٢. جريدة الفيحاء: وهي جريدة أدبية سياسية مصورة تصدر في دمشق والعدد الموجود هو العدد (١٦٠) صدر يوم الجمعة٤رجب ١٣٤٥هـ/٧كانون الثاني١٩٢٦هـ.





٣. جريدة البلاد: وهي جريدة يومية سياسية جامعة تصدر في بغداد والعدد الموجود هو العدد (٦٣٧) السنة السابعة وصدر يوم الاثنين في ١٩٣٦...٣ م ١٥ جمادى الأولى ١٣٥٥هـ.

٤. جريدة العراق: وهي جريدة يومية ادبية سياسية اقتصادية تصدر في بغداد والعدد الموجود هو العدد(٢٠٢٧٥) السنة السابعة، وصدر يوم السبت في ٢٥ كانون الأول الموافق ١٩ جمادى الأخرى سنة١٣٤٥هـ



٥. **جريدة وادي ميزاب:** وهي جريدة اسبوعية تصدر كل يوم جمعة في الجزائر والعدد الموجود هو العدد(٨) السنة الأولى وصدر يوم الجمعة ١٣ جمادى الأولى ١٣٤٥هـ وفي ١٩ نوفمبر ١٩٢٦هـ .

ويشير هذا التنوع في الصحف على متابعة الشيخ الباروني المستمرة للصحف التي تصدر في الاقطار العربية، وهذا بدوره يدل على انه لا تفوته شاردة ولا واردة من أحداث عصره، ولا يكتفي بذلك بل يمد غيره بتلك الاخبار.

الخاتمة:

توجت زيارة الشيخ سليمان باشا الباروني إلى عُمان وإقامته ومشاركته في الحياة العامة فيها مظاهر التواصل العُماني المغاربي في القرن الثالث عشر الهجري.

وقد حرص الشيخ الباروني على زيارة عدد من البلدان العُمانية، ومنها بلدة الحمراء وكان لتلك الزيارة نصيبا من مذكرات الشيخ الباروني والتي من خلالها ألقت هذه الورقة البحثية الضوء على أدبيات تلك الزيارة كمثال على حضوره في الثقافة العُمانية.

وقد حضي الشيخ الباشا باستقبال عظيم في كل بلد زارها، وحفظت الذاكرة العُمانية مجموعة كبيرة من القصائد التي كتبها الشعراء ترحيبا به ودعوة إلى

التعاون معه في أعماله الإصلاحية، وكان الشيخ الباشا يرى في عُمان الوطن الذي يخفف عنه فراق أهله ومسقط رأسه، فأخلص القول وبذل النصح، وسجل انطباعاته لما رأى أينما ذهب وحيثما حل، وبقي طوال عقد من السنين على تواصل مع أعيان البلاد وطلبة العلم.

حضور الباروني في الشعر العماني

بين صورة المجاهد و شخصية المصلح

محمد بن سعيد بن عامر الحجري(*)

مقدمة

إن شخصية بمثل سمات العظمة التي امتلكها الباروني و بمثل جهودها، و جهادها ، و إنجازاتها جديرة أن تكون جسراً يصل بين شرق الوطن العربي و مغربه – و هكذا كان – فإن كل ما يتعلق بشخصية الباروني يؤكد حقيقة أنه جسر ثقافي و إصلاحي كبير ، و يتجلى ذلك في مهامه السياسية و في أعماله الجهادية العسكرية إبان آخر موجات الاستعمار الغربي و بدايات الحركات النضالية للتخلص من الاستعمار في الوطن العربي، كما يظهر ذلك في أعماله العلمية و مؤلفاته، وفي إنجازاته الصحفية و في مجال النشر ، و في رسالته الإصلاحية التي حاول يبثها في عمان .

ويكفي للتدليل على جوانب ريادته الواسعة ما تضمنته شخصيته من وجوه واهتمامات فهو السياسي البرلماني ، و هو السياسي الدبلوماسي، وهو السياسي الذي ترأس أول جمهورية في التاريخ العربي الحديث حين أنشأ الجمهورية الطرابلسية بمعية زملائه الذين جاهدوا ضد الاستعمار الإيطالي ، إلى حد أن بعض الباحثين الليبيين يرى أن حلم الباروني في تكوين دولة ليبية مستقلة لم يتحقق فعلياً إلا مع الانتخابات التشريعية الأخيرة يومي ٧ و ٨ يوليو ٢٠١٢م. و هو إلى جانب ذلك قائد عسكري صادم الاستعمار الإيطالي و أدمى وجهه في معارك ضارية حقق فيها انتصارات كبرى، و هو أيضاً صحفي أنشأ أكثر من صحيفة في القاهرة و استانبول، و ناشر حمل هم تحقيق و نشر التراث في وقت

(*) محمد الحجري ،سلطنة عمان

مبكر جداً، و هو مؤلف و مؤرخ ترك مؤلفات اعتبر بعضها مراجع رئيسية في التاريخ ككتابيه "الإزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية" و " مختصر تاريخ الإباضية"، و هو خطيب و كاتب و شاعر سجل وقائع أيامه بالشعر و قدم رؤاه الإصلاحية شعراً و نثرا، و هو رحالة دون وقائع رحلاته و سجل انطباعاته عنها خاصة تلك الرحلات التي قام بها إلى عمان، وهو تربوي يرى أن أول أسس النهضة ينبغي أن ترسى في المدارس و دور العلم ، و اجتهد في تطبيق هذه الرؤية عملياً حين شرع في تأسيس المدرسة النظامية الأولى في عمان في ولاية سمائل.

يقول الشيخ أبو إسحاق أطفيش في مقدمته لكتاب (سليمان باشا الباروني زعيم المجاهدين الطرابلسيين) الذي ألفه أبي القاسم سعيد بن يحيى الباروني:

"وأيْنَ الرَّجُلُ الذي تَتَجَمَّعُ فيه تلكَ الخِصَالُ المُتَجَمِّعَةُ في البارُونِيِّ ؛ مِنْ علمِ الشريعةِ والتأليفِ والسياسةِ الرَّشيدةِ والجهادِ والفُنونِ الحربيّةِ والإصلاحِ الاجتماعيِّ ، وتَتَوْيجِ ذلك بِسُمُوِّ الأخلاقِ وكَرَمِ الْمَحْتِدِ وطاعةِ الله ورسولِه" و يقول في موضع آخر : "ومَنْ هُوَ الذي تتوفَّرُ فيه هذه المميِّزاتُ السَّامِيَةُ كالمرحومِ الباروني باشا؛ العالمِ الشرعِيِّ، السِّياسِيِّ الْمُحَنَّكِ، الدّبلوماسِيّ الْمَاهِر، الحَرْبِيِّ الْهَائل، الْمُخْلِصِ لله ولرسولِه وللمؤمنين؟"

إذن فقد كان الوطن العماني منتصف عشرينيات القرن العشرين على موعد مع رجل استثنائي يجمع مواهب وإمكانات وخبرة واسعة، ويتحلى في ذات الوقت بالإخلاص و الالتزام بقضية وطنه، وقضايا الإحياء والنهوض والإصلاح في العالم الإسلامي، ولكن القوى الاستعمارية كانت قد تكالبت على نفيه و محاصرته و التضييق عليه، حتى انفرج باب الحصار حين أزمع الوصول إلى

الأراضي المقدسة للحج، ثم تواترت عليه رسائل القيادات العمانية تطلب منه الزيارة و القدوم إلى عمان.

لقد التفت العاطفة العمانية حول الباروني في شخصه، و ما يمثله من معنى التجسير ما بين المشرق والمغرب العربي ، وما يحمله من قضية وطنية و نضالية، و هذا ما نجده في أول الأدبيات المرحبة بوصول الباروني شعراً و نثراً، و لعل رسالة الإمام محمد بن عبدالله الخليلي إليه بعد وصوله تنبئ عن حقيقة هذه الصورة التي ترجمت بعد ذلك نثراً في الخطب و شعراً في قصائد الشعراء، إذ يقول الإمام الخليلي مخاطباً الباروني في أول رسالة يرسلها له بعد وصوله إلى مسقط "من إمام المسلمين محمد بن عبدالله بن سعيد الخليلي إلى أخيه ذي الشرف الباذخ المجد الشامخ المجاهد في الله، الحامي لدينه سليمان بن عبدالله الباروني، أما بعد :فإنا نحمد الله إليك، لازلت أخانا محافظاً على شرف حريتك ،ساعيا في عز استقلال بلادك، ألا وإن أعلام مجدك منشورة، وسيوف عدلك مشهورة، فلله درك حيث أنت، هكذا هكذا وإلا فلا لا"[1]، فهذا الخطاب يقرر الصورة المستقرة في وجدان العمانيين تجاه الباروني شخصاً و مشروعاً، و هو مع أنه رسالة رسمية تتضمن الدعوة و الترحيب إلا أن المناسبة حملت الإمام على التعبير الأدبي المشحون بالعاطفة و معاني الإعجاب.

وهذه الصورة التي اختصرها و كثفها خطاب الإمام هي التي بثها الشعر العماني المرحب بالباروني و فصلها ناشراً صورها التقليدية المستدعاة من الخطاب الشعري العربي ، أو صورها الخاصة المتصلة بالشأن العماني، ولذا فإن دراسة المدونة الشعرية العمانية المرتكزة حول شخصية الباروني ينطوي على أهمية فارقة، لأن الشعر يمثل مدخلاً مهماً لفهم الشخصية العمانية و فهم التاريخ و الثقافة؛ ففي عمان تترسخ حقيقة أن الشعر ليس خطاباً أدبياً صرفاً، بل هو

(1) الهاشمي، سعيد بن محمد ، غاية السلوان في زيارة الباشا الباروني لعمان ، ص٧٩، ط١ ،١٤٢٨هـ /٢٠٠٧م .

مدخل معرفي و حضاري كبير، وشكل رئيسي من أشكال الخطاب المعرفي بلغة الأدبي، إنه كان على الدوام أداة رئيسية لترسيخ و تكريس المعاني الأساسية المتعلقة بالوطن وبالذات و بالهوية و توثيق خلاصات التجربة، و لذا فإن قراءة القصائد التي احتفت بالباروني ستكون قراءة لرؤية عمانية شاملة تجاه الباروني و قضيته و مشروعه، بل إن الباروني نفسه قد أدرك هذا الجانب البعيد الغور في الشخصية العمانية التي تفضل المعرفة و الفكرة في صورتها الشعرية منغمةً موزونةً مقفاة، أو منظومة على الأقل، ولذا أعلن الباروني عن برنامجه الإصلاحي الذي دعا الإمام إلى تبنيه في قصيدة ضمن خطابه أمام الإمام بجامع نزوى يوم الجمعة ٧ ربيع الأول ١٣٤٤هـ /٢٥ سبتمبر ١٩٢٥م، حيث قدم فيه رؤيته الناقدة و المحرضة على الإصلاح مضمناً إياها برنامجاً إصلاحيا سياسيا و قضائيا واجتماعيا وعسكريا و تطويرا للعلاقات الخارجية ،ومركزاً على أفكار تتعلق بالوحدة الوطنية والتآلف الوطني بين الإمامة والسلطنة، وصياغة تآلف سياسي بين ممالك الجزيرة العربية، وقد ختمها بقوله[1] :

هذي نصيحة مخلص في دينه ما شابها مـــدح و لا إطراء
إني امرؤ ترك الـــمديح لأهله مـذ أنشبـــت أظفارها الهيجاء

و لقد أدركت عمان و رجالاتها ما انطوت عليه شخصية الباروني من استثنائية وعظمة، ولذا كان استقبالها له حدثاً هائلاً بكل ما في الكلمة من معنى، إذ مثلت الأدبيات التي رافقت وصوله و جولاته في عمان ظاهرة أدبية حقيقية في تمحورها على شخصه وجهوده والترحيب به و دعم مشروعه الإصلاحي، فالخطب و القصائد التي ألقيت في أثناء استقبالاته تبلغ في كمها حداً كبيراً، كما أنها في نوعها تمثل ـ في عدد غير يسير منها ـ بعض أجمل نصوص الشعر

(1) ديوان الباروني،سليمان باشا بن عبدالله الباروني، تحقيق :زعيمة الباروني، مراجعة و تصحيح : سلطان الشيباني ،مكتبة مسقط (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)،ص١٧٥، الهاشمي، سعيد بن محمد، غاية السلوان ، ص١١٨.

العماني، ومن أكثرها استحضاراً للهم العربي و الإسلامي، و للقضايا الملتهبة في الوطن العربي و أبرزها قضية النضال ضد الاستعمار.

و في كل لحظة من لحظات هذه الظاهرة كان الأدب شعراً و نثراً حاضراً و مرحباً وراسماً لصورة الباروني في الوجدان العماني.

القصائد المدروسة :

إن هناك مجموعتان متوفرتان تجمعان القصائد التي قيلت في الباروني :

- **الأولى** : مجموعة " القصائد العمانية في الرحلة البارونية" و التي دونها الشيخ عيسى بن صالح الطائي (ت١٣٦٢هـ/١٩٤٣م)، وقيد الطبع بمراجعة و تصحيح الباحث سلطان بن مبارك الشيباني ، وهي تسجيل ليوميات رحلة الباروني الأولى في عمان و التي وضع الباروني بنفسه بعض الإضافات عليها، و قد أمكن الاطلاع على القسم الأول منها الذي يروي يوميات الرحلة الأولى ، و تشير في نهايتها إلى القسم الثاني، الذي سيكون من كتابات الباروني نفسه حول رحلته الثانية إلى جهات جعلان و بدية و نزوى والحمراء و الجبل الأخضر وغيرها من الديار العمانية، وهو ما كشف عنه بعض الباحثين حديثاً و يتم العمل على تحقيقه و نشره.

- **الثانية** : هي مجموعة "غاية السلوان في زيارة الباشا الباروني لعمان" و التي جمعها الدكتور سعيد بن محمد الهاشمي، و تحتوي على اثنتين وخمسين قصيدة أغلبها لشعراء عمانيين وبعضها للباروني نفسه، ولشعراء غير عمانيين كأبي اليقظان إبراهيم و غيره؛ و قد جمعت هذه القصائد من مصادر عمانية كـ "شقائق النعمان" للخصيبي و"قلائد الجمان" للبوسعيدي ، وبعض الدواوين الشعرية.

و يجدر القول هنا: إن أقرب طريق لدراسة حضور الباروني في الشعر العماني هو في دراسة هاتين المجموعتين. واللافت للنظر أن هاتين المجموعتين تحتويان على قصائد لشعراء لا نجد لبعضهم ذكراً في تاريخ الشعر العماني، إلا ما أنشدوه في الباروني من مثل الشعراء: (عبدالله بن مسلم الرمضاني، سعيد بن سليمان الخروصي ، أحمد بن سعيد ، سيف بن علي الحجري ، حمدان من محسن الجابري ، عبد الله بن خالد ، محمد بن عيسى بن عامر الطائي)؟! و هو ما يدفعنا لطرح سؤال مفاده: هل استنهض الباروني بما يمثله من شخصية ومشروع وقضية همة الشعر حتى في النفوس التي لم تكن شاعرة؟! لعل هذا المعنى هو ما أشار إليه القاضي الشاعر منصور بن ناصر الفارسي أثناء[١] زيارة الباروني لبلدة فنجا[٢]:

تاقت لمنظرك البلاد وأهلـــها ... فكأنهم يرجون منك هـــلالا
كم صامت بك قد غدا متكلماً ... يبدي من الرتل البديع مـقالا

و في مستوى آخر نجد أن الباروني يمثل لبعض الشعراء كأبي سلام الكندي، وعيسى بن صالح الطائي موضوعاً رئيسياً في المدونة الشعرية، كما يمثل موضوعاً مهماً لشعراء آخرين كأبي الفضل محمد بن عيسى الحارثي، و محمد بن عبدالله السالمي و غيرهما.

و على وجه الإجمال فإن استقراء هاتين المجموعتين الشعريتين يظهر ثلاثة مسارات رئيسية يتمحور عليها حضور الباروني في الشعر العماني شخصاً و مشروعاً و قيمة إنسانية إصلاحية:

١- صورته في السياق الترحيبي.

---

(١) منصور بن ناصر بن محمد بن سيف الفارسي قاض و شاعر و فقيه (و:١٣١٣هـ/١٨٩٦م- ت ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) السعدي ، فهد بن علي ، معجم شعراء الإباضية (قسم المشرق)،ط١ ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م ، مكتبة الجيل الواعد، ص:٣٦٤.

(٢) الطائي، عيسى بن صالح، القصائد العمانية في الرحلة البارونية ،تحقيق: سلطان الشيباني (مرقون)،ص٤١.

٢- صورة المجاهد.
٣- صورة المصلح.

صورته في السياق الترحيبي:

تظهر الصور في سياق الترحيب في مقدمات القصائد حيث تبرز بقوة قيم النصرة والاحتضان والإعجاب الذي يستحضر القيم النمطية المألوفة في شعر المديح، ويأتي مطعماً باستحضار المعاني الوطنية، ومعنى الحماية و الدخول في الكنف العماني ، و هو يثني على الباروني في شخصه في المقام الأول ثم على إنجازاته تالياً.

و في هذا السياق لنا أن نتصور هنا أن هذا الرجل العظيم الذي طاردته الدول الاستعمارية الكبرى و ضيقت عليه و منعته من الوصول إلى مستعمراتها العربية، ليعيش سنوات من حياته منفياً مغترباً ، لنا أن نتصور أن بلداً آخر يدعوه إليه مقدماً له حمايته و رعايته، فإذا ما نزل برحابه تلقاه كل شيء فيه بالترحيب و التهليل لقدومه، ليتحول وصوله إلى موجة احتفالية كبرى تسري في عمان تعم سلاطينها و أئمتها و زعمائها و علمائها و مشايخها و قبائلها، و كل بلدة أو قبيلة تطلب زيارته بل وإقامته في بلادها كما يقول أبو سلام سليمان بن سعيد الكندي[1] مرحبا بالباروني عند وصوله إلى بلدة نفعا[2]:

أعلام نفعا بالبشارة تنشر ... و عن السرور بكل ناد تخبر
لما أتى البارون ساحت أرضها ... أضحت بها سحب التهاني تمطر
تاهت به نفعا فخاراً مثلما ... تاه الجواد به و تاه المنبر

(١) سليمان بن سعيد بن ناصر الكندي ، شاعر و أديب ولد في نزوى و تنقل بين ولايات عمانية عدة و سافر إلى إفريقيا ثم عاد و استقر و توفي في نزوى ،له ديوان "نشر الخزام" و أسئلة نظمية ،(و١٢٩٢هـ/١٨٧٥م - ت:١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م)، السعدي، معجم شعراء الإباضية(قسم المشرق)،ص١٩٤.
(٢) الطائي ،عيسى بن صالح ،القصائد العمانية في الرحلة البارونية ،ص:٤٣،الهاشمي، سعيد بن محمد، غاية السلوان، ص:٨٣.

أضحت مدافعها ترحب و القنا ... تبدي التحية و السيوف تبشر

و نلاحظ هنا كيف يحاول الشاعر و يجيد في التعبير عن سرور الآفاق بقدوم الباروني ،ناقلاً المشاعر بين الإنسان و الجماد ،قائلا إن الترحيب و ما يضم من معاني الفخر بقدومه و التبشير بقدومه شمل الجياد و المنابر و السيوف و القنا، ثم يعود لوصف فرحة الناس و تهافتهم على لقائه:

و غدا الورى يتهافتون لقربه ... فرحا وكل بالتهاني يبدر
حدقوا به فكأنه من بينهم ... ملك يتوج و الخلائق تنظر
عرفوه حقا قبل رؤية شخصه ... لما رأوه استعظموه و كبروا
لله يوم الوصل أصبحت القرى ... كل تطالب بالوصال و تنذر

و يصور الشاعر محمد بن سيف السعدي[1] حالة السرور العامة التي عمت الأرجاء و البلدان، و يتحدث عن ترقب العمانيين وصول الباروني و زيارته، و ذلك حين قدومه لأولى النواحي العمانية التي زارها و هي العامرات حيث صديقه الشيخ سعيد بن ناصر الكندي، إذ يقول السعدي[2]:

بنا من سرور لا تعد غرائبه ... و أنس عظيم لا تعد عجائبه
بإقبال نحرير أضاءت شموسه ... علينا و بحر قد أجاشت غواربه
و كنا نرجي قبل ذا اليوم وصله ... فهذا هو اليوم الذي أنا راقبه
فحين أتى البارون ساحة ملكنا ... تضاحك هذا الدهر وارتاح جانبه

ثم يقول واصفاً تطلع البلدان لزيارته، وتفاخرها بوصوله، وتبادل التهاني بين البلدان بقدومه :

(١) محمد بن سيف بن عبدالله .....
(٢) الهاشمي، سعيد بن محمد، غاية السلوان،ص٧٩.

ولازالت البلدان تـــطلـــب وصله فهذي بـــه تسمو و تلك تـخاطبـه
تهنى عمان كلـــها ثـــم مسقط تهنـــى بـــه مذ يممتهـا مراكبـــه
أقام بها في موقع الضيف عندها إذا وهب الـــدنيا استقالت مواهبه

و في ذات المعنى يقول الشاعر أحمد بن سعيد[1]:

فـــكم مـــن يد لما رأتك مشيرة و كـــم مـــن عيون بالمحبة تنظر
تساءل إجـــلالا و تـــرقب هيبة و تضمر إعظاما و عن ذاك تخبر

وهنا نجد أن الشاعر العماني كثيرا ما يخاطب الباروني مفاخراً بوجوده في عمان معتبرا أن وجوده بها حظ عظيم لها ،و قدر ساقه الله إليها كما نجد في أبيات أبي الوليد سعود بن حميد[2] :

سليمان إن المشرقيـــن تنـــازعا رضـــاك فكنت الآن أعدل حاكم
تزينت الدنيا ابتـــهاجا بطـــالع عمان بـــه فازت على كل عالم
و حق لها أن تنشر الشكر و الثنا فإن لها فـــخرا بأعـــظم قـــادم

و مع أن الصور الشعرية تستحضر وهي ترسم شخصية الباروني معاني تقليدية من قيم المديح في الشعر العربي، إلا أنها أحياناً تفارق مألوفها ، لترسم صوراً لافتة غير مكرورة كما في أبيات سالم بن سليمان البهلاني[3]:

يا وافداً ملأ الـــقلوب مـــسرة كـــالماء يورق عذبه الأريافـا

(1) الطائي ، عيسى بن صالح ، القصائد العمانية في الرحلة البارونية، ص: ٢٨.
(2) الطائي ، عيسى بن صالح ، القصائد العمانية في الرحلة البارونية، ص:٦٤. ابو الوليد سعود بن حميد بن خليفين ، وال و قاض و فقيه أديب من تلاميذ الإمام السالمي ، من بلدة المضيرب من القابل ، تولى القضاء للإمامين الخروصي و الخليلي مدة ٣٥سنة ، (ت ١٣٧٣هـ /١٩٥٣م) ،السعدي ، معجم شعراء الإباضية (قسم المشرق) ، ص: ١٥١.
(3) الطائي ، عيسى بن صالح ، القصائد العمانية في الرحلة الباروني، ص:٥١، سالم بن سليمان بن سالم بن عديم البهلاني ، كاتب وشاعر ، من وادي محرم من سمائل ، ساقر إلى زنجبارو عاش في كنف عمه الشاعر الكبير أبي مسلم و كان كاتباً له ، ، عاد إلى عمان عام ١٣٣٣هـ /١٩١٥م و زاول مهن التدريس و الكتابة له ديوان شعري مفقود ،و "لوامع البيان في قصائد أهل عمان"مختارات شعرية ،(و:١٧٠٣هـ/١٨٩٠م ــ ت :١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، السعدي ، معجم شعراء الإباضية (قسم المشرق) ، ص :١٣٢.

و منور الأكـــــوان منه بسيرة زهراء لا تخشـــى الردى إن طافا
بقـــدوم موكبك ابتهاج نـفوسنا و غـدا الزمـــان يرنح الأطرافا
و اهتزت الأقطار من فـرح و قد قامـت تجر لوفـــدك الأطـرافا

و كما نجد في أبيات سعيد بن سليمان الحراصي التي ضمنها إشارة إلى سيرورة أفكار الباروني و جهوده قبل وصوله إلى عمان[1]:

زار البرونـــــي أرضنا فتشرفت واليوم نلثـــم من ثراها العنـــبرا
ما كنت أحســب أن أشاهد بدره وأرى مـــحياه الـــبديع الأزهـــرا
كنا نشم أريج فـــكرتـــه التـــي نشرت على الأكـوان مسكا أذفرا
حتى تجلى كـــالـهلال مـــنوراً أقطارنا فسمت إلى أعلى المذرى

و يقول جمعة بن سليم الحارثي مستحضراً معجماً شعريا تقليدياً لكنه موشي بلمحات إبداعية قائمة على المفارقة اللفظية و المعنوية[2]:

رب السياسة و الرياسة و الحجا و مجيل أمـر الحرب كل مجال
فإذا دجت نوب فنير فكـــــره يهدى به من حيرة و ضـــلال
أعدى الحسام ببأسه و بهائـــه فدهى بحد و ازدهـــى بصقال
و تكفلت هماته و هباتـــــه بمصارع الأعـــداء و الأمـوال

و نجد أن الترحيب بالباروني تجاوز الإقليم الجغرافي العماني إلى زنجبار الحاضرة العمانية العربية حينها، حيث وافى الترحيب من هناك متجاوباً مع ترحيب الوطن العماني و حاملاً ذات مشاعر الود و الإعجاب و راسماً ذات

(1) الطائي ، عيسى بن صالح ، القصائد العمانية في الرحلة الباروني، ص:٤٥.
(2) الطائي ، عيسى بن صالح ، القصائد العمانية في الرحلة الباروني، ص:٦٦ ، جمعة بن سليم بن هاشل بن سالم الخنجري الحارثي ،أديب شاعر،من بلدة المضيرب من القابل ،تتلمذ على الإمام السالمي ،تردد على زنجبار،وتوفي في المضيرب ، ديوانه مجموع (ولد ١٢٨٨هـ/١٨٧١م ــ ت: ١٣٦٨هـ /١٩٤٩م) السعدي ، معجم شعراء الإباضية(قسم المشرق)، ص :٤٤.

الصورة عن شخصية الباروني، كما في قصيدة صالح بن علي الخلاسي (ت١٣٦٢هـ/١٩٤٣م) المرسلة من زنجبار، والتي تقول فيها[١] :

أهـلا بمطلع سـيد الأمـراء ... ليث العرين و صفوة العظماء
من زار مسقط فاكتست شرفا به ... فلك الـهنا يا مسقط الفضلاء
فكـأن عيد الفـطر يوم قدومه ... فالناس فـي جذل و في سراء
نفسي تحن إلى امـتداح جنابه ... لكنها كلت عـن الإحصاء

صورة المجاهد

صورة المجاهد هي الصورة الأكثر شيوعاً في الأدبيات العمانية الشعرية حول الباروني ، و من الطبيعي أن تمتزج بالمعاني المرافقة لها من نحو معاني الشجاعة و التضحية و الفداء و الصبر و المكيدة و حسن تدبير الحروب و القيادة و غيرها من العناصر، و بالمجمل فهي تصنع صورة البطولة المألوفة في الشعر العربي، ويبدو واضحاً أن أخبار الباروني في كفاحه ضد الاستعمار الإيطالي قد سبقته إلى عمان فكانت مادة للشعر الذي استقبل به؛ ولاشك أن شيوع صورة المجاهد هنا يعود إلى توق الشعوب في تلك المرحلة الاستعمارية إلى الأبطال الذين يرفعون الرؤوس في زمن الانكسار والذين تعلق بهم آمال التحرر، وقد يبلغ الحماس لدى بعض الشعراء العمانيين لبطولات الباروني أن طلبوا إليه قيادة الجهاد بالعمانيين هذه المرة .

كما يلفت النظر أن الإطارات الصورية هنا لا تنثال مفردة دون سياق يجمعها، فهي كثيرا ما تستحضر الحرب الطرابلسية و القضية الليبية و الكفاح

(١) الهاشمي، سعيد بن محمد ، غاية السلوان ص٧٧ ، صالح بن علي بن مسلم الخلاسي،من بلدة سدي من إزكي ،تعلم في عمان و نشأ فيها ، ثم سافر إلى زنجبار، ثم عاد إلى وطنه، له ديوان لا يزال مخطوطاً (ت:١٣٦٢هـ/١٩٤٣م) ، السعدي ، معجم شعراء الإباضية(قسم المشرق) ، ص:٢٣٢.

ضد المستعمر الإيطالي، مما يدل على متابعة حثيثة من شعراء القطر العماني لما يدور في الساحة العربية و هي تناضل الاستعمار :

يقول أبو الوليد سعود بن حميد[١] :

همام تربيـه السـياسة مذ نشا ... جدير بفـك المعضلات العظائم
كمي لـه الأعداء تشـهد أنـه ... فتى الحرب معروف بضرب الجماجم
فسائل بنـي الطليان عنه فإنـهم ... جهينة أخبـار بتلك الملاحـم
فما زال فـي تلك المكتائب قائـداً ... يفلق هامات العدو المـهاجـم
فلا عجب ـلما كاده الخصم إنهم ... رأوا منه ضربا في الطلا و الغلاصم
إذا عقدوا للـدين عقدة بـاطـل ... تدرع حتى فكها فـعل حـازم

و في ذات المعنى يقول أبو سلام الكندي[٢]:

فإن قبضت كفاه سـيفاً سطا به ... و إن قلماً منـه الجبابر تفـزع
له صدمات في الـحروب شهيرة ... تؤرخها إيطاليا يـوم تصـرع
فمن كابن عبدالله جئـني بمثله ... إذا ازدحم الفرسـان و البيض تلمع

أما أبو الفضل محمد بن عيسى الحارثي فإن يمزج بن جدة الحدث و معاصرة القضية ، بين أسلوب المديح التقليدي المتعلق بقيمة الشجاعة، مستدعياً بعض صور المعلقات الجاهلية فيقول[٣]:

مغمراً شاهراً للسيـف ذو همـم ... تسنمت ذروة الـجوزاء و الحمـل

العماني ، عيسى بن صالح ، القصائد العمانية في الرحلة البارونية، ص٦٤
العماني ، عيسى بن صالح ، القصائد العمانية في الرحلة البارونية،ص٦٧.
العماني ، عيسى بن صالح ، القصائد العمانية في الرحلة البارونية،ص ٧١، محمد بن عيسى بن صالح بن علي الحارثي،شاعر و أديب و فارس ،من القابل ، تأثر بأبيه الشيخ عيسى بن صالح ، و تولى الإمارة و المشيخة بعده ، له ديوان شعري "ديوان أبي الفضل"(و:١٣١٦هـ/١٨٩٨م – ت:١٣٦٦هـ /١٩٤٧م) ، السعدي ، معجم أعلام شعراء الإباضية(قسم المشرق) ، ص: ٣٤٨.

تروي مفاخره أقـــرانه سنـــــــداً عن صهوة الخيل و الهندي و الأسل
فاسأل هديت بني الطليان ما وجدوا يوم الكفاح و يوم الـروع و الفشـــل
ينبيك مخبرهم أن اـــــلهمـام لـه قلب يرى غير رعـديد و لا وكـــل
تروي الرماح يداه حين يوردهـــا بيضاً و يصدرها حـمراً بلا وجـــل
خيوله للقنا حلت قـــلائدهـــا لكن منها حرام حـوزة الكفـــــل

أما حمود بن أحمد الخروصي، فإن ذات المعنى يرد في قصيدته مشفوعاً بالحفاوة بقيمة حرية الوطن، ممتزجة بمعاني الجهاد الإسلامي[1] :

كأخلاق من في الغرب جرد سيفه على حجفل الطليان و النقع صائحه
غيور على حرية الوطن الـــذي يحرره الإسلام و النصر فاتحـــه
سليمان أنت الناس و الناس فضلة كثير و لـكن أكثر الخلق طالحـه
و كل امرئ بالسمر يكتب فيصلا و سـفر ابن عبدالله يقصر شارحـه

و يورد أبو سلام الكندي صورة تقليدية للمحارب و جيشه في الشعر العربي، ولكنه يشفعها بتفجير للمبالغة فيقول :

إن سار بالجيش سار الطير يتبعه و جاءت الوحش من سهل ومن جبل
كأنما أجـل الأعداء فـــي يـــده أو سيفه عارف عن مدة الأجـــل

صورة المصلح :

أما صورة المصلح فإنها كثيراً ما ترد في أدبيات الرحلة الثانية، خاصة بعد أن أفصح الباروني عن رؤيته و منهجه الإصلاحي و قلده الإمام الوزارة، و سعى

(1) الطائي ، عيسى بن صالح ، القصائد العمانية في الرحلة البارونية، ص:١٠٠ ،و لعل المقصود في البيت فيصلا تصغير فصل ، أو أنها أفصلاً ليكون المعنى أكثر اتساقاً.

في تنظيم الدولة و إدخال بعض الأنظمة الحديثة عليها، و اجتهد في تطوير النظام المالية و التعليم .

و نجد آثار الجهد الإصلاحي للباروني حاضرة في شعر شعراء مثل: سعيد بن سليمان الخروصي، وسالم بن سليمان البهلاني ، بيد أن أوفر العناية بصورة الباروني مصلحاً نجدها ـ في نص الرحلة الأولى محل الدراسة . عند أبي سلام الكندي الذي كان أحد كبار المناصرين لمشروع الباروني الإصلاحي، كما نحسي مجموعة غاية السلوان قرابة الست قصائد تتعلق بالباروني و جهوده الإصلاحية و دعم أعماله و التهنئة بها و الدفاع عنها، و من ذلك قصيدته التي يقول فيها[1] :

قم سليمـان في صـــلاح العباد لا تبـــــالي بـــقول أهل الفساد
إنما أنـت عالم كيف أضـحت أمـم الغرب تزدري بـــالعبـــاد
هي بالـعجز أم بجهل بنيـــها نالـــت الـــمجد أم سمت بالرقاد

و في قصيدة أخرى يقول أيضا[2]:

وزير إمام المسلمـــين لك الهنا بما نلت من مجد لك العقد و الحل
فدم يا ابن عبدالله فـي أوج العلا تحف بناديـــك الملائك و الرسل

كما يلفت نظرنا في هذا السياق بعد آخر إذ يظهر الباروني مصلحاً يتجسد فيه معنى تجسير العلاقة بين المشرق و المغرب العربي، و ذلك في القصائد التي كان الباروني محوراً لها أو الفكرة الباعثة لها، فالباروني (شخصاً و قيمة)هو المحور الذي دارت عليه القصائد المتبادلة بين شعراء المشرق و

(1) الهاشمي ، سعيد بن محمد ، غاية السلوان ، ص ١٣٥.
(2) الهاشمي ، سعيد بن محمد ، غاية السلوان ، ص ١٤٧.

المغرب، و بخاصة قصيدة الفقيه والمصلح الجزائري أبي اليقظان إبراهيم[1]، و التي تبارى الشعراء العمانيون في معارضتها أو مجاراتها، و طوفت في الأنحاء العمانية محفزة الشعراء التجاوب مع رسالتها، و قد انضاف إلى هذه المجاوبات قصائد أخرى كقصيدة الأديب و الشاعر الليبي علي بن محمد الزواري، و قصيدة الشاعر التونسي سليمان الجادوي، و قصائد الباروني نفسه، و ما أثارته من معارضات و ردود في عمان أو في الشرق الإفريقي حيث الإقليم الثقافي العماني.

لقد ظلت صورة الباروني متألقة في الوجدان العماني، في قصائد الرثاء التي أنشأت بعد رحيله و هو في الكنف العماني، و هي تتراوح في تصوريها له - كما في حياته - بين المجاهد و المصلح ، ممزوجة بالأسف الفاجع على رحيله المفاجئ ، و من هذه القصائد تلك القصيدة التي بعث بها أحد الشعراء العمانيين و هو خالد بن هلال الرحبي، إلى أحفاد الباروني بعد طلب لقاءهم وفاء لذكرى جدهم الراحل، فكان من قصيدته[2] :

يا طارقا طرق المحامد و هو في ... سـن الفطام بهمة البسـلاء
جففت ما يجد الفؤاد من الأسى ... لمصـاب سيف الملة السمحاء
ذكرتني شيما حواها جـدك الـ ... ـعالي فطال بها على النظـراء
و رأيت ليث الشرق فوق حصانه ... يرمي العداة بغارة شعـواء
و رأيت خيل الله يضبح شـزباً ... ترمي العدا بالسوءة الشـواء

(1) الهاشمي ، سعيد بن محمد ، غاية السلوان ، ص ٩٨ و ما بعدها .
(2) ديوان الباروني ، ص ٢٠٥، و المخاطب بـ "طارق" هو حفيد الشيخ الباروني طارق بن إبراهيم الباروني ، الشاعر: خالد بن هلال بن سالم بن مانع الرحبي "شاعر سرور"، أديب و مثقف و شاعر ، من بلدة سرور ، من سمائل ، له ديوان شعر "السحر الحلال"، (ت:١٣٧٢هـ/١٩٥٣م) ، السعدي ، معجم شعراء الإباضية(قسم المشرق) ، ص:٧٧.

تلك كانت محاولة لاستكشاف صورة الباروني في الشعر العماني و هي توضح بجلاء المنزلة الكبيرة التي حلها الباروني في قلوب العمانيين، و كيف ارتسمت في مخيالهم الذي عبر عنه الشعر صورته مناضلا و مصلحاً ، و كيف كان الشعر أداة الترحيب الأولى به، و هو ما يضعنا أمام حقيقة أن القادة العظماء يمدون الشعر بطاقة و مادة كبيرة للتعبير الشعري الذي يخلد مآثرهم و يعلي قيمهم الكبرى.

الباب الرابع

البـــاروني مفكرًا ومُـــصلحًا

خلاف سليمان باشا الباروني مع الأمير شكيب أرسلان وموقف الشيخ عبد الحميد ابن باديس منه

د. بشير فايد (*)

مقدمة

تعد الخلافات والخصومات و الحوارات والمساجلات بين أهل الفكر والرأي، أموراً طبيعية تحدث في كل الأمصار والأوقات، إذا التزم أصحابها بالحدود الدنيا من ضوابط الاختلاف في الرأي والتسامح مع المختلف معه، مهما كانت درجة الخلاف معه، والترفع عن النقد والقدح والتجريح في شخصه، و في هذه الحالة يصبح الأمر مستحبا لأنه يشكل فرصة لإثراء المسائل و القضايا المطروحة، بل وفي إيصال مستوى النقاش و الحوار إلى حدود رفيعة قد لا تتاح في غياب عنصر الاختلاف والخلاف. والأمثلة على ذلك كثيرة خاصة في التاريخ العربي و الإسلامي، ومنها حالة سليمان باشا الباروني (١٨٧٠م – ١٩٤٠م) والأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩م – ١٩٤٦م) حيث انتقد الأول الثاني في أكثر من مناسبة، بسبب ما اعتبره الباروني إجحافا في حقه، لما نسب كل انتصارات و بطولات المقاومة الليبية ضد الاحتلال الايطالي للقائد الشريف السنوسي. ولما فهمه الباروني إقصاء من الأمير شكيب لعرب شمال إفريقيا من الوحدة العربية المنشودة، وبالتالي تودد لأعداء الأمة العربية من المستعمرين. ومن الطبيعي أن تظهر أصوات فكرية هنا وهنالك، كانت لها مواقف متباينة من الخلاف، ومنها المفكر والمصلح الجزائري الشيخ عبد الحميد ابن باديس (١٨٨٩م – ١٩٦٥م) الذي خصص للقضية مقالا في جريدة الشهاب.

(*) د. بشير فايد، جامعة سطيف، الجزائر.

١- **التعريف بالشخصيات الثلاث:** من المهم جدا أن نعرف في بداية هذا البحث بالشخصيات الثلاث التي جاءت في عنوان البحث، حتى تتشكل لنا صورة عامة عن البيئات الزمنية و المكانية التي ولدوا ونشأوا وتعلموا فيها، فضلاً عن المعالم الفكرية والسياسية لكل واحد منهم، لكي يتسنى لنا في نهاية المطاف، فهم آرائهم ومواقفهم من القضية التي سنناقشها عبر محطات هذا البحث.

أ - **سليمان باشا الباروني:** شخصية سياسية وجهادية ودينية وعلمية وإصلاحية وفكرية وأدبية ليبية، من مواليد مدينة جادو من أعمال جبل نفوسة سنة ١٢٨٧هـ الموافق لـ١٨٧٠م على الأرجح، تنحدر من عائلة معروفة منذ القرن الرابع الهجري في مدينة طرابلس، اشتهرت بخصال أفرادها الحميدة وسيرتهم الطيبة؛ حيث أنجبت الكثير من العلماء والمجاهدين ممن ذاع صيتهم في طرابلس. نشأ وتعلم على يد والده عبد الله، العالم الأزهري الورع، سافر سنة ١٨٨٧م إلى تونس من أجل استكمال تحصيله العلمي بجامع الزيتونة، ثم إلى القاهرة التي مكث فيها ثلاث سنوات طالبا بجامع الأزهر. رحل بعدها إلى بني يزقن بوادي ميزاب جنوب الجزائر، وهنالك التقى الشيخ محمد بن يوسف أطفيش، مرجع الإباضية في العلوم الشرعية و اللغوية، الذي كان معلمه و مرجعه الأول، يعمل بتوجيهاته العلمية و السياسية، و قد تأثر بوفاته أيما تأثر.

تعرض إلى المضايقات و الاستجوابات، والأحكام بالسجن والنفي، من طرف الحكام العثمانيين، بتهمة السعي إلى فصل طرابلس عن الدولة العثمانية، و التعاون مع فرنسا عقب عودته من وادي ميزاب ١٨٩٨م.أسس سنة ١٩٠٤م المدرسة البارونية، في يفرن مركز الجبل الغربي. و لأنه لم يطق مضايقات السلطان العثماني، لجأ إلى مصر، التي أسس بها سنة ١٩٠٦م مطبعة الأزهار البارونية، التي راح يطبع فيها الكتب القيمة و النفيسة في الحديث و التاريخ و

الأدب، و جريدة الأسد الإسلامي، التي أراد من خلالها إسماع صوت المسلمين، و التعريف بواقعهم المزري و الحث على وحدتهم المفقودة[١].

انتخب سنة ١٩٠٨م نائباً في مجلس المبعوثان(البرلمان العثماني) عن مقاطعة الجبل الغربي حتى سنة ١٩١١م، حيث اضطر إلى العودة طرابلس التي غزتها ايطاليا، لتنظيم حركة المقاومة ضد الغزاة. فخاض معارك كثيرة، كشف فيها عن قدرات عالية في القتال و القيادة إلى غاية سنة ١٩١٩م[٢]. انتخب عضواً في مجلس الحكومة الرباعي للجمهورية الطرابلسية، التي أُعلن عن قيامها في ١٦ نوفمبر ١٩١٨م، و في عام ١٩٢٢م، دفعته سلطات الاحتلال الإيطالي إلى مغادرة طرابلس، بعد أن عارض الصلح، وأبدى إصراراً على مواصلة الجهاد، فظل متنقلاً بين تركيا وفرنسا ساعيا إلى العودة، و لما فشل استقر به المقام في سلطنة عُمان سنة ١٩٢٤م، التي عمل بها مستشارا لدى إمامها محمد بن عبد الله الخليلي.

وكان يتقن اللغتين العربية و التركية، كتابة وخطابة، وله عدة مؤلفات هي: مختصر تاريخ الإباضية، كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ديوان الباروني، تاريخ الحرب في طرابلس. منحت له العديد من الأوسمة وهي: نيشان البحرية الذهبي العثماني، الرصيعة العثمانية، نيشان الجندية العثماني، نيشان الصليب النمساوي الأعلى، نيشان الصليب الألماني الأعلى، النيشان الهاشمي، النيشان السعيدي، النيشان العُماني، تقديراً لمكانته العلمية والدينية والسياسية والجهادية[٣]. وفاته كانت عام ١٩٤٠م في الهند، التي قصدها للعلاج

---

(١) أنظر فاضل السباعي،وآخرون:سليمان الباروني المعلم المقاتل،د ط،د ت.

(٢) أنظر رفعت عبد العزيز سيد أحمد، محمد أمحمد الطوير: تاريخ الجهاد في ليبيا ضد الغزو الإيطالي(١٩١١-١٩٣١م)،(د.ط)،مركز الحضارة العربية، القاهرة:د ت.

(٣) أنظر إبراهيم أبو اليقظان:سليمان الباروني باشا في أطوار حياته،ج١،المطبعة العربية،الجزائر، ١٩٥٩م. و أنظر أيضا جمعية التراث:معجم أعلام الإباضية، (قسم المغرب)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠م.

من داء الملاريا الذي أصيب به. كانت له آراء ومواقف في مجمل القضايا التي كانت تعني العالم العربي والإسلامي وعلى رأسها الاستعمار والوحدة الإسلامية[1]، وقضايا المجتمع الدولي وفي مقدمتها السباق نحو التسلح وخطره على السلم والأمن في العالم.

ب – الأمير شكيب أرسلان: مفكر و أديب و سياسي لبناني، ولد سنة ١٨٦٩م في عائلة أرستقراطية ، يعتز أبناءها، وبإمارتهم للأدب والعلم والسياسة منذ قرون، في حارة الأمراء بحي أرسلان بقرية الشويفات ، التي تقع إلى الجنوب الغربي من العاصمة بيروت ، و تبعد عنها بحوالي عشرة أميال ، وعن البحر الأبيض المتوسط بنحو ميل. تلقى تعليمه ومعارفه الأولى في كنف عائلته المشهورة ثم في مدرستي الحكمة و السلطانية ، ببيروت، ثم استكمل تعليمه و تكوينه في سوريا والقاهرة والأستانة حيث التقى بكبار رجال عصره آنذاك، كالشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني ورشيد رضا وأحمد شوقي وسعد زغلول ... وغيرهم. انظم إلى المقاتلين الليبيين في جهادهم ضد الاحتلال الايطالي، حيث شارك في المقاومة بالسلاح و بمقالاته التي فضح فيها جرائم المحتل في حق أبناء الشعب الليبي. كما شارك أيضا إلى جانب الدولة العثمانية في حرب البلقان سنوات ١٩١٢م و١٩١٣م، حيث كان من أشد المدافعين عن الخلافة العثمانية، الأمر الذي حوله إلى خصم شرس لدعاة القومية العربية في تلك الأثناء. وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى وسقوط لبنان وسوريا تحت الانتداب الفرنسي، اضطر إلى المغادرة و الاستقرار في سويسرا التي اتخذها مركزا لجولاته في القارة الأوروبية والأمريكية، من أجل الدفاع عن القضايا العربية والإسلامية الكبرى، وعلى رأسها الاستعمار والوحدتين العربية والإسلامية. أصدر

(١) حول الموضوع أنظر فايد بشير: " سليمان الباروني و حركة الجامعة الإسلامية "،بحث قدم في الملتقى العلمي التاسع لوحدة الدراسات العُمانية،جامعة آل البيت،المملكة الأردنية الهاشمية، يومي ١١/١٠ أكتوبر ٢٠١١م.

مجلة الأمة العربية باللغة الفرنسية، التي كانت منبرا للتعبير عن أفكاره و مواقفه. من أشهر مؤلفاته: كتاب لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم؟ وتاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وجزائر البحر المتوسط، وتعليقات على تاريخ ابن خلدون. توفي سنة ١٩٤٦م، ودفن بمسقط رأسه[1].

ج – الشيخ عبد الحميد ابن باديس: عالم ديني و مفكر و مُصلح و رائد النهضة العلمية و الإصلاحية في الجزائر المعاصرة، من مواليد سنة ١٨٨٩م بمدينة قسنطينة العريقة، في أسرة اشتهرت في منطقة المغرب الإسلامي بالعلم و الثراء و الجاه، حيث لعبت دورا كبيرا في تربيته و توجيهه و خاصة والده محمد بن المصطفى، و قد سمح له هذا الوضع العائلي المريح بالتحصيل العلمي الجيد وبزيارة العديد من البلدان العربية والإسلامية في تلك الأثناء. تميز عن معاصريه بجمعه: "بين القديم الصالح من ثقافة وتراث وتقاليد عريقة، وبين الجديد المفيد في العلوم و الأفكار العصرية في تلاؤم وانسجام كاملين و كان يعيش للوطن و الأمة، أكثر مما يعيش لنفسه أو لأسرته ولذلك يعد من أقدر زعماء الجزائر المعاصرة على تحرير عقول الناس من رواسب الماضي". درس في جامع الزيتونة بتونس وتحصل منه سنة ١٩١١م على شهادة التطويع، حيث استفاد كثيرا من الحركية العلمية التي كانت سائدة بها، وتحصل على شهادة العالمية من جامع الأزهر سنة ١٩١٣م. أسس في ٣١ ماي من سنة ١٩٣١م جمعية العلماء المسلمين الجزائرية مع رفيقه في النضال الشيخ البشير الإبراهيمي(١٨٨٩-١٩٦٥م) وثلة من علماء الجزائر آنذاك، التي أخذت على عاتقها مهمة محاربة الجهل والأمية والخرافات والبدع، التي كانت تنشرها الإدارة الاستدمارية بالاشتراك

(١) للمزيد أنظر شكيب أرسلان:سيرة ذاتية.و أيضا أحمد الشرباصي:شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام،ط٢،دار الجيل،بيروت:١٩٧٨م.

مع حلفائها من رجال الطرق الصوفية المنحرفة، هو صاحب القصيدة الشعرية الشهيرة التي جاء في بعض أبياتها:

شـــعب الجزائـــر مسلـــم وإلـــى العروبـــة ينتســـب
مـن قـال حـاد عـن أصـله أو مـــات فقـــد كـــذب
أو رام إدماجـــــا لـــــه رام المحـــال مـــن الطلـــب

لم يترك آثاراً في شكل مصنفات، و إنما مقالات ورسائل وخطب وأحاديث في العقائد الإسلامية والسير والقصص، والفتاوى والمسائل الفقهية، والرحلات والإصلاح والسياسة والتاريخ والحديث النبوي، جمعت بعد استقلال الجزائر في مجلدات ضخمة تحت عنوان: آثار الإمام عبد الحميد ابن باديس. أما تفسيره للقرآن الكريم، فقد جمع في كتاب عنوانه: " مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير". يقوم منهجه الإصلاحي على العناية بالفرد و تكوين شخصيته تكوينا سليما، من الجوانب الأخلاقية والروحية والتربوية: "لأن إصلاح الفرد في اعتقاده هو الخطوة الأولى لإصلاح المجموع، وإصلاح الفرد لا يعني تلقينه مبادئ العقيدة والأخلاق والتربية تلقينا مباشرا يخلو من الروح. ولكنه يعني البناء الداخلي لشخصيته وصلاح نفسه روحياً وسلوكياً". توفي في يوم ١٦ أبريل ١٩٤٠م، الذي أصبح في الجزائر المستقلة مناسبة وطنية تسمى يوم العلم[1].

٢ – أسباب الخلاف بين الباروني و أرسلان: في حدود اطلاعنا لم يتم التطرق من قبل المعاصرين للرجلين، إلى الخلاف الذي كان بينهما، إلا في شكل إشارات عابرة، لا تسلط الضوء الكافي على خلفياته والمستوى الذي بلغه. والأمر

(1) للمزيد أنظر عبد الكريم بوصفصاف:الفكر العربي الحديث و المعاصر – محمد عبده و عبد الحميد ابن باديس نموذجا،الجزء الأول و الثاني،د ط،دار الهدى عين مليلة،الجزائر:دت.و حول تفسير ابن باديس للقرآن الكريم أنظر حسن عبد الرحمان سلوادي:عبد الحميد ابن باديس مفسرا،د ط،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر:١٩٨٨م.

ذاته ينطبق على المفكرين والكتاب والمؤرخين الذين جاءوا من بعدهما، حيث لم ينل الموضوع حظه من الدراسة و المناقشة، ولعل بحثنا هذا سيكون دافعا للاهتمام بالموضوع. وبناء على ما استطعنا الحصول عليه من مادة خبرية، يبدو أن قضيتان أساسيتان كانتا وراء وقوع الخلاف بين الشخصيتين.

أ – القضية الأولى: و تتصل بالموقف من إيطاليا و الدولة العثمانية، و بدأت لما قام الأمير شكيب أرسلان بإلقاء خطبة، في حفل تأبيني أثناء وفاة أحمد الشريف السنوسي، نشرت في جريدة الجهاد، ثم في طبعة جديدة من كتاب "حاضر العالم الإسلامي" الجزء الرابع لمؤلفه الكاتب الأمريكي لوثروب ستودارد.

أشار في بدايتها، إلى وقع خبر وفاة أحمد الشريف السنوسي عليه: "منذ انطوى أستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله لم يشعر الخوف قلبي فيما عدا المصائب التي رزئت بها في أفراد عائلتي ما أشعره النبأ الصادع والخبر الفاجع الذي نقل إلى الآفاق نعي الأستاذ الأكبر والسراج الأزهر خاتمة المجاهدين ومثال الغزاة المرابطين السيف الباتر السائر على هدى الصحابة الكرام في العصر الحاضر محي مآثر الأوائل في أيام الأواخر سيدي أحمد الشريف السنوسي ابن سيدي محمد بن علي السنوسي رضي الله عنه وعن سلفه وأرضاهم و جعل في جوار قدسه مأواهم"[1].

معتبراً وفاته خسارة عظيمة للعالم الإسلامي، لأنه من كبار رجالاته وقادته العظام، مضيفاً أن الفقيد: "لو عاش في زمن السلف الصالح و أيام الغزوات العربية و الفتوحات العمرية لما كان مكانه في ذلك الوقت ليقصر عن أحد من

(1) لوثروب ستودارد:حاضر العالم الإسلامي،المجلد الثاني،الجزء الرابع،ترجمة عجاج نويهض،ط ٤، دار الفكر،بيروت:١٩٧٣م، ص٣٩٧.

أولئك الأبطال الذين نشروا الإسلام في الخافقين و رفعوا لواءه من نهر الرون[*] إلى جدار الصين"[1].

ثم انتقل إلى الإشادة بسيرته الجهادية، التي دامت عشرين سنة، وقف خلالها في وجه دولة عظيمة بحجم إيطاليا: "في عصر دثرت فيه معالم الجهاد و انطفأت جذوة الإسلام حتى لم يبقى منها إلا الرماد و استولى اليأس على قلوب المسلمين حتى حسبوا كل مقاومة لدولة أوروبية ضربا من ضروب الحماقة و عم الذل جموعهم الحاضر منهم و الباد، و انتشر في الربى و الوهاد". فكان أحمد الشريف السنوسي الاستثناء، حيث: "قد أتى ببرهان ساطع و دليل قاطع على أن فئة من المسلمين في قطر لا يتجاوز عدد أهله عدة مئات من الألوف يمكنها بقوة الإرادة و ثبات العزم و مضاء الصريمة[*] و إباء الضيم وترجيح المعنى على المادة و إيثار الشرف على الترف و امتلاء القلوب بالإيمان و وقف النفوس على اعتزام عزائم الإسلام أن تثبت مدة (٢٤٠) شهراً بإزاء دولة عدد أهلها اثنان و أربعون مليونا مجهزة بجميع ما هي مجهزة به عظيمات دول العالم المتمدن لها من فيالق البر و أساطيل البحر و سيارات الكهرباء و المحلقات في الفضاء ما لا تملك أعظم منه دولة من الدول القاعدة في الصف الأول من ممالك الأرض"[2].

ثم تابع حديثه قائلا: أن أحمد الشريف السنوسي هو آخر مجاهدي الإسلام، بعد أن سبقه الشيخ شامل الدغستاني[*]الذي ظل يقاوم الروس لأربعين

(*) نهر الرون:نهر غزير يمتد بين الأراضي السويسرية والفرنسية، يبلغ طوله (٨١٢)كم، يجتاز بحيرة ليمان ويروي جنيف وليون وفالنس وأفنيون وآرل حيث يكون دلتا واسعة، ويتشعب إلى فرعين يحصران بينهما جزيرة كامارغ ويصب في المتوسط غربي مرسيليا، صالح للملاحة.المنجد في اللغة والأعلام، ط ٤٠، دار المشرق، بيروت،د ط.

(1) لوثروب ستودارد،المصدر السابق،ص٣٩٧– ٣٩٨.

(*) الصريمة:أمر صريم:معتزم،الصريمة جمعها صرائم:العزيمة.المنجد في اللغة والأعلام،حرف الصاد.

(2) لوثروب ستودارد،المصدر السابق،ص ٣٩٨.

(*) الشيخ شامل الداغستاني:من زعماء داغستان، شيخ النقشبندية و قائد الثورة على الروس (١٨٣٤– ١٨٥٩م)،استسلم للقيصر إسكندر الثاني، توفي سنة ١٨٧١م. المنجد في اللغة والأعلام، قسم الأعلام.

عاما، والأمير عبد القادر الجزائري(١٨٠٧م – ١٨٨٣م) الذي حارب المحتل الفرنسي لسبعة عشر عاما، ومحمد بن عبد الكريم الخطابي(١٨٨٢م – ١٩٦٣م) في الريف المغربي الذي جابه المحتل الإسباني المؤازر من المحتل الآخر فرنسا[1].

ليصل إلى النقطة التي أثارت حساسية الشيخ الباروني، و هي قوله: "و لو لا السيد أحمد الشريف السنوسي – رحمه الله– لكانت إيطاليا استصفت قطري طرابلس و برقة من الشهر الأول من غارتها الغادرة عليهما وأننا لا نزال نتذكر كلام القواد ورجال السياسة الأوروبية عن الحملة الايطالية يوم جردتها على ذينك القطرين إذ قال بعضهم أن إيطاليا ستقبض على ناصية الأمر وتستكمل هذا الفتح في مدة ١٥ يوماً وقال أشدهم تشاؤما واقلهم تخيلا وتبصراً وهو اللورد كتشنر[*] المشهور أن هذا الفتح الذي يستسهله الناس على إيطاليا أمامه من الصعوبات أكثر مما يظنون وقد يستغرق ثلاثة أشهر بالأقل.... فليتأمل أولوا الألباب كيف أن هذه الثلاثة أشهر امتدت عشرين عاماً ورزأت الدولة الإيطالية بمائة و خمسين ألف عسكري قتلى عدا الجرحى وبثلاثمائة مليون جنيه من الذهب الوضاح. هذا كان مجموع خسائر ايطاليا منذ سنتين حسب الإحصاءات الرسمية. وهذا كان ثمرة جهاد ذلك السيد السند". ليخلص إلى نتيجة مفادها، أنه لولا السيد السنوسي، لما تمكن القائد العثماني أنور باشا أن يقوم بأي عمل يذكر، ولا الدولة العثمانية استطاعت أن تصمد في دفاعها عن طرابلس شهرا

(1) لوثروب ستودارد،المصدر السابق،ص ٣٩٩.

(*) اللورد كتشنر لورد هربرت (١٨٥٠– ١٩١٦م):مارشال انجليزي،احتل أم درمان في السودان،قمع ثورة البور في الترانسفال ١٩٠٢م.لمنجد في اللغة والأعلام،قسم الأعلام.

واحداً. أما الشهيد عمر المختار(١٨٥٨م – ١٩٣١م) فما كان إلا إنجازاً من انجازات السيد السنوسي وقائداً من قواده[١].

و ختم في هذه النقطة، التي تهمنا في هذا الموضوع قائلاً:"... ففضله أعظم جدا من فضل الدولة العثمانية في جهادها وإن كان فضلها عظيماً. وهو وحده كان مصدر هذه الإرادة التي أنشأت بإذن الله هذا الجهاد الطويل العريض وحفظت شرف الإسلام المعتدى عليه في طرابلس وغير طرابلس لأنه مما يجب أن لا نتمارى فيه أن أوروبا لا تعرف في ذات نفسها إلا إسلاماً واحداً أن أحمد الشريف السنوسي هو بنفسه أمة، وأن سيرة السيد احمد الشريف السنوسي هي بذاتها تاريخ..." [٢].

وعلى ضوء ذلك، يظهر بشكل واضح لا يقبل التأويل، أن الأمير شكيب أرجع كل الفضل في مقاومة الإيطاليين الغزاة إلى أحمد الشريف السنوسي، مستبعداً قادة آخرين ومنهم سليمان الباروني الذي تزعم حركة الجهاد في الجهة الغربية، كاشفاً عن قدرات كبيرة في القيادة و التخطيط والقتال والعزيمة، اعترف له بها أعداء ليبيا قبل أصدقائها. وقد ذهب أرسلان كثيراً في مدح وبيان مآثر السنوسي، فجعل أعماله تماثل أعمال الصحابة الكرام والقادة العظام للأمة الإسلامية، بل واعتبر أن إيطاليا كانت ترى فيه الإسلام في حد ذاته وأنه كان هو الأمة.

ولما وصل هذا الكلام إلى الباروني، لم يستسغه ورأى فيه محاولة متعمدة من أرسلان، لتجاهل الأعمال التي قام بها من أجل صد الغزو الإيطالي عن بلاده، والأمر ذاته بالنسبة لكل من القائد أنور باشا والدولة العثمانية. في مقابل

(١) لوثروب ستودارد،المصدر السابق،ص ٤٠٠.
(٢) المصدر نفسه،ص ٤٠١.

منح السنوسي دوراً أساسياً في الجهاد الليبي لم يقم به، لأنه كان في تلك الأثناء يقيم خارجها. وقد لمح الباروني إلى أن أرسلان ربما كانت تحركه خلفية في ذلك، تتعلق بتقديم خدمة للعائلة السنوسية التي ينتمي إليها أحمد الشريف. فنسب لهذا الأخير دور الجهاد والبطولة في ولاية طرابلس، وهو لم يقم به[١].

لا يعرف لحد الآن السبب الذي دفع أرسلان، لتجاهل الدور الرئيسي للباروني في مسيرة الجهاد الليبي، والذي لا يختلف عليه اثنان، ويبقى ما لمح إليه الباروني آنفا سببا غير واضح، لأنه لم يتضمن و لو إشارة إلى المصلحة التي تتحقق للأمير، من وراء تجاهله لجهاد الباروني والسعي إلى إعطاء صورة مشرقة عن الأسرة السنوسية.

قد يكون من المفيد في هذه المسألة، الإشارة إلى أن العلاقة بين أرسلان و السنوسي كانت علاقة حميمية، حيث سكنا سنة ١٩٢٣م بجوار بعضهما البعض في مدينة مرسين التركية و في ذلك قال أرسلان:" وكانت الحكومة التركية قد أنزلته في دار فسيحة ذات حديقة غناء في ظاهر مرسين و جئت أنا فاكتريت دارا في البلدة و كنت أختلف إلى السيد كل يومين مرة أجلس فيها و إياه ساعات طوال في ذلك القصر المشرف على الرياض و البساتين فكان كل منا يأنس بالآخر ما لا يأنسه بأحد لما بيننا من ارتباط القلوب من قبل و من بعد. وما من أحد تعمق في معرفة حقيقة هذا الرجل إلا ازداد له حرمة وتوقيراً. فكانت معارفة الوجوه بيننا سببا لزيادة الحرمة و تضاعف الاغتباط بالصحبة و ما أمتن الوداد إذا كنت تحترم من تحبه و تحب من تحترمه"[٢].

(١) انظر أبو اليقظان،المصدر السابق،ج٢، ص١٩٦-١٩٨.
(٢) لوثروب ستودارد،المصدر السابق، ص٤٠٣.

و مهما يكن فإن الأمير أرسلان، الذي شعر بأنه أغبط حق الباروني في خطبته التأبينية السالفة الذكر، التي كرسها لدور السنوسي في الجهاد الليبي دون غيره من الزعماء والقادة الذين استماتوا في الدفاع عن الأراضي الليبية، رغم الضعف العسكري الشديد الذي كانوا عليه، يأتي على رأسهم الباروني. قد استدرك الموقف فخط مقالا، أشاد واعترف فيه بدوره في الجهاد في طرابلس، وبكونه بأن لا أحد ينافسه في ذلك، وبأسبقيته في ذلك على الجميع في غربي طرابلس[1].

ب – القضية الثانية: من المعلوم أن الأمير شكيب أرسلان، قد أصبح من المدافعين المتحمسين للوحدة العربية، بعد انهيار الخلافة العثمانية التي ناصرها إلى آخر لحظات وجوده، إيمانا منه أن بقاءها رغم الضعف الذي كانت عليه أفضل من زوالها، حماية للأمة العربية من المصير المشئوم الذي ينتظرها، وهو وقوع ما تبقى من بلدانها تحت السيطرة الاستعمارية الغربية.

وقد كان متيقنا من نجاح مشروع الوحدة في المستقبل القريب أو البعيد، رغم المعوقات الكثيرة والجدية التي كانت تقف في طريقه: "إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة، مهما عارض في ذلك اللئام من أعدائها، و المتفلسفون من أبنائها، و إن هذه الوحدة آتية لا ريب فيها، و لو بعد مئة سنة أو أكثر..."[2]. لأنه في اعتقاده أن ما يوحد العرب أكثر ما يفرقهم، وبإمكانهم أن يتوحدوا مرة ثانية تماماً مثلما حصل ذلك في العصر العباسي: "فأنتم ترون أن هذا العالم العربي كله ذو منزع واحد، ولغة واحدة، وغاية واحدة، ولهذا فالطبيعة تسير به قهراً وقسراً إلى

(1) انظر أبو اليقظان،المصدر السابق،ج٢، ص١٩٦– ١٩٨.
(2) شكيب أرسلان:الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف،ص ٢٠٧.

الوحدة، وهذه الممالك التي قد مزقها الأوروبيون المستعمرون أجزاء من السنغال إلى الموصل ستعود مملكة واحدة كما كانت في عهد الخلافة العباسية".

وهذا لا شك أمر اتفق فيه معه سليمان الباروني، الذي كان هو الآخر في البداية مناصراً وفياً للخلافة العثمانية، رغم المتاعب التي سببتها له وقد وصلت حد سجنه ومطاردته، لأنه كان يقدم المصلحة العليا للمسلمين على مشاكله الشخصية مع السلطات العثمانية، رغم أنه كان فعلاً مظلوماً ولم يصدر منه على الإطلاق ما يعتبر تآمرا على الخلافة، التي اعتمدت في مناصبته العداء على تقارير ووشايات خصومه وعلى رأسهم ممثلوها في الأقاليم الليبية، الذين لم يستسيغوا انتقاداته لطريقتهم في الإدارة والتسيير.

هذا و قد اعتبر سكان شمالا أفريقيا عربا؛ ففيهم من تتصل جذوره العرقية مباشرة بالجنس العربي في المشرق، ومنهم تعربوا وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية: " كذلك شمالي أفريقيا من برقة إلى السوس الأقصى بلاد فيها عرب وبربر، وقد تحقق أن قسما كبيرا من البربر هم ساميون، من أصل فينيقي، ولا يخفى أن قرطاجنة هي معمورة فينيقية بناها أهل صور، وعلى فرض لم يكن كل البربر فينيقيين، أو لم يصح كونهم حميريين كما يزعمون، فقد استعربوا الآن، وصارت ثقافتهم عربية تامة، كما أن ثقافة مصر وسورية هي أيضا عربية خالصة "[1]. وفعلا هذا هو الوضع العرقي، الذي كان سائدا في عصر الباروني وارسلان، ولا يزال إلى يومنا هذا.

لكن الذي أثار حفيظة الباروني، هو حديث آخر لأرسلان ورد في محاضرة ألقاها عن الوحدة العربية في النادي العلمي بدمشق يوم ٢٠ سبتمبر

(1) أحمد الشرباصي،المرجع السابق،ص ٧١. نقلا عن الشورى ٥مارس ١٩٢٥م.

١٩٣٧م، اعترف فيه بعروبة سكان الشمال الأفريقي حتى و إن كان العرب فيه يمثلون الأقلية بالمقارنة مع البربر السكان الأصليين، الذين أصبحوا عربا ومسلمين أيضا تجمعهم بعرب المشرق وحدة الانتماء إلى الأمة العربية. وأقر فيه صراحة أنه بالرغم من كل ذلك، أنهم يستثنون من الوحدة العربية السياسية، لسببين أساسيين هما: البعد الجغرافي عن المشرق العربي، وعدم الرغبة في جلب عداء الدول الاستعمارية الكبرى التي كانت تحتل تلك الأقطار وهي فرنسا بالدرجة الأولى ثم إيطاليا .فيخلص إلى القول أن الوحدة السياسية، تكون فقط بين الأقطار العربية في القارة الأسيوية، التي بإمكانها أن ترتبط بسكان الشمال الأفريقي الذين يرتبطون فيما بينهم بوحدة سياسية، ارتباطاً ثقافياً ولغوياً ودينياً واجتماعياً وشعورياً: " أما طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش فهذه بلاد عربية وإن كان فيها بربر أكثر من العرب، فإن ثقافة هؤلاء البربر عربية وهم على كل الأحوال مسلمون، فهذه الأمة هي منا ومعنا كما أن قلوبنا متحدة بيننا و بينهم، ولكن هناك أسباب جغرافية تمنع اتحادنا معهم اتحادا فعليا، وهم ليسوا من برنامجنا ولا نتكلم عن الوحدة معهم لأننا نجعل لنا أعداء أقوياء ونحن في غنى عن ذلك الآن. نحن نريد تحقيق وحدتنا العربية في آسيا، لكن وجود وحدة سياسية من إخواننا مسلمي شمال أفريقيا لا يمنع أن يكون بيننا وبينهم وحدة لغوية ثقافية دينية اجتماعية و إن تكون قلوبنا مرتبطة بقلوبهم في السراء و الضراء "[1].

و بطبيعة الحال، لم يعجب كلام أرسلان هذا الباروني، الذي رد عليه بالقول أنه قد أعلن بذلك براءته من المسلمين كافة:" من المغرب الأقصى إلى نهاية الهند و من التركستان إلى البلقان إلا عرب الجزيرة و مصر" الغنية بذهبها

(١) عمار طالبي:آثار ابن باديس،المجلد الثاني،الجزء الأول،ط ٨،دار الغرب الإسلامي،تونس:٢٠٠٨،ص ٣٩٠.

الوهاج ".مضيفا أنه نفض يده الأولى من طرابلس و برقة متبرئا منهما صراحة: "طلبا لرضا إيطاليا و دوام ابتسامة موسوليني الذي يتفانى في حبه – وهو لاه عنه– لأدنى مناسبة". ويواصل فيقول أن أرسلان ينفض يده الأخرى من تونس والجزائر ومراكش والسودان: "تودد لفرنسا المسيطرة على بلاده معلنا بذلك براءته من الجميع"[1].

يمضي الباروني في رده على أرسلان، متسائلا عن السر الكامن وراء ما اعتبره تبرءا من الأمير من أهل طرابلس و برقة و أفريقيا ما عدا مصر: " فما معنى براءة شكيب اليوم من مسلمي طرابلس برقة و أفريقيا كلها (إلا مصر الغنية بالذهب) و ما هي النعمة التي ستزول عنهم و النقمة التي ستحل بهم و تجعلهم يحزنون من إعلان هذه البراءة الجوفاء من طرف شكيب أرسلان. وعلى هذا القياس القول في رجال المغرب و المشرق كله الذي أعلن شكيب براءته منهم إرضاء للمستعمرين ". ويجيب على ذلك بالقول، أن أفريقيا لم تعد تغري دعاة الإسلام – من أمثال أرسلان – : " و أما أفريقيا ففقيرة لا تستحق بعد أن نضب ضرعها الذي كان يدر على كثيرين من دعاة الإسلام لبنا خالصا إلا أن يقال لها اليوم بعدا و سحقا لك فإن رضاء المستعمرين أنفع لنا من رضائك ".

هذا و قد وجهه الدعوة إلى العلماء المسلمين، ليدلوا بموقفهم إزاء ما ذهب إليه أرسلان فقال: " ولعل علماء الإسلام الغيورين على دينهم يبدون رأيهم فيمن يعلن البراءة من مسلمي المستعمرات المعذبين لإرضاء أعدائهم و معذبيهم ".

ختم الباروني حديثه بتبرير مهاجمته لأرسلان ورده الذي بدا قاسياً، بكون الرجل اعترف صراحة وعلى الملأ بما سبقت الإشارة إليه آنفا: "أما وقد تظاهر

(١) المرجع نفسه،ص ٣٩١.

اليوم بإعلان براءته من المسلمين المستعمرة بلادهم فلم يكن بد من الكلام، إذ قد علل ذلك بأنه لا يتحمل عداوة دول الاستعمار لأجل صداقة مسلمي مستعمراتها و نسي الأخوة الإسلامية التي لا يغفل عن ذكرها". متأسفا عن الإهانة التي سببها أرسلان لإخوانه في الشمال الأفريقي، بموقفه هذا الذي كان الدافع إليه بحسبه التزلف لإيطاليا و فرنسا ليس إلا[1].

هذا و لم يتسنى لنا معرفة، ما إذا كان أرسلان قد وصله هذا الكلام الذي قاله في حقه الباروني، وما إذا كان قد تكفل بالرد عليه في حال حصول ذلك، لأنه فعلاً كان انتقاداً لاذعاً وشديد اللهجة، ينسف جملة تفصيلا مساره النضالي على كافة الجبهات والأصعدة برأي الباروني بطبيعة الحال.

٣ – موقف عبد الحميد ابن باديس من الخلاف: تابع الشيخ عبد الحميد ابن باديس عن كثب، السجال لذي نشأ بين الباروني و أرسلان للأسباب السالفة الذكر، و قد ظهر ذلك بشكل واضح في المقالة التي كتبها في ديسمبر ١٩٣٧م، ونشرتها جريدة الشهاب تحت عنوان: " مسألة عظيمة بين رجلين عظيمين" ويقصد بالمسألة العظيمة الوحدة السياسية المنشودة للأمة العربية الممتدة من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي، وأما العظيمان فهما الأمير شكيب أرسلان وسليمان باشا الباروني. حيث تضمنت موقف ابن باديس من جانب من السجال الذي احتدم بين الرجلين، حول موضوع الوحدة السياسية العربية الذي كان فيه لأرسلان موقف أثار حفيظة الباروني، الذي رد عليه رداً عنيفاً واتهمه صراحته بمحاولة استعطاف فرنسا و ايطاليا، لمصلحة شخصية ضيقة على حساب المصالح الكبرى للأمة العربية والإسلامية كما مر بنا.

---

(١) المرجع نفسه،٣٩٢.

استهل ابن باديس حديثه، بالتنبيه إلى أن الكلام الذي دار بين أرسلان و الباروني، لم يكن حول مفهوم أو مضمون الوحدة وإمكانية تحقيقها و الشروط التي يتوجب توفرها لتحقيقها مما يفيد قادة النهضة في نهجهم فلا يخطئون السبيل، و إنما كان خطابا بخصوصها فجاءه الرد من الباروني بإعلان البراءة منه بسبب ما اعتبره تخليا منه عن مسلمي المستعمرات و بدعوة علماء الإسلام الذين لديهم غيرة على دينهم بإبداء رأيهم: "فيمن يعلن البراءة من مسلمي المستعمرات المعذبين لإرضاء أعدائهم و معذبيهم من المستعمرين لينسد هذا الباب فلا يدخل منه غيره بعد اليوم"[1].

يتساءل ابن باديس، عن وجود براءة للأمير كما زعم الباروني من مسلمي المستعمرات، لما استبعد الوحدة السياسية مع مسلمي شمال أفريقيا و في قوله: "فهذه الأمم هي منا ولنا و معنا كما أن قلوبنا متحدة بيننا و بينهم ...". و برأيه أن المبرر الذي ساقه الأمير في موقفه ذاك، و هو تجنب إثارة ثائرة الدول الاستعمارية القوية، هو موقف سياسي محض قابل للأخذ و الرد و النقاش من كل الأوجه من ناحية، و لا يعد في حقيقة الأمر براءة من أرسلان من مسلمي المستعمرات وفق ما انتهى إليه الباروني من ناحية ثانية.

و يدعم ابن باديس موقفه، بتصريح للأمير بخصوص هذه القضية لجريدة الجزيرة تضمن في مجمله أنه لا يعارض فكرة الوحدة السياسية بين المجوعتين الأسيوية و العربية، و إنما يرى استبعادها في الوقت الراهن، لأنها تؤدي إلى إثارة مشاكل كبيرة و متاعب كثيرة للبلدان العربية في آسيا، ليس لها القدرة على مواجهتها و هي التي لم تحقق استقلالها و سيادتها بعد[2].

---

(١) المرجع نفسه،ص ٣٨٩.
(٢) المرجع نفسه،ص،ص ٣٢٢.

وعليه فإنه يتساءل، كيف يكون موقف القراء من كلام الرجلين؟ أما بالنسبة إليه هو فإن الأمر في غاية الوضوح فيلخصه قائلاً: " أما نحن فقد قضينا – و الله – عجبا من هذا البهت والتحامل الذين لا مبرر لهما ولقد وقفنا قبل أن نكتب لفظتي البهت و التحامل و حاولنا أن نجد غيرهما يقوم مقامهما فلم نجد إلا إذا خالفنا الحقيقة وسمينا الأشياء بغير أسمائها. ولكننا مع هذا نلتمس لسعادة الباشا العذر من مرضه الذي هو في حالة نقه منه والحمد لله "[1].

ويضيف إلى ذلك جملة من الملاحظات و التعليقات، جاءت مرتبة كالآتي:

أولاً: أن ما ذهب إليه الأمير هو وجهة نظره إزاء الوحدة السياسية العربية ليس إلا، و أما مصر فقد أدخلها في الوحدة رغم أنها بلد أفريقي، لأنها كانت مستقلة إلى حد كبير و أما ذهبها فليس ذي قيمة في الأمر.

ثانيا: لم تكن بريطانيا على ود مع الأمير، فلو كان الأمر كذلك لما منعت عنه مجرد النزول في مصر.

ثالثاً: والأمر ذاته بالنسبة لفرنسا، التي كانت تعتبره العدو لقديم لها و الذي لا يمكن أن تزول عداوته.

رابعاً: كيف يسعى الأمير إلى إرضاء المستعمرين، و هو الذي قضى حياته في محاربتهم، متحملا في ذلك الغربة والمشاق والمطاردة.

---

[1] المرجع نفسه،ص ٣٩٣.

خامساً: من هم دعاة الإسلام الكثيرون، الذين كانت أفريقيا تدر عليهم اللبن الخالص فهل هم جمال الدين الأفغاني ؟ أم الشيخ محمد عبده ؟ أم رشيد رضا ؟ أم شكيب أرسلان ؟...

سادساً: القول بأن الأمير شكيب قد دافع عن المسلمين يوم كانوا أعزة كرماء، و تبرأ منهم يوم أصبحوا أذلاء فقراء، لا أساس له من الصحة، لأنهم لم يكونوا أبدا أعزاء كرماء لما كان يدافع عنهم.

سابعاً: البراءة من الأمير شكيب (التي قد تعني الهجران والمقاطعة لارتكاب جريرة) لم تكن في محلها، لأنه قد اتضح للعيان أنه لم يأت بشيء مما اتهمه به الباروني.

ثامناً: لم يقل أرسلان انه لا يتحمل عداوة الدول الاستعمارية، بصداقة مسلمي مستعمراتها أما الأخوة الإسلامية فإنه لم ينساها بل قال بها صراحة، لما تحدث عن الروابط الروحية و صلات القلوب...الخ.

تاسعاً: إذا كان الأمير لم يتزلف لفرنسا التي أبعدته من وطنه، و ظلت تطارده في كل مكان، فكيف له أن يتزلف لها، و هو في وطنه وسط أمته و تحت سيادة حكومته.

عاشراً: لا وجود لرائحة الإهانة فيما قاله الأمير، الذي يعتبر خبيراً ومجرباً سياسياً محنكاً يميز جيداً بين ما يمكن تحقيقه، وما لا يمكن تحقيقه إلا بعد مدة من الزمن[1].

---

[1] المرجع نفسه،ص ٣٩٥،٣٩٤،٣٩٣.

وبعد سرد هذه الملاحظات والتعليقات، التي دافع من خلالها ابن باديس عن ارسلان وأسقط عنه التهم التي وجهها له الباروني، ينبه ويؤكد على أنه فعل ذلك فقط تلبية لدعوة الباروني لعلماء الإسلام الغيورين على دينهم لإبداء رأيهم في المسألة. و أنه أيضا لو وجد شيئا فيما زعمه الباروني في حديث الأمير، لوقف معه الموقف الذي يقتضيه الحق و الشرف و الأخوة الإسلامية دون تردد أو تساهل[1].

لكنه في المقابل قال بصراحة [2]: " غير أن هناك ملاحظة لا بد من إبدائها و هي أن روح المقال – في نظرنا – روح هدم لماضي شكيب ارسلان برمته و تصويره بصورة الرجل المادي الذي ما كان يحركه إلا حب المال. و عزيز علينا – و الله – مثل هذا النكران من رجل عظيم لرجل عظيم، و محزن لنا – و الله – و مفتت لأكبادنا أن نسرع هذه السرعة في هدم عظمائنا سواء أكان الهادم الباروني لأخيه شكيب أو العكس أو غيرهما. و إننا لنعرف هذه الروح الهدامة فينا معشر الشرقيين و لكننا ما كنا نظنها تبلغ المستوى الذي رقيه الباروني و مثله ".

و بناء عليه، فقد انتصر ابن باديس لصالح الأمير شكيب، حيث دافع بقوة عن موقفه من الوحدة السياسية العربية، و انتقد صراحة الباروني مستغربا من جدوى ما ذهب إليه بشأن أرسلان، بل و شكك في كونه كان تحت تأثير المرض الذي لم يسميه و ذكر أنه كان يعالج منه.

---

(1) المرجع نفسه،ص ٣٩٥.
(2) المرجع نفسه،ص ٣٩٦.

النتائـج :

أولاً : بـالرغم مـن أن البـاروني و أرسـلان، ينتميـان إلـى ذات التيـار المناصـر للخلافـة العثمانيـة و المـدافع بشـدة عـن اسـتمرارها فـي طـور حياتها الأخيـر، الـذي اتسـم بـالجمود والانحطـاط و التقهقـر، إلا أن ذلـك لـم يمنـع من الخـلاف أو الخصـومة التـي حدثت بينهمـا . حيـث كـان من الطبيعي، أن يسود بينهما التقارب والتواصل، والاعتراف المتبادل بجميل كل طرف وليس النكران.

ثانياً : لسنا ندري هل كان تجاهل الأمير لدور الباروني الجهادي، كان سهوا أم لقلة المعلومات لديه، أم لأسباب أخرى قد تكون شخصية كالتي ذكرها الباروني، و التي لا نستطيع حاليا تأكيدها أو نفيها. و لكننا نستطيع القول بأن المسألة في حاجة إلى المزيد من المادة الخبرية، حتى يتمكن الباحث من فهم أبعادها المختلفة، لأن تلميح الباروني وصداقة أرسلان للسنوسي، عناصر لا ترقى لتكون قرائن للحكم لصالح هذا أو ذاك، خاصة إذا علمنا أنهما قطبان من أقطاب المجموعة العربية و الإسلامية، و قد يكون الزمان كفيلا بإزالة هذا الالتباس.

ثالثاً : نعتقد أن أرسلان ومهما كان السبب، قد أجحف فعلا في حق الباروني، رغم أنه كان رقما فاعلا في حركة الجهاد الليبي، ومن الصعب التسليم بأن أرسلان لم تبلغ إلى مسامعه بطولات هذا القائد الذي هدد الأحلام الايطالية في ليبيا، و كاد أن يقضي عليها في أكثر من مناسبة، لولا اختلال ميزان القوة لصالح الغزاة.

رابعاً : لا يبدو أن الباروني قد اقتنع أو غير موقفه من أرسلان، بعد أن استدرك هذا الأخير الأمر بالإشادة و الاعتراف بما قام به في مقاومة الاحتلال

الليبي. و لا يبدو أيضا أن أرسلان بالرغم من ذلك، قد غير من موقفه المتمثل في كون أن السنوسي هو القائد المقاوم الأول في ليبيا في تلك الأثناء.

خامساً : لم يشر ابن باديس في مقالته التي أشرنا إليها سالفا، إلى المسألة الأولى التي فجرت الخلاف بين الباروني وأرسلان، وهي تجاهل الثاني للدور الجهادي للأول. حيث اقتصر على توضيح موقفه من المسألة الثانية، وهي رفض الباروني لما جاء به ارسلان فيما يخص الوحدة السياسية العربية، التي استبعد منها سكان الشمال الأفريقي. و بطبيعة الحال يحق لنا التساؤل عن السر في ذلك، هل هو جهل ابن باديس بالمسألة الأولى؟ أم لكونه لم يكن يرى فيها ذات أهمية تذكر بالمقارنة مع المسألة الثانية؟ أم لأسباب أخرى؟.

سادساً : لم يمنع التقارب الجغرافي بين الباروني (ليبيا) و ابن باديس(الجزائر)، من أن ينتصر هذا الأخير لصالح شكيب أرسلان، بل أنه كان في غاية القسوة معه في بعض الأحيان، لما اعتبر موقف الباروني في منتهى البهت و التحامل، مشككا حتى في السلامة النفسية أو العقلية لصاحبه بفعل تأثير المرض الذي كان يتعافى منه.

سابعاً: يمكن القول أن الحجج، التي ساقها ابن باديس في دفاعه عن موقف أرسلان، منطقية وسليمة إلى حد كبير، لكننا في المقابل استشعرنا أنه بغض النظر عن ذلك، كان يكن للأمير أرسلان احتراماً كبيراً ومحبة خاصة، دون أن يعني ذلك أننا نحكم على موقفه بقلة أو عدم الموضوعية.

ثامناً : يحق لنا أن نتساءل كيف كان سيكون موقف ابن باديس، من مسألة تجاهل أرسلان لبطولات الباروني الجهادية من ناحية، وهل كان سينصف

الباروني، الذي نعتقد بالنظر إلى المعطيات المتوفرة لدينا، أنه قد يكون محقا كل الحق في رد فعله على ذلك التجاهل من ناحية ثانية.

تاسعاً: بالرغم من أن ابن باديس، قد اجتهد في تبرئة أرسلان من تهمتي موالاة الاستعمار والسعي إلى تحقيق مصلحة شخصية من وراء موقفه، وفي إظهاره بمظهر المفكر المتمتع بالحكمة والنضج الفكري والوعي السياسي. إلا أنه ينبغي الاعتراف بأن موقف الباروني كان سياسيا أيضا، يحتمل الخطأ أو الصواب مثله مثل موقف أرسلان، وعليه فإن باديس باعتقادنا لم يترك أي مجال لتفهم موقف الباروني الذي انطلق من رؤية مخالفة، وهي أن أرسلان قد تخلى عن عرب شمال أفريقيا بعدم إدراجهم في الوحدة السياسية التي حصرها في العرب الأسيويين دون سواهم. فلماذا لا نتفهم موقف الباروني، ونضعه في نفس الخط مع موقف أرسلان، فكلاهما اجتهدا في قضية سياسية تقبل أكثر من وجهة نظر؟.

عاشراً: إذا كان الباروني قد برر موقفه من أرسلان، بأنه سعي لقطع الطريق أمام غيره في المستقبل على القيام بمثل ما قام به. فإن ابن باديس قد حاول إن صح التعبير توجيه رسالة رادعة لكل من يسلك هذا المنهج، لأنه في تقديره يدخل في خانة احتقار العلماء وعدم تقدير منزلتهم و التنقيص من أعمالهم ودورهم في المجتمع و الأمة، و هو ما لا يجيزه الدين الإسلامي الذي بني على العلم و جعل العلماء ورثة للأنبياء.

حادي عشر: في واقع الأمر ليس سليمان باشا الباروني، هو الوحيد الذي لم يستسغ بعض مواقف أرسلان في بعض القضايا، فهنالك عدد لا بأس به في

ذلك العصر من أهل الرأي والفكر، الذين لم يتفهموا مسلك الرجل في قضايا بعينها، فقد كان مثار جدل طوال حياته وحتى بعد وفاته.

ثاني عشر: دعوة الباحثين، إلى المزيد من تسليط الضوء على مثل هذه المواضيع، لأنها من جهة تؤرخ للحوارات و النقاشات التي كانت تدور بين الأعلام العرب والمسلمين في الماضي من جهة، ولكونها تؤسس لما ينبغي أن يكون عليه مستوى وأبعاد تلك الحركية الفكرية من جهة أخرى.

البـــاروني مفكراً ومصلحاً

د. سعيد بن سليمان بن خلفان الوائلي(*)

مقدمة

تتكوّن الشخصية الاعتبارية لدى أي فرد من الأفراد من عدة جوانب، وإن من أهمّ جوانبها ما تحمله من فكر وما تقوم به من دور، أما فكرها فإن له وحده مجالات لتحديد مكانته وتقدير ذاته وإعطاء وزنه وأهميته.

وأما الدور الإصلاحي فاعتماده على ما يبذله المصلح من تغيير ويقدمه من دعم لتقويم الطريق وتعديل الوضع وتحويل المعطيات للأفضل والأحسن.

ثـمّ إن شخصـية قياديـة كشخصـية سـليمان باشـا البـاروني(ولـد ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م- توفي٢٣ ربيع الأول ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م) وهو يعدّ فذّا من أفذاذ العلماء في العالم الإسلامي، وزعيما من زعماء النهضة العربية الإسلاَمِيَّة الحديثة، شخصية كهذه لا بد لها من أن تتمتع بهذه الصفة المميزة في الفكر والإصلاح، وذلك حسب ما يرى من مكونات شخصيته والمقومات التي ساعدت في بناء ذاته.

وإن مما يعرفنا بفكره ودوره الإصلاحي: النظرة إلى مفردات بنائه الفكري، ثلكم البناء الذي أسهم بدوره في الإنتاج الإصلاحي، ومن أبرز تلك المفردات:

(*) د. سعيد بن سليمان بن خلفان الوائلي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، عُمان.

- نشأته في عائلة عرف تاريخها منذ القرن الرابع الهجري في مدينة طرابلس بمسيرتها الجهادية والعلمية.

- أخذه وتلقيه مبادئ العلم في ظل والده الشيخ عبد الله بن يحيى الباروني، العالم الأزهري (ت: ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م).

- سفره ورحلاته إلى جامع الزيتونة بتونس حيث تتلمذ على شيوخ أجلاء، من أبرزهم عثمان المكي، ومحمد النخلي، وإلى القاهرة، حيث درس بالجامع الأزهر مدة ثلاث سنوات. وإلى وادي ميزاب جنوب الجزائر، حيث جلس إلى قطب الأئمة الشيخ أطفيش الذي وجد عنده الرعاية والعناية، وكان الشيخ أطفيش مرجع الإباضية في العلم الشرعي واللغوي، وقد توطدت علاقته برجال العلم، وأعيان الفضل بميزاب.

- تأثره بشيخه قطب الأئمة اطفيش، الذي كان الباروني محبا له، عاملا بتوجيهاته العلمية والسياسية، وقد قال عند يوم بلغه خبر وفاته سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م أنه لم يهتز للمحن التي مر بها قط، و لم تدمع عيناه إلا لوفاة شيخه، ووالده.

- مواجهته للمحن الشديدة والابتلاءات العسيرة منذ مطلع شبابه.

- تقلبه في ميادين الجهاد ضد المستعمرين.

أولاً : الباروني مفكراً

لئن كان التراث الفكري معبراً عمّا يحمله صاحبه من فكر وإدراك؛ فإن مما هو معروف عن الباروني أنه أديب مفكر وصاحب قلم سيال.. بل وملكة فكرية تمكنه من تناول الموضوعات حسب معطياتها، تؤكد ذلك كتاباته ومؤلفاته

ومواقفه واهتماماته، وكل ذلك مسجلّ له وموثق، وسيظل مؤكدا لتلك الحقيقة على مرّ الأوقات وتعاقب الدهور.

ويمكننا القول بأن الباروني كان يحمل شهادات تؤهله لحمل راية الفكر، وهي المصدر المهم في نتاجه الفكري، كما تشهد له بالتقدم العلمي، وأهمها:

- جامع الزيتونة بتونس
- الأزهر الشريف
- معهد قطب الأئمة الشيخ اطفيش ليتخصَّص في العلوم الشَّرعِيَّة.
- من اللغات التي كان يتقنها كتابة وخطابة: العربية، والتركية، والأمازيغية.

هذا بالإضافة إلى المعارف التي أكسبته إياها تجارب الحياة في مختلف ميادينها، كل ذلك أسهم في تكوين رؤاه وأفكاره وتصوراته، فأنتجت ما يمكن أن يراه الباحث والمطالع في التراث الفكري الذي خلفه الشيخ الباروني.

من أجل ذلك سأضع في هذا المحور ثلاثة عناصر تعرفنا بشخصية الباروني في الجانب الفكري، لا لكي ندرك أنه مفكر.. بل لتضع في أذهننا صورة تقريبية عن فكره وما يحمله من تلك المبادئ والتصورات، التي تظهر في: كتابات الباروني وحواراته واهتماماته.

أ- كتابات الباروني:

إن من أهم التراث الفكري الذي خلفه سليمان باشا الباروني للمكتبة الإسلامية والثقافية، المؤلفات التالية[1]:

- تعليقات على كتاب سلَّم العامَّة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين، وسلَّم العامَّة والمبتدئين من تأليف والده الشيخ عبدالله بن يحيى الباروني(ت: ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م) وهي عبارة عن رسالة في تاريخ أئمة الدين من مذهب الإباضية، قام الشيخ سليمان باشا بتحقيقها والتعليق عليها وإخراجها.

- مؤلَّف في تاريخ أسرته، عنوانه: مختصر تاريخ العائلة البارونية، (مخ) .. ألف هذه السيرة الموجزة بناء على طلب الحاكم الإيطالي في طرابلس وبعثها إليه، وهي تتناول سيرة مختصرة عن أعلام أسرته ممن اشتهروا بالعلم والسياسة والإصلاح، وكان تأليفه لها في إحدى قرى جبل نفوسة.

- كتاب الأزهار الرياضية، في أئمة وملوك الإباضية جزءان وقيل ثلاثة أجزاء، لم يبق إلا الجزء الثاني الذي طُبع، وهو كتاب في تاريخ الدولة الرستمية بديع في زمانه.. قال عنه جبران محمد مسعود: " والكتاب في عمومه يؤكد على الحسّ التاريخي عند المؤلف، وغلبة هذا الحسّ على تفكيره في النثر التأليفي، وعلى عنايته بإظهار مفاخر السلف والخلف "[2].

(١) ينظر في ذلك: محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الإباضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٢/ ص٢٠٦-٢٠٨. وجبران محمد مسعود، سليمان الباروني: آثاره، الدار العربية، ليبيا، ١٩٩١، ص٣٠ وما بعدها. وسعيد بن محمد الهاشمي، غاية السلوان في زيارة الباشا الباروني لعُمان، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، مسقط، ص٢٠-٢٢.

(٢) جبران، سليمان الباروني: آثاره، ص٣٤٧.

- وقد كان يحضِّر المادَّة العلميَّة لكتاب عنوانه: تاريخ الحرب في طرابلس الغرب، غير أنَّه لم يتمَّه، وقد كان يشير إلى فكرة هذا الكتاب في بعض رسائله، وكان مما تركه وثائق رسمية في صناديق، قال عنها أبو اليقظان: "ووثائقه التاريخية الرسمية الحربية ملء نحو (٤) صناديق مادة خام"[1].

- له ديوان شعر، ظهرت طبعته الأولى عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، حيث طبعه بنفسه أثناء إقامته بمصر بواسطة مطبعته البارونية، وتضمن هذا الديوان (١٢٨) قصيدة، وألحق به مجموعة من التقريظات لأدباء عصره من الليبيين والمصريين، ثم أعيدت طباعته سنة ١٩٢٧م بعناية ابنته السيدة زعيمة، وأضافت إليه مجموعة من قصائده التي قالها أو نظمها بعد طباعته الأولى.[2]

- المقالات الصحفية: كان الباروني شغوفا بالكتابة في الصحف، فقد أنشأ جريدة الأسد الإسلامي عام ١٩٠٦م، وكتب فيها مجموعة من المقالات الفكرية، وشخّص فيها تطلعاته وأفكاره، واستنهض فيها الصحوة العربية... يقول مؤلف كتاب صحافة ليبيا في نصف قرن في وصفها: "وجريدته ذات أربع صفحات فساح عراض. كل صفحة ملؤها خمسة أنهر من الكلام المتدفق الرقراق، فهو كاتب مسترسل، يندفع معبرا عن عقيدته، ومن وراء العقيدة قلم، أو قل من وراء القلم عقيدة وفكرة، وحرر جريدته بأسلوب سهل بعيد عن التكلف، ونبرات السجع وأشواكه، سطر مقالاتها ببيان واضح، ولم يلجأ إلى الزخرفة والهلهلة "[3]. وقد كان من أهمّ عناوين مقالاته (الجامعة الإسلامية وأوروبا والمذاهب الإسلامية) التي كان صداها كبيرا جدا[4].

(١) أبو اليقظان، الحاج إبراهيم، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، الدار العُمانية، مسقط، د.ت، ج١/ ص٤٩.
(٢) الهاشمي، غاية السلوان، ص٢٢.
(٣) جبران، سليمان الباروني: آثاره، ص٢٨٦-٢٨٧.
(٤) الهاشمي، غاية السلوان، ص٢٣.

كما أنه كتب عدد ليس باليسير من المقالات والردود ونشرها في عدد من المجلات والجرائد، وكان منها[1]:

١- جريدة العالم العربي	٢- جريدة الرابطة العربية	٣- جريدة الدفاع
٤- جريدة الوقت	٥- جريدة اللواء	٦- جريدة الجهاد
٧- جريدة الشباب	٨- جريدة الملقم	٩- جريدة النور
١٠- جريدة الحياة الجزائرية	١١- جريدة وادي ميزاب	١٢- جريدة النيل
١٣- جريدة الأهالي	١٤- مجلة المنهاج	١٥- جريدة الأمة
١٦- جريدة البلاغ المصرية	١٧- جريدة النهضة	١٨- جريدة الزمان
١٩- جريدة ألف باء البغدادية	٢٠- جريدة الصواب التي تصدر بتونس	

ويمكننا أن نتعرف على شخصية الباروني من خلال بعض النماذج من مؤلفاته في النظم والنثر، فكما تتجسد شاعريته وإنسانيته وما تعبر به قريحته عن العواطف الجياشة داخله، في نظمه الشعري، فكذلك تبرز قدرته على التأليف والكتابة فيما تراه العين من خطه النثري.

أما النظم: فمن أبيات مختارة من رائية له يرثي فيها أخاه الشقيق الشيخ يحيى وقد بلغه نعيه عندما كان مقيما بولاية سمائل[2] من عُمان، فنظم هذه القصيدة في ليلتي ٢٨ و ٢٩ من جمادى الأولى ١٣٤٦هـ، وأرسلها إلى أبي إسحاق اطفيش، قال فيها:

يحيى أخي أين أنت اليوم مستتر ... يا خير عون إذا ما أحدق الخطر

(١) ن.م، ص٢٤

(٢) سمائل: إحدى ولايات سلطنة عُمان، في الداخلية، تبعد عن محافظة مسقط بحوالي ٨٥كم تقريبا، تبلغ مساحتها حوالي ٣٥٠٠كم٢، وتتألف من ٧٣ قرية. البلوشي، د.علي بن سعيد، جغرافية ولاية سمائل، حصاد الندوة، المنتدى الأدبي، مسقط، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص١٣-١٥.

يا مخزن السر يا رب الوفا ويا ... فخر الرجال ويا من وجهه قمر
نعاك لي اليوم كل الكاتبين ولم ... أجد سوى الصبر فيما شاءه القدر[1]

والقصيدة طويلة تقع في (٨٢) بيتا من الشعر. ومن شعره في الخلافة الإسلامية، أن قال:

الله أكبر حارت الأفكار ... في حكمه سبحانه المختار[2]

ومن نظمه ما قاله في زيارته لتيهرت[3] لما وقف عند أطلالها:

قفا نبك أطلالا تقلص ظلها ... وننـدب آثار الذين بقوا ذكرا
بني رستم من قام بالعدل ملكهم ... فأمست بهم تيهرت كالروضة الزهرا
تحف بها الأنهار والزهر باسم ... بروض بساتين هي الجنة الخضرا
أقاموا منار الدين دهرا وشيدوا ... معالمه واستسهلوا البر والبحرا[4]

وأما من النثر الذي يتبين لنا من خلاله جانب من قدرته الكتابية وملكته البيانية، والتي قد يتبين من بعضها وصف لمنهجه التأليفي: ما قاله الباروني: "كنت ارتحلت من مصر، بعد أن جاورت في الأزهر العامر نحو ثلاث سنين، إلى المغرب الأوسط سنة ١٣١٣هـ، فقصدت جبال بني مصعب من أعمال الجزائر لطلب العلم، من عالم الإسلام إمام الأئمة الأعلام أستاذي الشيخ محمد بن يوسف الميزابي، صاحب الصيت البعيد والذكر الحميد، الذي عرفت الدول

(١) الباروني، الأزهار الرياضية، ص٢٣-٢٤.
(٢) الباروني، الأزهار الرياضية، ص٢٣-٢٤.
(٣) تيهرت أو تاهرت: هي مدينة جليلة وكانت قديما تسمى عراق المغرب، قال أبو عبيد مدينة تاهرت مدينة مسورة لها أربعة أبواب باب الصفا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن وهي في سفح جبل يقال له جزول، وقد بناها عبدالرحمن بن رستم الفارسي بعد وفاة الإمام أبي الخطاب المعافري. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، ج٢/ ص٨.
(٤) الباروني، الأزهار الرياضية، ص٣٥٩.

حق قدره فرصعت صدره بالنياشين المعتبرة بدون أن يسألها، أو يتصدى لها، وناهيك من رجل حاز ذلك على بعد مكانه، وقلة الوسيلة من أمير المؤمنين... فأقمت عنده ملازما مجلسه الفاخر، ثلاث سنين أيضا، أظهر -رضي الله عنه- في أثنائها من الاعتناء بشأني والاجتهاد في إرشادي، ما لا أقدر قيمته ببيان"[1].

ومن عباراته النثرية في قصة زيارته لتيهرت:

" فنزلناها، وذا هي لم يبق منها إلا آثار ورسوم وأنقاض متراكمة يجمعها الفلاحون ليحرثوا أماكنها، وبقي من سورها شيء قليل في ناحية يدل على منعته وقوته...(إلى أن قال:) إلى أن لاحت لي قطعة السور الباقية منه، فانتقلت إليها فإذا بها زاوية من زواياه محكمة البناء، متينة الأساس كأنها بقية برج، فاسترحت في ظلها بجنب عود من تين، أو خروع عتيق، فيما أظن برهة من الزمن، أجول بفكري في أخبارها وتاريخها، وببصري في آثارها حتى أدركتني رقة لانت لها الطبيعة الجامدة والقريحة الكاسدة، فجادت بما لم يكن من عادتها قبل ذلك أن تجود به "[2].

" ثم تحولت إلى أصحابي، وعدنا إلى الجزائر، ومنها وليت وجهي نحو وطني العزيز، جبل نفوسة الشامخ العامر، فكانت لهذه الزيارة بعد ذلك رنة أطبقت آفاق تلك الجهات وبنى عليها وعلى ما عطف عليها من الوسائل حدث أضحك وأبكى، وأمات وأحيى، وأهان وأكرم، وأذل وأعز، وأبعد وقرب، وأسخط وأرضى، وكان وكان وكان، مما لو سطر لملأ بطون الدفاتر وضاقت دونه

(١) الباروني، الأزهار الرياضية، ص٣٥٦.
(٢) الباروني، الأزهار الرياضية، ص٣٥٧-٣٥٩.

صفحات الطروس، وما هو وأيّم الله إلا أوهام في أوهام وأفكار كأضغاث أحلام، وحيل ومراصد يتوصل بها إلى خبيث "[1].

ب- حواراته وخطاباته:

لا يبهرنا عندما نرى أن الشخصية القيادية تتمتع بملكة الخطابة وفن الإلقاء والحوار، وشخصية سليمان باشا كانت كذلك، فقد عرف عنه أنه كان خطيبا مفوها.. حفظت لنا ابنته السيدة زعيمة مجموعة من خطبه في كتابها صفحات خالدة من تاريخ الجهاد الليبي، من تلك الخطب خطبة بمناسبة الذكرى السادسة والعشرين لتولي عبد الحميد مقاليد الحكم كتبها عام ١٣١٩هـ/١٩٠١م.

ومما يدل على قدرته الحوارية وملكته الخطابية ما يحكى عنه أنه ألقى خطبة لمدة ساعتين يشرح فيها وجهة نظره مستدلا بالأحكام الشرعية على مبادئ الإصلاح والسعي إليه، ومبينا مضار حالة الأوضاع السيئة التي يكون عليها الحال، وكانت تلك الخطبة على مسمع من المؤيدين والمعارضين، وبين يدي إمام عُمان الإمام محمد بن عبدالله الخليلي، في فترة تكليفه بإصلاح أجهزة الإمامة.. وفي عُمان أيضا وتحديدا بولاية نزوى ألقى ذات مرة خطابا باهرا وقصيدة رائعة، بالجامع الكبير بعد صلاة جمعة، وقد كان حاضرا عدد من رجال العلم والحرب والسياسة ورؤساء القبائل، كان ذلك في أوائل شهر ربيع الأول ١٣٤٤هـ/ سبتمبر ١٩٢٥م.

وكانت له حوارات مع أمير البيان شكيب أرسلان وصفها بعض الكتّاب بأنها ساخنة، وكانت تدور حول قضايا العالم الإسلامي ومستجدات عصره، وقد

(١) الباروني، الأزهار الرياضية، ص٣٦١.

تم نشر طائفة منها في الصحف العَرَبِيَّة آنذاك[1]، ووصفُها بأنها ساخنة له دلالته من حيث الأهمية والموضوعية وطبيعة الحوار وآليات المناقشة.

ومن حواراته أن ظلت المداولات بينه وبين الإمام محمد الخليلي طيلة شهر المحرم عام ١٣٤٥هـ، من أجل إقناعه بقبول تكليفه برئاسة الوزارة في حكومة الإمام.. حتى تمّ قبوله بالمنصب بعد أخذ وردّ وتبادل لمحاور الكلام ونقاش.

ومن ذلك: رسائله الكتابية وخطاباته التي كان يناقش فيها الآراء ويعالج فيها المسائل المهمة في الحياة، سواء أكانت مع أصدقائه أم بصفة رسمية يخاطب فيها أحد القادة أو السلاطين أو المجاهدين، أم فيها توضيح وردود مع بعض الأطراف المخالفين له في الرأي أو المسيئين إليه في الفهم والحكم... يمكن أن ينظر إلى جانب كبير من تلك الرسائل في كتاب أبي اليقظان "سليمان الباروني في أطوار حياته"، أو غيره ممن حفظ تلك الرسائل الثمينة.

ج- اهتماماته:

بالرجوع إلى خلفيات الشيخ الباروني و مرجعيته الدينية، وصلاته الروحية، يجعلنا نجزم باهتمامه بالقضايا الإسلامية، وأنها شكلت لديه أولوية بالغة في قائمة مهامه التي يعتني بها، وكان من أبرز تلك القضايا التي أشغلته، واحتلت جانبا كبيرا من فكره، بل وكان له دور حيوي وإسهام واضح في السعي لحلها ولفت أنظار العالم وأقطابه إليها: القضية الفلسطينية وقضية الوحدة الإسلامية.

[1] محمد بن موسى بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الإباضية، ج٢/ ص٢٠٦-٢٠٨.

* القضية الفلسطينية:

دعا إلى ضرورة الالتفات إلى هذه القضية حيث إنه وبمناسبة انعقاد المؤتمر الإسلامي في القدس طالب بضرورة اتخاذ عدة تدابير لإنقاذ فلسطين من المؤامرة التي تحاك حولها، ومن تلك التدابير[1]:

- انتخاب هيأة لمطالبة عصبة الأمم بإلغاء وعد بلفور القاضي بجعل فلسطين العربية وطنا لليهود.

- انتخاب هيأة تطوف الأقطار الإسلامية لمطالبة ملوكها وأمراءها ولإغرائهم على شراء ما يباع من أراضي فلسطين وجعلها وقفا مؤبدا لا يبدل على مساجد ومدارس ممالكهم، بشرط أن تبقى في يد أصحابها من عرب فلسطين بأجرة خفيفة تنفع ولا يستصعبها العاملون فيها.

ويظهر من هذه الإجراءات التي طالب باتخاذها، مدى حرصه الشديد على ضرورة الحفاظ على الهوية الإسلامية لفلسطين، والإسراع إلى إفشال كل المخططات التي يقوم بها المستعمر البريطاني لتهويد فلسطين، وقد ركز في هذا السياق على ضرورة العمل على إلغاء وعد بلفور الذي يقضي بإعطاء أرض لليهود في فلسطين. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كانت له مشاركات دولية حول هذه القضية، منها أنه تقدم برسالة إلى عصبة الأمم بمناسبة انعقاد مؤتمر نزع السلاح، وكانت هذه الرسالة الرابعة إلى المؤتمر، وقد أرسلها تحت عنوان: حول خروج ألمانيا من عصبة الأمم، وضمنها لفت نظر القائمين إلى حل مشكلة فلسطين، وقد نشرت الجامعة العربية نصّ الرسالة في تاريخ ١٣ شوال ١٣٥٢هـ/ كانون الثاني ١٩٣٤م، تحت عنوان: الزعيم سليمان باشا الباروني ينتصر لقضية

[1] المعولي، الباروني وآراؤه، م.س، ص١١٨.

فلسطين، وكان مما جاء فيها: "ولمناسبة ما يجري من الفضائع المؤلمة في فلسطين العربية المظلومة المنكوبة بالصهيونية، تلك الفاجعة التي هزت العالم الإسلامي أجمعه، والعالم العربي على الأخصّ، أرجو باسم السلم العامّ من مجلسكم الموقر إعادة النظر في رسائلي المتقدمة إليكم..."[1].

هذا جزء مما يتعلق بالقضية الفلسطينية واهتمامه بها.

*** الوحدة الإسلامية:**

أما الوحدة الإسلامية فقد كان للباروني في هذه القضية تأثر بالغ وأهمية قصوى حتى أعلن في حقه الوصف بأنه كان شغوفا بالوحدة الإسلامية[2].

لقد كان للباروني رؤية خاصة في هذه الوحدة، واختار لها مصطلحا جذابا هو (الجامعة الإسلامية)، وكان يهدف إلى توحيد المذاهب الإسلامية من خلالها، لتجتمع كلمتهم ويتوحد صفهم أمام عدوهم، وقد كرّس الباروني كثيرا من مقالاته وقدراته الفكرية على تحقيق هذا المبدأ، فمن ذلك[3]:

- أسس جريدة الأسد الإسلامي، والتي كان من أهمّ أهدافها الدعوة إلى هذا المبدأ.

- شارك في كثير من المؤتمرات، ودعم بعض الحركات السياسية التي كانت تدعو إلى مثل هذه الفكرة، ومن ذلك: مشاركته في المؤتمر الإسلامي العام الذي عقد بالقدس في عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، ولاحظ بعض الملاحظات على

(١) المعولي، الباروني وآراؤه، م.س، ص١١٩.
(٢) بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الإباضية ، ج٢/ ص٢٠٨.
(٣) المعولي، الباروني وآراؤه ، ص١٢١.

مقرراته، فحررها كمواد إضافية مقرونة بشرح أسبابها.. وقد تقدم بمقترحات أخرى تدل على حرصه الشديد على الوحدة الإسلامية.

- ومن دعمه للحركات السياسية الداعية لذلك: إعجابه الشديد بالسلطان العثماني عبدالحميد الثاني، والذي كان من أبرز الدعاة إلى الجامعة الإسلامية، حيث وقف في وجه الاستعمار الغربي في محاولته الجادة لزرع بذور الشقاق في الأمة الإسلامية، من أجل ذلك كان يعتبر من أهم أنصار الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

- كتب الباروني الكثير من المقالات والرسائل إلى علماء الأمة الإسلامية يسألهم فيها عن أهم الطرق وأنجح السبل المؤدية إلى تحقيق غايته المنشودة من الوحدة، ومن ضمنها الرسالة التي وجهها إلى الإمام السالمي وإلى أستاذه قطب الأئمة، كانت صيغته كما يلي:

أولا قدم الخطاب بالنصّ الآتي: "المرجو من حضرتكم أيها الأستاذ الذي سنعتمد على أقواله وأقوال أمثاله ممن تمسك بالمذهب المحترم إمعان النظر في المقالة المحررة تحت عنوان (الجامعة الإسلامية في جريدة الأسد الإسلامي) الآتية إليكم مع هذا، ثم بعد إطلاق الفكر بحثا وراء عين الحقيقة نطلب إبداء ما اقتضاه نظركم السامي من الجواب عن الأسئلة الآتية..."

" هل توافقون على أن من أقوى أسباب اختلاف المسلمين تعدد المذاهب وتباينها؟ على فرض عدم الموافقة على ذلك، فما هو الأمر الآخر الموجب للتفرق؟ على فرض الموافقة، فهل يمكن توحيدها بالجمع بين أقوالها المتباينة وإلغاء التعدد في هذا الزمن الذي نحن فيه أحوج إلى الاتحاد من كل شيء ؟ وعلى فرض عدم إمكان التوحيد فما الأمر القوي المانع منه في نظركم ؟ وهل

لإزالته من وجه؟ على فرض إمكان التوحيد فأي طريق يسهل الحصول على النتيجة المطلوبة، وأي بلد يليق فيه إبراز هذا الأمر وفي كم سنة ينتج وكم يلزم له من المال تقريبا وكيف يكون ترتيب العمل فيه؟ وعلى كل حال فما الحكم في الساعي في هذا الأمر شرعا وسياسة مصلح أم مفسد ؟ "[1].

وقد كانت إجابة الإمام السالمي ورده عليه بقوله:

" قد نظرنا في الجامعة الإسلامية فإذا فيها كشف الغطا عن حقيقة الواقع، فلله ذلك الفكر المبدئ لتلك الحقائق. نعم نوافق أن منشأ التشتيت اختلاف المذاهب وتشعب الآراء وهو السبب الأعظم في افتراق الأمة على حسب ما اقتضاه نظركم الواسع في بيان الجامعة الإسلامية "[2].

هذا كان جانبا من اهتماماته بالإضافة إلى اهتمامه بالجهاد ومواجهة الاستعمار في مواقفه كلها، واهتمامه بالدور الإصلاحي الذي يقوم به، في مختلف أماكن وجوده، من أجل خدمة الدين والمصلحة الاجتماعية.

(١) السالمي، الإمام نور الدين، العقد الثمين، مكتبة الضامري، السيب، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج١/ ص١٢٦.
(٢) ن.م، نفس الجزء والصفحة.

ثانيا: الباروني مصلحاً:

كما قلنا في الجانب الفكري، نقول في الجانب الإصلاحي، حيث كانت المرجعية الدينية والغذاء الإيماني الذي تشربه الباروني في تنشئته من أهم عوامل دوره الإصلاحي، سواء أكان في ميادين علمية أو في مجالات اجتماعية.

وقبل أن نتناول عناصر هذا المحاور، لنا أن نقف وقفة تأمل في بعض الأمور التي تدلل على دوره الإصلاحي وعلى إبراز ما قام به من إسهام في الإصلاح بصورة عامّة، فإنّ مما يشهد له بذلك، ما تقلده من أوسمة، وما تولاه من وظائف وأنصبة.

- الأوسمة والتقديرات التي نالها[1]:

١. نيشان البحرية الذهبي العثماني.
٢. الرصيعة العثمانية.
٣. نيشان الجندية العثماني.
٤. نيشان الصليب النمساوي الأعلى.
٥. نيشان الصليب الألماني الأعلى.
٦. النيشان الهاشمي.
٧. النيشان السعيدي.
٨. النيشان العُماني.

(١) بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الإباضية، ج٢/ ص٢٠٨. و المعولي، الباروني وآراؤه، ص٥٢-.

- الوظائف التي تقلدها أو تولاها تطوعا[1]:

١. نائباً عن جبل نفوسه بليبيا في أول مجلس نيابي عثماني.
٢. رئيساً للحكومة الوطنية في طرابلس سنة ١٩١٢م تطوعا.
٣. عضواً في مجلس الشيوخ العثماني سنة ١٩١٢م.
٤. مندوباً للجهاد من جهة برقة إلى طرابلس سنة ١٩١٥م.
٥. والي وكومندان ولاية طرابلس الغرب سنة ١٩١٦م.
٦. عضوا في الجمهورية الطرابلسية سنة ١٩١٨م.
٧. رئيسا لأول وزارة عصرية في حكومة الإمام الخليلي.
٨. مستشارا لسلطان مسقط عُمان سنة ١٩٣٨م.

وسوف نقف لرؤية الجانب الإصلاحي في شخصية الباروني عند العناصر التالية:

- الإصلاح العلمي - الإصلاح الاجتماعي - الإصلاح السياسي

أ- الإصلاح العلمي:

أسهم الباروني في إثراء الحركة العلمية إسهاما بارزا، وذلك نظرا لما قام به من مشاركات في المجالات العلمية التي وجد فيها، بالإضافة إلى استفادته من الظروف المهيأة له حسب ما مر من دور ووظائف ومناصب حل بها، وقد قام بتأسيس منشآت علمية في سبيل الإصلاح المنشود في هذا المجال، من ذلك:

(١) بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الإباضية، ج٢/ ص٢٠٨. و المعولي، الباروني وآراؤه، ص٥٢-.

١- المدارس البارونية:

واهتمامه بتأسيس صروح علمية نابع من إدراكه لقيمة المدرسة وما تحمله من دور إصلاحي في مجالي العلم والعمل، فكيف إذا صاحبها توفر دور الكتاب (المكتبة) كرافد لأساس العلم والمعرفة، تلك المصاحبة سوف يكون لها أبلغ الأثر في تكوين الجيل الصالح، وقد أنشأ:

- المدرسة البارونية ومكتبتها في يفرن: شيد سليمان باشا مدرسة على أنقاض مدرسة قديمة جدد بناءها حوالي ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م، وقد أوقفت لها أوقافا كثيرة بتونس والقاهرة، وكانت هذه المدرسة تحت إشراف والده الشيخ عبدالله الباروني، الذي كان يدرس بها القرآن والحديث وأصول الفقه وعلوم البلاغة والصرف والمنطق واللغة، وقد التحق بها عدد كبير من الطلبة، كما أنشأ بجانبها مكتبة تابعة لها أخذت نفس التسمية فسميت المكتبة البارونية، وزودها بأمهات الكتب في التاريخ ومختلف العلوم[1].

- المدرسة البارونية بسمائل من عُمان، حيث كان يسعى إلى أن تدرس المناهج الحديثة ويجلب المعلمون من الخارج، ليكون التدريس وفق الأسلوب والأدوات المناسبة مع العصر ومتطلباته[2].

٢- المطبعة البارونية:

تعدّ من الأعمال الإصلاحية التي رجا بإنشائها أن تكون خادمة للعلم والدين ناشرة للمعرفة والأدب، مساهمة بكل ما فيه نفع وإرشاد للأمة والمجتمع، وقد أنشأها بالقاهرة في سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م، وأسماها (مطبعة الأزهار

(١) المعولي، الباروني وآراؤه، ص١٥٠.
(٢) الهاشمي، غاية السلوان، ص٥٩-٦٠.

البارونيـة) وافتـتح العمـل فيهـا بكتـاب الأزهـار الرياضـية فـي أئمـة وملـوك الإباضية[1].

واستطاع في مدة وجيزة نشر نفائس عدة من الكتب في الحديث والعقيدة والتاريخ والأدب، لاسيما فيما يتعلق بتراث المذهب الإباضي، ولا يغيب عن أذهاننا أن إنشاء مطبعة في ذلكم الوقت ليس من السهل ولا هو بالأمر البسيط، فإن وراءه ما وراءه، وله ما له من أبعاد.

٣- الصحافة البارونية:

مرّ علينا أن الباروني كان شغوفا بالصحافة والكتابة فيها، وقد ساهم في إيجاد صحيفتين إلى حيز الوجود، هما[2]:

- صحيفة الأسد الإسلامي: والتي كان يتم طباعتها بالمطبعة البارونية، وتعنى بالقضايا الإسلامية، وفكرة الجامعة الإسلامية، وقد كانت جريدة أسبوعية مع أن الباروني كان يود أن يصدرها يومية، إلا أن الظروف لم تسعفه على تحقيق ذلك، ثم رغم نجاحها من حيث الإقبال عليها وتشجيع معارفه وأصدقائه له عليها من سائر البلدان الإسلامية، إلا أنها عطلت ولم يصدر منها إلا ثلاثة أعداد فقط.

- جريدة الباروني: وهي جريدة أنشأها في دار الخلافة باسطنبول.

وكما مر آنفا أنه كان يكتب في عدد ليس باليسير من الصحف والجرائد والمجلات، ونشرت له عدة مقالات وردود، ولا أظنه اتخذ تلك الصحف إلا منبر

(١) المعولي، الباروني وآراؤه، ص١٥١.
(٢) المعولي، الباروني وآراؤه، ص١٥٤.

إصلاح وأداة نشر للخير والصلاح.. وهنا لا نغفل عن صديقه الشيخ أبي اليقظان إبراهيم رائد الصحافة الجزائرية، حيث كانت له مشاركة بمقالات في جرائده، ولئن كان أبو اليقظان قد حدد نقاط بحث لجرائده وأوضح مجال صحافته وأهدافها حيث يقول عن جريدته (وادي ميزاب): "هي مجال لأقلام كافة الأحرار الباحثين، ومرآة تنعكس فيها على البلاد أشعة الأفكار اللامعة، وأنوار العقول الراجحة، ومدار بحثها في النقط الآتية:

أولا: تأييد الحق والحرية والعدالة والمساواة، بأتمّ معنى الكلمة، بين كافّة الأجناس المتساكنة.

ثانيا: السعي في بث روح الاتحاد والتضامن بين سائر المسلمين على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم، بتأييد الصلات المتعددة بينهم، ومعاضدة الصحافة الأهلية الحرة في كل ما تراه من طرق الإصلاح وبذل الجهد في إزالة الشحناء والبغضاء وسوء التفاهم بينهم بتتبع أصول الداء، وتحكيم الدليل والبرهان والعقل بكل نزاهة وإنصاف.

ثالثا: أن تحسن الوساطة بين الأمة والحكومة بإزالة سوء التفاهم بينهما، وتشخيص دواء الأمة وآلامها"[1]. إلى غير ذلك من أهداف ورؤى إصلاحية قد صاغها من وراء إنشائه لتلك الصحافة، فلا أظن أن تكون هذه المعاني الإصلاحية تغيب عن ذهن صاحبه وزميله في المنهل العلمي الذي استقاه منه.

(١) أحمد فرصوص، الشيخ أبو اليقظان إبراهيم كما عرفته، مكتبة الضامري، السيب، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص١١٨

ب- الإصلاح الاجتماعي:

قبل كل شيء لا بد أن ندرك أن الباروني متصف بقوة احتماله للمكاره وصبره على الشدائد، وعلى الرغم من الضغوط المادية التي توالت عليه، إلا أنه كان متصفا أيضا بالقناعة بما عنده والنزاهة عن التطلع إلى ما عند غيره وعدم النظر إلى المكاسب المادية بدون استحقاقها، ومن القصص التي تؤكد هذا المعنى:

" أنه لما ضاقت عليه الأرض بما رحبت وارتحل بمن معه من الأبطال الصابرين في الجهاد إلى تونس، وجد أن الأمير عمر طوسون باشا قد أرسل إليه بستة آلاف جنيه كإعانة للمجاهدين، فلما وصلته ردها، وقال في خطابه للأمير طوسون: لقد كنت أريد المال للمجاهدين، والآن لا جهاد فلا حاجة لي به.. لذا لا غرو ولا عجب أن تحظى شخصية الباروني بالإعجاب من قبل الساسة والمفكرين ممن عرفوه واحتكوا به "[1].

[في فترة ١٩٠٠-١٩٠٤م] تفرغ الباروني في عمل إصلاحات اجتماعية، فجدد المسجد الكائن بمسقط رأسه جادو[2]، وبعد إنشاء المدرسة البارونية ومكتبتها تهيأت له الفرص للتدريس والإقراء والوعظ والإرشاد والتأليف[3].

وفي مصر كرس جهده لخدمة وطنه وأمته، وتأثر بحركة الإصلاح الديني هناك، وقابل عددا كبيرا من زعماء الإصلاح في مصر، وخلال كتاباته وأدبياته

(١) سليمان باشا الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، دار الحكمة، لندن، ط١، ٢٠٠٥، ص١٩ من تقديم محمد الصليبي.
(٢) جادو: مدينة كبيرة في جبل نفوسة من ناحية إفريقية لها أسواق. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/ ص٩٢.
(٣) الهاشمي، غاية السلوان، ص٢٧.

في المحافل الثقافية في مصر دُعي إلى تأسيس حزب الدفاع عن الدين لمجابهة البدع والخرافات التي تصدر من المغرضين ضد الإسلام وأهله[1].

ومن المواقف التي تسجل له أنه كان يسعى إلى ما يسعد المجتمع الذي يعيش من حوله، وإن اقتضاه الحال أن يتخلى عن المناصب التي تعرض عليه، كما يشير بنفسه في إحدى رسائله إلى أنه عرض عليه منصب من قبل إمام عُمان حيث يقول: [أنه عرض علي] " من قبل أهل العقد والحل في حكومة الإمام محمد الخليلي منصب عال، فاعتذرت خوفا من أن ينسب إلي التحيز، وأنا يهمني أن أبقى للطرفين (السلطان والإمام) حتى أتمكن من صلح بينهما يسعد البلاد إن شاء الله "[2].

ومن الإصلاح الاجتماعي: القضاء على النزاعات والفوضى ومواجهة الحروب القبلية بالصلح والقضاء على الفتنة، كما حصل ذلك في الدور الذي قام به في الجبل بين الأمازيغ والعرب، حيث قرر أن يصلح بين أبناء الوطن ويعيد الاستقرار إلى الجبل وينهي الانقسام الداخلي، فبدأ من نالوت على ما بعدها من القرى، وكان لدور الباروني أثر في نفوس الناس لما علموا عنه من إخلاص وصدق وورع، فاستطاع أن يوقف الهجمات الداخلية، واستمر في الإصلاح بين القرى حتى حكيت له المكايد من قبل أهل الفتنة لوقف مشروعه الإصلاحي قبل أن يصل إلى فسّاطو، كان هذا في عام ١٩٢٠م[3].

(١) الهاشمي، غاية السلوان، ص٢٨.
(٢) أبو اليقظان، الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢/ ص١٤.
(٣) محمد شعبان قجم، حياة الشيخ الباروني في المهجر، بحث تخرج من معهد العلوم الشرعية، مسقط، مرقون، ص٣٧.

ومن مواقفه الطريفة في دوره الإصلاحي في عُمان:

أنه لما قدم إلى عُمان كان ضمن مسيرته إلى بلدة فنجا، فلما وصل المنزل وقفت جموع الناس صفوفا من أجل استقباله، وبدأ المنشدون بإلقاء الأغاني الحماسية، إلى أن وقف صبي بيده سيف وأنشد نشيدا طويلا بصوت شجي، حتى أتى إلى بيت من نشيده في دعاء على (الغافري) جاء في شطره الأخير: "والغافري حكمه يزول"، فاستوقفه الشيخ الباروني وسأله الأسئلة الآتية: أليس الغافري بأخيك في الدين والوطن وهو الذي يفدي معك هذا الوطن بماله ونفسه؟ أليس هو بأخيك عنصرا ولسانا؟ فقال الصبي: نعم، فقال له: ولم تدعو عليه بالسوء حينئذ؟ أليس إذا فقد فقدت نصف قوتك؟ فقال: نعم، لكنه ليس من الحزب الذي أنتسب إليه وهو (الهناوي) فهو عدوي، فقال له: إن هذا فكر باطل وخطأ عظيم، ،الذنب عائد إلى من علمك إياه، أما أنت فصغير معذور، ولكنه يجب عليك أنت وأترابك ترك هذه الفكرة من هذه الساعة، ولا تعد إلى ذكر هذا البيت قط، لأن العدو الحقيقي هو الذي لكم بالمرصاد ليبتلع بلادكم ويفقكم استقلالكم ويستعبدكم كلكم وأنتم غافلون.. واستمر في الكلام في هذا الموضوع والناس ينصتون في خشوع، ثم ختم كلامه بالدعاء بالتوفيق وجمع الكلمة، فاستحسن الحاضرون ما سمعوا من نصائح واعتذروا عن الصبي، وبسرعة فائقة انتشرت هذه الحكاية في أطراف المملكة[1].

(1) قجم، الباروني في المهجر، ص٧١.

- الإصلاح السياسي:

لقد كان للباروني باشا دور في المجال السياسي يعتبر فيه مصلحا، حيث تبرز اهتماماته بما فيه مصلحة ظاهرة، وبصورة ملخصة نضع النقاط التالية[1]:

- محاربته للإستعمار الإيطالي محاربة لا هوادة فيها، فأذاقه الهزائم تلو الهزائم.

- عمله الدؤوب على وحدة أهالي ليبيا إباضية ومالكية، بربرًا وعربًا، لتكوين جيش إسلامي موحَّد يواجه غزو إيطاليا سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م.

- لمَّا عزمت تركيا على الإستسلام في أواخر الحرب العالمية الأولى، أنشأ هو وبعض المجاهدين الجمهورية الطرابلسية ومجلسها الشوري عام ١٣٣٧هـ/١٩١٨م، برئاسة مجلس شرعي منهم الباروني، وذكر أنَّه عيِّن رئيسا لهذه الجمهورية.

- مساعدة الحزب الدستوري التونسي ماديًا ومعنوياً.

- مراسلاته السياسية، والإسلامية إلى رؤساء وملوك العالم، والهيئات العالمية ينصحها، ويوجِّهها، واعترفت له عصبة الأمم بآرائه السديدة.

أهم الأعمال التي قام بها خلال زيارته الأولى لعُمان : أنه " حاول أن يزيل الجفاء بين السلطان والإمام أو بين سكان الساحل وسكان عُمان الداخل، حيث جلس مع الإمام والسلطان، ونبه الطرفين إلى مخاطر الشقاق وأن العدو

(1) بابا عمي وآخرون، معجم أعلام الإباضية ، ج٢/ ص٢٠٨.

الأجنبي متربص بهما، وحذرهما من هذا التنافر... وأن عليهما مسؤولية في حماية عُمان من كيد الأعداء..."

لهذا ارتاح السلطان والإمام لأفكاره النيرة ونظرته إلى الأوضاع السياسية العالمية ومخاطرها، فكلفه السلطان أن يقوم بالوساطة بين الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود والشريف علي حسين بن علي ملك الحجاز، حيث اعتبر السلطانُ الباشا الباروني... [شخصية لها دورها يبرز ذلك من خلال نص الرسالة من السلطان للملك ومنه للشريف].

من السلطان للملك بأن الباشا "حامل كتابنا هذا هو على ما نحن عليه من الكدر كلفناه بأن يعرب لعظمتكم عن إحساساتنا الدينية توضيحا لما كتبناه هنا، فالمرجو اعتماد كلامه في هذا الصدد، فإنه الثقة الأمين، ولا شك في أن لكم الخبرة التامة فيه وفي أمثاله، وله تفانٍ وتضحية في كل ما يتعلق بإصلاح حال الأمة الإسلامية ".

وقدم السلطان في رسالته للشريف : الباروني " حامل كتابنا هذا هو الوجيه المحبوب لدى الدولتين المحترم الشيخ سليمان باشا الباروني، أحد أعلام مذهبنا ومن رجال الإسلام المعروف لديكم شخصاً وعملاً، متوجه إلى ساحة ملككم... وحيث إن الحامل المذكور من الثقات الأمناء عندنا فلا حاجة إلى التوصية على اعتماد ما يبديه لديكم من الفكر فيما فيه الصلاح "...

أما الإمام فقد كلفه رسميا نيابة عنه حضور المؤتمر الإسلامي المزمع عقده في مصر حول النظر في مسألة الخلافة والحرب القائمة في الأماكن المقدسة بين ابن سعود والأشراف : " فإننا نكلف جنابكم باسم الأمة العُمانية أن تحضر هذا المؤتمر الذي سيعقد لهذا الغرض الديني السامي في مصر أو غيرها

من البلاد الإسلامية، ولـيكن رأيك في مسألة الخلافة مطابقا لقواعد الشرع الصحيح وهي لا تخفى عليكم ". كما أكد واستحسن ما كلفه السلطان مندوبا عنه لمقابلة ابن سعود والشريف " وقد استحسنا جدا تكليف السلطان إياكم بالتوجه إلى الحجاز مندوبا من طرفه وحامل كتب نصيحة إلى المتحاربين حول بيت الله الحرام، فنعم الرأي رأيتماه ".

في ١٠ من ربيع الثاني ١٣٤٤هـ / ٢٩- ١٠- ١٩٢٥م حضر الباروني مؤتمرا عقد في بهلا[١] حضره جملة من علماء عُمان وشيوخها وكان الهدف من انعقاده وضع التدابير في مواجهة المخاطر التي تواجه حدود عُمان الغربية.

بعد رحيل الباروني إلى نزوى[٢]، عقد الإمام الخليلي اجتماعا حضره كبار رجالات دولته ناقشوا في هذا الاجتماع الاستفادة من خبرة الباروني في تحديث أجهزة الإمامة وتنظيمها بما يتلاءم ومتطلبات العصر من صلاح في مرافق الدولة وخدماتها، وقرروا تكليف الباروني بمرتبة رياسة الوزارة. ثمّ اجتمع الإمام بالباروني في سمائل وتم إقناعه لتكليفه بذلك وأن العُمانيين مجمعون على ذلك، وظلت المداولات طيلة شهر المحرم ١٣٤٥هـ، وبعد قبول الباروني المنصب أصدر الإمام المرسوم الآتي: " من إمام المسلمين محمد بن عبدالله الخليلي إلى جماعة المسلمين ليعلم الحاضر الغائب أني فوضت الأمر في تنظيم المملكة

---

(١) "بهلا" و"بهلى": إحدى الولايات العُمانية وهي مدينة تاريخية أثرية، تشتهر بقلعتها وسورها وحصن جبرين،كما تشتهر بالصناعات الحرفية مثل صناعة الفخار، وتبعد عن العاصمة مسقط بحوالي ٢١٠ كم. سعود العنسي، العادات العُمانية، دار جريدة عُمان، روي، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص٦٨.

(٢) نزوى: من أهمّ مدن عُمان وأعرقها تاريخا، وهي عاصمة عُمان قديما، وتتهر بمعالمها التاريخية كقلعة نزوى والأبراج الكثيرة، تبعد عن العاصمة مسقط بحوالي ١٨٠ كيلومترا. الخروصي، سليمان، ملامح من التاريخ العُماني، د.ن، ط١، ١٤١٥/١٩٩٥، ص٣٢٠-٣٢٥. ومجموعة باحثين، عُمان في التاريخ، دار أميل للنشر، لندن، ط ١٤١٥/١٩٩٥، ص٢٩٦-٢٩٨.

تنظيما صالحا للشيخ الباروني، فبيده الملكية والعسكرية والمالية والسياسة الداخلية والخارجية فمن يخالفه في سبيل أعماله الإصلاحية يعاقب ولا يلوم إلا نفسه "[1].

ثم شرع الباروني باشا بصفته الجديدة في وضع الخطط في إصلاح أجهزة الإمام: المالية –التعليم – الجيش –الصحة.

ومن أجل إنجاح مسيرته في الإصلاح كان لا بد من مواجهة المعارضين له في فكرته، فما كان من الباروني إلا أن ألقى خطبة لمدة ساعتين شارحا وجهة نظر الشرع في الإصلاح مبينا مصالح الإصلاح ومضار حالة الأوضاع الحالية. وذلك على مسمع من المؤيدين والمعارضين وبين يدي الإمام محمد بن عبدالله الخليلي في حصن نزوى، فكان استبشار الإمام بذلك واضحا، مما زاده حزما في إمضاء القرار[2].

واجتهد في تنظيم المملكة العُمانية التي كلف بتنظيمها فعمل على ذلك[3]:

مبتدئا بماليتها التي كانت ضائعة: فوضع لها الصناديق المالية والسجلات الحافظة والموارد والمصادر والأقسام المبينة.

ثم الشؤون العسكرية فرسم لها خطوطها الرئيسة وصرف لها عنايته الخاصة، وبدأ بقلعة سمائل فنظم السجلات وحصر الذخائر الحربية ووضع سجلا لتنظيم العسكر وتجديد السلاح وتفقد القلاع والحصون وتدريب العسكر.

(١) الهاشمي، غاية السلوان ، ص٥٥.
(٢) الهاشمي، غاية السلوان، ص٥٨.
(٣) ن.م، ص٥٩-٦٠.

وفي مجال التعليم قام ببناء مدرسة سمائل على أن تدرس المناهج الحديثة ويجلب المعلمون من الخارج، ليكون التدريس وفق الأسلوب والأدوات المناسبة مع العصر ومتطلباته.

وفي المجال السياسي ينبغي لنا أن لا نغفل عن دوره الجهادي، من أجل ذلك يجدر بنا أن نأخذ باختصار نبذة عن جهاده:

بعد أن مكث في القسطنطينية حوالي ثلاث سنوات عاد إلىَ طرابلس في أوائل عام١٩١١م...(حينها فجع باحتلال إيطاليا لطرابلس في أكتوبر من نفس العام حيث أطلت الأساطيل الإيطالية على السواحل الليبية... ثمّ هبّ الباروني والمجاهدون لمقاومة الاستعمار لمدة سنتين ومواصلة الدفاع عن طرابلس على الرغم من تخلي الدولة العثمانية عن طرابلس وسحبت بعض ضباطها منها، كما قلّ حماس الزعماء الوطنيين عن مواصلة الحرب بسبب اتفاقية الصلح المعروفة باتفاقية أوشي (لوزان) التي وقعتها الدولة العثمانية مع إيطاليا في ٥ أكتوبر ١٩١٢م، وكان الطرابلسيون غير راضين بهذا الصلح فأرسل الباروني برقية إلى مجلس المبعوثان عبّر فيها باسمه واسم جميع مجاهدي طرابلس عن احتجاجهم على عقد الصلح مع إيطاليا.

وبعد أن تخلت السلطة العثمانية عن تأمين الحماية ومع فرض إيطاليا لسيطرتها وحشد جيوشها في طرابلس فإنها في النهاية تغلبت على طرابلس ونالت اعترافا دوليا بسيادتها على ليبيا، وخرجت الجيوش العثمانية منها، ولهذا تفرق الزعماء والمجاهدون حيث عمل كل واحد بصورة مستقلة، وانقسم رأي المجتمعين إلى قسمين، واحد بزعامة محمد فرحات الذي يرى حل الصراع مع الإيطاليين بصورة سلمية، وآخر برئاسة سليمان الباروني الذي يرى مواصلة الجهاد وأنه لا

يمكن أن ينال الاستقلال الحقيقي إلا بقوة السلاح. فخرج الباروني إلى جبل نفوسة حيث اجتمع الناس حوله وأيدوه، بل نادوا به رئيسا لدولة إسلامية عاصمتها يفرن، وقام بتنظيم الحكومة، لكنه كان يعاني من قلة الموارد المالية، فهزمته القوات الإيطالية في عدة مواقع بما فيها يفرن، من أهمها معركة جندوبة التي وقعت في ٢٣ مارس ١٩١٣م[1].

وفي ختام هذا المحور: لا يفوتني أن أنوه بأن ما ذكر هنا من جوانب الإصلاح تعد نماذج من الدور الذي قام به سليمان باشا الباروني، في أطوار حياته، ومن شاء المزيد فثمة بحوث أفردت الأبواب بتفصيل أوضح وبيان لجزئيات أدق.

ومع هذه النماذج نصل إلى المحصلة التي تجمع في أذهاننا فكرة عامة عن هذه الشخصية، من حيث النظر إلى كونه مفكراً مصلحاً.

الخاتمة

لقد كانت شخصية سليمان باشا الباروني، تجمع في جانبها الفكري والإصلاحي، سمات الشخصية المؤثرة، شخصية لم ترض بالتقليد والتبعية، ولم تقبل بالتماشي مع الأوضاع القاسية، ولم تركن إلى الدونية، بل كان مقامها مقام الريادة، والتأثير، ومحاولة التغيير، والسعي إلى التعديل والإصلاح، كل ذلك بجد واجتهاد، وسعي دؤوب بوسائل وطرق مختلفة، حتى يتحقق الهدف المنشود أو يعذر نفسه باستفراغ الجهد والطاقة ، وفيه كان يلتقي الفكر والإصلاح، فهو رجل مفكر في إصلاحه، ومصلح بفكر سديد ومصلح في الفكر.

(1) الهاشمي، غاية السلوان، ص٢٩-٣٣.

ولنا في الختام أن نقف وقفات بكل إجلال واحترام وتقدير لهذه الشخصية، عند كلمات مضيئة، تنير جوانب في معالم هذه الشخصية، وهي نقاط ارتكزت عليها وتركزت فيها معانيها، وكأنها مفاتيح لتلك الشخصية، من تلك الكلمات اللامعة:

الزعامة، الجهاد، الشغف بالصحافة، الشغف بالوحدة.
فهو زعيم من زعماء النهضة..
مجاهد بالسيف والقلم.. وتقلب في ميادين الجهاد..
شغوف بالصحافة.. شغوف بالوحدة الإسلامية..

وأختم بأبيات قالها الشيخ أبو اليقظان في حق الشيخ الباروني في تونس، قال فيها:

سررنا وما للذات كان سرورنا ... حفلنا وما للجسم نحفل مطلقا
ولكن لسر كان فيه كبزرة الـ ... حياة ورمز العز والسعد والبقا
لإبرة مغناطيس أرواح أمة ... تروم العلا تأبى المذلة والشقا
لكعبة آمال البلاد لقلب الـ ... شعوب لمحراب الفضيلة والتقى
لمنع إخلاص لروح حقيقة ... لمطبخ تدبير إذا الدهر حملقا
لمعمل إصلاح لمهبط حكمة ... لدوحة علم زهرها قد تفتقا
لمجد لعبقرية لبطولة ... لحزم لهمات إذا الخطب أحدقا
لسيف حمى الحق المبين وأهله ... زمانا أباد الظلم فيه وأحرقا[1]

(1) أبو اليقظان، إبراهيم، ديوان أبي اليقظان، مكتبة الضامري، السيب، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٧٣-٧٤.

سليمان باشا الباروني مربياً ومصلحاً

المنير عبد الحميد بن سعدون(*)

مقدمة

بعدما استعرضنا جانبا من حياة الباروني سليمان باشا، وصورا لمشاعره الفياضة نحو إخوانه المسلمين، لما أوتي من قوة الإيمان ونور بصيرة وجودة فهم ورحابة صدر وسلامة قلب ونزاهة نفس.

الذي كان تفكيره واسع الأفق لا ينحصر في حدود ضيّقة، فهو إن نصح فللمصلحة، وإن حذّر فعن مضرّة، وإن أمر فمحبّا، وإن نهى فمشفقا، وإن وجّه فإلى غايات شريفة، وإن رمى فإلى أهداف عليا، وإن اشتدّ فمن أجل الدين والأمّة والوطن، وإن تسامح ففي حق نفسه.

على هذا المنوال كان تفكيره في القضايا الإسلامية الكبرى كعظيم من عظماء الإسلام، وتفكيره في المشاكل الإسلامية العربية، كرجل من رجال العروبة والإسلام، فكان يدعو بالرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وباعتبار أيمة المذاهب الإسلامية كغيرهم من علماء الإسلام فقط.

وله نحو البلدان المغاربية لشغف لا يمارى، وحبّا لا يجارى، ونظرات بعيدة لا تتناهى، وغايات سامية لا تتسامى، ومطامح واسعة غير محدودة، وأماني بعيدة ممدودة(١).

(*) المنير بن سعدون، سليمان الباروني باشا رائد التواصل الإسلامي، ملتقى العلمي الثامن: التواصل الحضاري العُماني المغاربي في العصر الحديث، وحدة الدراسات العُمانية، جامعة آل البيت، المفرق، المملكة الأردنية الهاشمية، ذو القعدة ١٤٣٢هـ/أكتوبر ٢٠١٢م.

(١) إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ص١٢٧ وما بعدها.

وهو سليل أسرة لها في مجال العلم والمعرفة شأن كبير، رغم أنّ الرجل كان أكثر قادة الجهاد تأثرا بالمدنية وتمسكا بها وانفتاحا عليها، فإنّ الدارس لتاريخه يدرك خطّه الديني الواضح، وخاصّة في الفترة الأولى من جهاده، ممّا يؤكّد أثر التربية الإسلامية فيه وشدّة التزامه بما تفرضه عليه عقيدته، من واجب الدبّ عنها والذود عن حماها، ولا عجب في ذلك وقد درس في الأزهر الشريف وتونس والجزائر وكان كثير الترحال(١)، وسنرى ذلك في مواقفه المثيرة: نصحه، وسلوكه، وجهاده وأعماله.

وتهدف هذه الورقة البحثية إلى الاعتناء بالجانب التّربوي والإصلاحي عند الشيخ سليمان الباروني باشا؛ ويرمي الباحث إلى محاولة إبراز الفكر والأعمال التي قام بها، في أطوار حياته التي تقلّبت في أشكال كثيرة ومتناقضة في غالب الأحيان، رغم ذلك لم يتخلّ عن مبادئه التربوية التي نشأ عليها، " تلك التربيّة التي اعتمد فيها على الجانب العملي والتطبيقي أكثر من اعتماده على الجانب النظري، وكان مستنده مبادئ الإباضية، في أن الإيمان قول وعمل لا ينفصلان أبدا "(٢).

تعريف التربيّة: وبادئ ذي بدء نحاول التعريف بمصطلح التربية في الإسلام، من خلال بعض أقوال المفسّرين، والمعاجم العربية، ثمّ نعرّف العَلَم.

(١) مصطفى سعد الهاين، أثر العامل الديني في الجهاد الليبي، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، سلسلة الدراسات التاريخية، طرابلس ليبيا، مطبعة براس طبلبة تونس، ط: ١، ١٩٨٠م، ص ٢٦-٢٧.

(٢) أحمد إلياس حسين، الأباضية في المغرب العربي، ط١، مكتبة الضامري، مسقط سلطنة عُمان، ١٩٩٦، ص٥٩. سيشار إليه عند وروده بـ: أحمد إلياس، الإباضية في المغرب العربي.

- **عند المفسّرين:**

لقد ورد مفهوم التربيّة في القرآن الكريم في قوله تعالى: " اِلْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ "، مشتقا من لفظة " ربّ "، فماذا قال المفسرون في مفهومها ؟

فيقول عنها المفسر: الشيخ إبراهيم بن بيحمان[1]: " ربّ العالمين، اعلم أنّ الربّ مصدر بمعنى التربية العامة، وهي تبليغ الشيء على جهة التدرّج إلى كماله، وهو الحدّ الذي أريد به بمعنى التربية الخاصّة، وصف به الذات العليّة بمعنى الملك والسيّد والمصلح المربي والخالق المعبود، وكلّها صالحة هنا ".

ويقول الشيخ الحاج صالح لَعْلِي[2] رحمه الله: " والربّ " في الأصل مصدر بمعنى التربيّة وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا[3].

- وفسّره الشيخ أبو يعقوب الوارجلاني[4] رحمه الله بالمصلح، قال ابن كثير: ربّنا جلّ ثناؤه السيّد ... والمصلح أمر خلقه، بما أسبغ عليهم من نعمه.

(١) الشيخ إبراهيم بن بيحمان بن أبي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الثميني اليسجني، (بيحَمان: صيغة بربرية لعبد الرحمن، ويرد بحمان كذلك)، من علماء بني يسجن البارزين، وكانت له صلات وثيقة بعلماء الجزائر والمغرب وعُمان، فكان يراسل الإمام سليمان بن عبد الله الإسماعيلي إمام سلطنة عمان؛ كما أنّ له مراسلات إلى البايات والدايات الأتراك - باسم مجلس عمّي سعيد، الذي كان كاتب تقاريره. ينظر: إبراهيم بحاز، معجم أعلام الإباضية، تر: ١٠١٦، ج ٢، ص ٢٢. سيشار إليه عند وروده بـ: م.أ.إ.

(٢) الشيخ الحاج صالح لَعْلِي (ت ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م)، من أجلّة علماء بني يسجن بمزاب، نشأ محبًّا للعلم وأهله، ابتلاه الله بمرض الجدري في الخامسة من عمره فأصيب بالعمى. درس عند القطب كتبًا عالية في التفسير والحديث والفقه وغيرها. م.أ.إ، تر: ٥٠٦، ج ٣، ص ٤٧٥. ينظر: ترجمته، إعداد وتقديم: بباطي عمر بن صالح. وبيليوغرافيا عنه، إعداد وتقديم: بن سعدون المنير بن عبد الحميد، في اليوم الدراسي حول الشيخ، بني يزقن، يوم: ٢٠١٠/١٢/٢٥م، مرقون.

(٣) الشيخ الحاج صالح لعلي، القول الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، مرقون، بمكتبته، ٨٩-١٩٩٩م، ص ٢٣.

(٤) الشيخ يوسف بن إبراهيم بن مناد المدراتي الوارجلاني، (ت ٥٧٠هـ/١١٧٥م)، علم من أشهر علماء الإباضية بالمغرب، ترك بصمات بارزة في التراث الإباضي خصوصا، والمكتبة الإسلامية عموما. ولد بمدراتة، من قرى وارجلان؛ نشأ فيها، ويعتبر هؤلاء الثلاثة: أبو يعقوب، وأبو عمّار، وأبو عمرو عثمان، من أشهر علماء الإباضية الذين خلّفوا كتبا هامّة، وبرّزوا في علم الكلام على الخصوص. ومن مؤلّفاته: «الدليل والبرهان لأهل العقول» و«العدل والإنصاف في أصول الفقه والاختلاف»، وهو رحّالة. م.أ.إ، تر: ١٠٤٩، ج ٤، ص ١٠١٠.

- وفي مقدمة التوحيد وشروحها[1]، عند شرحه لكلمة " ربّ "، في الحمد لله ربّ العالمين، نجد: " التربية هي تبليغ الشيء إلى كماله، شيئا فشيئا ".

- والمفسّر الشيخ الطاهر بن عاشور: " والربّ ... بمعنى ربّه وهو ربّ بمعنى مربّ وسائس، والتربية تبليغ الشيء إلى كماله تدريجيا... إذ المراد أنّه مدبّر الخلائق وسائر أمورها ومبلّغها غاية كمالها" [2].

- والمفسّر وهبة الزحيلي: " والربّ فيه معنى الربوبية والتربية والعناية بالمخلوقات "[3].

- والمفسّر السيّد قطب: " والربّ هو المالك المتصرّف ... وعلى المتصرّف للإصلاح والتربية، يشمل العالمين، أي جميع الخلائق، والله سبحانه لم يخلق الكون ثمّ يتركه هملا، إنّما هو يتصرّف فيه بالإصلاح ويربّيه "[4].

- والمفسر الشيخ أحمد بن حمد الخليلي: " مراد الله بهذا الاستخلاف تربية هذا الجنس المستخلف في هذه الأرض بما يمنحه من مواهب وينمي فيه من قدرات ويودع في تكوينه من طاقات حسية ومعنوية، وذلك مفهوم من لفظة الربّ فإنّها بمعنى المربّي والمصلح كما تقدّم في الفاتحة "[5].

(١) عمرو بن جميع أبو حفص، (ق:٧هـ / ١٣م)، أخذ العلم عن الشيخ أبي العباس أحمد الدرجيني، صاحب الطبقات. كان إمامًا مشهورًا متكلّمًا، وعالماً منظورًا، وكان من كبار المدرّسين بجامع تيفروجين بجزيرة جربة. قام بترجمة «عقيدة التوحيد»- المنسوبة إليه - من البربرية إلى العربية التي ألفت في أواخر القرن الثاني من الهجرة، وهي أولى المتون التي كان يحفظها التلاميذ في جميع قصور وادي ميزاب، وقد شرحها الكثير من العلماء. م.أ.إ، تر: ٦٨٦، ج ٣، ص ٦٦٢. وينظر: مقدّمة التوحيد وشروحها، الشمّاخي والتلاتي، صحّحها وعلّق عليها أبو إسحاق إبراهيم طفيش، الشرح الأول، ص ١٨.

(٢) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ط١، الدارين التونسية والجزائرية للنشر، ١٩٨٤م، ج١، ص٥٦.

(٣) الشيخ وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط١، الدار الفكر، ١٩٩١م، ج١، ص١٦٦.

(٤) السيد قطب، تفسير في ظلال القرآن، ط٦، ج١، ص١٧.

(٥) سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عمان، جواهر التفسير، أنوار من بيان التنزيل، مكتبة الاستقامة، مسقط ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ج ٣، ص١٧.

في المعاجم العربية:

ويَرِد مصطلح التربيّة في معاجم اللغة العربية محمّلا بكثير من الدلالات وهي: الزيادة والإنماء، الرّعاية والثقافة، والإصلاح، والسّياسة والسّيادة، والتّدبير لأمور الخلق، والتّنمية، والاجتماع[1].

وبذلك فإن التربيّة الإسلامية تعتبر مصطلحا شاملا لمجموعة من المفاهيم تنصبّ في معنى: " الرعاية، والتنميّة، والتأديب، والتعليم، وتزكية الإنسان بصورة مستمرة في جميع مراحل حياته حتى يصل إلى أقصى كمال ممكن "[2].

ويوحي مصطلح التربيّة للعقل المسلم باستمرارية العملية التعليميّة مدى الحياة، نظرا للمواهب التي أعطاها الله للإنسان، كأدوات العلم والمعرفة[3].

والخلاصة تهدف عملية التربيّة والتعليم إلى تحقيق عدّة مقاصد، منها:

العبودية لله المذكورة في قوله تعالى: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(٥٦) " [4].

خلافة الإنسان لله في الأرض من قوله تعالى: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً " [5].

(١) عبد الرحمن النقيب، عن محمود حمدي زقزوق، الموسوعة الإسلامية العلمية، وزارة الأوقاف، مصر، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٣٦٤. سيشار إليه عند وروده: عبد الرحمن، الموسوعة الإسلامية، ص ٣٦٤.
(٢) عبد الرحمن، الموسوعة الإسلامية، ص ٣٦٤.
(٣) عبد الرحمن، الموسوعة الإسلامية، ص ٣٦٤.
(٤) سورة الذاريات: ٥٦، على رواية ورش عن نافع.
(٥) سورة البقرة: ٣٠.

عمارة الأرض الواردة في قوله تعالى: " هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا "[1].

ونخلص مما تقدّم أن التربيّة الإسلامية هي مفهوم شامل، يجمع في طيّاته أهدافا نبيلة تخدم الفرد والجماعة في كيان واحد حيّ، وباستمرار متواصل.

فالتربيّة منهج حياتيّ مستمر، على ضوء ونهج القرآن والسنة النبوية والسّلف الصالح. والله سبحانه وتعالى يقيض لكلّ زمان مربّ ومصلح، ممّن ورثوا النبوءة، وكان منهم علَم ذاع صيته الآفاق، مغربا ومشرقا.

فمن هو هذا العَلَم؟

تقول عنه ابنته زعيمة سليمان الباروني، في ظهر كتاب " صفحات خالدة من الجهاد للمجاهد الليبيّ سليمان الباروني : " عمل ما أمكنه، وضحى بأكثر ممّا يستطيعه في صدق ووفاء، وآلى على نفسه أن يخلّد تلك الحقائق في مؤلّف من أسلوبه وآرائه وبقلمه "، لكن الله أراد أن تجمعه ابنته الوفيّة من كنزه الحبيب.

فهو من الذين اصطفاهم الله لهذه المهمّة النبيلة : التربية والإصلاح، ظهر عليه حبّ بلاده العميق، مع حبّه للعلم، وطلبه من منابعه الكريمة في البلاد العربية في سنّ مبكرة؛ الأمر الذي زجّ به في خضمّ الحياة العلميّة والإصلاحية والوطنية، فأحسّ بقدسية الواجب في ميادينه الشريفة، فدخلها واحداً بعد واحد، غير هيّاب ولا وجل، فلاقى ما يلاقيه أمثاله، وتذوّق من المرارة الكثير، وشقى من الدسائس ما قدّر له أن يشقى، ولكنّه مضى في سبيله على ضوء إيمانه الصادق بالله والوطن، والكرامة البشرية، يجاهد، ومضت آماله في الخير

(١) سورة هود:٦١.

تتّسع كلّما زادت مشاكله، وكثرت العراقيل أمامه، فبدأ التضحية مختاراً في سبيل معتقده ومبدئه.

فتضاءلت أمامه الحدود والسدود، وقصرت في حسابه- كمؤمن مخلص- المسافات، فأصبح ابنا لوطن كبير يفوح في أرجائه عبير الإسلام، وتجري في دماء أبنائه محبّة الشريعة السمحاء، فتكشّفت له معاني الإنسانيّة الحقّة، فانحنى لها احتراما "[1].

نسبه :

الشيخ سليمان الباروني سليل أسرة عريقة في العلم والحُكم، في جهات طرابلس الغرب – ليبيا- منذ القرن الرابع الهجري، وأسماؤهم مدوّنة في كتب التاريخ الإسلامي، ويقول عن أصل عائلته: " والمشهور عندنا أنّ عائلتنا البارونية الموجودة في جبل نفوسة من طرابلس الغرب والعائلة البروانية الموجودة في مملكة عُمان، الكائنة في الجانب الشرقي من جزيرة العرب، من شجرة واحدة، ويوجد من العائلة البروانية في مملكة الزنجبار جماعة معتبرة، منها الأمير مسعود بن سعيد البرواني، حاكم ولاية بسمرك برج الألمانية في إفريقيا الشرقية، وكانت المخابرة جارية بيني وبينه إلى أن انقطعت المواصلات بالحرب العالمية [الأولى]، وقد توفي "[2].

(١) سليمان الباروني (ت ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م)، صفحات خالدة من الجهاد للمجاهد اللّيبي سليمان الباروني، عنيت بجمعها وترتيبها: زعيمة سليمان الباروني، مطابع الاستقلال الكبرى، [مصر]، ١٩٦٤م، ص: ظهر الكتاب. سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: الباروني، صفحات خالدة.

- يظهر من خلال مراسلة، بين الشيخين إبراهيم أبي اليقظان وإبراهيم الحاج أيوب، حول أوضاع المطبعة العربية، أنها، أي عزيمة الباروني، حاولت طبع الكتاب بالمطبعة العربية في الجزائر، أين طبع كتاب أبي اليقظان، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، سنة: ١٣٧٦هـ/١٩٥٣م. ينظر: الحاج أيوب بن يحي(ت ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، صفحات من التراث: الشيخ القرادي، آثاره الفكرية، م٣/١، نشر جمعية النهضة، العطف- غرداية- الجزائر، ط ٢، مزيدة ومنقّحة، طباعة العلمية للطباعة والخدمات، ٢٠٠٩م، ص٢٩٣. سيشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا: الشيخ القرادي، آثاره الفكرية.

(٢) ينظر: الحاج إبراهيم أبو اليقظان، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، المطبعة العربية الجزائر، م٢، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م، ج١، ص٩. سيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: أبو اليقظان، سليمان الباروني باشا.

نشأت أسرة الباروني في بلدة " كَبَاوْ "، " وهي بلدة كبيرة دون لالوت، وهي أكثر بلاد الجبل اتفاقاً، وأحسنها في العلم وتعمير المساجد بالقرآن والصلاة، وحسبك أنّها أنجبت مفخرة الجبل، بل مفخرة الإسلام في هذا العصر العلامة المجاهد الكبير المرحوم سليمان باشا الباروني"[1].

كما يشيد كثيراً بنسبه، ففي محنته التي سجن فيها، راسل استنبول في رسالة طويلة، ذكر فيها نسبه ومآثره رداً على حسّاده، وممّا قاله فيها: "وكأنّي لست ممّن ينسب إلى العلم الشريف ولا من بيت عريق المجد محترم في نظر الناس"[2]، وهم ممّن وصفهم الرحالة "كنود هلمبو" الذي زار ليبيا إبّان حربها ضدّ الطليان، بأنّهم: " يؤمنون إيمانا مطلقا بالله في جميع الأحوال، وبأنّهم من حيث التطور الروحي في المرتبة الأولى"[3].

نشأته :

ولد سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م[4]، بمدينة " جَادُو " في جبل نفوسة بليبيا (الجبل الغربي)، من كُبْرَيات مدن الجبل في الماضي والحاضر[5]، ونشأ بين أحضان والديه الكريمين، و"الانطباعات التي يخرج بها الدارس لتاريخ المجاهد سليمان الباروني، تعطي فكرة كاملة الوضوح عن نشأة دينيةٍ حقيقية حدّدتها

(١) كذلك: الحاج إبراهيم أبو اليقظان، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، مطبعة الدار العُمانية، جزءان في مجلّد واحد، دون تاريخ الطبع، ص ٩. [طبعة مصوّرة من الأولى].

(٢) ينظر: أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي (ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م)، كتاب قناطر الخيرات، حقّقه وعلّق عليه عمرو خليفة النامي، القسم الأول يحوي على قنطرتي العلم والإيمان، ص ٩٢ الهامش. سيشار إليه عند وروده: الجيطالي، القناطر.

(٣) مصطفى سعد الهاين، أثر العمل الديني في الجهاد الليبي، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضدّ الغزو الإيطالي، سلسلة الدراسات التاريخية: ١٠، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى، دار الكتب، ط١، ١٩٨٠م، ومطبعة براس طبلبة الجمهورية التونسية، ص ٢٧. سيشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا: سعد الهاين، أثر العامل الديني.

(٤) سعد الهاين، أثر العامل الديني، ص ٢٤.

(٥) التواريخ الميلادية- الغير المذكورة في مصدرها- حوّلت ببرنامج: " Accurate time 5.2. ٤"، الذي يشير إلى: أنّ تحويل التواريخ لا يعتمد رؤية الهلال، فمن المحتمل وجود فارق يوم واحد.

(٦) زارها الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي سلطنة عُمان، في سنة ٢٠٠٨م.

توجهاته واصطبغت بها أقواله، وتميّزت بها ممارساته؛ فقد كان يعبئ القوى الروحية للأفراد قبل دخوله المعارك، وأظهر مقدرة وغِيرة دينية واضحة على الإسلام والمسلمين، ليس في ليبيا فحسب، بل وفي أماكن أخرى عديدة من العالم الإسلامي، وذلك عندما هاجر بدينه مفضلا حياة التغرُّب ومشاقّه على الرضوخ للأعداء "[1]، "رغم أنّ الرجل كان أكثر قادة الجهاد تأثرا بالمدنية وتمسكا بها وانفتاحاً عليها.

فإنّ الدارس لتاريخه يدرك خطّه الديني الواضح...ممّا يؤكّد أثر التربية الإسلامية فيه وشدّة التزامه بما تفرضه عليه عقيدته من واجب للذب عنها وذودٍ عن حماها، ولا عجب في ذلك، فقد درس في الأزهر الشريف وتونس والجزائر، وكان كثير الترحال"[2].

تعلّمه :

أخذ مبادئ العلوم عن أبيه الشيخ عبد الله الباروني[3]، ثمّ أكمل ثلاثة أشواط في سبيل العلم هي:-

- الأولى: في تونس بجامع الزيتونة، يبتدئ من سنة ١٣٠٥هـ/١٨٨٦م.
- الثاني: في القاهرة بالأزهر من سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م، إلى سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م.

(١) سعد الهاين، أثر العامل الديني، ص ٢٨.
(٢) سعد الهاين، أثر العامل الديني، ص ٢٦.
(٣) ولد بكباو إحدى قرى جبل نفوسة، (و: ١٨٢٠م، ت: ١٩١٤م)، وأخذ العلم عن الشيخ سعيد بن أيوب الباروني، وشقيقه عيسى، كما انتقل إلى الزيتونة بتونس (حوالي ١٢٥١هـ/١٨٣٥م)، لينهل من معين شيوخها، ومن أبرزهم: الشيخ سعيد بن عيسى الباروني. امتاز بأسلوبه الرصين في الإصلاح الاجتماعي، وقد أوكلت إليه الدولة العثمانية مهمّة الإشراف الفعلي على سكّان الجبل الغربي، خلال عهد الوالي مصطفى نظيف. م.أ.إ، تر: ٦٠٤.
- وكان من الأقطاب الثلاثة، من المشارقة والمغاربة، الذين توفوا في نفس السنة: ١٣٣٢- ٣٣هـ/ ١٩١٤م، امحمد بن يوسف اطفيش بالجزائر، وعبد الله بن حميد السالمي بعُمان، وعبد الله بن يحي الباروني بليبيا، وسمّي بعام الحزن عند أهل جبل نفوسة.

- الثالث: في وادي مزاب بمعهد القطب الشيخ اطفيش[1]، ببني يزقن، ولاية غرداية، الجزائر، من سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م، إلى ١٣١٦هـ/١٨٩٨م.

ولنقف على بعض النماذج من أثره التربوي والإصلاحي، في كلّ مرحلة على حِدَة، ونبدأ بما بدأ الله: بتونس، لمّا ارتحل سليمان إلى الزيتونة المعمور، للاغتراف من مناهل العرفان، سنة١٣٠٥هـ/١٨٨٦م، كتب إليه والده عبد الله قصيدة رائعة كلّها تحريض ونصائح وتوجيهات، نقتطف منها:

تعلّم بني العـلم والزمـــه دائمـاً ... قرينـا مـع التقوى وفعل الأوامر
فما العلم إلاّ كالحـــياة لأهلـــه ... فـذكـــرهم يبقى ولو في المقابر
فما عذر من قد حلّ تونس طالبا ... وفيهـا علوم طـافحات المغادر

ثمّ بعد ذلك انتقل إلى الجامع الأزهر، سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م، مكث فيها ثلاث سنين، ينهل من معين العلم النافع، ويتعرّف على الحركة العلمية والثقافية والسياسية للنهضة الشرقية ورجالاتها، مدّة ثلاث سنوات.

وفي نفس الغاية يسافر غربا إلى معهد القطب بالجنوب الجزائري، مزاب، ويحل بها ضيفا كريما، من سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م إلى ١٣١٦هـ/١٨٩٨م، فيرحب به الشيخ محمد بن يوسف أطفيش القطب، ترحيبا بالغا، وآواه مدّة ثلاث سنين، تزيد أو تنقص، وكذلك عامة الناس هناك، وخصّه فوق النظام العام الدراسي، بأوقات إضافية وعلوم أفرده بها، لما وجد فيه من الاجتهاد والنباهة والإقدام.

(١) أشهر عالم إباضيّ بالمغرب الإسلاميّ في العصور الحديثة. (و:١٨٢١، ت: ١٩١٤م) من عائلة شهيرة بالعلماء من بني يسجن، أنشأ القطب معهدا للتدريس ببني يسجن، تخرّج فيه علماء ومصلحون ومجاهدون، انبثّوا في أقطار المغرب والعالم الإسلاميّ، م.أ.إ، تر: ٨٦٤.

أخلاقه :

- جملة أخلاقه التي رفعته إلى مقام المربّين والمصلحين، قد أغنى الباحث عنها الشيخ أبو اليقظان، رحمه الله، في كتابه " سليمان الباروني باشا في أطوار حياته "، وأفرد لها صفحات بأمثلة حيّة، بعنوان " أوصافه الخلقيّة والخلقيّة"، منها : عفّته وزهده عن حبّ الظهور، نزاهته وصبره الجميل، ثقته بالله واعتصامه بربّه، تورّعه وتحرّيه لدينه، همّته وشهامته، حسن سياسته ولطف حيلته، حلمه وسعة صدره، برّه بوالديه وأساتذته، دعابته ولطف نكتته، ويلاحظها القارئ الكريم بعضها مبثوثا في ثنايا هذه الورقة البحثية. أفرد لها الشيخ أبو اليقظان، سبعاً وعشرين صفحة مدلّلة بأمثلة واقعية وشهود[1].

بعض من أقواله:

من أقواله لأبنائه : " المؤمن لا يدّعي الوحي، ولكنّه يعتبر ويذّكر، لأنّ الذكرى تنفع المؤمنين، فالاستفادة من التجارب والتفاهم النفسي على ضوء الضمير الطاهر نعمة وأيّ نعمة "[2].

في ورقة تخويله لشقيقه يحي الباروني بالوكالة على أهله وماله، يقول: " وأوصيه بتربيتهم تربية دينية ووطنية "[3].

جوابه لقائد جيش ووالي الدولة الإيطالية بطرابلس: " أنا لا أكره أن أرى الأوربي وعلى الأخص الإيطالي جارنا الجديد يسير بجنب الطرابلسي متعاونين

(١) أبو اليقظان، سليمان الباروني، ص ٥٠-٧٧.
(٢) الباروني، صفحات خالدة، ص ٨٤.
(٣) سعد الهاين، أثر العامل الديني، ص ٢٧.

على الكسب والاستفادة ممّا أودعه من الخيرات في بطون أودية بلادنا ورؤوس جبالنا.

أنا لا أكره أن أرى الجاهل منهما يتعلّم من العالِم منهما ما لم يعلمه، ولا أكره كذلك أن أرى العالِم منهما يفيض من نور معلوماته على الجاهل منهما.

ولكنني أكره أن أرى الوطني عبدا مملوكا لغيره، بحيث لا يملك شيئا من دينه وعرضه، فالموت أسهل وألذّ طعما من ذلكم عندي"[1].

فكره وجهاده :

فكيف تكون أعمال وسمات وسلوك من تثقّف في مثل هذه المعاهد الثلاث؟ وفي ذكاء الباروني ونجابته ؟

لقد أثير اهتمام المسلمين بالمذهب الإباضي وفكره بين المذاهب الإسلامية، في وقت وجيز، وتحقق ذلك بفضل النشاطات الإباضية المستمرّة التي تهدف إلى الحصول على فهم أفضل لها من قبل المسلمين المجاورين، و" أحسب أنّه من أسبق علمائنا عناية بنشر هذا التراث [الإباضي] وإخراجه الناس، ما قام به الشيخ سليمان الباروني والمطبعة البارونية بمصر، وما طبعه القطب الشيخ أطفيش من نفائس وذخائر، هذه المجهودات أخرجت من حيّز النسيان تراثا قيّما مازال بعضه إلى يومنا هذا في طبعته الحجرية الأولى[2]".

منها مجهودات الشيخ سليمان الباروني باشا، وجهاده ضدّ الغزو الإيطالي في ليبيا، سنة ١٣٢٨هـ/١٩١١م، بداية من جبل نفوسة، وبكفاحه الصلب في

(١) أبو اليقظان، سليمان الباروني، ص ٦٠.
(٢) ينظر: محمد صالح ناصر، تراثنا الإسلامي والعصر، مكتبة الضامري، سلطنة عُمان، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٥٣.

سبيل قضية الإسلام، " إذ كان يدعو إلى التفاهم الأفضل بين المسلمين، وكان أحد أول من دعاة المسلمين لنسيان الخلافات...والعودة إلى كتاب الله وسنّته.

إنّ المكانة التي رسّخها الباروني لنفسه في الأوساط الإسلامية الدولية، وفّرت التقدير للإسهام الإباضي في سبيل الوحدة الإسلامية، ومهّدت السماع لوجهات النظر الإباضية[1] ".

" فهو لم ير التخلص من تخلّف البلدان العربية إلاّ في تدعيم القوى الروحية للمجتمع العربي، وبتوحيد جميع المسلمين أمام تهديدات التغلغل الأوروبي في الولايات العربية"، .فلقد أولى سليمان الباروني الاهتمام الأعظم في نشاطه الفكري – السياسي لنشر الثقافة– التنويرية بهدف إعداد التربة الصالحة لإحياء الحضارة العربية، فالنهضة العربية في مفهومه كانت تعني التقدّم العلمي للحضارة وإقامة مجتمع يحترم الشخصيّة ويضمن سلامتها"[2] في ضوء الإسلام.

– ففي ١٢ ربيع الأنوار ١٣٢٢هـ/ ٢٧ ماي ١٩٠٤م، احتفل بأول مدرسة شيّدها في قرية البخابخة[3] من مدينة يَفْرَنْ، على أنقاض مدرسة المصلح الكبير الحاج سالم أبي الهول اليفرني، التي أنشأها في صدر المائة الثالثة عشر

(١) ينظر: عمرو خليفة النامي، دراسات عن الإباضية، ترجمة ميخائيل خوري، مراجعة ماهر جرار، دقّق وراجع أصوله وعلّق عليه: محمد صالح ناصر ومصطفى صالح باجو، ط ١، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠١م، ص ٣٨. سيشار إليه عند وروده بـ: النامي، دراسات عن الإباضية.
- لقّبه عمرو خليفة النامي بـ " سيف الإسلام الباروني". ينظر: الجيطالي، القناطر، ص ١٦٢، (الهامش).

(٢) ينظر: نيكولاي إيليتش بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث منتصف القرن السادس عشر- مطلع القرن العشرين، ترجمة وتقديم: د. عماد حاتم، منشورات مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات المترجمة (٢٨)، ط ٢، ٢٠٠٥م، ص ٣٨٨. سيشار إليه عند وروده: بروشين، تاريخ ليبيا.

(٣) "يفرن: وهذا الاسم الآن يطلق على قرى متعدّدة هي تقربوست و... والبخابخة وفي هذه الأخيرة مدرستنا التي جدّدناها سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، وهي الآن عامرة بطلبة العلم الشريف والقرآن الكريم ". ينظر: الشيخ عبد الله بن يحي الباروني، رسالة سلّم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمّة الدين، ص ٣٩- ٤٠، [الهامش: بحاشية ابنه الشيخ سليمان الباروني باشا].

الهجرية/ التاسعة عشر الميلادية، وكان والده الشيخ عبد الله العضد الأيمن لابنه سليمان عند تأسيسه للمدرسة البارونية[1] ومسيّرها.

واهتمّ بتدريس القرآن الكريم أوّلا، بعد ما كاد تعليمه ينقطع[2]، والحديث النبوي والفقه وأصوله وعلم الكلام، وعلوم اللغة العربية: البلاغة والصرف والإنشاء، والمنطق. وضمّت عددا غير قليل من التلاميذ فاق ٢٠٠، حسب ما ذكر المؤرّخ بروشين[3]، جاؤوا من كلّ أنحاء الجبل الغربي للتعلم.

– وما يستلزم المدرسة المكتبة العلمية، فأسّس مكتبة بجانبها– المكتبة البارونية– مشتملة على أنفس الكتب، وقد نوّه بها في قصيدة له، صفحة ١٢٠ من ديوانه.

" وضعت السلطات مختلف العراقيل الممكنة أمام النشاط التنويري للباروني، ... فسافر إلى مصر، حيث انصرف إلى العمل الدعائي الناشط، وشرع في القاهرة بإصدار صحيفة " الأسد الإسلامي "، ...، واصل الباروني نشاطه مقيما على كونه واحدا من القادة الفكريين لحركة النهضة العربية في ولاية طرابلس[4]"، متأثرا بالنهضة العربية هناك، خاصة الداعية الكبير محي الدين الخطيب، الذي يعدّ أبا الحركة الإسلامية الجديدة في مصر.

إذ يعدّ الشيخ محي الدين الخطيب أول من انتهج طريق الدعوة إلى الله عن طريق الصحف والمجلات–" الفتح " و " الزهراء "، اللتين بفضلهما فتحت عيون المثقفين المسلمين إلى ما يحيكه الغرب من دسائس، الهدف منها الاستيطان العسكري عن طريق السياسة، والغزو الثقافي والروحي عن طريق

(١) ينظر: أبو اليقظان، سليمان الباروني باشا، ج١، ص ٨٢-٨٣.
(٢) سعد الهاين، أثر العامل الديني، (عن: أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي)، ص ٢٨.
(٣) بروشين، تاريخ ليبيا، ص ٣٨٧.
(٤) بروشين، تاريخ ليبيا، ص ٣٨٧.

التنصير- يفيد بها العالم الإسلامي كلّه مشرقاً ومغرباً، ويكوّن الصداقات مع علماء الإسلام هنا وهناك[1]. فعمل الباروني على:-

- إنشاء مطبعة الأزهار البارونية في القاهرة، سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، التي أصبحت الوسيلة العظمى في نشر أفكاره، حبرا ناطقا على ورق، نشر بها في مدّة وجيزة نفائس كتب الحديث والتاريخ والأدب، للمغاربة والعمانيين، ممّا يدل على انشغاله بأوضاع عُمان وأهله، وهو ينظر إلى النهضة في الهند وأوضاع العرب في الجزيرة والغرب الإسلامي[2]. فكان من هذا الإنتاج ما يأتي:-

- الجزءان الثاني والثالث من "وفاء الضمانة بأداء الأمانة"[3]، وحاشية الشيخ السالمي على مسند الربيع بن حبيب في الحديث[4]، والجزء الثاني من "الأزهار الرياضية في أيمة وملوك الإباضية" في التاريخ[5]، وديوان الباروني[6]، وديوان السيف النقاد للشيخ الحضرمي[7]، وديوان القلائد الدريّة في مدح خير البرية[8]، وكتاب "الأمالي والذيل والنوادر"[9].

(١) ينظر: محمد ناصر، تراثنا الإسلامي، ص ٢٢-٢٣.
(٢) سليمان الباروني، صفحات خالدة من الجهاد، ص ٢٧.
(٣) في الحديث الشريف، لمؤلفه الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش القطب، طبعا جميلا على ورق نقي، ثمنه من المطبعة البارونية بمصر: ٢٥ قرشا، ومن مكتبة السيد يوسف بن مسعود بقسنطينة الجزائر بـ: ٩ فرنكات. ينظر: سليمان الباروني، صفحات خالدة، ص ٥٠.
(٤) معتمد الإباضية في الحديث.
(٥) في تاريخ الدولة الرستمية، أول دولة في التاريخ الإسلامي في المغرب الأوسط: الجزائر. حقّق وفهرس من الأساتذة: أحمد كروم وعمر بازين ومصطفى بن دريسو، قدّمه: د. إبراهيم بن بكير بحاز والشيخ أحمد بن سعود السيابي، ط ٣، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، طبع دار البعث، قسنطينة الجزائر.
(٦) ديوان شعر للشيخ سليمان الباروني باشا، طبعه سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.
(٧) نظم أبو محمد إبراهيم بن قيس بن سليمان الهمداني الحضرمي، (ت نحو ٤٧٥هـ/١٠٨٢م)، ولد بحضرموت، واستعان بالخليل بن شاذان الإمام الإباضي بعُمان، فأعانه بجند ومال، فاستولى حضرموت باسم الخليل عاملا عليها، وأقرّه الإمام راشد بن سعيد، ثمّ قلّد أمر الإمامة بعد ذلك، وكان شاعرا. ينظر: علي أكبر ضياني، معجم مصادر الإباضية، ط ٢، الناشر مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٢٨٣.
(٨) قصائد في مدح خير البرية، صلى الله عليه وسلّم، للشيخ عيسى التتمرتي النفوسي.
(٩) ألفه أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي، في الأدب، طبع على نفقة السيد إسماعيل بن يوسف بن دياب، تاجر بال.فحامين بمصر، ثمنه: ٥٠ قرشا. ينظر: سليمان الباروني، صفحات خالدة، ص ٥١.

- " الأسد الإسلامي " ، جريدة دينية سياسية أدبية أسبوعية، طبعت مؤقتا بمصر كذلك[1]، صدر العدد الأول منها في سنة إنشاء المطبعة في ١٣٢٥هـ/١٩٠٦م، صاحبها ومحرّرها هو نفسه، عنوانها: شارع محمد علي القاهرة[2]. ولم يصدر منها إلاّ ثلاثة أعداد، بسبب التضييق على الجرائد الحرّة.

أشار في افتتاحيتها إلى أهداف الجريدة،" فإن خطّته خطة سكون واعتدال، كغيرها من الجرائد المسالمة- وإن خالف ذلك ما يتبادر ممّا يرمي إليه ظاهر عبارة العنوان- يبدل النصح لأمّة الإسلام ويدلها على ما يعود عليها بالنفع العاجل والآجل، والتقدم في مباراة الأمم الحيّة ومزاحمتها في معترك الحياة الهنيئة.

ينبه أوربا إلى ما يراه صالحا ضامنا للسلم والاطمئنان لائقا بها ممّا يختص بمعاملة أهل الإسلام إن قبلت الرشد.

لا يألو جهدا في الدفاع عن الإسلام وحقوقه أينما وجد وحيث كان، لا يتقيّد بقطر دون آخر على حسب ما يقتضيه لا يتعرّض للشخصيات إلاّ فيما يكون عائداً للمصلحة العامة.

يوجه العناية التامة إلى البحث عن كلّ ما يراه مصلحا لشؤون الدولة الإسلامية العظمى في الولايات، وعلى الخصوص الولاية الطرابلسية، أداء لحق الوطن، إذ كانت أمّة منحطة عن جاراتها مصر وتونس في المعارف والعمران،

(١) يظهر أنّه كان يأمل أن تطبع في طرابلس ليبيا، لتقريبها للقراء هناك.
(٢) ممّا كتب على واجهة العدد الثالث: اشتراكات الأسد: ٥٠ في السنة تدفع مقدّما داخل القطر، ٦٠ خارج القطر أو ١٥ فرنكا، يرسل الأسد الإسلامي بنصف القيمة لمؤذني الجوامع، وتلامذة المدارس، وطلبة العلم بالأزهر الشريف وغيره من المعاهد العلمية كجامع الزيتونة الأعظم بتونس.
- وممّا في متنها: " قول سيد البشر عليه السلام " الدين النصيحة "، فاستخرت الله تعالى على إنشاء " الأسد الإسلامي " وإصداره أسبوعيا مؤقتا في مصر، ...، أرتاد له دار إقامة تناسب مشربه فيصير فيها يوميا، إن شاء الله، ولا أراها إلاّ مصر دار النهضة دار الحريّة ". ينظر: الباروني، صفحات خالدة، ص ١٢.

خالية من أغلب دواعي التقدم، من مخترعات هذا العصر الجديد عصر الحركة والعجائب[1]"

- جريدة " الباروني "، بعد هدنة ١٩١٨م، أنشأ هذه الجريدة في دار الخلافة، وقد رأى وإن اضطرّ لإغماد السيف، فقد أصبح من واجبه إشهار القلم، فأخذ ينشر فيها، هو وأصدقاءَه، مبادئ الوطنية[2].

- " الجامعة الإسلامية "، مشروع شغل بال المسلمين الغيورين في بداية القرن، وكتب عنه غير المسلمين، وكان للشيخ سليمان الباروني غرفته فيها، ومن المواضيع في العدد الأول من " الأسد الإسلامي "، عرض فيه صورة طبق الأصل لرسالة استبيان، أو سبر آراء، حول المشروع، بعثها إلى جلّ علماء الإسلام في زمانه، طرح فيها ثمانية أسئلة، حول وحدة المسلمين وجمع كلمتهم، حرّر هذه الرسالة في رمضان ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م. فهل تلقى المرحوم أجوبة عليها؟ وأين توجد؟ على فرض وجود ردود، ولو قليلة، لابدّ من وجود من يشاركه الرأي. والمتأمل البسيط يجدها صالحة للطرح مرة أخرى وأخرى في زماننا[3].

---

(١) سليمان الباروني، صفحات خالدة من الجهاد، ص ١٢.
(٢) أبو اليقظان، سليمان الباروني، ص ٨٤.
(٣) عند مطالعة الباحث في كتاب رسالة العامة والمبتدئين، وجد تعليقا- في الهامش للشيخ سليمان الباروني باشا، على عنوان " المذاهب في الإسلام "- يتضمّن إجابة على بعض هذه الأسئلة. ينظر: الباروني، رسالة العامة والمبتدئين، ص ٤٦-٤٧.
- الأسئلة هي:
١) هل توافق على أنّ من أقوى أسباب تفرّق المسلمين تعدّد المذاهب وتباينها؟
٢) على فرض عدم الموافقة على ذلك فما هو الأمر الآخر الموجب للتفرّق؟
٣) على فرض الموافقة على ذلك فهل يمكن توحيدها بالجمع بين أقوالها المتباينة وإلغاء التعدّد في هذا ... الزمن الذي نحن فيه أحوج إلى الاتحاد من كلّ شيء؟
٤) على فرض عدم إمكان التوحيد فما الأمر القوي المانع منه في نظركم وهل لإزالة من وجه؟
٥) على فرض إمكان التوحيد، فأيّ طريق يسهل الحصول على النتيجة المطلوبة، وأيّ بلد يليق ... فيه إبراز هذا الأمر، وفي كم سنة ينتج، وكم يلزم له من المال تقريبا، وكيف يكون ترتيب العمل فيه؟
٦) وعلى كلّ حال فما الحكم في الساعي في هذا الأمر، شرعا وسياسة (مصلح أم مفسد)؟
٧) ما الدليل القاطع على منع الصور التي لا ظلّ لها، ممّا يرسم على الورق من صور الملوك والجيوش مثلا لمقصد حسن؟
- حرّر هذه الرسالة بتاريخ: غرّة رمضان ١٣٢٥هـ/٨ أكتوبر ١٩٠٧م.
- يبدو أنه حاور الشيخ امحمد اطفيش، القطب، في هذه الأسئلة، عندما زاره سنة ١٩٠٧م، بدليل ما ذكر أنه حاوره كثيرا في مسألة الصور الفتوغرافية (السؤال السابع)، وأراه صور لجنود الدولة العثمانية وهي تواجه الغزو الإيطالي، فأعجب بهم، وقال له (في ما معناه): " إذا كانت لهذا الغرض فلا بأس ". ينظر:

- ويرى منبع هذه النهضة الإسلامية الذي هو شعور المسلمين بدواعي الحركة والعمل والابتكار لإيجاد " الجامعة الإسلامية "، من حيث أراد الله من منابع خيره: "هو الهند ويحق لها أن تعرف بدار النهضة الإسلامية، دون قيد لتكون لها الدرجة الأولى، ولمصر الدرجة الثانية بقيد إفريقيا، ولتونس الدرجة الثالثة بقيد المغرب[1]".

- ثمّ يلتفت إلى الغرب الإسلامي، ويبدؤها من طرابلس[2] " وقد انتهى فيها تحرير النفوس من مدّة والهمّة جارية في إتمام تحرير الأملاك، وفق الله رجالها إلى ما فيه صالحهم وصالح بلادهم ودولتهم[3]"، ثمّ يذكر الجراد المنتشر الذي جاء على الأخضر واليابس، بعد أمطار وثلوج لم تعهده البلاد منذ عشرات السنين.

- في أواخر سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩٠٧م، يزور الجزائر ثمّ يتوجّه إلى الجنوب بمزاب يزور شيخه القطب، جاء من مصر وجبل نفوسة لزيارة شيخه القطب وزملائه في الدراسة في واد مزاب وإخوانه الكثيرين في الجزائر، فاجتمع بشيخه في بريان، فجاء معه في موكبه، وحلّ في بني يزقن ضيفا عزيزا مبجلا على شيخه.

ومن مقاصد الشيخ سليمان الباروني في هذه الزيارة ترويج الكتب المهمّة التي طبعها في مصر، بالمطبعة البارونية، والتعريف بها، وهي: الأزهار

---

(١) ثمّ يرشّح مصر لتكون مقر هذه الجامعة الإسلامية، في قوله: " ... والذي يؤكد لهم النجاح، فيما أراه، ما جُبلوا عليه خصوصا النشأة المدرسية، من الميل إلى التوحيد وعدم التعصّب للمذاهب والتداعي بالقبائل، فهم أقرب الشعوب إلى تكوين الجامعة الإسلامية المطلوبة، إذا قصدوها وأخلصوا العمل لله، وفّق الله كلّ ساع في الإصلاح إلى الصواب وحسن العمل". ينظر: سليمان الباروني، صفحات خالدة من الجهاد، ص ٢٧.
(٢) قال عن أهلها البكري، ص٦٠: " أهل اطرابلس أحسن خلق الله معاشرة وأجودهم معاملة وأبرّهم بغريب ". ينظر: أبي عبد الله بن عبد العزيز البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من الكتاب المعروف بالمسالك والممالك، الناشر: -Librairie d'amérique et d'orient, ADRIEN MAISONNEUVRE, 11,rue ٢٨ Saint-Sulpice (VI°). P
(٣) ينظر: سليمان الباروني، صفحات خالدة من الجهاد، ص ٣٠.

الرياضية، سلّم العامة والمبتدئين في التاريخ، والجزء الثاني من وفاء الضمانة في الحديث، وديوان القلائد الدريّة في مدح خير البرية للشيخ عيسى التندميرتي؛ وكذلك ليأخذ أخاه يحي الباروني الذي هو تلميذ عند الشيخ[1]. وعند وداعه، بعد شهر كامل معه، ربَت على كتفه فقال : " ستكون أميرا، وإذا زرتني مرّة أخرى فإنّك تزورني وأنا تحت التراب. فكان كذلك[2]".

- في نفس الزيارة، كان يناقش شيخه القطب، في مسائل العصر، هو وإياه كتلميذين متحابين يتباحثان في مستوى واحد تواضعا وإنصافا وصدقا وإخلاصا؛ مثل كرويّة الأرض والتصوير الفتوغرافي[3].

- وفي سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م، أربعة أشهر بعد وفاة القطب، تجشّم الصعاب وزار الجزائر، ووقف على قبر شيخه، رحمه الله، وأدى واجب التعزية بنفسه، وبعد أن سمع خطب الاستقبال من إخوانه، ارتجل خطبة قال فيها: " ... وما زيارتي ضريح أستاذ الجميع فقيد الإسلام الشيخ محمد بن يوسف إلاّ بعض ممّا أراه واجباً عليّ، إذ كان ممّن علّمني الدين المبين، وربّاني على مسلكه الصحيح، وعلّمني الغيرة في الله، علّمني واجب الدفاع عن دين الله، علّمني حق الوطن، فإن بكيت عليه دماً، أو قطعت لزيارة قبره برّاً وبحراً، فلا أرى نفسي إلاّ مقصّراً، فرحمة الله عليه، ووفّق علماء الإسلام إلى إحياء دين الله القويم وإرشاد كلامه إلى مواضع الداء منها، والدواء المجدّد لحياتها[4]". قال هذه الخطبة بحضور الوالي العام العسكري الفرنسي للمنطقة، ولم يبال في الله لومة لائم.

-

(١) محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، مطبعة البعث، قسنطينة الجزائر، ط ١، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ج ٢، ص ٢٢٩-٢٣٠. سيشار إليه بـ: محمد دبوز، أعلام الإصلاح.

(٢) أبو اليقظان، سليمان الباروني، ص ٨٠-٨١.

(٣) شهادة الشيخ أبي اليقظان الذي حضر أكثر هذه المجالس معه. ينظر: أبو اليقظان، سليمان الباروني، ص ٧١، ٧٤.

(٤) سليمان الباروني، صفحات خالدة، ص ٤٥٣.

ولا يفوتنا أن نذكر بعض من تأثروا حقا بسيرته، منهم:

١- أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى حمدي، صديقه الوفيّ، الذي رافقه في حياته وعن بعد، والذي يعدّه أستاذه ومربيه[1]، فلم تنقطع مراسلاتهما لبعضهما البعض إلى آخر لحظة من حياته، ونشر له عدّة مقالات في الصحف الثمانية التي أنشأها، والتي " امتازت بالجرأة والصلابة وتحدي المستعمرين وإدارتها [2]"، ولقّب بذلك برائد الصحافة الجزائرية. وله مواقف عديدة معه، منها تأثره بأسلوبه الصحفي فكان السبب في ولوجه ميدان الصحافة، وفي إكمال الدراسة في المشرق العربي، وشعره، ورثاه ودافع عنه بعد مماته بتأليف كتاب عنه[3].

٢- أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، نزيل مصر سنة١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م، من منفاه تونس بعد الجزائر مسقط رأسه، والذي أخذ مشعل إحياء التراث الإسلامي عامّة و الإباضي خاصّة ونشره، عمل مصحّحا ومحقّقا لبعض النفائس الإسلامية، مثل تفسير القرطبي و نهاية الأرب، في دار الكتب المصرية منذ سنة ١٩٣٠م، إلى أن وافاه أجله سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م[4]، وكانت بينهما مراسلات ولقاءات متكرّرة.

(١) ينظر لمزيد تفصيل: محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠م، ص ١١٨.

(٢) الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر الجزء السادس الصحافة العربية في الجزائر بين الحربين ١٩٢٠/١٩٤٠م، الصحافة اليقظانية، مطبعة المنسرت، ١٩٧٧م، ص ٠٨. سيشار إليه بـ: الزبير، اليقظانية.

(٣) عن الموضوع ينظر: محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح، ج ٢، ص ٢٤٨ و٢٥٤ و٢٦٢.
- " فإعجابه بالباروني وثناؤه عليه هو ثناء بالتبع، لأن ذلك الثناء في أصله منصرف إلى الأعمال الجليلة التي قام بها، وإلى المكارم النبيلة التي تحلّى بها، وإلى القيم السامية التي جاهد في سبيلها ". ينظر: محمد الهادي الحسني، الشيخ أبو اليقظان وكتابه سليمان الباروني، الموافقات: مجلة علمية أكاديمية محكّمة تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية، تصدر دوريا عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين ملود قاسم نايت بلقاسم الجزائر، ٥، جوان ١٩٩٦م، ص ٤٦٢.

(٤) في صورة للأعضاء المشاركين في المؤتمر الإسلامي العام، الذي انعقد في القدس عام ١٩٣١م، يظهر الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، واقفا حاملا [صحيفة] في يده اليسرى، وعصاه في يده اليمنى، في صدارة الصورة الرابع من اليسار. ينظر: تيسير بن موسى، كفاح الليبيين السياسي في بلاد الشام، ١٩٢٥-١٩٥٠م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (٢)، دار الكتب الوطنية بنغازي، ٢٠٠٦م، ص ٥٦ (الصورة). سيشار إليه بـ: تيسير، كفاح الليبيين.

وتكفّل بالقضية العُمانية في محافل الأمم المتّحدة، ممثلا للإمام غالب بن علي، في أواخر الخمسينات وبداية الستينات من القرن الماضي، فأبدى نشاطا كبيرا وحنكة سياسية ناجحة، وله كتيب حول تاريخ دولة عُمان الإمامية.

أنشأ مجلة " المنهاج "، على نهج مجلة " الأسد الإسلامي " للباروني، ومتأثرا بها، وساعده على ذلك أعزّ أصدقائه الداعية الإسلامي محي الدين الخطيب، صاحب المطبعة السلفية التي نشرت فيها المجلة.

بعث له الباروني رسالة إعجاب بـ" المنهاج "[1]، بتاريخ ١٧ صفر الخير ١٣٤٤هـ/١٢ أفريل ١٩٠٦م، قال له فيها، بعد التهنئة: " ...، ما غرَّبت أبا إسحاق إلاّ لأنّك الحرّ اللبيب فاقبل ذلك بصدر رحب، ولا تقل إنّي غريب، فإنّ الأرض كلّها وطن للأحرار والمؤمنين، أمّا رياض السماء فمسرح خاص لأرواح المخلصين، بيد أنّك نزلت أرض كنانة الله مصر، بين علماء أعلام وأقطاب عظام، فاسبح في أنهار معارفهم واجن الجواهر النفيسة من لجج بحارهم، واقتبس من أنوار سياستهم النافعة، وتزوّد بما طاب من وطنيّتهم الذائعة، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ...".

٣- ومن الذين تأثروا به ولم يروه، بل قرؤوا له: الشيخ علي يحي معمّر، الذي أخذ مبادئ العلوم في جبل نفوسة ثمّ جربة فالزيتونة، أين التقى بالبعثة العلمية المزابية، فكانت السبب للالتحاق بمعهد الحياة بالقرارة جنوب الجزائر، الذي أكمل فيه مشوار تعلّمه لعدّة سنوات، ثمّ عاد إلى ليبيا فتقلّد عدّة مناصب تربوية في وزارة التربية الليبية.

---

(١) ينظر: أبي راس عبد الله بن محمد الكاملي، سبيل الخلود ٢، الحلقة ٢: أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، مطبعة الشهاب قسنطينة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ص٦٣-٦٥.
- عبد الله بوراس: تلميذ أبي إسحاق اطفيش وأحد المتأثرين بفكره، أسّس مدرسة، بإيعاز من شيخه، بمدينة قلمة، بالشرق الجزائر، وقد زارها، قبل ذلك، الباروني سنة ١٩٠٧م.

ألّف عدّة الكتب في الأدب والتاريخ الإسلامي والإباضي، بأسلوب مرن علميّ رائع، جعل كثيرا من الباحثين الجامعيين يتخذون كتبه مصادر ومراجع أوّلية لبحوثهم الأكادمية، حول التراث الإباضي خاصة، وهو صاحب مقولة: "معرفة وتعارف واعتراف "[1].

٤- نقل الشيخ علي يحي معمر هذا الاعتبار" ولا سيما ما تركه الشيخ سليمان الباروني من آثار وأفكار[2]" إلى تلميذه، فقيد ليبيا، عمرو خليفة النامي، الذي بدا عليه تأثره بأفكار الشيخ سليمان الباروني باشا، النيّرة وعقيدته الصلبة، فذكره في مؤلّفاته وتحقيقاته، مع قلّتها، بألقاب العظماء في الإسلام، فنجد: "سيف الإسلام سليمان باشا الباروني، وحسبك أنّها -كَبَاوْ- أنجبت مفخرة الجبل، بل مفخرة الإسلام في هذا العصر العلامة المجاهد الكبير المرحوم سليمان باشا الباروني[3]".

كما واصل عمرو خليفة النامي، مسيرة نشر الفكر الإباضي وثراته، بأسلوب أكادميّ عالي المستوى، " يمثل في كتاباته ذلك النموذج من الشباب المسلم الملتزم، دون جمود وتزمّت، المتفتّح دون انحلال أو تسيّب، كانت أغلب اهتماماته تحوم حول الفكر الإسلامي، ورؤاه في جميع الموضوعات التي كان يعالجها، منطلقا من منظور إسلاميّ ثابت [4]".

---

(١) النامي، دراسات عن الإباضية، ص ١٠.
(٢) النامي، دراسات عن الإباضية، ص ١٠.
(٣) الجيطالي، القناطر، ص ٢٢، ٤٩، ٩٠، ٩٢، ١٦٢.
(٤) النامي، دراسات عن الإباضية، ص ١٣.

الباروني وجهاده في ليبيا

– عند عودة الباروني إلى طرابلس، في نفس السنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، تبدأ مشاكل الرجل العظيم، ومحنه التي توالت عليه[١]، من السجن ثمّ اندلاع الحرب الطرابلسية ضدّ الغزو الإيطالي، فيقدّم الزعيم الليبي سليمان باشا الباروني أروع مثال عن المجاهد المسلم الوطني، في سبيل وحدة التراب الليبي وأمّته، ويربط هذه التضحيات بمثيلتها في المشرق والمغرب العربي، ويلقن الأوربيين دروسا في البطولة والسياسة والفكر الإسلامي المتحضر المعاصر.

– تكون نتيجة هذه الموجة من المحن إبعاده إلى فرنسا، حيث يقضي فترة من أيّامه في سجن مرسيليا، ثمّ يتمكن من الدخول إلى تونس مستخفيّا، يلتقي فيه بإخوانه، خلسة، الذين يكوّنون أول بعثة علمية من الجنوب الجزائري مزاب، يترأسها صديقه الحميم أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى، هم في مهمة التحصيل العلمي بجامع الزيتونة العامر، في محرم ١٣٤٢هـ/سبتمبر١٩٢٣م، فيعجب إعجابا عظيما بهذا المشروع العلمي للناشئة، ويباركه، ومن منفاه بمرسيليا كان يراسله في شأن هذه البعثة، ويطلب نماذج من أعمالهم يتسلى بها ويروّح عن نفسه عذاب الاغتراب، ويطمئن لوجود من يقاسمه أفكاره ويحمل معه همّ الأجيال المسلمة في ظلّ الاستعمار الغاشم، وقد كتب لهم قصائد تشجيعية[٢].

– عندما تشكّلت اللجنة التنفيذية للجالية الطرابلسية البرقاوية، برئاسة كمال السعداوي، راسلت بعض القادة الليبيين، للمساهمة في كتابة وتدوين نضال الليبيين ضد الغزو الإيطالي، منهم الباروني، وهو إذ ذاك في العراق، في شهر

(١) يتجاوزها الباحث، لأنّها ليست من صميم موضوع الورقة البحثية هذه.

(٢) ينظر لمزيد تفصيل: المنير بن سعدون، سليمان الباروني باشا رائد التواصل الإسلامي، ورقة بحثية، للملتقى العلمي الثامن، التواصل الحضاري بين عُمان والدول المغاربية في العصر الحديث، جامعة آل البيت، المفرق، المملكة الهاشمية الأردنية، أكتوبر ٢٠١٢م.

فبراير ١٩٣١م، ممّا فيها: " سعادة الزعيم الكبير الشيخ سليمان باشا الباروني الأفخم، تحية واحترام،...، ولا يخفى أنّ التاريخ هو حياة الأمم،...، وأن تمدونا بما يحيط به علمكم من الوقائع،...، إذ أنّنا نريد أن نتحرى فيما نكتبه الحقيقة...".

– أجاب الباروني، في نفس الشهر، وممّا كتبه: " بسم الله الرحمن الرحيم، الوطني الغيور الكامل البشير بك السعداوي دام موفّقا، سلاما وأشواقا،...، إنّ التاريخ أمين، فعليكم تحري الصدق وتتبع خبر الوقائع من مظانها ومصادرها الصادقة، فإنّي كثيرا ما قرأت في الصحف وبعض الرسائل المعنية بحرب طرابلس الغرب، أخبارا عن وقائع وانتصارات وأسماء لا أصل لها، والبعض مبالغ فيها...، وكلّ ما عندي من أوراق تتعلّق بالحرب غير حاضر عندي، وأخاف مخالفة الحقيقة، إذا كتبت لكم شيئا على سبيل التخمين،...[١].

– شهادة الملك إدريس السنوسي له، في رسالة إلى أمين سرّ الجمعية، ردا على رسالة بعثتها له الجمعية لتصفية الخلافات القائمة بينه وبين الزعيم سليمان الباروني، ويقول إدريس في هذه الرسائل التي كتبها بخط يده ومهرها بخاتمه الخاص، ما يلي:

" سليمان باشا الباروني كاتبته وشكرته، على ما كتبه في الجرائد، فردّ عليّ بكتاب وطلب منّي أن أكتب هنا بالجرائد، تصديقا له أنا على علم منه، ولو كان بإمكاني الكتابة باسمي لما تأخرت، ولما اكتفيت بإرسال خطابي له، ومعناه أنّي

(١) ينظر لمزيد تفصيل: تيسير بن موسى، كفاح الليبيين، ص ٤٩، ٥٠، ٢٣٣، ٢٣٥.

مؤمن في كلّ ما كتبه، وكما قلتم حضرتكم: إنّه رجل عاقل وعالم ومجرّب، وينظر إلى الأمور من وجهها الحقيقي، فكلّ هذا صحيح [1] ".

- شهادة عمر شنيب له، في رسالة: " ...، وربّما تستغرب منّي هذه الصراحة، ولكنّي عاهدتكم على الإخلاص والصراحة، ولا أريد أن أتطوّح في قول أو عمل، قبل أخذ رأيكم والعمل بإرادتكم، لثقتي غير المتناهية في شخصكم الكريم، نحن في حيرة هنا بسبب تطوّر الحالة الدولية، واحتمال نشوب حرب، وإن فاتت الفرصة ولم نكن على تضامن حقيقي، ذهب جهادنا المادي والمعنوي سدى، وكنّا عاقين للوطن وخائنين لديننا الحنيف[2] ".

الشيخ سليمان الباروني باشا وحضوره في الثقافة العُمانية

- بعد هذه البسطة عن حياته الأولى، التي لا تفي بحق مسلم عظيم؛ نلتفت إلى طور من أطوار حياته في المهجر، بعيدا عن الدفء الأسري، خاصة مع من نشأ في أحضان أسرة ممتدّة تحيط به من كلّ جانب، حسيا وروحيا، في مجتمع تجمعه عاطفة إسلامية مفعمة بالحبّ والتوادّ والتراحم والتراص؛ لكن الله لطيف بعباده، أوجد له دارا وأهلا أنسوه المحن، ولو إلى حين، فكان مثله كمثل يوسف في النبيين.

- بعد الاستقبال الكبير الذي حظي به في عُمان[3]، في أواخر ذي الحجة ١٣٤٢هـ/جويلية ١٩٢٤م، وتعرّفه على الأحوال هناك، عمل جاهدا على إحياء الموات المعنوي بين الإخوة الأشقاء، بما أوتي من سياسة وحسن تدبير،

(١) ينظر لمزيد تفصيل: تيسير بن موسى، كفاح الليبيين، ص ١٤٩.
(٢) ينظر لمزيد تفصيل: تيسير بن موسى، كفاح الليبيين، ص ١٥٥.
(٣) ينظر لمزيد تفصيل: المنير بن سعدون، سليمان باشا الباروني رائد التواصل.

فسعى بين سلطان مسقط وإمام عُمان، بما ينشط العلاقات الفاترة في تلك الفترة، ولم يألُ جهداً في إلحام القلوب ولمّ الشتات وعقد الجموع بينهما.

- وكما تذكره المصادر فإنّه كان يلتقي في كلّ مرّة بوجهاء المجتمع العُماني، من سلطات وأعيان وعلماء، فنتصوّر مستوى الأحاديث ذات الشجون التي تتناول بين هؤلاء المثقّفين، من اهتمامهم بالشعب ورفع مستواه العلمي والديني، نشر الحضارة العصرية في عُمان.

- وفد سفيراً ممثلا للسلطان والإمام، لدى الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود سلطان نجد، والملك علي بن الحسين في الحجاز، فتوسط بين الملكين رجاء إيقاف الحرب بينهما على بيت الله الحرام، حقنا لدماء المسلمين، وإنزال الوئام في جزيرة العرب[1].

- اعتمده الإمام ممثلا لأمّة عُمان في المؤتمر الإسلامي، حول قضية الخلافة الإسلامية، بعد سقوط الدولة العثمانية، الذي يعقد في القاهرة، لكن السلطات الإنجليزية رفضت دخوله إلى مصر، بطلب من إيطاليا.

(١) هذه مقتطفات من نص الوثيقة التي حملها معه، إلى سلطان نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود، ممضاة من طرف السلطان تيمور بن فيصل، في رمضان ١٣٤٣هـ/أفريل ١٩٢٥م: " ...، حاملـه جناب الشيخ الجليل عندنا سليمان باشا الباروني، أحد رجال الإسلام ومن علماء مذهبنا،...، فالمرجو اعتماد كلامه في هذا الصدد، فإنّه الثقة الأمين، ولا شكّ أنّ لكم الخبرة التامّة فيه وفي أمثاله، وله فطن وتضحية في كلّ ما يتعلّق بإصلاح حال الأمّة الإسلامية ". ينظر: أبو اليقظان، سليمان الباروني، ج١، ص ٢٥٠-٢٥١.
- وفي نظيرتها إلى الملك علي بن الحسين، في نفس المناسبة والتاريخ، يقول فيها السلطان تيمور بن فيصل: " حامل كتابنا هذا هو الوجيه المحبوب لدى الدولتين، المحترم الشيخ سليمان باشا الباروني، أحد علماء مذهبنا، ومن رجال الإسلام المعروف لديكم شخصا وعملا، متوجه إلى ساحة ملككم، مضحيًا خدماته فيما فيه مصلحة الأمّة الإسلامية، ولديه إخلاص كامل لسيادة والدكم والدنا، وقد أصحبناه كتابنا هذا لينوب عنّا في عرض إحساساتنا... ". ينظر: أبو اليقظان، سليمان الباروني، ج١، ص ٢٥٠-٢٥١.
- كما نجد نظير هذين الكتابين، من توقيع الإمام الخليلي، في نفس المناسبة والتاريخ، مشيرا بالخصوص إلى قضية الخلافة الإسلامية، يقول فيها: " ...، فإنّا نكلّف جنابك باسم الأمّة العمانية، أن تحضر هذا المؤتمر،...، وليكن رأيك في مسألة الخلافة مطابقا لقواعد الشرع الصحيحة وهي لا تخفى عليك ". ينظر: أبو اليقظان، سليمان الباروني، ج١، ص ٢٥٣-٢٥٢.

هذا المؤتمر الذي انعقد في عام ١٩٢٥م، كان يهدف إلى الحفاظ على الآثار النبوية من التلف، بعد أن أصبحت الدولة التركية لائكية؛ وبسبب ذلك طالب الشيخ سليمان الباروني، من هذا المؤتمر الذي لم يحضره بـ [١] :

١- أن يؤتمن ملك مصر على هذه الآثار مؤقتا، حتى تتمّ مصر استقلالها، أو تصبح الدولة الوهابية الحجازية قوية، فترجع هذه الآثار إلى مكّة المكرّمة.

٢- إنشاء لجنة دائمة مقرّها مصر، تشتغل وتهتمّ بكلّ ما يتعلّق بالخلافة، والدعوة لعقد مؤتمر إذا دعت الحاجة.

- استمرّ الباروني في سياسة الإصلاح والتربية، أين ما يحل أو يرتحل، فبإطلالة خاطفة في القصائد التي ألقيت على مسامعه، عند استقباله في المدن العُمانية، يلحظ أثر هذه الأعمال، طلبا أو إنجازا، مع التنويه بعدم الاكتراث بالمستخفين والمغرضين ومعارضي الإصلاح.

- بعد سنتين من وجوده في عُمان، فترة تجريبيّة كافية، أصدر الإمام محمد بن عبد الله الخليلي، بعد إجماع العلماء والوجهاء على أنّ الباروني أهل لأن يقلّد أمر تنظيم المملكة على الوجه العصري الموافق لروح الشريعة الإسلامية التي هي مصدر كلّ صلاح وعمران، بيان مرسومه الملكي بإسناد أمر تنظيم المملكة تنظيما صالحا، فبيده الملكيّة والعسكرية والمالية والسياسة الداخلية والخارجية، وذلك في أواخر محرم ١٣٤٥هـ/أوت ١٩٢٦م [٢]. باشر الباروني أعمال الإصلاح بدون هوادة ولا تردّد، منها:

---

(١) ينظر لمزيد تفصيل: الزبير، اليقظانية، ص ٤٨.

(٢) هذا التاريخ كما حقّقه أبو اليقظان. ينظر لمزيد تفصيل: أبو اليقظان، الباروني،ج٢ ، ص ٢٩.

١- **المالية:** بأن تابع منابع بيت مال المسلمين، من أوقاف وغيرها، ووضع لها سجلات وضبط المداخيل والمخاريج، فتبيّن له الانتهازيين من الأمناء، ولا يخلو وقت منهم ومعارضتهم، فاغتبط الإمام بهذه الإجراءات الجيّدة واطمأن لجانبه أكثر، فالبلاد تعيش على الجباية الشرعية فقط، من الزكاة بكلّ أنواعها: الأموال والزروع والأنعام، والأوقاف الأميرية، وللجميع جباة يجدّد تعيينهم كلّ سنة.

٢- **التعليم:** وكونه يؤمن حتى النخاع بضرورة محو الأميّة الشرعية بالتعليم وذلك بإنشاء المرافق التعليمية، فكانت من أوائل إنجازاته بناء المدارس للناشئة البريئة، منها: المدرسة البارونية بسمائل، عندما أخذ في تنظيم مملكة عُمان سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م، بتفويض من الإمام الخليلي، أنشأ هذه المدرسة الكبرى، التي لم يتمّ استكمال برامجها بسبب مرضه الذي ألمّ به، وهذا إيمانا منه بضرورة التربية والتعليم، وهي عملية أساسية لكلّ شعب يريد اللحاق بركب الحضارة، ولفهم المخططات الاستعمارية التي تحاك ضد المسلمين، والشعوب العربية بالخصوص. وكان ينوي أن تكون أول وأكبر ثانوية في سائر البلاد العُمانية، بنظام عصري على الطراز الحديث.

٣- **الجيش:** تفقّد القلاع، ووضع لها دفاتر حصر السلاح والذخيرة، ورأى بأنّ الجيش يحتاج إلى تدريب عسكري عصري، على النظام الحديث، فالأهلون من ابن سبع سنين إلى ابن الثمانين مسلّحون، وكانوا يحملون السلاح العثماني القديم، وقد أخذوا يستبدلونه بالموزر المعدّل وبالإنجليزي.

٤- **الصحة:** شرع في بناء مستشفى، وجلب إليه دكتورا ماهرا ممّن يعرف الباروني في عهد الحرب الليبية ضد الغزو الإيطالي، فاستجاب لدعوته، لكنّه ما

إن وصل عُمان حتي قضت عليه حمى الملاريا، فدفن بسمائل. وهو الدكتور فؤاد بشير الشامي السوري[1]، كما عانى الباروني وأفراد أسرته كثيراً من حمى الملاريا، لكثرة المستنقعات حول مسقط، واستغناء الناس واحترازهم عن التداوي في المستشفى الإنجليزي الأمريكي في مسقط، لأنّه يقدّم خدماته المجانية مقابل التبشير.

لقد أنهك المرض، حمى الملاريا، جسم الباروني وأفراد عائلته، وعانى منها الكثير، صبراً وصابراً. وأكمل المشوار إلى آخر نفس من روحه، وهو مؤمن بالله، المفرّج الكرب، المبتلي عباده، المجازي على ذلك، إلى أن دخلت نفسه مطمئنّة جنّة ربّه، ودفن في بومباي يوم ٢٣ ربيع الأنوار ١٣٥٩هـ/أول ماي١٩٤٠م.

الخاتمة

يوحي مصطلح التربيّة للعقل المسلم باستمرارية العملية التعليميّة مدى الحياة، نظرا للمواهب التي أعطاها الله للإنسان، كأدوات العلم والمعرفة؛ وتعريفها من السهل الممتنع، لأنّه يشمل كلّ مناحي حياته.

لقد أولى سليمان الباروني الاهتمام الأعظم في نشاطه الفكري – السياسي لنشر الثقافة- التنويرية بهدف إعداد التربة الصالحة لإحياء الحضارة العربية، فالنهضة العربية في مفهومه كانت تعني التقدّم العلمي للحضارة وإقامة مجتمع يحترم الشخصيّة ويضمن سلامتها في ضوء الإسلام.

(1) كان أول طبيب هبط طرابلس الغرب، أول حربها مع الطاليان ١٩١١م، وأول من ضمّد مجاهدي واقعة " الهاني"، الشهيرة، وبقي يقوم بواجبه الإنساني، عيّنه الباروني رئيسا للصحة مدّة الحرب الكبرى . ينظر: أبو اليقظان، الباروني،ج٢ ، ص ٦٨-٦٩.

حمل الباروني همّ أمّة بأسرها، مشرقاً ومغرباً، ومثّل للمؤمن الصادق، قولا وعملا، فكان قليل الكلام كثير العمل.

مثّل النصيحة حقّ تمثيل: لله ولرسوله ولعامّة المسلمين، فرسائله وكتاباته المقالية كلّها مفعمة بالتربية وبالنصح والتناصح.

نشأته على التربية الدينية، بادية في كلّ تحركاته وسكناته، كفرد مسلم وكزعيم قائد ومعلم مجاهد، وسياسي محنّك.

علّق آمالا كبيرة على مصر، دولة وشعبا، كنموذج حضاري معاصر حديث للأمّة العربية المسلمة، وحامية الحمى لها.

قضى حوالي ستّة عشر سنة من عمره في عُمان، محاولا تحقيق أماله وأفكاره الحضارية، التي لم يكتب لها الظهور في ليبيا، التي لم ينسها أبدا، لولا المرض الذي ألّم به وأتعبه كثيرا، فأخّر عليه مشروعاته، زد على ذلك الدسائس الاستعمارية البغيضة.

حضور سليمان الباروني في الصحافة الإصلاحية الجزائرية (١٩٢٠-١٩٤٠م)

الأستاذ: عبدالقادر قوبع(*)

مقدمة

ساهمت شخصية سليمان الباروني مساهمة معتبرة في تحريك أحداث العالم العربي الإسلامي في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، ويرجع ذلك إلى تعدد رحلاته ونشاطاته وأهمية المسؤوليات التي تقلدها، وكثرة مراسلاته مع جهات مختلفة في العالم العربي والإسلامي وحتى الأوربي.

وسنحاول في هذه الدراسة أن نحدد مظاهر حضور شخصية سليمان الباروني في الصحافة الإصلاحية الجزائرية والتفاعلات التي نجمت عنها، وهذا بين سنة ١٩٢٠م وسنة ١٩٤٠م. وقد خصَصنا الصحافة الإصلاحية بالدراسة وفي الفترة المذكورة لاعتبارات متفاوتة القيمة، أهمها:

- أن الصحافة في الجزائر لم تنتعش وتزدهر وتتحدى الاستعمار الفرنسي وتنفتح على العالم الخارجي إلا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، أي بداية من سنة ١٩٢٠م.

- أن شخصية سليمان الباروني لم تكن مجهولة لدى النخبة الجزائرية - كما سنرى- ، خاصة أبناء منطقة وادي ميزاب منذ بدايات القرن العشرين.

(*) أ. عبد القادر قوبع، جامعة المسيلة، الجزائر.

فجاءت دراستنا لتتناول حضوره في الصحافة الإصلاحية كرصيد مكتوب معاصر ومسجِّل للأحداث.

- توقفت دراستنا عند سنة ١٩٤٠م، وهذا لوفاة سليمان الباروني، وإن كانت الصحف الإصلاحية الجزائرية قد توقفت قبل هذا التاريخ تحت تأثير نُذر الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م.

لذا ستتناول الدراسة روابط الباروني مع الجزائر، ثم متابعة الصحف الإصلاحية الجزائرية لأخباره ونشاطاته، ومساهمته في هذه الصحف مراسلة وكتابة، لتخلص إلى رؤية هذه الصحف لشخصيته ومن ثَم استخلاص مكانته لدى المصلحين الجزائريين.

١- روابط الباروني مع الجزائر:

ارتبط الباروني بالجزائر منذ شبابه بفضل ارتباطه مذهبيا بمنطقة وادي ميزاب الواقعة جنوب الجزائر، فزار ميزاب عام ١٨٩٦م ومكث بها للتعلم على يد الشيخ محمد اطفيش قطب زمانه(١).

وبقي بميزاب ثلاث سنوات، ثم عاود الزيارة في عام ١٩٠٧م وفاءً وعرفانا لشيخه القطب، وفيها زاد ارتباطه بنخبة ميزابية فتية على رأسها إبراهيم أبو اليقظان(٢).

(١) للمزيد حول محمد بن يوسف اطفيش، انظر: بكير سعيد أعوشت، قطب الأئمة محمد بن يوسف اطفيش (١٢٣٦-١٣٣٢هـ/١٨٢٠-١٩١٤م)، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، د ط، ١٩٨٩م.

(٢) أبو إبراهيم أبو اليقظان: ولد في ٢٩ صفر ١٣٠٦هـ، الموافق لـ ٠٥ نوفمبر ١٨٨٥م، من عشيرة البلات بالقرارة في وادي ميزاب جنوب الجزائر، تربى في عائلة تقية فوالده كان إماما... تلقى أبو اليقظان تعليمه على أيدي مشائخ كثر، كما درس على الشيخ الحاج عمر بن يحي ثم امحمد بن يوسف اطفيش في بني يسقن، حج البيت الحرام ١٩٠٩م وزار في طريقه بيروت وازمير وطرابلس ومدينة الجزائر، توجه إلى تونس ودرس في مدرسة الخلدونية (١٩١٣-١٩١٥م) وبجامع الزيتونة (١٩١٧-١٩٢١م)، عاد إلى الجزائر ليتولى غمار الصحافة الإصلاحية حيث أصدر سلسلة من الجرائد (وادي ميزاب١٩٢٦م، ميزاب١٩٣٠م، المغرب١٩٣٠م، النور ١٩٣١م، البستان١٩٣٣م، النبراس١٩٣٣م، الأمة ١٩٣٣-١٩٣٨م، الفرقان١٩٣٨م. يعد من أعضاء جمعية

ومنذ هذا التاريخ لم تنقطع صلته بميزاب، ففي تونس تفاعلت معه بعثة الطلبة الميزابيين برئاسة أبي اليقظان، وسجلت لنا القصائد والزيارات المتبادلة رسوخ هذا الترابط، فقد كان قدوة الطلبة الميزابيين ومثلهم في الحياة[1].

وفي عام ١٩١٤م عاود زيارته للجزائر، وقد نقلت جريدة الفاروق هذا الخبر، وفصّلت زيارته، وهذا ربما بدعم من الحاج بكير العنق صديق الباروني، والذي سيشترك مع عمر بن قدور في إصدار جريدة الصّديق سنة ١٩٢٠م. فأصبح الباروني بهذه الزيارات قد زار الجزائر من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها (تبسة، ميزاب، زاوية الهامل(بوسعادة)، الجزائر، البليدة، القليعة ، تلمسان، قالمة) [2].

أما ارتباطه بالشخصيات الجزائرية فنذكر علاقته الوطيدة بالحاج عمر العنق وإبراهيم بامتياز وإبراهيم اطفيش ابن أخ القطب الذي اشترك معه في مشاريع عديدة في مصر... [3] .

العلماء المسلمين الجزائريين. كما ترك عددا من المؤلفات وديوان شعر. توفي في ١٩٧٣م. للمزيد انظر:أحمد محمد فرصوص، الشيخ أبو اليقظان إبراهيم كما عرفته، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، د ط، د ت. وكذلك: أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي والإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ص٤٠٥، ٤٠٧.

(١) محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح، ج٣، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ط١، ١٩٧٨م، ص٢٨٠، ٢٨١.

(٢) أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي والإسلامي، ص٤٠٧. أما عمر بن قدور: فهو كاتب وشاعر واحد رواد الصحافة الجزائرية، عرف بسلفيته ووطنيته وتحمسه للجامعة الإسلامية في نشاطه وصحافته، أصدر جريدة الفاروق في فيفري ١٩١٣م، كما راسل صحفا كثيرة (في مصر وتركيا (الحضارة))، نفته السلطات الفرنسية إلى جنوب الجزائر ولم يطلق سراحه إلا بعد عام ١٩١٩م، عاود إصدار جريدة الفاروق في ١٩٢٠م، توفي في١٩٣٢م. انظر:عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، لبنان ، ط٣، ١٩٨٣م، ص٢٤٣، ٢٤٤. وأيضا: صالح خرفي، عمر بن قدور الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، ١٩٨٤م.

(٣) حول هذه العلاقات انظر: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة،ج ٢، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ص ٢٧٤. إبراهيم اطفيش: ١٨٨٦م في بني يزقن بوادي ميزاب جنوب الجزائر، تربى ودرس على يد عمه امحمد بن يوسف اطفيش (القطب)، انتقل إلى الجزائر ثم تونس للدراسة بجامع الزيتونة، شارك في الصحافة التونسية وحتى المصرية، وانخرط في الحزب الدستوري التونسي الحر، نفي إلى القاهرة، وأصدر فيها مجلته المنهاج، ونشر عددا من الكتب الإصلاحية والتراثية، حضر المؤتمر الإسلامي بالقدس ١٩٣١م، ساهم في عدد كثير من الجمعيات والنشاطات السياسية في مصر وعُمان... ظل متواصلا مع وادي ميزاب. للمزيد انظر: محمد ناصر، الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، (د.ط)، ١٩٩١م، ص١٥،٤٤.

وأثبتت المراسلات علاقة الباروني أيضاً بشيخ الزاوية القادرية بوادي سوف الشيخ الهاشمي بن إبراهيم، وسعيه لدعمه في حركته (الجامعة الإسلامية) سنتي ١٩١١-١٩١٢م[1].

وباعتباره رمزاً للجامعة الإسلامية في شمال إفريقيا فقد تفاعلت معه شخصيات ميزابية كثيرة في تونس والجزائر لتكوين جمعية سرية موالية للعثمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى، والتي تزعمها الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي في ١٩١٧م[2].

فترسخت صورة الباروني لدى الجزائريين عامة باعتباره مجاهداً وبطلاً للحرب الطرابلسية ورمزاً من رموز الجامعة الإسلامية، أما لدى الميزابيين فيختصر أبو اليقظان هذه العلاقة بقوله أن الباروني كأنه واحد منا: "... سلالة ونسباً ونشأة وخلقاً وعاطفة وهوى..." [3].

٢- أخبار ونشاطات الباروني من خلال الجرائد الإصلاحية:

لعل جريدة الصّديق هي أولى الجرائد الإصلاحية الجزائرية التي تكلمت عن جهاد الباروني، حيث كتبت في ١٩٢١م نداء إلى الطرابلسيين تدعوهم فيه إلى الاتحاد حوله في معركته ضد الايطاليين ونبذ المذهبية والطائفية، فكتبت:

---

(١) أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي والإسلامي، ص٤٠٤، ٤٠٥. و أيضا أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج٤، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٨م، ص٥٤.

(٢) محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح، ج ٣، ص٢٣٤. وانظر كذلك حول نشاط الباروني في الجامعة الإسلامية: التليلي العجيلي، صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي(١٨٧٦-١٩١٨م)، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، دار الجنوب للنشر، تونس، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٤٤، ١٥٨. أما عبد العزيز الثعالبي: فهو سياسي ومفكر تونسي من أصول جزائرية، ولد بتونس في عام ١٨٧٤م . تعلم بها وانضم إلى معهد الخلدونية بتونس. شارك مع الليبيين في حربهم ضد ايطاليا، كما تزعم فكرة الجامعة الإسلامية بشمال إفريقيا. انتقل إلى مصر، أسس حزب الدستور التونسي الحر في تونس ١٩٢٠م، كما شارك في المؤتمر الإسلامي بالقدس ١٩٣١م. توفي في ١٩٤٤م، ترك مؤلفات عديدة أشهرها كتاب "تونس الشهيدة". للمزيد انظر: أبو عمران الشيخ، ناصر الدين سعيدوني وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، (دط، دت)، ص ١٢٦، ١٢٧. وأيضا محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح، ج٣، ص ٢٣٤.

(٣) أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي والإسلامي، ص٤٠١.

"...إن الشيخ الباروني مسلم صميم ووطني مخلص فهو يدافع عن فكرة الإسلام والوطن لا لمذهب على مذهب أو بلد على بلد..." (١).

وافتتحت جريدة وادي ميزاب أول أعدادها بفقرة حول صحة ونشاط الباروني تطمينا لأصدقائه ومُريديه الذين تساءلوا عن أحواله، وأظهرت في أسلوبها تعاطفاً واحتراماً لشخصه بقولها:"...ونحن نبشرهم بنقهه من مرضه الأخير وحسن أحواله أطال الله بقاءه ومتع المسلمين بسلامته، وقد سافر من مسقط إلى تابل عاصمة إمام المسلمين أبي عبد الله محمد الخليلي حفظه الله..."(٢).

أ- أخبار الباروني في عُمان:

تفاعلت جريدة وادي ميزاب تفاعلاً كبيراً مع خبر تعيين الباروني وزيراً لمملكة عُمان، فكتبت مقالاً نقلته عن جريدة الشورى (المصرية)، وأضافت إليه بأن الجزائر قد اهتزت هي وتونس ومصر بهذا الخبر، وتنبأت لعُمان بالتطور العظيم والعزة والسيادة، وأثبتت لإمام عُمان صفات الإخلاص والإنصاف وحسن الاختيار، وللباروني الصدق والعمل لخدمة العروبة والإسلام، وهذا عندما كتبت:"...وقد اهتزت بهذا التطور العظيم الجزائر كما اهتزت به تونس الخضراء ومصر الفتاة...كما يبرهن...على ما للشيخ الباروني من الصدق والثقة والانقطاع

(١) نصيحة إلى إخواننا الطرابلسيين، الصَّدِّيق، العدد ٤٦، ٢٤ أكتوبر ١٩٢١م. أما جريدة الصَّدِّيق فعرّفت نفسها بما يلي: صوت الإسلام بإفريقيا الشمالية يدعو إلى التقارب وإقامة النصوص الدينية وتهذيب الأخلاق ونشر المعارف والعلوم العربية وتأسيس المشاريع العلمية والاقتصادية، تصدر مرتين في الأسبوع، الاثنين والخميس، لصاحبها عمر بن قدور الجزائري ومحمد بن بكير التاجر ، شعارها: قلمي لساني ثلاثة بفؤادي، ديني ووجداني وحب بلادي. صدر العدد الأول منها في ١٢ أوت ١٩٢٠م. نلاحظ هنا أن مؤسس جريدة الصديق هو محمد بن بكير التاجر الإباضي وعمر بن قدور صاحب جريدة الفاروق التي نقلت زيارة سليمان الباروني إلى الجزائر في أفريل ١٩١٤م. للمزيد انظر كذلك: محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧م الى ١٩٣٩م، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، ١٩٨٠م.

(٢) الشيخ الباروني في عُمان، وادي ميزاب، العدد (٠١)، ٢٣ ربيع الأنور ١٣٤٥ هـ، ٠١ أكتوبر ١٩٢٦م.

لخدمة الإسلام والعرب، بعدما أنهكت قواه الفولاذية الأمراض المتوالية والمتاعب ومضض العيش وآلام الاغتراب والإبعاد وتشتت العائلة..." (١).

ب- تهاني الباروني بالصدارة العظمى:

خصصت جريدة وادي ميزاب ركنا شبه دائم لنشر تهاني الشعراء والكتاب للباروني باشا بتوليه الوزارة في عُمان، فابتداء من عددها الرابع، هنأته هي بقولها: "...وبلسان القطر الجزائري عموما ووادي ميزاب خصوصا يرفع وادي ميزاب على كاهل التبجيل والاحترام إلى عظمة الإمام وعطوفة الشيخ الباروني وبلاد عُمان مراسم التهاني الفائقة بهذا التطور العظيم..." (٢).

فنشرت تهان كثيرة، بل كانت الجريدة تقوم أحيانا بنقل تهان للباروني من جرائد أخرى إذا كانت هذه التهاني من شخصيات مشهورة. ويغلب على هذه التهاني الطابع الشعري.

فكتب أبو اليقظان قصيدة مطلعها:

خفقت بنود العز والسلطان وعادت جنود سيادة بعُـــمان

إلى أن يختمها بقوله:

وإليكم كاس التهانـــي الآن من وادي ميزاب مع أبي اليقظان(٣)

(١) سليمان باشا الباروني يُعيِّن وزيرا لمملكة عُمان، تطور عظيم بعُمان، وادي ميزاب، العدد ٠٤، الجمعة ١٤ ربيع الثاني ١٩٤٥هـ/٢٣ أكتوبر ١٩٢٦م.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) أبو اليقظان، تهنئة وادي ميزاب لعُمان، عدد (٨)، الجمعة ١٣ جمادى الأولى ١٣٤٥هـ، ١٩ نوفمبر ١٩٢٦م.

كما هنأه الشاعر سالم بن سليمان بقصيدة من ثلاثين بيتا ، يقول في مقطع منها:

يا سليمان عظيم العظمـــا طائر الصيت بأرض وسما
يا شريف النفس يا عز الحمى يا بروني أهنيك دوام (كذا)[1]

وهنّأه أيضا الشاعر زكرياء بن سليمان الذي كتب قصيدة تهنئة طويلة (سبعة وسبعون بيتا) مطلعها:

جدّ الهوى بعد ما كان الهوى لعبا واهتزت الروح من بعد المنا طربا

ويقول في مقطع منها:

سل الفتوة عنه فـــي طرابـــلس وسل عساكر روما تسمع العجبا
ذلك البروني باشا خير مـن ولدت أنثى بعصر غدا بالكبـــرياء أبا

ودعاه في قصيدته إلى بناء المدارس والمستشفيات والسكك الحديدية وأسطول والمناطيد...إعادة مجد الدين كما كان مزدهرا في عصر جابر (بن زيد)[2].

أما التهاني الواردة من خارج الجزائر فنشرت منها الجريدة قصيدة للشاعر أبي سلام الكندي بعنوان ومن سلك الحق ينجح، تضم اثنين وثلاثين بيتا، منه قوله:

(١) تهنئة أخرى لسعادة الباروني باشا، وادي ميزاب، العدد (١١)، الجمعة ٤ جمادى الثانية ١٣٤٥، ١٠ ديسمبر ١٩٢٦

(٢) زكرياء بن سليمان، تِه يا عُمان بنصر الله، وادي ميزاب، العدد(١٢)، ١١ جمدى الثانية ١٣٤٥هـ، ٢٥ ديسمبر ١٩٢٦م.

أخا المجد إياك أن تسأما فمن طاب المجد لن يندما
كمثل سليمـــان بـــاشا الذي نشا وهو في امهد حامي الحما
سليمـــان قـــم ناشـــرا فوري لـــواءك، فالدهر قد أسلما[1]

وأيضا الشاعر أحمد بن سلطان آل سليم العُماني الذي نشرت له الجريدة قصيدة من ست وأربعين بيتا، مطلعها:

هنت عُمان بما حازته بلدان إذ حرزت بك فتحا يا سليمان[2]

فنلاحظ أن هذه التهاني قد استغرقت ستة شهور من عمر الجريدة، موزعة في أعداد متقاربة نسبيا، مما يوضح لنا مكانة الباروني وأهمية الحدث في نظر المهنئين وفي نظر الجريدة.

ج- نشاطات الباروني في عُمان:

وراحت جريدة وادي ميزاب تنقل نشاطاته وإصلاحاته في عُمان، ففي عددها السابع نقلت خبر توليته لشخصيات في مناصب متنوعة وعزله لشخصيات أخرى، وعادت لموضوع تعيينه وزيراً عندما نقلت في عددها الثالث عشر تغطية جريدة الشورى خبر توليته الصدارة العظمى ونشرها صورة له تعود إلى أيام عضويته في مجلس المبعوثان العثماني، ولم تكتفِ بنقل هذه التغطية فحسب بل قرّظت الجريدةَ (الشورى) ووصفتها بأنها جريدة مخلصة وصادقة لا تجد إلا الأبطال المخلصين الصادقين: "...ومن المعلوم أن جريدة هذه صفتها

(١) أبو سلام الكندي، تهنئة سعادة الشيخ الباروني، ومن سلك الحق ينجح، وادي ميزاب،العدد (١٥)، الجمعة ٢. رجب ١٣٣٥ هـ .٠٧ جانفي ١٩٢٧م.

(٢) كبير شعراء عُمان يهنئ سعادة الشيخ الباروني ، وادي ميزاب، العدد (٢٤)، ١٤ رمضان ١٣٤٥، ١٨ مارس ١٩٢٧م.

لا تمجِّد إلا الأبطال الذين ثبت إخلاصهم وصدقهم بالدليل والبرهان..."، وختمت الموضوع بدفاعها عن الباروني ضد بعض أهالي طرابلس الذين حسدوه على هذه الصدارة فكتبت: "...لم يصل إلى عُمان إلا بعد مطاردة دول الحلفاء له أعواما، وفي مقدمتهن ايطاليا، وأن عائلته وإخوانه ومن ينتسب إليه لا يزالون تحت مراقبة إيطاليا الشديدة..." [1].

ولم يكد عدد من أعداد الجريدة يخلو من خبر أو تهنئة أو إشارة للباروني ومنصبه الجديد في عُمان. فنقلا عن جريدة المنهاج (مصر)[2] جعلت في افتتاحية عددها السابع عشر عنوانا مميزا "عُمان نبأ عظيم" وهو إشادة بإمام عُمان ووزيره الباروني الذي كتبت فيه:"...لِما يعهدون في الباروني من الصدق والإخلاص والبعد عن الشهوات الخاصة وقد عرف بالتفاني في سبيل الإسلام والمسلمين وإعزاز كلمة المسلمين..."، كما عرضت مقارعته للاستعمار ووصفته بأنه كان :"...من أعيان الدولة العثمانية التي لم تبتلَ دولة على وجه الأرض مثلها بمطامع المستعمرين..." [3].

وتأكيدا على هذا الترابط نشرت الجريدة رسالة الباروني إلى الشيخ أبي اليقظان كاملة، يشكره فيها على تهنئة الجريدة له بمناسبة توليه الصدارة في عُمان، ويعرب له عن سعادته بصدور ووصول نسخة من الجريدة إليه في عُمان، وأنه قد أرسل تقريظا لها، كما استفسر عن قصيدة أرسلها شاعر من دبي في تهنئته ، كما أوضح فيها سعيه لإصلاح الأوضاع في عُمان، وفي آخر

(١) سعادة الباروني باشا في جرائد مصر، وادي ميزاب، العدد (١٣)، ١٨ جمادى الثانية ١٣٤٥هـ، ٢٥ديسمبر١٩٢٦م.
(٢) التي يشرف عليها صديق الباروني وأبي اليقظان: إبراهيم اطفيش
(٣) عُمان نبأ عظيم، وادي ميزاب، العدد(١٧)، الجمعة ١٨ رجب ١٣٤٥هـ،٢١ جانفي ١٩٢٧م.

الرسالة أبلغه تحايا الإمام وحاشيته:"...ومن هنا عظمة الإمام أعزّه الله والجماعة يسلمون عليكم..." [1].

وفي الأعداد التالية نجد أخبارا عن أهم أعماله كتعيين مشرف على بيت المال، وإصلاح حصن العسكرية وعزل مسؤولين اثنين في بيت المال لتورطهما في استغلال الماء لسقي زراعتهما الخاصة، ووضع الرواتب للطلبة والجنود وإحصاء الذخائر والممتلكات والمؤون... [2] وفي عددها السابعَ والخمسين نقلت عن الشورى خبر علاجه من مرض الفالج (الشلل) وشفائه وعودته إلى النشاط وأهم جولاته في عُمان (الرستاق، المعاول، نخل، الحوابي، بني خروش، سمائل...)، وذكرت بعض مشاريعه كسعيه إلى تأسيس شركة وطنية لتسيير السيارات من مسقط إلى سمائل ومنها إلى نزوى والشرقية...، و جلب آلات الري الحديثة، وتأسيس مدرسة للمعلمين... [3].

ومن ركنها شبه الدائم "أنباء عُمان" نقلت جريدة وادي ميزاب مشروعه تأسيس مدرسة لترشيح المعلمين في عُمان[4]، وعبّرت عن تضامنها معه عندما رفضت السلطات الانجليزية السماح له بدخول الهند للعلاج والاستحمام في شواطئها[5].

ولم تغفل الجريدة أخبار عائلة الباروني، مثل نجله سعيد الذي ذكرت بأنه قد أصيب بحمى شديدة (الملاريا) وتماثله للشفاء، أما نجله الثاني إبراهيم فقد

(١) وادي ميزاب في عُمان، وادي ميزاب، العدد (٢٨)، ١٩ شوال ١٣٤٥هـ، ٢٢ أفريل ١٩٢٧م.
(٢) أنباء عُمان، وادي ميزاب، العدد (٣٠)، ٠٣ ذو القعدة ١٣٤٥هـ، ٠٦ أفريل ١٩٢٧ (والصحيح هو شهر ماي).
(٣) أنباء عُمان نقلا عن الشورى، وادي ميزاب، العدد (٥٧)، الجمعة ٢٣ جمادى الأولى ١٣٤٦هـ، ١٧ نوفمبر ١٩٢٧م. وانظر أيضا حول أعمال الباروني في عُمان الواردة في وادي ميزاب: العدد (٥٥)، الجمعة ٠٨ جمادى الأولى ١٣٤٦هـ، ٠٣ نوفمبر ١٩٢٧م. و أنباء عُمان، العدد (٥٨)، الجمعة ٣٠ جمادى الأولى ١٣٤٦هـ، ٢٥ نوفمبر ١٩٢٧م.
(٤) أنباء عُمان، النهضة العُمانية الحديثة، وادي ميزاب، العدد (٧٩)، ٢٨ شوال ١٣٤٦هـ، ٢٠ أفريل ١٩٢٨م.
(٥) أنباء عُمان، وادي ميزاب، العدد (٨٨)، الجمعة ٠٣ محرم ١٣٤٦ هـ، ٢٣ جوان ١٩٢٨م.

نشرت له قصائد شعرية وقدمته بقولها:"...نظم هذه القصيدة العامرة الشاب الماجد التلميذ إبراهيم ابن سعادة الشيخ سليمان الباروني"[1].

ومن الأحداث التي نقلتها جريدة وادي ميزاب أخبار المؤتمر الوطني الذي عقده الحزب الوطني الحر في نزوى (عُمان) حيث أورد مراسل الجريدة أهم قراراته مثل: "...تفويض الشيخ سليمان الباروني تفويضا مطلقا في كل ما يتعلق بمصلحة الدولة..."، كما تطرقت إلى مشروع تأسيس مدرسة المعلمين وتنبأت لها بالرقي والتفوق، كما دعت الجريدة أعداء الإصلاح (خصوم الباروني) إلى التفتح على روح العصر ودعم الباروني، وهنّأت إمام عُمان ورجال الحزب الوطني الحر بعقد هذا المؤتمر[2].

أما مجلة الشهاب فكتبت نقلا عن جريدة الشورى (مصر) خبر انتخاب الباروني في الجمعية الأكاديمية للتاريخ الدولي، وهنأته بهذا الانتخاب واصفة إياه بـ:" ...رب السيف والقلم صاحب العطوفة الهمام"...معتبرة هذا الانتخاب تتويجا لجهوده ومواقفه[3].

ورغم قصر عُمر جرائد النور والنبراس والمغرب إلا أنها لم تخلو من إشارات إلى الباروني، ففي مقال لأحد الكتاب حول موضوع الإصلاح ذكر عرضا الباروني في عداد المصلحين الذين يجب الاقتداء بهم لإصلاح الأوضاع الاجتماعية[4].

---

(1) أنباء عُمان، وادي ميزاب، العدد (٨٢)، ٢٠ ذو القعدة ١٣٤٦هـ، ١١ ماي ١٩٢٨م. وكذلك: إبراهيم الباروني، العلم يحيي كل شعب ميت، وادي ميزاب، العدد (٨٤)، الجمعة ٠٤ ذو الحجة ١٣٤٦هـ، ٢٥ ماي ١٩٢٨م.

(2) مُكاتب جريدة وادي ميزاب من مسقط، أنباء عُمان، وادي ميزاب، العدد (١٠٦)، الجمعة ١١ جمادى الأولى ١٣٤٧ هـ، ٢٦ أكتوبر ١٩٢٨م.

(3) انتخاب الأستاذ الباروني، العضوية الشرفية، الشهاب، الجزء الثالث، المجلد الخامس، ذو القعدة ١٣٤٧هـ،أفريل ١٩٢٩م. أما مجلة الشهاب فهي مجلة شهرية أصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة (شرق الجزائر) بين سنتي١٣٤٣هـ ١٩٢٤م و ١٩٣٩م.

(4) أحمد بن جمعة، كيف يمكن إصلاح الحالة الاجتماعية، المغرب، العدد (١٩)، ٠٧ أكتوبر ١٩٣٠/. أما جريدة المغرب: فهي جريدة إصلاحية أسسها أبو اليقظان، صدر عددها الأول في ٢٦ ماي ١٩٣٠م إلى غاية العدد

أما جريدة النور فنقلت مقالا للباروني بعنوان الزعيم الطرابلسي سليمان الباروني واقتراحاته والمؤتمر الإسلامي العام[1].

وفي جريدة النبراس نجد مقالاً في حلقتين (عددين) للباروني حول زيارته للكاظمية في العراق[2].

د- الباروني في جريدة الأمة:

تعد جريدة الأمة أكثر الجرائد الجزائرية نشرا لمواضيع تتعلق بالباروني، فكانت تنشر تباعا أخباره ومساهماته ومراسلاته. فمثلا نقلت جزءا من العدد الاحتفالي لمجلة الفتح بمناسبة بلوغها عامها الثاني عشر، والذي جعلته لأهم الشخصيات الإسلامية الفاعلة من ملوك وعلماء ومصلحين... [3]، فاكتفت الأمة بنقل صورة كبيرة لسليمان الباروني بنياشينه (أوسمته) العثمانية وتعليق جريدة الفتح بعنوان: "جانب عامر من جوانب القيادة"، منه قولها:"...وصاحب السعادة سليمان باشا الباروني من أعيان هذه الأمة الذين تحلو (كذا) بمزية الاستقامة والإخلاص إلى أبعد حد، وعرفنا ذلك فيه منذ كان نائبا في طرابلس الغرب في

---

(٣٨) في ٢٦ مارس ١٩٣١م، حيث عطّلتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية. للمزيد انظر: محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، ١٩٨٠م، ص ٢٠١، ٢٢١.

(١) الزعيم الطرابلسي سليمان الباروني واقتراحاته والمؤتمر الإسلامي العام، النور، العدد (٢٦)، ٢٢ مارس ١٩٣٢م. أما جريدة النور: هي جريدة إصلاحية أسبوعية، أسسها أبو اليقظان، صدر عددها الأول في ١٥ سبتمبر ١٩٣١م، وعددها الأخير(الثامن والسابعون) في ٠٢ ماي ١٩٣٣م. انظر: محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص٢٢٣، ٢٣٤.

(٢) سليمان الباروني، للعبرة والذكرى، وقفة في الكاظمية يوم ١٠ محرم ١٣٥٢هـ، النبراس، العدد(٠٣)، ٠٤ أوت ١٩٣٣م. والعدد ٠٤، ١١ أوت ١٩٣٣م. أما النبراس فهي جريدة إصلاحية أسبوعية أسسها أبو اليقظان، صدر عددها الأول في ٢١ جويلية ١٩٣٣م، وعددها الأخير(السادس) في ٢٥ أوت ١٩٣٣م. انظر محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص ٢٤٧، ٢٥٦.

(٣) مثل الملك فؤاد، الملك فاروق، الملك ابن سعود، الشيخ طاهر الجزائري، العلامة أحمد تيمور باشا، الأستاذ إبراهيم اطفيش، الباروني...للمزيد انظر في جريدة الأمة، مقال: رسالة الفتح في عامه الثاني عشر. ومقال: جانب عامر من جوانب القيادة ، العدد (١٢٤)، الثلاثاء ٢٨ ربيع الأول ١٣٥٦هـ، ٠٨ جوان ١٩٣٧م .

مجلس المبعوثان العثماني، ثم ازددنا علما عندما رأينا جهاده المجيد في سبيل الله والوطن بعد حادث الاختطاف الذي كان من ايطاليا لطرابلس الغرب وبرقة..."[1].

وقد نشرت مجلة الشهاب أيضا هذا المقال حول عدد من الشخصيات ذات الانتماء المغربي التي نشرتها مجلة الفتح ، مثل محمد الخضر حسين وإبراهيم اطفيش وطاهر الجزائري... [2].

هـ- صدى خلاف سليمان الباروني مع شكيب أرسلان في الصحافة الجزائرية:

من أكثر الأحداث المتعلقة بالباروني والتي لقيت صدى واسعا في الصحافة الإصلاحية الجزائرية هي مسألة خلافه مع شكيب أرسلان[3]، حيث نقلت جريدة الأمة والبصائر والشهاب أحداث هذا السجال وتطوراته وتفاعلت معه.

ونخص بالذكر جريدة الأمة، حيث أنها نقلت تطور السجال والتعليقات حوله في عشرة أعداد منها، من تاريخ (٢١) ديسمبر ١٩٣٧م إلى غاية (٠٥) أفريل ١٩٣٨م. ويبدو واضحا وقوفها وتعاطفها مع الباروني، الذي نقلت ردوده بينما أغفلت ردود أرسلان، كما جعلت العنوان نفسه يتكرر في أربعة أعداد منها: "سليمان باشا الباروني يعلن البراءة من شكيب أرسلان"[4].

---

(١) المصدر نفسه

(٢) وحدة الشمال الإفريقي، أبناء المغرب العربي في الشرق العربي، الشهاب، الجزء الخامس، المجلد الثالث عشر، جمادى الأولى ١٣٥٦هـ، ١ جويلية ١٩٣٧م.

(٣) شكيب أرسلان: (١٨٦٩-١٩٤٦م)، مصلح سياسي من زعماء الحركة العربية، ولد بلبنان ثم انتقل إلى سوريا فمصر، فألمانيا أين أصدر مجلته الأمة العربية عام١٩٣٠م. انظر ترجمته في: مولود عويمر، شكيب أرسلان ودوره في تحرير المغرب العربي، المجتمع، الكويت، العدد (١٤٤١)، مارس ٢٠٠١م.

(٤) ٣٦- انظر: عن الرابطة العربية: سليمان باشا الباروني يعلن البراءة من شكيب أرسلان، الأمة، العدد (١٤٧)، ٢١ ديسمبر ١٩٣٧م. والعدد(١٤٨)، ٢٨ ديسمبر، ١٩٣٧م. والعدد (١٤٩)، ٠٤ جانفي ١٩٣٨م، وأيضا مقال: على الهامش، حول مقال الباروني وإعلانه البراءة من شكيب، الأمة، العدد (١٥١)، ١٨ جانفي ١٩٣٨م.

تعود أسباب هذا السجال الفكري إلى نشر الأمير شكيب أرسلان مقالا حول موضوع مشروع الوحدة العربية استبعد فيه منطقة شمال إفريقيا منه، وهذا بحكم وقوعها تحت الاستعمار الأوروبي. فأثار هذا المقال الباروني الذي اعتبر براءة أرسلان من شمال إفريقيا خيانة للأمة تعود عليه بالبراءة منه، واتهمه بالعمالة للاستعمار الفرنسي، وانجرّ هذا السجال إلى تبادل للاتهامات والثلب في شخصيهما.

فبعد أن نشرت جريدة الأمة مقالات الباروني في الأعداد الأربعة المذكورة، نشرت مقالا مسلسلا من أربعة أجزاء لزعيم الإصلاح الميزابي الشيخ إبراهيم بيوض باسمه المستعار (أفلح)، بعنوان الوحدة العربية، أثبت فيه للرجلين الزعامة، زعامة السيف للباروني وزعامة القلم لأرسلان، منبها إلى خطر خلافهما على انقسام أتباعهما ومناصريهما وعلى وحدة الصف. ويذكر الأستاذ محمد صالح ناصر بأن هذا المقال ساهم في إعادة الأمور بين الرجلين إلى سابق عهدها وتجاوز أسباب الخلاف[1].

ورغم أن مجلة الشهاب وجريدة البصائر[2] كانتا أكثر حيادا من جريدة الأمة في هذا السجال، إلا أننا نلمس تعاطفا خفيا منهما مع أرسلان، وهذا بحكم

---

(١) محمد صالح ناصر، الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض مصلحاً وزعيماً، مكتبة الريام، الدار البيضاء، الجزائر، (د.ط)، ٢٠٠٥م. وانظر كذلك محمد ناصر، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص ٢٧٣. وأيضا: أفلح، في الوحدة العربية، الفرقان بين أميري السيف والبيان الباروني و شكيب، الأمة، العدد(١٥٨)، ١٥ مارس ١٩٣٨م. والعدد (١٥٩)، ٢٢ مارس ١٩٣٨م. والعدد (١٦٠)، ٢٩ مارس ١٩٣٨م. والعدد (١٦١)، ٠٥ أفريل ١٩٣٨م. أما إبراهيم بن عمر بيوض: فهو زعيم الإصلاح الإباضي، ولد بالقرارة(وادي ميزاب) في ٢٢ أفريل ١٨٩٩م. درس على يد مشائخ كثر في وادي ميزاب ثم تفرغ للتعليم الذي سيتوج بتأسيسه مدرسة الحياة في ٢١ ماي ١٩٢٥م. اختير في هيئة العزابة بالقرارة (أعلى هيئة دينية في ١٩٢٢م).عضو مؤسس في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ترأس هيئة الغزّابة في ميزاب، انتخب ممثلا لوادي ميزاب في المجلس الجزائري في عام ١٩٤٨م. شارك في الصحافة الإصلاحية ، وترك مؤلفات عديدة أشهرها تفسيره: في رحاب القرءان. للمزيد انظر: محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح، ج ٣. وأيضا: محمد صالح ناصر، المرجع السابق.

(٢) البصائر هي لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

علاقته القديمة بهاتين الصحيفتين اللتين نقلتا أخباره ومراسلاته وحتى مقالاته ومشاركاته في أعداد كثيرة منهما[1].

وضع الشيخ عبد الحميد بن باديس عنوانا لمقاله في الشهاب يدل على احترامه العميق للرجلين وسعيه لتوجيه خلافهما نحو غاية سامية، فكتب: "مسألة عظيمة بين رجلين عظيمين"، وأوضّح بأن كتابته في الموضوع هي استجابة لدعوة الباروني الذي دعا علماء المسلمين لإبداء رأيهم في موقف أرسلان وإعلانه البراءة من مسلمي المستعمرات :"...ثم دعا (يقصد الباروني) أهل العلم إلى إبداء رأيهم فقال:" ولعل علماء الإسلام الغيورين على دينهم يبدون رأيهم فيمن يعلن البراءة من مسلمي المستعمرات المعذبين لإرضاء أعدائهم و معذِّبيهم، لينسد هذا الباب فلا يدخل منه غيره بعد اليوم...".

وفي الأخير خلص ابن باديس إلى أن أرسلان لم يرتكب ما يجر عليه كل هذا الهجوم وإعلان البراءة منه، دعيا الزعيمين إلى الصلح والكف عن نكران جميل فعالهما :"...وعزيز علينا – والله – مثل هذا النكران من رجل عظيم لرجل عظيم، ومحزن لنا – والله– ومفتت لأكبادنا أن نسرع هذه السرعة في هدم عظمائنا سواء أكان الهادم الباروني لأخيه شكيب أو العكس أو غيرهما..." [2].

ويبدو أن تطور السجال بين الزعيمين واهتمام جريدة الأمة بالباروني فقط ومواصلتها نقل اتهاماته لأرسلان وإغفال حق الثاني في الرد، جعل هذا الشيخ ابن باديس يعيد فتح الموضوع لنقل رد شكيب أرسلان على اتهامات الباروني له

(١) نشرت الشهاب ونقلت لشكيب أرسلان حوالي ثلاثين موضوعا. انظر: عبد الحميد بن باديس، الشهاب، المجلد السادس عشر (المقدمات والفهارس العامة)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،ط١، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠١م، ص ٤٨١، ٤٨٢.

(٢) عبدالحميد بن باديس، مسألة عظيمة بين رجلين عظيمين، الشهاب، الجزء العاشر، المجلد الثالث عشر، شوال ١٣٥٦هـ، ديسمبر ١٩٣٧م.

بيعه البلاد الإسلامية لفرنسا وتناسيه قضية طرابلس وإثرائه من اختلاس تبرعات المسلمين...

صدّر ابن باديس مقال أرسلان الذي نشرته جريدة الشباب (المصرية) بقوله : " قراء الشهاب على علم بتلك الحملة الطائشة السخيفة التي قام بها السيد سليمان الباروني الطرابلسي ضد الأمير شكيب أرسلان...وبما أن رصيفتنا جريدة الأمة الجزائرية الغراء قد بادرت بنشر مقال السيد سليمان الباروني على علاته، ولم تُشر بكلمة الى دفاع الأمير شكيب ثم لم تنشره من بعد، رأينا إحقاقا للحق ودفاعا عن الأمانة والكرامة أن ننشر للقراء أهم البيانات التي قدمها سعادة الأمير شكيب ونشرها تباعا في جريدة الشباب الفيحاء..." [1].

أما جريدة البصائر فقد نقلت هذا السجال متأخرة واكتفت بنقل المواضيع عن الصحف دون تعليق منها[2]، فنقلت ما نشرته جريدة السجل من أن انجلترا هي من كان وراء هجوم الباروني على أرسلان – عدوها القديم– وهذا مقابل تعيين الباروني مستشارا في إمارة مسقط: "... وهكذا تساقط زعماؤنا في ميدان الخدمة الاستعمارية لقاء تحطيم الشخصيات العاملة المجاهدة، ورغم اعتقادنا بقابلية الباشا (الباروني) العلمية والعملية وأنه جدير بهذا المنصب الخطير إلا أننا نستنكر طريقة الوصول إلى المراكز بمثل هذه الأساليب..."[3].

ولكن البصائر عادت بعد ذلك لنشر دفاع الباروني عن نفسه، ولكنها اختصرت دفاعه بسبب تطويله في الإجابة كما كَتبت، وقد نقلت هذا الرد عن

(١) عبد الحميد بن باديس، المباحثة والمناظرة بين محبي الحقيقة المتعاونين على الوصول إليها، رد الأمير شكيب أرسلان على مزاعم واتهامات سليمان باشا الباروني، الشهاب، الجزء الأول، المجلد الرابع عشر، محرم ١٣٥٧هـ، مارس ١٩٣٨م.

(٢) ربما يعود هذا إلى كون البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وخوفا من تأييد أحد الطرفين مما ينعكس على انسجام تركيبتها وعلاقاتها، ويتأكد هذا الحكم إذا لاحظنا أن رئيس الجمعية (الشيخ عبد الحميد بن باديس) هو نفسه المشرف على مجلة الشهاب التي نقلت موضوع السجال منذ ديسمبر ١٩٣٧م.

(٣) الباروني باشا؟، البصائر، العدد (١٤١)، ٣، شوال ١٣٥٧، ٢٥ نوفمبر ١٩٣٨ (نقلا عن جريدة السجل).

جريدة الرابطة العربية، فكتبت في تقديم الموضوع: "...واليوم وقفنا في مجلة الرابطة العربية على جواب للباشا تناول فيه الدفاع عن نفسه وعن حكومة مسقط، فكان من الأمانة أن نطلع القارئ على جوابه، ولكن لا تتسع صحيفتنا لنقله ولا سيما تطويله في الإجابة عما لم ننشره نحن...فهو يقول لا علاقة لتوليته بقضيته مع شكيب، حيث أن أمير مسقط استدعاه إليه منذ نحو عامين، وأنه ما تأخر عن الإسراع للإجابة إلا لأعذار شخصية من مرض به وبولده...".

وتعيد البصائر إعلان موقفها من خلاف الزعيمين وهو الحياد، بقولها: "...ونحن لم نُعلق قبل على كلمة صاحب السجل فلا نعلق اليوم على دفاع الباشا، ونقف موقف الناقل غير الناقد "[1].

٣- كتابات الباروني في الصحافة الجزائرية:

بحكم ارتباطه بأبناء وادي ميزاب راسل الباروني الصحافة التي أصدرها أبو اليقظان، خاصة أن كتاباته كانت تلقى الترحيب والتسهيل منها. ومن هنا يمكن اعتبارها منبرا له لنشر أفكاره وردوده وإعلان مواقفه السياسية. وعموما يمكن تقسيم هذه المساهمات إلى مساهمات ذات طابع سياسي، وأخرى ذات طابع فكري ثقافي.

ولعل أهم هذه الكتابات الموضوع المسلسل الذي رد به الباروني على جريدة أم القرى (الحجازية) التي امتدحت معاهدة تمت بين انجلترا والملك ابن سعود، فبيّن في هذا الرد الطويل أبعاد ومخاطر هذه المعاهدة، منبها الملك السعودي إلى خطر سياسة الانجليز على ملكه ودولته.

(١) الباروني باشا، البصائر، العدد (١٤٥)، ٠٢ ذو القعدة ١٣٥٧، ٢٣ ديسمبر ١٩٣٨م.

و يهمنا في هذا المقام أن نورد التقديم الذي قدّمت به جريدة وادي ميزاب تعليق الباروني، حيث امتدحت خبرته وغيرته الإسلامية وحصافته، بل وتمنت من الملك السعودي أن يأخذ بنصائح الباروني، فكتبت: "...وعَلم بالأدوار التي تقلب فيها الشيخ الباروني منذ نعومة أظفاره فأكسبته خبرة واسعة النطاق وبصيرة نافذة إلى قرارة الأشياء ثم نظر إلى الخلاف المستحكم بين انجلترا وجلالة ابن السعود (كذا) بسبب المعاقل التي أنشاتها الأولى في العراق على الحدود النجدية وإلى المؤتمر الذي انعقد من أجلها أخيرا في جَدّة...لا يلبث أن يحكم بأن ما قاله الشيخ الباروني إن كان بعيد الاحتمال يكفي فيه أن يكون تنبيها وتحذيرا لا سيما وقد علمت أنه من الزعماء الذين يُصغى إلى كلامهم وجلالة الملك من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه..." [1].

كتب الباروني في هذا الرد بأنه تشاءم من بعض مواد المعاهدة الانجليزية السعودية (٢٠ مايو ١٩٢٧م)، وأنه أداء لواجبه الديني تجاه القبلة كتب هذا الرد آملا أن لا يرى الملك السعودي فيه تعريضا به بل هو تنبيه، لأن الملك فوق كل شبهة فيما يتعلق بحماية قبلة المسلمين:"...وأداء للحق الواجب علي نحو قبلتي المقدسة، أتقدم إلى إخواني المسلمين ببيان بعض ما ظهر لي من مضارها التي لم أظفر فيما رأيته من الصحف على كلام لأحد في إيضاحها، راجيا أن لا يعد تعرضا للتاج السعودي، وإنما هو من باب التنبيه وبيان رأي لا يجوز كتمه، لأني أنزهه عن تهمة قبول ما يعود بأدنى ضرر على قبلة العالم الإسلامي..."[2].

وفي الجزء الثاني من رده وتعليقه على هذه المعاهدة كتب عن سعي بريطانيا لمنعها نزول الحجيج من مستعمراتها في جَدّة دون تحكم

(١) سعادة الشيخ باشا الباروني، رد وتعليق١، وادي ميزاب، العدد (٩٧)، ٠٧ ربيع الأول ١٣٤٧هـ، ٢٥ أوت ١٩٢٨م.
(٢) المصدر نفسه

منها:"...هيهات هيهات، لأنهم (يقصد الحجيج) أعداء في نظر بريطانيا واجتماعهم في مكة تعتبره مؤامرة ضدها، فقبول الملك ابن السعود (كذا) نزولهم في جدة يعد اختراقا للمعاهدة بموجب تلك المادة بدون شك. كانت بريطانيا ودول الاستعمار كافة تلاقي صعوبات في منع الحج الذي تتوهم فيه أنه اجتماع سياسي في شكل ديني، ولكنها بعد هذه المادة ستكون مستريحة..." . ولفت انتباه الملك إلى إجبار بريطانيا له على محاربة تجارة الرقيق في الخليج العربي ومسؤوليته أمامها[1].

أما في الجزء الثالث من رده فواصل تحليله مواد المعاهدة، فبيّن خطرها على الحج لأن بريطانيا تريد أن تجعل منه حدثا دينيا وتحرم المسلمين من الاتصال ببعضهم والتناقش في أمور دنياهم وسياستهم، كما أن رفع الدول الاستعمارية لراياتها (المجسمة للصليب) يعد تحديا لعقيدة وقداسة المكان، فبمقتضى هذه المعاهدة يكون الحج:"...عبارة عن معرض تجاري لدول الاستعمار تُحضر إليه كل دولة من مستعمراتها كل من لا يعرف من الحج إلا التهليل والتكبير والطواف...وكل شيء غير ذلك سيبطل الحج موجبا الوزر العظيم خاصة إذا كان كلاما في السياسة...".

كما يبرز بأن الدول الأوربية ستستفيد ماديا أيضا من إشرافها على حجيج مستعمراتها، فيكتب:"...وأمثال هؤلاء ترغب دول الاستعمار في سوقهم كالأنعام في مراكبها وسياراتها إلى مناطقها المخصوصة لها في مكة وغيرها لتبتز قيمة ما خفي عليها من أموالهم..." .وينتقد الباروني العلماء المسلمين في البلاد

(١) سعادة الشيخ باشا الباروني، رد وتعليق ٢، وادي ميزاب، العدد (٩٨)، ١٦ ربيع الأول ١٣٤٧هـ، ٢٥ أوت ١٩٢٨م (نلاحظ خطأ واضحا في التاريخ فهو تاريخ العدد السابق).

الإسلامية المستعمرة لأنهم سيمتدحون فكرة إشراف الدول المستعمرة على الحج بقولهم:"...أن الحج قد أصبح صافيا نقيا سهلا كما وصفه الله تعالى..." [1].

أما في الجزء الأخير من هذا الرد المسلسل، فأبرز تنكر بريطانيا لعهودها، فكتب غاضبا عن سعي بريطانيا لاحتلال الحجاز والتخلص من ابن سعود:"...وهل بعد كل ما تقدم يبقى معنى للمادة الأولى المغلفة بالاحتلال التام، أليست هي الموجودة في معاهدة بريطانيا مع الملك حسين فلِم اختطفته من خط دفاعه عن عرشه وملكه ووطنه ونفته إلى جزيرة قبرص إلى اليوم، واحتلت جدة بجنودها...".

ويستعرض –كخاتمة لرده – أحداثا دولية كانت مجرد مخاوف وتنبؤات فصارت حقيقة وواقعا مشاهدا، كمكر الإنجليز واحتلالهم السودان، ومحاربة العلمانيين في تركيا للمساجد... [2].

وفي مناسبة أخرى نشرت جريدة وادي ميزاب البيان الذي احتج فيه الباروني ضد الحكومة الإيطالية بسبب نقضها القانون الأساسي الذي منحته من قبل للأمة الطرابلسية عام ١٩٢٠م، فذكّرها بأن حربهم ضدها ليست إلا للحصول على هذه الحقوق:" ...ونحن ما كنا نحارب إيطاليا لمجرد بغض فيها أو لعداوة نضمرها لها أو لطمع في درهم واحد من خزائنها أو في منصب في مجالسها، بل للمحافظة على بعض حقوق ورثناها عن آبائنا فدافعنا عنها لنورثها أبنائنا مسجلة في عهد مخطوط مطرز بتوقيع جلالة ملك إيطاليا...".

(١) سعادة سليمان باشا الباروني، رد وتعليق ٣، وادي ميزاب، العدد (٩٩)، ٢٣ ربيع الأول ١٣٤٥ هـ، ٠٧ سبتمبر ١٩٢٨م.

(٢) سعادة سليمان باشا الباروني، رد وتعليق ٤، وادي ميزاب، العدد (١٠٠)، ٣٠ ربيع الأول ١٣٤٥، ١٤ سبتمبر ١٩٢٨م.

فحمل هذا البيان روح الإقناع وأساليب السياسة وحتى إشارات التهديد[1].

كما كتب الباروني جزءا من مذكراته عن الجهاد في طرابلس، على صفحات جريدة الأمة في فيفري ١٩٣٧م[2].

ومن المقالات السياسية المنشورة له أيضا نذكر مقاله: المملكة العُمانية بين أنياب لندن والرياض، الذي تحدث فيه عن الدسائس الإنجليزية والتهديدات الحدودية السعودية لعُمان[3].

وبالنسبة لقضية فلسطين فقد كتب الباروني في الأمة مقالا بعنوان "القول الفصل في القضية الفلسطينية"، في جزئين[4].

فنجد تنوعا في هذه المراسلات ذات الطابع السياسي، حيث تناولت عددا من البلدان الإسلامية في مواضيع متباينة: تركيا، السعودية، عُمان، طرابلس.

أما على صعيد إسهامه الثقافي الفكري، فنذكر المراسلات التي كانت تعكس متانة العلاقة الأدبية بين الباروني والصحافة اليقظانية، نذكر منها مثلا الرسالة التي نشرتها وادي ميزاب حول تقريظه الجريدة و فخره بمؤسسها (أبي اليقظان)، حيث كتب بأنه أرسلها من قبل ولم تصل، فأعاد إرسال صورة منها، وهي رسالة مؤرخة في ٠٣ جمادى الثانية ١٣٤٥هـ من سمائل (عُمان)، أما الثانية فمؤرخة بـ٢٥ ذي الحجة١٣٤٥هـ، ومما جاء فيها: "...بسم الله الرحمان الرحيم، سمائل ٢٥ ذي الحجة ١٣٤٥هـ، حضرة أستاذ الأدب والسياسة الشيخ

(١) من الشيخ الباروني باشا، وادي ميزاب، العدد (٤٣)، الجمعة ٠٦ صفر ١٣٤٦هـ،٠٥ أوت١٩٢٧م.
(٢) الزعيم الكبير سليمان باشا الباروني، صفحات رائعة من جهاد طرابلس الغراء، الأمة، العدد (١٠٨)، ٠٢ فيفري ١٩٣٧م.
(٣) سليمان الباروني، المملكة العُمانية بين أنياب لندن و الرياض، الأمة ، العدد (٤٢)، ١٧ سبتمبر ١٩٣٥م.
(٤) سليمان باشا الباروني، الأمة، القول الفصل في القضية الفلسطينية، العدد(١١٠)، ١٦ فيفري١٩٣٧. والعدد(١١١)، ٠٢ مارس١٩٣٧م.

أبي اليقظان مدير جريدة وادي ميزاب الغراء... طالعت بإمعان مع ابتهاج وادي ميزاب، فإذا هو البحر العباب فيه العجب العجاب حوى من فوائد الجواهر كل مستطاب، هو اليوم يسحر البيان، وهو حياة الأرواح والأبدان، وسيكون غدا إن شاء الله ميزان سياسة الأكوان وتاريخ حياة الإنسان...(الحذف أصلي في المصدر) وكيف لا وقائده (حذف أصلي) أبو اليقظان الماهر وإخوانه الحائزون لقصبة السبق في ميدان المفاخر..."، ثم صاغ هذا المدح شعرا ووقّع باسمه[1].

وفي مشاركة ثقافية أخرى للباروني راسل جريدة وادي ميزاب بمقال حول نزول السيد المسيح عليه السلام، عكَس لنا ما للباروني من ثقافة دينية وعلمية، وهذا في معرض تعليقه على أحد اليهود الذي تنبأ بقيام حرب عظمى دولية ونزول السيد المسيح عليه السلام إثرها، فأكد الباروني أن هذه التنبؤات مصدرها الحديث النبوي الشريف، ودعا المسلمين إلى البحث في تراثهم: "... والمأمول من أرباب التحقيق في علوم الحديث والتاريخ مراجعة الأمهات والمطولات، وشرح هذه الأحاديث وما أشبهها شرحا يكشف الغطاء عن مكنوناتها، فإنه لا شك في صدق ما ثبتت صحته منها، إذ ما ينطق عليه الصلاة والسلام عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ..." [2].

٤- اهتمام الصحافة الجزائرية بكتابات الباروني:

سعت الجرائد الإصلاحية الجزائرية إلى نقل مقالات وبيانات الباروني ملخصة أو كاملة - مثلما رأينا بعضها آنفا- وهذا يدل على مكانته لديها خاصة جريدتي وادي ميزاب والأمة اليقظانيتين.

(١) الشيخ سليمان الباروني ووادي ميزاب، وادي ميزاب، العدد(٤٨)، ١١ ربيع الأنوار ١٣٤٦هـ، ٠٩ سبتمبر ١٩٢٧م.
(٢) الشيخ الباروني، نزول عيسى عليه السلام، وادي ميزاب، العدد (٨٣)، الجمعة ٢٧ ذي القعدة ١٣٤٦هـ، ١٨ ماي ١٩٣٨م.

فنقلت جريدة وادي ميزاب مقالا للباروني حول قضية الخلافة الإسلامية ومصير الآثار النبوية المتواجدة باسطنبول، وهذا نقلا عن جريدة "الجديد" للإفادة كما كتبت، وأهم ما جاء فيه أن الباروني وبمقتضى تكليف إمام المسلمين بعُمان له لحضور مؤتمر الخلافة بمصر، فقد تلقى دعوة من شيخ الأزهر والكاتب العام للمؤتمر الشيخ حسين والي، ولكن المنظمين لم يستطيعوا الوقوف دون اعتراض بريطانيا وممثل ايطاليا على دخوله مصر، ولهذا أراد في هذا المقال أن يوضح اقتراحاته التي كان سيدلي بها في المؤتمر وهي :

- نقل الآثار النبوية الشريفة المحفوظة بالأستانة إلى مصر مؤقتا، حتى تقوم حكومة قوية بالحجاز تضمن لهذه الآثار الحفظ والأمان، وهذا بعد أن أعلنت الحكومة التركية أنها حكومة لا دينية.

- انتخاب المؤتمر للجنة دائمة تشتغل للإعداد لكل ما يتعلق بها[1].

وفي مجال الدفاع عن الإسلام ومعتقداته، نقلت له أيضا مقالا نشرته جريدة الشورى المصرية حول معجزة الاستسقاء، حيث روى خبر الاستسقاء الذي دعا إليه إمام عُمان وكيف انهمرت الغيوث في اليوم ذاته، وهذا- في رأي الباروني- رد على من ينعتون الإسلام بالخرافات والعادات البالية من الملحدين وصحفهم[2].

أما جريدة الأمة فقد نقلت بيان الاحتجاج الذي نشره الباروني في جريدة الشباب المصرية حول تسليم السلطات الفرنسية في تونس لثلاثة وعشرين طرابلسيا، كانت السلطات الإيطالية تلاحقهم. ونعتقد أن دافع جريدة الأمة من

(1) الباروني، كلمة عن الخلافة والآثار النبوية ، وادي ميزاب ، العدد (٠٣)، ٣٠ ربيع الأنور ١٣٤٥هـ ٠٨ أكتوبر ١٩٢٦م.

(2) سليمان باشا الباروني، رئيس وزارة عُمان، استسقاء إمام عُمان بعد طلوع الشمس وسيل الأودية بعد غروبها ، وادي ميزاب ، العدد(٣٢)، الجمعة ٠١ ذي القعدة ١٣٤٥هـ، ٢٠ ماي١٩٢٧م.

إعادة نشره هو إبلاغ هذا الاحتجاج للسلطات الفرنسية بالجزائر وتونس وباريس، باعتبار أن إصداره في جريدة جزائرية سيكون أسرع وأقرب تأثيرا من نشره في مصر، كما أن التونسيين - الذين وُجِّه جزء من البيان إليهم - سيطّلعون على جريدة الأمة.

ومن أهم ما احتواه هذا الاحتجاج : استجاد الباروني بالقيم الفرنسية ضد إيطاليا ومراهنته على الموقف الفرنسي: "... وفي هذا البيان كفاية، نقدمه لرجال فرنسا وزراء وقوادا ونوابا وشيوخا ليجعلوا حدا لسيطرة إيطاليا على المُلجئين إلى تونس من الطرابلسيين محافظة على الباقين منهم تحت رايتها وإعلاء لشأن الشعب الفرنسي وسمعة دولته بين الدول، في هذا الوقت الذي أصبح فيه للسمعة الحسنة و السيئة شأن عظيم في السياسة العالمية...".

أما التونسيون فقد دعاهم البيان للتظاهر والتنديد، بقوله:"... وختاما نأسف لسكوت إخواننا التونسيين وصحفهم وعدم ظهور صوت واحد منهم اعتراضا على حكومتهم وحكومة فرنسا...وهم الذين ما نسينا ولا ننسى ما قاموا به من العمل العظيم مساندة لمجاهدي طرابلس سنة ١٩١٢، وإن كان لهم دور الآن فنرجو بيانه...".

وعموما يعكس لنا هذا البيان الاحتجاجي صلابة موقف الرجل تجاه إيطاليا، وسلوكه مسلك المداراة والسياسة مع فرنسا، فهو يُذكرها بأطماع إيطاليا التوسعية، ويبرز خطر تراجع هيبة فرنسا جراء هذا الموقف الذي اعتبره خوفا و

استسلاما فرنسيا، ومن جهة ثالثة دعا التونسيين لإبداء موقفهم الطبيعي المنتظر مراعاة لحق الدين والقوم والجوار كما يقول[1].

كما نقلت نص رسالة وجهها الباروني للعراقيين في جريدة "البلاد" العراقية بمناسبة تبرعه بمبلغ مالي لإحدى جمعيات الطيران العراقية، فعكست الرسالة روحه العربية الإسلامية ودعوته الراسخة للإسهام في بناء ونهضة أي وطن عربي أو إسلامي، يقول فيها: "...والبلاد العربية أجمعها ملجأ كل عربي، والأقطار الإسلامية كلها وطن لكل مسلم" ورأى أن قوة قطر عربي أو إسلامي هي قوة لغيره من الأقطار:"...فكل قوة تظهر في جانب منها هي للجميع، فالواجب على كل مسلم حلَّ بقطر إسلامي أن يفرح بفرحه ويحزن بحزنه ويفخر بمفاخره، بل يجب عليه أن يقوم بما قدر عليه من العمل بنفسه أو ماله لرفعة شأن ذلك القطر، وتقوية سلطانه، وأن يحب له ما يحب لوطنه الأول من العز و السؤدد..." [2].

ونقلت رسالة له أيضا في مجلة الجهاد إلى محب الدين الخطيب صاحب مجلة الفتح التي كان مداوما على الكتابة فيها[3].

(١) المجاهد الطرابلسي سليمان باشا الباروني، تغلغل نفوذ إيطاليا في تونس وقبضها على ٢٣ طرابلسيا لتعذبهم، الأمة، العدد (١٣٥)، جمادى الثانية ١٣٥٦هـ، ٢٤ أوت١٩٣٧م.

(٢) زعيم طرابلس سليمان باشا الباروني يتبرع للطيران العراقي، الأمة، العدد (١٢٣)، ٠١ جوان ١٩٣٧م.

(٣) كتاب من صاحب السعادة الشيخ باشا الباروني، الأمة، العدد (١٠٩)، ٠٩ فيفري١٩٣٧م. أما محب الدين الخطيب: فولد في جويلية ١٨٨٦م، في دمشق من عائلة علمية معروفة. أتم دراسته الابتدائية والثانوية في دمشق. وتأثر بدروس وآراء شيوخ وعلماء كثر مثل طاهر الجزائري... ثم التحق بعدها بكلية الآداب والفنون وتفرغ للحقوق في الأستانة، وظل مناضلا من أجل بعث اللغة العربية. وهو من مؤسسي جمعية النهضة العربية، سافر إلى اليمن حيث اشتغل ترجمانا. كما اتصل بالشريف حسين وتولى لديه إدارة صحيفة القبلة، كما أسس صحيفة الارتقاء في مكة عام ١٩١٧م. وأسس صحيفة العاصمة في دمشق بعد الحرب العالمية الأولى. من مؤسسي اللجنة الوطنية العليا في دمشق عام ١٩١٩م لضمان استقلال بلاد الشام. أسس صحيفة الفتح من ماي ١٩٢٦م إلى نوفمبر ١٩٤٨م بعد هجرته إلى مصر التي عاش بها إلى غاية وفاته ١٩٦٩م.
للمزيد انظر: محمد عبد الرحمن برج، محب الدين الخطيب ودوره في الحركة العربية ١٩٠٦-١٩٢٠م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، (د.ط)، ١٩٩٠م، ص٧- ١٧. و ص٢٩. وص١٤٨.

ويبدو أن جريدة الأمة كانت تنتصر للباروني في مواقفه، فقد أعادت نقل مقال له في جزئين في جريدة الرابطة حول موقفه الدائم من دفاع أهالي طرابلس عن بلادهم لوحدهم ضد الإيطاليين دون مساعدة من أحد[1].

فيظهر لنا تنوع هذه الكتابات بين العام والخاص والسياسي والثقافي والإخوانيات...، فنقلها لم يكن خاضعا لانتقاء على أساس موضوعي (سياسي أو ثقافي...)، وإنما هو اهتمام وولاء للباروني وثقة بمواقفه التي اشتُهر بها منذ أيام جهاده في طرابلس، مما يجعلها متوافقة مع إيديولوجية الجريدة.

من خلال استعراضنا لحضور سليمان الباروني في الصحافة الإصلاحية الجزائرية يمكننا أن نخلص إلى عدد من الاستنتاجات:

- أن حضور الباروني على صفحات الصحافة الإصلاحية الجزائرية قد بدأ منذ عام ١٩١٤م إلى غاية نهاية ١٩٣٨م، خاصة عقد الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادي، مما يبرز لنا طول عمر هذه الفترة وأهمية مشاركاته وتنوعها.

- أن الصحافة الإصلاحية الجزائرية قد تتبعت أخبار الباروني وأحواله باهتمام واضح، من مجاهد طرابلسي إلى وزير عُماني إلى زعيم ومصلح عربي إسلامي. ووفرت لنا هذه الأخبار التي تعلقت بأسفاره ونشاطاته ومواقفه وحياته الخاصة مادة تاريخية هامة ومصدرا من مصادر التوثيق و التأريخ لسيرته.

- تنوعت مساهمات الباروني الصحفية في الصحافة الإصلاحية الجزائرية بين بيانات ومواضيع سياسية حول أحداث طارئة كطرابلس وعُمان والمعاهدة

(١) سليمان باشا الباروني، القول الفصل في القضية الطرابلسية ، الطربلسيون وحدهم هم الذين دافعوا عن بلادهم، الأمة، العدد (١١٠)، والعدد(١١١)، ١٦ فيفري ١٩٣٦م. (نقلا عن جريدة الرابطة).

السعودية الانجليزية...، ومواضيع ثقافية فكرية كقضية الخلافة...، ومراسلات إخوانية كالتهاني وغيرها.

- أن الباروني اعتبر الصحافة الإصلاحية الجزائرية- صحف أبي اليقظان بالخصوص- منبرا خالصا له، فكان يلجأ إلى نشر آرائه وأفكاره ومواقفه السياسية عبر صفحاتها وأعدادها لما كانت تلاقيه مراسلاته من احتفاء وترحيب.

- هذا الحضور الدائم للباروني في صحف أبي اليقظان يعود - إلى جانب أهمية ومكانة الباروني ونشاطه- إلى الروابط العميقة التي ربطته بأبي اليقظان وبأبناء ميزاب المصلحين، وإلى انتمائه المذهبي الإباضي وتجديده الفكري الذي ساهم في اندماجه مع الشعور الإصلاحي الميزابي، وإلى تفاعله معهم في وادي ميزاب وتونس ...وأخيرا عبر الصحافة.

- رأت الصحافة الإصلاحية الجزائرية عامة في الباروني مجاهدا وزعيما ومصلحا مغربيا عربيا إسلاميا، وعروة من عُرى ترابط المغرب بمشرقه العربي الإسلامي في القرن العشرين الميلادي.

- أن عددا من أبناء الإصلاح الإباضي (الميزابي) اعتبر الباروني أستاذا له وقدوة في جهاده وإصلاحه ومواقفه.

- ساهمت الصحافة الإصلاحية في تعميق وتمتين علاقة الباروني بالمصلحين الجزائريين خاصة الميزابيين، وهذا من خلال المراسلات والتهاني....

الباب الخامس

رحلات الباروني

رحلات الباروني وأهدافها

د. سلطان بن خميس بن عيسى الناعبي(*)

مقدمة

إن الشيخ سليمان بن عبدالله الباروني قائد عظيم يستجمع العديد من الصفات الحميدة والخلال النادرة، وهو مثال رائع للرجال القلائل الذين يحملون في قلوبهم وعقولهم حب الوطن، يعملون من أجله ويضحون في سبيله، فلا غرو أن تتعدد رحلاته، وتكثر سفراته وتنقلاته، لذا قضى شطراً من عمره متنقلاً بين البلدان، مغترباً عن الأهل والأوطان.

وقد تنوعت مشاهد الحياة التي عاشها الباروني منذ لحظة ميلاده وحتى ساعة وفاته، وامتزجت بالآمال والآلام، وكلها مليئة بالوقفات التي تستلزم من الباحث التأمل والتفكير، وتقتضي الدراسة والنظر؛ لأنها تكشف عن شخصية مغامرة متمسكة بمبادئها وعقيدتها، مناضلة في سبيل دينها ووطنها، ساعية نحو عزتها وكرامتها، باذلة ما لديها من أجل تحقيق أهدافها.

وتأتي هذه الورقة لتكشف اللثام عن جانب مهم من رحلاته التي ظل فيها متنقلاً بين وطنه الأم ليبيا وبين البلدان الأخرى ذهاباً وعودة لأسباب مختلفة، ولظروف متعددة.

إن دراسة الأحداث التاريخية للشخصيات البارزة تفيدنا كثيراً في التعرف على أبرز الملامح التي تتمتع بها، والتي تجعل من سيرتها مثلاً أعلى، وقدوة تحتذى للأجيال التي تنهل من معين تاريخها، وهذا بدوره يقودنا إلى سبر أغوار

(*) د. سلطان بن خميس بن عيسى الناعبي، مركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية، عُمان.

تلك الشخصية، ومعرفة منجزاتها، والباروني شخصية فذَّة ارتبطت بعلاقات واسعة مع العديد من القادة والزعماء، والساسة والعلماء في كثير من أنحاء العالم، وقد رحل إلى كثير من بقاع العالم العربي والإسلامي، واستقبله العديد من الملوك والساسة كسلطان العثمانيين، وشريف مكة، وخديوي مصر، وسُلطان عُمان، وإمامها، وملك العراق، وعندما نتحدث عن رحلات الباروني إنما نعرض إنجازاته وأعماله الثَّريَّة الحافلة بالعطاء الزاخر، ولعل مشروعه الكبير وهو " إنشاء الجامعة الإسلامية " لتوحيد كلمة المسلمين كان من أهمِّ البواعث للقيام برحلاته في الأقطار العربية والإسلامية نصرة للدين، وجمعاً لكلمة المسلمين، وسعياً لتوحيد صفوفهم؛ وقد جسَّد هذا الباعث بأقواله وأعماله العظيمة التي قام بها من أجل تحقيق أهدافه النبيلة، مما جعل لرحلاته تأثيراً في حياته خاصة، وفي الحضارة العربية والإسلامية عامة، وقد بيّن بنفسه في رسالة بعثها جواباً لقائد جيش ووالي الدولة الإيطالية بطرابلس أَثَرَ هذه الرحلات التي قام بها، فقال: " أدركت بالتجربة والسياحة في بلاد الله قيمة الإنسان الحر، ولذة حياته الهنيئة.."[1].

وقد قمت بسرد أهم الأحداث التي صاحبت رحلاته مع تواريخها الزمنية مرتبة – حسب أقدميتها – من يوم ولادته وحتى تاريخ وفاته، بقدر الإمكان؛ وذلك لاعطاء القارئ تصوراً واضحاً عن مسيرة عطائه، وما اكتنفها من محن ومنح، وما شابها من سراء وضراء، وختمت الحديث عن حصيلة رحلاته بذكر إنجازاته وأعماله الجليلة التي قام بها أثناء تلك الرحلات.

(1) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، بقلم أبي اليقظان الحاج إبراهيم، الناشر: الدار العُمانية، ج١، ص ٦٠

المحور الأول: سيرة الباروني الذاتية

اسمه: سليمان بن عبدالله بن يحيى بن أحمد الباروني.

مولده: ولد في سنة (١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م) في مدينة "جادو" من أعمال " الجبل الغربي" المعروف تاريخياً باسم " جبل نفوسة " بليبيا.

عائلته: ينتمي إلى العائلة البارونية التي تسكن جبل نفوسة، وتعود جذورها النسبية إلى " العائلة البروانية " الموجودة في الجبل الأخضر بعُمان، يؤكد ذلك ما كتبه بنفسه في رسالته التي كتبها عن سيرة العائلة البارونية بتاريخ ٥ من صفر سنة ١٣٥٤هـ، ومما ورد فيها:

" المشهور عندنا أن عائلتنا البارونية الموجودة في جبل نفوسة من طرابلس الغرب والعائلة البروانية الموجودة في مملكة عُمان الكائنة في الجانب الشرقي من جزيرة العرب من شجرة واحدة.."[١].

كان والده الشيخ عبدالله بن يحيى الباروني عالماً جليلاً، وصفه العلامة الجزائري الشيخ أطفيش بأنه " عالم، ومن أورع علماء جبل نفوسة"[٢]. ومن مؤلفاته: كتاب " سلَّم العامة والمبتدئين" الذي قام ابنه سليمان الباروني بطباعته في مصر، وله ديوان شعري باسم " ديوان الشيخ عبدالله الباروني" وقد تلقى سليمان الباروني في صباه مبادئ القراءة والكتابة، وأَخَذَ مقدمات العلوم عن والده بجبل نفوسة في ليبيا.

(١) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج١، ص ٩، وانظر باب أصل العائلة البارونية واستمرار نفعها، كتاب مختصر تاريخ الإباضية، للعلامة أبي ربيع سليمان الباروني، ص ٥٦ الناشر: مكتبة الضامري للنشر والتوزيع بسلطنة عُمان، ط١٤١٦،٥هـ/١٩٩٥م.

(٢) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج١، ص ٣٤.

نشاطاته الإصلاحية: قام الباروني بالكثير من الأنشطة الإصلاحية، ومن أبرزها، إنشاء المدرسة البارونية في "يفرن" مركز الجبل الغربي (طرابلس) عام ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م وقد ساعده والده عبدالله بن يحيى في تأسيسها والإشراف عليها.

كما أنشأ بجوار هذه المدرسة مكتبة سمَّاها " المكتبة البارونية " وضم إليها نفائس الكتب والمخطوطات.

وشرع في تلك الفترة في تأليف كتاب " الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية " وحقق بعض الكتب المخطوطة.

وأسس في عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م جريدة في اسطنبول باسم " جريدة الباروني " خصصها لنصرة القضية الليبية، وسيأتي الحديث عن أبرز أعماله ومنجزاته في خاتمة رحلاته لتكون ثمرة للرحلات التي قام بها.

المحور الثاني: الظروف الاجتماعية والسياسية التي نشأ فيها الباروني، وتأثيرها في تكوين شخصيته.

أولاً: الظروف الاجتماعية

نشأ الباروني في بيئة اجتماعية لها تاريخ عريق في العلم والسياسة، والدين والفضل، فكان لأجداده تاريخ طويل في تداول الإمارة والمشيخة العامة الكبرى في طرابلس ونواحيها جنوباً وشمالاً وشرقاً من نواحي سرت وفزان وغدامس إلى جبال دمر بالجنوب التونسي من أواسط القرن الرابع الهجري إلى أواخر القرن

العاشر الهجري، وحكموا بين الناس بالعدل والنزاهة والاستقامة[1]. وكان والده الشيخ عبدالله بن يحيى الباروني على جانب كبير من العلم والورع والاستقامة، وكان له من الصفات الحميدة ما جعله يحظى بالوجاهة والتقدير والاحترام لدى رؤساء الدولة العثمانية، وكان يسعى في الخير والإصلاح بين الناس، وقد اشتهر بهذه الصفة التي جعلته مرجعاً في مجتمعه، ومقرباً لدى حكام الدولة العثمانية في طرابلس؛ وكان الابن سليمان الباروني يرى مكانة والده العلمية والاجتماعية بين الناس، فجعله ذلك كثير التعلق به، شديد الاحترام له، مُعْتَبِرَاً إياه مثله الأعلى وقدوته الحسنة، وقد وصف سليمان الباروني سيرة أجداده في رسالة كتبها عنهم بقوله:

" إن المطالع يرى سيرتهم كسيرة الصحابة والتابعين لا تعاظم ولا تكبُّر، مع العفة التامَّة، والعلم الغزير، والاعتناء بالدين، والعدل، كتاب الله حجتهم، وسنة رسوله دليلهم، وآثار السلف الصالح منهجهم، إن هم جلسوا للحكم عدلوا، وإن تصدَّروا للتعليم أجادوا وأحيوا، وإن قاموا للدفاع عن وطنهم وملكهم أبلوا ونصروا، وإن بسطوا أيديهم للإحسان أغنوا، وإن شمروا للعبادة صاموا النهار وفي الليل تهجدوا.." [2] وهكذا ندرك بعد استعراضنا لطرف من سيرة آبائه وأجداده أين ينزل سليمان الباروني بين آباءه وأجداده العظام، فقد تربى في دوحتهم الوارفة، ونهل من معينهم الفيَّاض، فلا غرو إذن أن ينشأ نشأة قيادية فذَّة، جعلته قادراً على التغلَّب على كل المصائب والآلام التي ابتلي بها، شاقَّاً طريقه إلى ذروة المجد بدون وجل أو خوف أو تردد، وظل مكافحا من أجل نصرة الحق، رغم المآسي التي كابدها في حياته.

(١) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج١، ص٥-٦.
(٢) نفس المرجع ص ٦.

ثانياً: الظروف السياسية

عاش الباروني في حقبة زمنية مليئة بالصراعات السياسية، والتجاذبات السلطوية، فكانت بوادر الحرب العالمية في زمانه قد أخذت تشق طريقها من خلال محاولات الدول الكبرى السيطرة على الدول الضعيفة، ورغبتها في إخضاعها وجعلها تحت سيطرتها المباشرة، ومن قبل ذلك تعرض الوطن العربي" إبَّان الحروب الصليبية إلى العديد من المؤامرات، منها من الغرب الأوروبي لسلب العرب حريتهم وأراضيهم، وشاركه في ذلك الإمبراطورية البيزنطية في مراحل متعددة، ومنها مؤامرات من الصليبيين بالشام ضد وحدة الصف العربي، كما صدرت مؤامرات من بعض الحكام المسلمين أنفسهم ضد إخوانهم في الوطن والدين"[1]، وتكالب الحلفاء على الدول العربية خاصةً محاولين تقسيمها إلى دويلات تابعة لها، كما كانت المحاولات خلال تلك الفترة حثيثة من أجل احتلال دولة فلسطين وتشريد أهلها من قبل الجماعات اليهودية، وكانت دول أوروبا تحيك المؤامرات من أجل إسقاط الحكومة العثمانية، فكان الباروني يرقب بأم عينيه تلك الأحداث، بل ويكتب عنها، وكان يجاهد بسيفه وقلمه من أجل تحقيق الحرية الوطنية لبلاده طرابلس التي كانت حينها تتبع الدولة العثمانية، وعندما نشبت الحرب بين طرابلس الغرب وإيطاليا تصدى لمقاومة الاستعمار الإيطالي، وأنشأ جيشاً نظامياً لمقاومتهم، وقاد سنة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م كتائب وفرق المجاهدين من سائر طرابلس تحت لوائه لصدهم عن بلاده، واستمر في المقاومة إلى أن تم إعلان الجمهورية الطرابلسية دولة مستقلة في سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م.

(١) تاريخ الحروب الصليبية، د. محمود سعيد عمران، ص١١، الناشر: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م.

كانت تلك الأحداث الجسيمة حاضرة في ذاكرة الباروني، مؤثرة في شخصيته، جعلت منه شخصية صامدة، مارست السياسة بعيداً عن المصالح الشخصية، ودون الخوض في صراع على السلطة، بل نجده يتنازل عنها بعد أن أظهره الله ونصره، فبعد نيل بلاده الاستقلال عام ١٩١٩م، وإعلان الجمهورية الطرابلسية بعد المصالحة مع إيطاليا إثر الصمود الذي حققه الباروني ضد الطليان اعتذر عن الانضمام في مجلس حكومة القطر الطرابلسي الثمانية، ولم يرغب في المشاركة في الحكومة الجديدة، وأصرَّ على الاعتذار، رغم الإلحاح عليه، بحجَّة أنَّه " عثماني" وأنَّه متمسك بتبعيته للدولة العثمانية، وبوظيفته في " مجلس الشيوخ العثماني".

كما ظل مثالاً في الوطنية الصَّادقة واستمر في الدفاع عن بلاده طرابلس في كل المحافل الدولية بدون هوادة ولا مساومة على الثوابت الوطنية، وعمل جاهداً في الحفاظ على وحدة بلاده وشعبه، مدافعاً بقوة عن حريتها؛ حتى تم تحريرها وإعلان استقلالها.

لقد ذاق الباروني طعم الحبس والنفي والإبعاد عن بلاده، حيث حكمت عليه السُّلطَات العثمانية بالسجن مدة خمس سنوات، ولبث في سجن طرابلس المخصص للمنفيين من الأتراك، وبعد أن قضى عاماً في السجن تم تخفيف الحكم عنه، وأطلق سراحه سنة ١٩٠٢م بكفالة أعيان الجبل وأعيان طرابلس له، بشرط أن يبقى في طرابلس ولا يغادرها طوال العام التالي لاطلاق سراحه، كما تم إبعاده مرة إلى تركيا، وتم نفيه إلى فرنسا، وكان في كل مرة يحاول الانضواء تحت راية الدولة العثمانية باعتبارها عاصمة الخلافة، حيث كان الناس يتمسكون بروابطهم مع الدولة العثمانية لأنها في نظرهم قوة يمكن الاعتماد عليها في مواجهة الدول الأوروبية، وكانت هذه العاطفة الدينية سائدة في العالم العربي

والإسلامي تجاه هذه الحكومة المسلمة، وظل سليمان الباروني مخلصاً للدولة العثمانية، محافظاً على علاقته معها لحين وقوع الانقلاب عليها، وسقوطها على يد مصطفى كمال أتاتورك.

المحور الثالث: رحلات الباروني وأهدافها

يمكن تقسيمها بحسب الغرض منها إلى الأقسام الآتية:

القسم الأول: رحلاته العلمية والثقافية:

تلقى الباروني مبادئ القراءة والكتابة، وأَخَذَ مقدمات العلوم عن والده بجبل نفوسة في ليبيا منذ أن كان صبياً، ثم رغب في الاستزادة من العلم فخرج في طلبه إلى الأقطار المجاورة، ورحل ثلاث رحلات في طلبه، على النحو الآتي:

١- **رحلته العلمية الأولى إلى تونس:** (١٣٠٥هـ - ١٣٠٩هـ تقريباً/ ١٨٨٧م- ١٨٩٢م).

حين بلغ الثامنة عشرة سنةً من عمره قام بأول رحلة علمية لطلب العلم، وسافر في سنة(١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م) إلى تونس، ودرس في جامع الزيتونة على أيدي كبار أساتذته وعلمائه، ومن بينهم العلَّامة الشيخ عثمان المَكِّي، والعلَّامة الشيخ محمد النَخْلي، ومكث بها حوالي خمس سنوات، ينهل من مناهل العلوم والمعارف، وتذكر المصادر أنه حين سافر في أول شبابه كتب إليه أبوه قصيدة شعرية رائعة يحثه فيها على طلب العلم، ويوجِّه إليه فيها نصائحه وتوجيهاته لتكون له دستوراً في حياته العلمية والعملية، ومن بين أبياتها:

بُنيَّ تنبَّه واستمع لـــــمقالتي وكـن واعيـاً لهـا بقـلب مباشـرِ

تعلَّم بُنيَّ العلم والزمـــه دائماً قريناً مع التقوى وفعل الأوامر
تعلَّم بُنيَّ العلم فالـــعلم زينةٌ وذخر وفخر للفتى في المحاضر
تعلَّم فإن العلم تاجٌ وهيـــبةٌ لحامله بين الرجال الأكابر[1]

إن سفره لطلب العلم من وقت مبكر في حياته دليل على حبِّه للعلم، وحرصه عليه، وشغفه بالتَعَلُّم وحرصه على تلقي المعرفة، وهذا ما دفعه إلى التنقل من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ بحثاً عن معين العلم الذي لا ينضب.

٢- **رحلته العلمية الثانية إلى مصر:** (من سنة ١٣١٠هـ- ١٣١٣هـ ١٨٩٣م- ١٨٩٦م).

- سافر الباروني إلى أرض مصر مرتين، فكانت **(رحلته الأولى)** إليها لأجل طلب العلم، حيث توجَّه إلى القاهرة، ودرس بالأزهر الشريف مدة ثلاث سنوات من سنة ١٣١٠هـ إلى سنة ١٣١٣هـ، واغترف هنالك من منهل العلم.

- ثم رحل إليها **(رحلته الثانية)** في سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م، وقد نظم في حبها شعراً، ففي سنة ١٣٢٥هـ جادت قريحته بهذه القصيدة، التي يقول في مطلعها:

هويتك يا مصر وهل في الهوى صبر وأنت التي يشفـــى بأدوائك الصدر
هويتك إذ فيك المـــــعارف أشرقت لك الشكر والشرق العظيم لك الشكر
هويت رياض العلم فيـــك بـــأزهر يعز به دين الهـــدى ولك الفـــخر
هويت خصـــالاً في رجالك أعجزت من الغرب أقطاباً لها علناً خرُّوا

(١) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ص ٤٠.

هويت ومن أهـــوى سواك وكنت لي إذا السعد ولى ملجأ هابه النـــــسر

وحقق في هذه الرحلة كثيراً من المنجزات العلمية والأعمال الثقافية، ومن أبرزها:

١- القيام بأنشطة علميَّة وثقافيَّة:

كان الباروني شديد الاهتمام بالعلم، كثير العناية بالكتب وجمعها، حريصاً على نشرها بين الناس، وذلك لإدراكه البالغ بأن " العناية بالكتب والمطالعة صفة من صفات الأمم الراقية، تدل على ما لها من التعلق بالعلم؛ الذي يرفع شأن الأفراد والجماعات والأمم، ويبدي صاحبه في مظهر الجلال والكمال الإنساني... وكانت ولا تزال عند الأمم والدول من أكبر الأعمال وأهم المقاصد، ولأجلها تُوفَدُ الرسل إلى مُنْتَأًى من الأرض، ويستغرق الباحثون السنين الطوال في البحث عن مؤلف واحد، كل ذلك حرصاً على الوقوف على تلك الأسفار القيمة، واعتناء بالعلم الشريف"[1].

لقد أدرك الباروني برؤيته الثاقبة، وفكره المستنير قيمة الكتاب في بثِّ العلم ونشر المعارف، فبذل الغالي والنفيس من أجل تحصيل العلوم، وإذاعة المعارف، ونشرها بشتى الوسائل والسبل الممكنة، واستغل فترة وجوده بأرض مصر ظهور المطابع " فقام في سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م بتأسيس مطبعة في " شارع محمد علي" بالقاهرة باسم " مطبعة الأزهار البارونية" [2] جعلها نافذة لطباعة الكتب والمؤلفات في الحديث والفقه والتاريخ والأدب، ومن بين الكتب التي طبعها:

(١) أبو اسحاق اطفيش: مجلة المنهاج، العدد الأول (غرة محرم ١٣٤٤هـ) ص ٣٠ بتصرف.
(٢) القصائد الغمانية في الرحلة البارونية، تأليف الشيخ عيسى بن صالح الطائي، ص٢ الناشر: مكتبة مسقط، سلطنة عُمان، ط الأولى ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

– كتاب "حاشية الشيخ السالمي على مسند الإمام الربيع بن حبيب"، وكتاب " وفاء الضمانة " للشيخ محمد بن يوسف اطفيش في علم الحديث.

– كتاب " الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية" في التاريخ.

– وفي مجال الشعر طبع ديوان " السيف النقَّاد" لأبي إسحاق الحضرمي.

– وديوان " القلائد الدُرِّية " للشيخ عمر التندميري، وديوانه المسمى " ديوان الباروني ".

– ورسالة تتضمن تعليقاته على كتاب " سلَّم العامة والمبتدئين" الذي ألَّفه والده، وغيرها من الكتب[1].

٢– القيام بأنشطة إعلامية:

كان من بين أنشطته الإعلامية التي قام بها خلال (رحلته الثانية) إلى مصر ممارسة أعمال الصحافة والنشر.

- في مجال الصحافة، قام سنة ١٣٢٦هـ/ أوائل نيسان (أبريل) سنة ١٩٠٨م بإصدار جريدة باسم " الأسد الإسلامي"، وصدَّرها في افتتاحية العدد الأول منها، بقوله: " فاستخرت الله تعالى، وسألته الإعانة على إنشاء الأسد الإسلامي وإصداره أسبوعياً مؤقتاً في مصر، وهيأت له مطبعة من أحسن صنف، تامة الاستعداد، ومحلاً معتبراً يليق بإدارته..."[2].

(١) حول مطبوعاته، انظر: سليمان الباروني ، نوابغ العرب – ١٣، " المعلم المقاتل " الناشر: دار العودة – بيروت – ط١، ١٩٧٥/٩/١، ص٢٦-٢٧ .

(٢) سليمان الباروني ، نوابغ العرب – ١٣ ص ٢٨.

- في مجال النشر، قام بكتابة المقالات ونشرها في جريدته الأسبوعية " الأسد الإسلامي" التي كان يقوم بطبعها في " مطبعة الأزهار البارونية" الخاصة به، بالإضافة إلى نشرها في بعض الصحف العربية، وكان موضوع مقالاته يدور حول مشروعه عن الوحدة الإسلامية أو ما يسمى باتحاد المسلمين، وجمع كلمتهم تحت راية واحدة.

٣– رحلته العلمية الثالثة إلى الجزائر: (من سنة ١٣١٣هـ – ١٣١٦هـ/ ١٨٩٦م– ١٨٩٩م).

– سافر إلى الجزائر في سنة (١٣١٣هـ) واتجه إلى وادي ميزاب لاستكمال علومه، وتلقى العلم في " بني يزقن " على يد أشهر علمائها وهو الشيخ قطب الأئمة محمد ابن يوسف اطفيش الذي أحسن وفادته، وجعله محل عنايته واهتمامه، وقرأ الباروني على يديه كتاب " النيل وشفاء العليل في علوم الشريعة".

وأثناء إقامته بالجزائر قام برحلات داخلية:

- فزار القرارة بمعية أستاذه الشيخ اطفيش سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م.
- وزار العطف سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٨م.
- وزار تاهرت عاصمة الدولة الرستمية سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م.

عندما بلغ الثامنة والعشرين من عمره، وبعد أن مكث في الجزائر نحو ثلاث سنين، عاد من رحلته العلمية إلى وطنه طرابلس سنة ١٨٩٨م، وقد اغترف من معين العلم واستقى من تجارب الحياة ما يؤهله لخوض غمارها، ويقوده إلى

الدخول في معترك الحياة بقوة وثبات وانفتاح على الغير بروح العصر والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة.

- في أواخر سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م عاد إلى الجزائر لزيارة شيخه وأستاذه الجليل قطب الأئمة محمد بن يوسف اطفيش، ونزل عنده ضيفاً وجلس نحو شهر[١].

- وفي سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م رحل إلى الجزائر لتعزية آل اطفيش في وفاة أستاذه الشيخ اطفيش، ولما وصل باب "بني يزقن" بوادي ميزاب جاء إليه أصدقاؤه القدامى للتسليم عليه في صفين، فأبى النزول من راحلته إلا إذا أتوه في صف واحد؛ فتفاهموا فيما بينهم، وتصالحوا وجاءوا إليه صفاً واحداً، فجمعهم الله بسبب زيارته، وهذه هي سياسته في جمع الكلمة، وتوحيد الصفوف، والتئام الشمل.

من خلال رحلاته العلمية التي قام بها يتبيَّنُ لنا بأنَّه أخذ العلم من معاهد علمية مرموقة، تعدُّ مقصداً للعلماء والمتعلمين، ومنارات شامخة لها مكانتها في العالم العربي والإسلامي، وهي: معهد جامع الزيتونة بتونس، ومعهد الأزهر الشريف بالقاهرة بمصر، ومعهد قطب الأئمة الشيخ اطفيش بوادي ميزاب في الجزائر، مما يدل على متانة تأسيسه العلمي، وعمق العلوم والمعارف التي أخذ عنها، وتضلعه في العلوم الشرعيَّة.

وقد كانت نهاية رحلته العلمية بالجزائر بداية لرحلاته السياسية، ولحياته العملية، فلم يُخْفِ إعجابه بالدولة العثمانية التي كانت تحكم بعض الشعوب العربية والإسلامية آنذاك؛ وهذا ما ندركه من موقفه مع شيخه الجزائري محمد ابن

---

(١) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج١، ص ٥٧.

يوسف اطفيش الذي كان ينكر التصوير الفوتوغرافي ويعدُّه بدعة " وكانت الحرب في تلك الفترة قائمة بين الدولة العثمانية واليونان، فأخذ الباروني يحدِّثُ أستاذه عن انتصاراتِ العثمانيين على أعدائهم، ويُطْلِعُهُ في ذلك على مجلة مصوَّرة شارحاً له فيها صور تُمَثِّل " أبطالَ آل عُثمان" وهم على صهوات خيولهم، وجنود اليونان صرعى هنا وهناك، ففرح الشيخ بذلك فرحاً شديداً، وكان صاحبَ نكتةٍ، فقال: "إن كان التصوير هكذا، فهو حسنٌ إذاً!" [1].

إن هذا الموقف يدل على مدى إعجاب الباروني بالدولة العثمانية، مما حدا به إلى السفر إلى اسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية ليبدأ رحلته السياسية بها.

القسم الثاني: رحلاته السياسية:

بعد وضع الدستور العثماني في (١٧) من جمادى الآخرة عام ١٣٢٦هـ الموافق ٢٤ من يوليو عام ١٩٠٨م للدولة العثمانية كان من بين ولاياتها طرابلس الغرب، وكان من مقاطعات طرابلس الجبل الغربي الذي هو موطن الباروني، فكان من بين أبرز الشخصيات المهيأة للترشح لنيابة الأمة في مجلس المبعوثان عن ولاية الجبل الغربي.

ومن هذه البوابة دخل الباروني معترك الحياة السياسية في عز شبابه، ورشّح نفسه لشغل هذا المنصب، وكان عمره آنذاك ثمان وثلاثين سنة، ففاز

---

(1) سلسلة نوابغ العرب – ١٣ سليمان الباروني ، ص ١٥.

بأغلبية ساحقة فعيَّنته الدولة العثمانية رسمياً عضواً في مجلس الأمة العثماني المسمى " مجلس المبعوثان"[1].

- في عام ١٩٠٨م رحل الباروني إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية بتركيا بعد تعيينه نائباً في مجلس المبعوثان؛ ليكون ممثلاً لبلاده فيها، ومكث بها إلى أوائل عام ١٩١١م.

- في عام ١٩١١م انتقلت أُمُّه إلى رحمة الله، وبوفاتها حزن حزناً بالغاً، فعاد من الأستانة إلى طرابلس بليبيا لتعزية والده وتسليته.

- وافق وجوده في طرابلس لعزاء والدته " إعلان إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية في طرابلس الغرب في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١م، ووصول الأسطول الإيطالي في البحر أمام مدينة طرابلس"[2]، فلما بلغ الخبر سكان الجبل الغربي، اجتمع كثير من رؤساء القبائل العربية والبربرية عند الباروني في مركز القضاء بيفرن " ... واتفقوا على وضع " ميثاق " يديرون بمقتضاه دفة الدفاع عن وطنهم، ويبنون على أساسه قواعد الجهاد، واجتمعوا لملاقاة عدوهم باسم "الجيش الإسلامي الطرابلسي" تحت لواء المجاهد سليمان الباروني، ولما نشبت الحرب بين إيطاليا والمجاهدين الطرابلسيين الأبطال، وقعت مصادمات عنيفة، ووقائع هائلة في " عين زارة" وفي قصر الهاني- شارع الشط وتسمى معركة "المنشية" بضواحي طرابلس لم يحسب الطليان حسابها، وقد قاد الباروني ورجاله الأبطال المواجهات في جيش منظَّم بمهارة وإقدام، ثم انتقل ميدان الحرب إلى سواني بني آدم، وهناك اتخذ المجاهدون معسكرهم العام ودونوا له نظاماً أساسياً يديرون

(١) مجلس المبعوثان: هو مجلس البرلمان العثماني، و "المبعوثان" اسم الجمع على الطريقة الفارسية لكلمة " المبعوث" العربية، وهو المندوب في المجلس. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ١٩٩.
(٢) سلسلة نوابغ العرب – ١٣ سليمان الباروني ص ٣٦.

حركة الحرب على مقتضاه.."[1] كان ذلك تاريخ ١١ من جمادى الأولى سنة ١٣٣٠هـ/ ١٦ من نيسان ابريل سنة ١٩١٢م.

وأمام تباطؤ الدولة العثمانية عن مقاومة إيطاليا في طرابلس، وعدم إمدادها للمجاهدين الصامدين بالإمدادات الكافية، وانقسام كلمة البرلمان العثماني أثناء الحرب بين مواصلة القتال، وبين إيقافها، وصعوبة المواصلات بين عاصمة الخلافة وبين طرابلس، فكان ما ترسله تركيا من إمدادات يكون عرضة للتلف والمصادرة من قبل الأسطول الإيطالي الراسي في عرض البحر، وبالرغم من إلحاح الباروني باشا وزملائه النواب الطرابلسيين على البرلمان العثماني لحمله على مواصلة الدفاع عن ولاية طرابلس العثمانية وعدم التخلي عنها إلا أن الدولة العثمانية قامت بعقد الصلح مع إيطاليا في ١٨ من أكتوبر سنة ١٩١٢م في معاهدة عرفت باسم معاهدة " أوشي"[2]. ومع أن الصلح تم بين الدولتين إلا أن الدولة العثمانية منحت ولاية طرابلس استقلالها الذاتي.

- عقد مجاهدو طرابلس الغرب اجتماعاً تحت رئاسة الباروني باشا وتدولوا أمرهم بينهم حول مواصلة الحرب وإعلان الاستقلال بعد الصلح العثماني واتفقوا بالإجماع على مواصلة الجهاد، وإنشاء الحكومة الوطنية، واستمرت الحرب بين المجاهدين وبين إيطاليا، ووقعت وقائع كبيرة بينهم، نتج عنها إلحاق خسائر بالطرفين، كما شنَّت إيطاليا هجوماً عنيفاً كان النصر فيه للمجاهدين في الجانب الأيسر، وللإيطاليين في الجانب الأيمن، ومات منهم عدد كبير، ونفدت الذخيرة والمئونة من الطرابلسيين، ولم يبق معهم إلا القليل، ولولا أن دخل الليل في المعركة المسماة "معركة جندوبة" لوقعوا في الأسر.

(١) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج١، ص ٩٥- ٩٨
(٢) نفس المصدر ص ١٠٠.

- في اليوم التالي قامت الجيوش الإيطالية بهجوم عنيف ضد المجاهدين، فأنهكتهم الحرب، وتفرَّق قسم منهم، وفي هذه الأثناء وصل الوفد الذي أرسله الباروني إلى أوروبا للسعي لنيل الاعتراف من حكوماتها بحكومة طرابلس يحمل جواب إيطاليا بالموافقة على إعطاء طرابلس ما طلبته من الإدارة المختارة والاستقلال الذاتي تحت إشرافها.

- وهنا جمع الباروني أعيان البلاد ليستشيرهم في الرد، فرأوا أن المقاومة غير مجدية، وقرر الباروني في أول سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م الانسحاب إلى الحدود التونسية.

- التجأ الباروني إلى تونس ومكث فيها جزءاً من آخر سنة ١٩١٣م إلى أوائل سنة ١٩١٤م، وأقام هناك مع عائلته وحشمه في " رادس " التونسية.

- ثم سافر برفقة عائلته من تونس إلى اسطنبول بتركيا في ربيع عام ١٩١٤م، ومر في طريقه ب " لندره " [١] وإثر وصوله اسطنبول عيَّنته الدولة العثمانية عضوا في " مجلس الأعيان العثماني " [٢] مكافأة له على جهاده وبطولته في طرابلس ضد الطليان، ومنحه السلطان العثماني "محمد رشاد" لقب "باشا"[٣] وأصدر أمراً بتعيينه والياً على طرابلس الغرب.

- استقل في نيسان (أبريل) عام ١٩١٦م غواصة من تركيا عائداً إلى طرابلس وبرفقته أخوه يحيى الباروني، ولما وصل إلى طرابلس اجتمع بأعيان

---

(١) التعريف بها وهي مدينة لندن الحالية.

(٢) مجلس الأعيان: هو الاسم الذي أطلق على مجلس التشريع الثاني أثناء عهد الدستور في الدولة العثمانية، وقد استمر العمل فيه حتى زوال حكومة اسطنبول عام ١٩٢٣م. انظر: مقدمة أبي إسحاق على كتاب "حياة سليمان باشا الباروني زعيم المجاهدين الطرابلسيين" لأبي القاسم سعيد بن يحيى الباروني

(٣) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج١، ص ٦٩. " **باشا**" كلمة تركية الأصل، استخدمت لقباً لحكام الولايات، كما أطلقت على رتب متعددة، عسكرية ومدنيّة، وأخيراً أصبحت أعلى لقب تشريفي في الدولة العثمانية. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ٥٢- ٥٣.

البلاد، وتلا عليهم قرار تعيينه والياً على طرابلس، واتخذ من مدينة " الزاوية " مركزاً له، ورفع فيها العلم العثماني، وقام بتنظيم القوات الطرابلسية وإجراء مصالحة بين رؤساء القبائل المتحاربة وأكبرها قبيلتا " مصراطة " و " ترهوتة " فقبلتا الصلح، وتم استئناف الجهاد مرة أخرى ضد الطليان[1].

- قرر الباروني سنة ١٩١٨م البقاء في طرابلس لمواصلة الجهاد مع مواطنيه، وإدارة الحرب، ومحاصرة الطليان، واستمرت الحصار والمناوشات بين طرفي الصراع عدة أشهر كانت كفة الحرب فيها لصالح الطرابلسيين، " ومع إلحاح الحكومة الأمريكية في حل قضايا الشرق وفق بنود ولسون الأربعة عشر اضطر الطليان لمفاوضة الجمهورية الطرابلسية التي كان الباروني قد شكل لها مجلساً يتكون من: سليمان الباروني وأحمد بك، وعبد النبي بن خير ورمضان السويحلي" [2] مؤجلين انتخاب رئيس للجمهورية حتى تستقر الأمور.

- دامت المفاوضة مدة وانقطعت مرات، وجرَّب الطليان في أثنائها أن يتقدموا بقواتهم ويحرزوا نصراً فلم يفلحوا، فاضطروا على إتمام المصالحة ومنح طرابلس استقلالاً داخلياً بموجب دستور تم وضعه في الأول من أيار (مايو) سنة ١٩١٩م، والاتفاق عليه بين حكومة الجمهورية الوطنية الطرابلسية وبين السُّلطة الإيطالية وأسموه" القانون الأساسي لحكومة طرابلس الغرب" ويتكون هذا الدستور من (٤٠) مادة، وفق صلح "بنيادم" وبناء عليه تم إعلان نهاية الحرب الذي دامت بينهما قرابة (٣) سنوات.

- بموجب هذا الدستور تم تعيين أعضاء مجلس حكومة القطر الطرابلسي، وعددهم ثمانية، ليس من بينهم سليمان الباروني، إذ اعتذر عن

---

(١) سليمان الباروني باشا، ص١٦٢- ١٦٥

(٢) سليمان الباروني باشا، ص١٦٤- ١٦٥ بتصرف قليل.

الانضمام في المجلس ولم يرغب في المشاركة في الحكومة الجديدة، وأصرَّ على الاعتذار، رغم الإلحاح عليه، بحجة أنَّه " عثماني" وأنَّه متمسك بتبعيته للدولة العثمانية، وبوظيفته في " مجلس الشيوخ العثماني".

- سافر الباروني في (٦) من نوفمبر سنة ١٩١٩م من طرابلس إلى اسطنبول، فوافق وصوله إليها وقوع الانقلاب الذي قام به " مصطفى كمال أتاتورك" على الدولة العثمانية، فمكث فيها ثلاثة أشهر، ولم يعجبه الوضع فقرر العودة.

- عاد الباروني من اسطنبول إلى طرابلس في مطلع عام ١٩٢٠م، ولما استقر فيها قرر العيش بعيداً عن السياسة وأضوائها، خاصة وهو يرى أن الأمن مستتب، والسلم متحقق في بلاده، إلا أن السلطات الإيطالية اتهمته بمحاولة إحداث فتنة في البلاد، وطلبت إليه عام ١٩٢٢م مغادرة طرابلس، وهي تقصد بذلك إبعاده عن البلاد.

- غادر في عام ١٩٢٢م طرابلس دون أن يودع أهله وأولاده، وذهب مجدداً إلى اسطنبول، ولما وجد الانقلاب الكمالي قد أتى على كل شيء، لم تَحْلُ له الإقامة في اسطنبول فغادر إلى أنقرة، وحاول من هنالك السفر إلى الشام أو مصر أو تونس أو الجزائر؛ ولكن حالت كل من فرنسا وبريطانيا دون سفره إلى واحدة منها.

القسم الثالث: رحلاته من وإلى المنفى:

- غادر اسطنبول في سنة ١٩٢٢م، وسافر إلى رومانيا ومنها توجه إلى أوروبا ودخل فرنسا بجواز سفر باسم مستعار هو "سليمان بن عبدالله

العثماني" ووصل إلى باريس، فلما علمت السُّلطات الفرنسية بأمره، ضَّيقت عليه الخناق، وجعلته تحت الإقامة الجبرية، ومنعته من مغادرة فرنسا، وبذلك يكون قد وقع في الأسر.

- في أثناء إقامته التي فرضت عليه في مرسيليا بفرنسا كأسير بعد حرب طرابلس، أخذ يتنقل في فرنسا متردداً بين العاصمة باريس ومرسيليا، ويخاطب مختلف الجهات للسماح له بالمغادرة، ولكن يقابل طلبه بالرفض، وحصل ذات مرة على جواز سفر من بعض المراجع بمرسيليا للسفر إلى تونس فغادر بحراً متخفياً ووصل إلى تونس في سبتمبر سنة ١٩٢٣م، ولما علمت به الحكومة الفرنسية، أعادته مباشرة في أول باخرة كانت مبحرة إلى مرسيليا.

- انتقل من مرسيليا إلى باريس بتاريخ ١ من رجب سنة ١٣٤٢هـ/ ٧ من مارس ١٩٢٤م، وفور وصوله كتب رسالة إلى صديقه أبي اليقظان الحاج إبراهيم بتونس يشكو إليه حالته، ومما جاء فيها: .." أتيت باريس مساء أمس وذهبت اليوم إلى السفارة المصرية فاستقبلني السفير وهيأته باحترام وإكرام، وقد وجدته ذا إلمام بالمسألة وبتاريخ حياتي كلها، وكلفني أن أقدم إليه كتاباً في طلب الرخصة إلى مصر ليكتب هو إلى وزارة الخارجية المصرية بما يلزم وأكد الوعد بأن الجواب سيأتي بسرعة وحسب مرغوبنا، وسأقدم إليه غداً ما طلبه من الكتابة، وأعود إلى مرسيليا لأن بقائي في باريس يستدعي إقامتي في محل لائق بقبول الزائرين، وأصحاب الجرائد الأمر الذي أتباعد عنه منذ أتيت إلى باريس في السنة الماضية..." من أخيكم: سليمان الباروني.

القسم الرابع: رحلاته الدينية

- تقدم بطلبه إلى سفارات الدول الغربية في باريس للإذن له للسفر إلى مصر أو تونس أو سوريا أو الجزائر أو العراق لأجل الاستقرار بها إلا أن طلبه رفض، ثم كتب إلى جلالة الملك الشريف حسين ملك الحجاز لتسهيل الطريق إليه لأداء فريضة الحج فأرسل إليه جواز سفر، فكان له الفضل في خلاصه من الإقامة الجبرية التي فرضت عليه بفرنسا.

- غادر مرسيليا في شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٢٤م، متحرراً من أغلال الأسر الذي فرض عليه قسراً لمدة عامين، وتمكن بفضل الله تعالى من الذهاب إلى الأراضي المقدَّسة " فلما وصله جواز السفر بادر بالرحيل إلى مكة المكرمة لأداء الحج في يوم الأربعاء ١١ من ذي القعدة سنة ١٣٤٢هـ /١٩٢٤م، ولما وصل " جدة " يوم ٢٨ من ذي القعدة استقبله جلالة الملك حسين أجمل استقبال، وقلَّده نيشاناً من أكبر نياشينه وهو نيشان الاستقلال العربي الهاشمي"[1] تكريماً له على جهاده.

لقد كان أداء فريضة الحج من أعظم أمنياته، وقد تحققت له هذه الأمنية بفضل الله، بعد أن حظي لدى جلالة الملك حسين بحظوة كريمة تليق بمقامه السامي، وتمكن من أداء هذه الشعيرة المقدَّسة.

(١) مقدمة أبي إسحاق على كتاب "حياة سليمان باشا الباروني زعيم المجاهدين الطرابلسيين" لأبي القاسم سعيد بن يحيى الباروني، وانظر: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج١، ص ١٦٧.

القسم الخامس: رحلاته العُمانية

جاءت رحلته إلى مسقط عاصمة عُمان استجابة لأصوله النسبية بحكم انتماءه إلى قبيلة البراونة العُمانية، وقد تقدم بيان ذلك عند الحديث عن سيرته ونسبه، كما ارتبط بعلاقات متينة بالعُمانيين من خلال المراسلات، وَتَوَّجَ ذلك بالتواصل المباشر بزيارته إلى عُمان بعد عودته من أداء فريضة الحج.

- كانت زيارة الأولى إلى عُمان في أواخر شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٢هـ/ أواخر يوليو ١٩٢٤م، بعد أدائه لفريضة الحج وحضور المؤتمر الإسلامي فقد سافر على متن الباخرة القادمة من الحجاز، التي تقل حجاج عُمان والخليج، ولماَ وقَفتْ به الباخرة في ميناء مسقط، لقي من حكومة مسقط وعُمان ترحيباً كبيراً، إذ استقبله وزراءُ حكومة السلطان تيمور بن فيصل (١٣٣١-١٣٥٠هـ/١٩١٣- ١٩٣٢م) نظراً لكون السلطان موجوداً في تلك الفترة في الهند، بيد أنَّه أرسل إليه برقية تهنئة وترحيب، وهذا نصُّها: " قدوم مبارك لبلادنا، أرجو أن شعبي قد استقبلكم بكل احترام" [1] تيمور بن فيصل،٧محرم ١٣٤٣هـ .

- وأقام السيد نادر بن فيصل- أخو السلطان تيمور ووكيله بمسقط - مأدبةً فاخرةً للباروني بتاريخ ٧ من محرم سنة ١٣٤٣هـ، حضرها الوزراء والعلماء والولاة في قصره العامر بمسقط، وألقيت فيها خطب وقصائد بليغة، منها قصيدةٌ لأبي سلام سليمان بن سعيد بن ناصر الكندي (ت١٣٧٩هـ/١٩٥٩م)، وقصيدة للشاعر الشيخ عيسى بن صالح الطيواني.

(١) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص ٢٠٩.

- في يوم الجمعة الأخيرة من شهر محرم سنة ١٣٤٣هـ أقام السيد/ محمد بن أحمد البوسعيدي وزير المالية لحكومة مسقط حينها مأدبة مماثلة على شرف الباروني في مدينة مطرح.

- كما أرسل إليه الإمام محمد بن عبدالله بن سعيد الخليلي (١٣٣٨-١٣٧٣هـ/١٩١٩-١٩٥٤م) رسالة ترحيبية من مقر إمامته في نزوى في ١٣ من محرم سنة ١٣٤٣هـ/١٤ من أغسطس سنة ١٩٢٤م[١].

ويرصد كتاب " **القصائد العُمانية في الرحلة البارونية** " للشيخ/ عيسى بن صالح الطائي العُماني (ت١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م) علاقة الباروني بعُمان ورحلاته إليها، وسياحته الداخلية في بلدانها باستفاضة، ويمدنا بمعلومات غاية في الأهمية عن تفاصيل تلك الرحلات التي قام بها، نظراً لكون المؤلف معايشاً للباروني في تلك الفترة ومرافقاً له في جولاته بتكليف من حكومة السلطان.

بعد أن استقرَّ الباروني في مكان إقامته بمسقط، عزم على السياحة في داخل عُمان، ويمكن تقسيم الرحلات الداخلية التي قام بها إلى قسمين:

رحلته السياحية الأولى: بدأت في أواخر شهر صفر سنة ١٣٤٣هـ/ أواخر سبتمبر ١٩٢٤م، وانتهت في شهر رجب من نفس العام، ودامت رحلاته مدة أربعة أشهر ونصف تقريباً، زار فيها العديد من الحواضر العُمانية.

- فقد خرج من مكان إقامته بمسقط، ووصل بلدة "روي" بناء على طلب أهلها، ثم زار بلدة "العامرات"، ثم انتقل إلى " بوشر"، و" غلا "، وزار" السيب "، و"الخوض"[٢]، ووصل إلى بلد " فنجا " في ١٥ من ربيع الأول، ولما وصل إلى

(١) للاطلاع على نص الرسالة، انظر: نفس المرجع السابق ص ٢٠٩-٢١٠.
(٢) هذه البلدات جميعها تتبع حالياً محافظة مسقط.

"سمائل" في يوم ١٨ من ربيع الأول/ ١٧ من أكتوبر استقبله الإمام محمد بن عبدالله الخليلي في موكب كبير عند وصوله، ثم تجول فيما جاورها من القرى والبلدان.

- ثم غادر سمائل إلى " مناطق الشرقية " ، فزار " إبرا " و" القابل " ولمَّا وصل " الدريز" بلدة البروانيين قبيلة الباروني باشا استقبله أهلها بإطلاق المدافع، وهتاف الأناشيد، فرحاً بوصوله، وكذلك بمناسبة شفائه من المرض الذي ألم به في مسقط، وألقى الشاعر سعود بن حميد قصيدة في أوائل جمادى الأولى بمناسبة وصوله وشفائه، مطلعها [١]:

الحمد لله لا بؤس ولا سقم ... المجد عوفي إذا عوفيت والكرم
وزادك الله إجلالاً وعافية ... وزال عنك إلى أعدائك الألم
وما أخصك في برء بتهنئة ... إذا سلمت فكل الناس قد سلموا

ثم انتقل لزيارة بلدة " المضيرب" و" عزّ " و" الظاهر" بولاية بدية.

- بتاريخ ١٧ من رجب سنة ١٣٤٣هـ قرر العودة إلى مسقط، وفي طريق عودته زار " قُرَيَّات" و" الحيل" و" المزارع".

وقد أعجب كثيراً بالمناطق التي زارها؛ وتركت المهرجانات التي تم استقباله بها، والحفاوة والإكرام الذي قوبل به أثراً كبيراً في نفسه، عكست مدى شعور الشعب العُماني نحوه، وتقديرهم له؛ ولشدة إعجابه بما شاهده، وما حظي به من تقدير ارتجل بتاريخ ٢٤ من رجب ١٣٤٣هـ / ١٨ من فبراير ١٩٢٥م قصيدة يودع فيها أهل تلك البلدان، قال في مطلعها:

(١) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص ٢٢٥.

وداعـاً مـن فـواد مسـتهام إليـك عُمـان يـا مهـدَ الإمـامِ

رحلتـه السياحية الثانيـة: كانت استكمالاً لرحلته الأولى، وقد بدأت في غرة ذي الحجة سنة ١٣٤٣هـ/ يوليو ١٩٢٥م، وزار فيها أولاً مناطق الشرقية، وهي: " صور" ولما وصلها بتاريخ ١٢ من ذي الحجة ١٣٤٣هـ كتب رسالة لبعض أصحابه، ومما جاء فيها: ".. أهنئكم بالعيد المبارك، وصلت صوراً، واستقبلني الوالي والأهالي استقبالاً فاخراً، واليوم أتوجه إلى بلدان جعلان إن شاء الله.."[1] ثم انتقل من صور إلى " بلدان جعلان" [2]، ثم " بدية"، و" القابل"، و" المضيبي"، ووصل " إبرا" بتاريخ ٢٢ من صفر سنة ١٣٤٤هـ ، ثم اتَّجه إلى بلدان الداخلية، ووصل " إزكي"، و" بركة الموز"، و" تنوف"، وفي أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٤هـ/ أواخر سبتمبر ١٩٢٥م وصل إلى " نزوى" عاصمة الإمامة، واستقبله الإمام الخليلي ورجال دولته وجيشه، ثم حضر الصلاة الجامعة مع الإمام في جامع نزوى في أول جمعة من نفس الشهر، وألقى بعد الصلاة خطاباً أوضح فيه رؤيته للنهوض بعُمان وتطويرها، وضرورة التعاون والعمل الجماعي، وختمه بقصيدة، قال في مطلعها:

الله أكبـر هلـل الخطبـاءُ وعـلا الهُتـافُ وهاجـتِ الشعراءُ

ثمَّ صعد " الجبل الأخضر" على ارتفاع (٩٠٠٠) قدم، مشياً عن طريق " بلدة الحمراء"، واستغرقت رحلته إليه يوماً وليلتين، وقال في قمته مقطوعات شعرية بتاريخ ١٦ من ربيع الأول سنة ١٣٤٤هـ/٥ من أكتوبر ١٩٢٥م، منها قوله:

---

(١) نفس المرجع، ج٢، ص ٣.

(٢) بلدان جعلان، تشمل حالياً ثلاث ولايات، هي: ولاية جعلان بني بوحسن، وولاية جعلان بني بوعلي، وولاية الكامل والوافي.

في جانب الحمراء طود شامخ متمنطـــقٌ متعمـــمٌ بسحـــاب
يممـت قمتـه الرفيعـة راجـلاً وسـجدتُ للخـلاق فـي محـرابي
ومع الأثير بعثت منه تحيتي لجميع مَنْ في الأرض من أحبابي

ثم نزل إلى " بهلا " في شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٤هـ/ نوفمبر ١٩٢٥م، وزار " جبرين" ووقف على حصنها الشهير، وأعجب بعمارته وحسن بنائه، وكتب إلى الإمام الخليلي يدعوه فيها إلى زيادة الاهتمام بهذا الحصن، وصيانته وترميمه، وإحياء مدرسته العلمية التي تأسست في عهد الدولة اليعربية.

كانت رحلته الثانية أطول من الأولى، إذ استمرت خمسة أشهر، استمع فيها إلى القصائد الشعرية التي ألقاها الشعراء بمناسبة زيارته، ومن أبرزهم، الشعراء: عبدالله بن خلفان بن حميد الجهضمي (ت١٣٦٣هـ/١٩٤٤م) وسالم بن سليمان بن عمير الرواحي (ت١٣٥١هـ/١٩٣٢م) وإبراهيم بن سعيد بن محسن العبري (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) وحمدان بن محسن الجابري، وسعيد بن سليمان الخروصي.

وهكذا ظل الباروني في عُمان متنقلاً بين بلدانها الساحلية والداخلية، وتردد عليها مراراً خلال الست عشرة سنة الأخيرة من حياته، وزارها مرات عديدة، واستقر بها هو وأسرته وقتا غير قصير، وكان أغلب إقامته في مسقط، وذلك بسبب ظروفه الصحية، وبعد رحلتيه الأولى والثانية، أخذ يتردد بين مسقط وسمائل، وحضر في شوال سنة١٣٥٠هـ/فبراير ١٩٣٢م حفل تنصيب السلطان سعيد بن تيمور خلفاً لوالده تيمور بن فيصل.

وزار في شهر رمضان سنة ١٣٥٧هـ/ نوفمبر عام ١٩٣٨م مدينة صحَّار، واشتغل بتجديد مسجدها الكبير، ثم انتقل لزيارة مدينة ظفار بصحبة السلطان

سعيد بن تيمور والشيخ إبراهيم بن سعيد بن محسن العبري في شوال من نفس العام.

حاول جاهداً إصلاح الأوضاع الداخلية في عُمان في جميع الميادين، وتنظيمها تنظيماً عصريا، ووَضعَ الخطوط العريضة لتنظيم الجوانب المالية والعسكرية والتعليمية والصحية.

القسم السادس: رحلاته العلاجية

سافر إلى العلاج عدة مرات، بعضها لمعالجة نفسه من بعض الأمراض، وبعضها لمعالجة أفراد عائلته، على النحو الآتي:

- سافر في أوائل سنة ١٣١٣هـ من مصر إلى تونس للتداوي والعلاج في حمام " قربص"، وظل منذ ذلك الوقت يتمتع بصحة جيدة، ولم يكن يشكو من آلام أو أمراض مزمنة، إلا أنه بعد فترة وجيزة من وصوله إلى عُمان في أواخر شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٢هـ/ أواخر يوليو ١٩٢٤م أصيب بمرض الملاريا، واستمرت به الأسقام من أوائل شهر محرم ١٣٤٣هـ إلى أن توفاه الله تعالى.

- سافر في أواخر شهر رمضان سنة ١٣٤٨هـ/ أواخر سنة ١٩٢٩م من عُمان إلى العراق للعلاج، ومكث قرابة أربعة أشهر في بغداد ثم رجع إلى عُمان، ووصل مسقط بتاريخ ٣٠ من صفر سنة ١٣٥٠هـ.

- بتاريخ ١٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣٢م جاءت أسرته من ليبيا، ولحقت به في عُمان للإقامة معه، بيد أن أمَّ زوجتِهِ ما لبثت أن توفيت بعد وصولها بفترة قصيرة بتاريخ ٢٦ من شعبان ١٣٥٠هـ/ ٥ من يناير ١٩٣٢م، كما أن ابنه "إبراهيم" وبعض أفراد عائلته، وعددهم تسعة أصيبوا بمرض الملاريا.

- سافر في شهر صفر سنة ١٣٥١هـ / يونيو ١٩٣٢م إلى بغداد مرة أخرى لعلاج عائلته من مرض الملاريا، وبقي فيها سنة كاملة، ثم عاد إلى عُمان في سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.

- كما سافر من عُمان إلى العراق لمتابعة حالة ابنه إبراهيم الصحية سنة ١٣٥٦هـ، وأثناء وجوده في بغداد أصيب بمرض ضغط الدم بتاريخ ٢٩ من رجب من نفس العام.

- لمَّا اشتدَّ عليه المرض سافر إلى الهند في يوم المولد النبوي الشريف ١٢من ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م بصحبة السلطان سعيد بن تيمور للعلاج من حمى الملاريا، و لما وصل إلى ممباي بالهند يوم ٢٣ من أيار (مايو) من نفس العام ساءت حالته الصحية، حتى سقط مغشياً عليه، فحمل إلى المستشفى، وبعد ساعات قليلة أصيب بالشلل، وفقد القدرة عن الحركة والنطق معاً، ثم فاضت روحه إلى بارئها، مودعاً هذه الحياة.

- ثُمَّ نُقِلَ جثمانه إلى طرابلس بليبيا، وفيها دفن، رحمه الله تعالى برحمته الواسعة، وأدخله فسيح جناته.

هكذا يتبيّن لنا بأن الباروني عاش بعيداً ومبعداً عن وطنه الحبيب طرابلس مدة ثمانية عشر عاماً، عامين في فرنسا، وستة عشر عاماً كاملة في أطراف الجزيرة العربية، وهو يقاسي من ألم الغربة وألم المرض الذي حلَّ به وأسرته، وبقدر ما كان في حياة الباروني وكفاحه من طموح وهمة عالية، وصبر وقوة احتمال، بقدر ما كانت حياته محفوفة بالآلام والمآسي التي تدعو للاعتبار، وكما عاشُ مغترباً فقد مات في الغربة رحمه الله تعالى برحمته الواسعة.

الخاتمة

لقد أسفرت رحلاته عن كثير من الأعمال الجليلة والمنجزات العظيمة التي تضم إلى رصيد أعماله في الحياة، ومن أبرز هذه الأعمال، الآتي:

١- "المدرسة البارونية" التي أسسها في يفرن بطرابلس سنة ١٩٠٢م، وبجوارها قام بتأسيس المكتبة البارونية في نفس العام.

٢- مطبعة "الأزهار البارونية" التي أسسها بمصر سنة ١٩٠٧م.

٣- جريدة "الأسد الإسلامية" التي أسسها بمصر سنة ١٩٠٨م.

٤- "جريدة البارونى" التي أسسها في اسطنبول، سنة ١٩١٨م، وجعلها مخصصة لنصرة القضية الليبية.

٥- سعى لتحقيق الوحدة الإسلامية، وكان يدعو إليها في كل المحافل والمناسبات، وله رؤية خاصة في هذه القضية جديرة بالدراسة والاهتمام من قبل الباحثين والدارسين.

٦- قدَّم رؤيته حول المؤتمر الإسلامي العام المنعقد في القدس سنة ١٣٥٠هـ، وحرر في مقرراته بعض الملاحظات الهامة ووضعها كمواد إضافية مقرونة بشرح أسبابها.

ونظراً لأنه مكث مدة طويلة من حياته في عُمان فقد ترك أثراً كبيراً في الحضارة العُمانية، وكان له الفضل في القيام بالأعمال الآتية:

١- إصلاح الجوانب الصحية: وكان مشروعه الصحي في عُمان يقوم على أساس بناء المستشفيات وجلب الأطباء من خارج عُمان.

٢- إصلاح الجوانب التعليمية: وكان مشروعه التعليمي يقوم على أساس بناء المدارس، حيث قام فعلياً في أوائل سنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م ببناء مدرسة في سمائل بعُمان باسم "المدرسة البارونية، وكان ينوي أن تكون من طابقين، وأن يجلب لها المعلمين من الخارج، وقد راسل بعض الشخصيات العلمية يطلب منها المجي إلى عُمان لهذا الغرض، وقام بتأسيس مكتبة ملحقة بالمدرسة ووفر لها الكتب والمطبوعات، ووصله إهداء من وزارة المعارف ببغداد وهو مجموعة من الكتب المدرسية، والخرائط الجغرافية، ومجسم كبير للكرة الأرضية، وألواح ورسومات فقام بعرضها في المكتبة.

٣- إصلاح الجوانب المالية: فحاول تنظيم أموال الدولة، وجمعها في مصرف واحد تكون في يد أمينة، وضبط الدخل والمصروفات في ديوان خاص.

٤- إبراز دور عُمان إعلامياً: كان له دور مهم في التعريف بعُمان وثقافتها وتاريخها وأعلامها، وقد نشطت الحركة الثقافية خلال فترة وجوده في عُمان وكانت عشرات المجلات تصل إليه من اشتراكاته فيها، فيطلع عليها العُمانيون ويشتركون فيها ويساهمون فيها بنشر المقالات والأخبار، كما كان يزوّد الصحافة العربية عامة والصحافة الجزائرية خاصة بتقارير دورية عن أخبار عُمان، تعدُّ إرشيفاً مهماً لتلك الحقبة من الزمن.

٥- طبع مجموعة من الكتب العُمانية: مثل كتاب الدلائل في اللوازم والوسائل للشيخ درويش بن جمعة المحروقي، وشرح الجامع الصحيح للشيخ السالمي، وغيرها.

٦- حاول تقريب وجهات النظر بين السلطان تيمور بن فيصل والإمام الخليلي، وقد ساعد بمواقفه ومراسلاته ومخاطباته إزالة ما كان بينها من جفاء.

الجدير بالذكر أن الباروني زار معظم البلاد العربية والإسلامية وبعض الدول الأوروبية، وترك فيها بصماته، كما أن البلدان التي لم يزرها بشخصه فقد زارها بفكره ومبادئه وعلمه.

رحلات الباروني
وأثرها في التغيير الاجتماعي لحياة الشعوب

الحاج أحمد حمو كروم(*)

مقدمة

تعتبر الرحلات مدرسة من المدارس التي تساهم في تكوين شخصية الإنسان وتغيير ملامحه وتقوية الإيمان فيه والرفع من مستواه الفكري ... ويختلف تأثير الرحلة في النفس الإنسانية حسب مراحل عمر صاحبها التي مارس فيها هذه التجربة المجيدة في الحياة.

ولذلك نجد القرآن الكريم يرشدنا إلى الرحلة في سبيل التعرف والاستكشاف حتى لا تفوتنا آثارها الإيجابية في تطهير القلوب وتنمية العقول. قال الله تعالى:« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » [الحج: ٤٦].

وقد أمرنا الله بهذه الرحلات الإيمانية من أجل تعظيم الله تعالى في حقيقة البعث يوم القيامة: "قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[العنكبوت ٢٠]

والرسول ﷺ يحثنا على الرحلة في طلب العلم وهو يقول: «اطلبوا العلم ولو بالصين»[الربيع رقم:18]

(*) الحاج أحمد حمو كروم، جامعة المرقب، ليبيا.

ويشير المولى عز وجل إلى فوائد الرحلة وثوابها الجزيل في سبيل الله قائلا:« وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً » [النساء: ١٠٠].

وكان الرسول ﷺ قد هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة كما سافر قبل ذلك إلى الشام مرتين في شبابه فأثرت هذه الرحلات تأثيرا إيجابيا في طبع شخصية الرسول ﷺ بطابعها الخاص، خاصة وأننا نجد هذه الأسفار تختلف مقاصدها في حياة الرسول ﷺ من سلم وحرب، كما نجد كثيرا من العلماء والعظماء في التاريخ الإنساني والتاريخ الإسلامي لم تسعهم حدود بلدانهم فقاموا برحلات استقروا فيها تارة ورجعوا إلى أوطانهم تارة أخرى فذاع صيتهم بتلك الرحلات وأطبقت شهرتهم الآفاق.

لقد تصفحت المصادر التي كتبت عن تاريخ الشيخ سليمان الباروني فوجدتها لا تفرد بحثا خاصا لرحلات الباروني إلا من خلال تتبع تحركاته داخل ليبيا أثناء الجهاد ضد الاستعمار الإيطالي في بلاده.. أو تتبع حياته في المنفى أثناء وجوده في أوربا أو في المشرق العربي، وأذكر من هؤلاء الباحثين:

١- الطاهر أحمد الزاوي في كتابه (أعلام ليبيا)[١] الذي أخطأ عندما ذكر رحلة الباروني الأولى إلى الجزائر للتعلم فقال: "بقي في تيهرت نحو ثلاث سنوات يأخذ العلم عن أستاذ الإباضية الشيخ محمد بن يوسف المزابي"[٢] والصحيح أنه تعلم في بني يزقن بوادي ميزاب شمال صحراء الجزائر لا في غرب الجزائر، وذكر بقية الرحلات بصفة مقضبة.

(١) صدر عن دار المدار الإسلامي في طبعة ثالثة سنة ٢٠٠٤م ببيروت.
(٢) الزاوي : أعلام ليبيا ص: ١٧٣

٢- جهاد الأبطال في طرابلس الغرب[١]: وأما هذا الكتاب فقد رصد فيه الطاهر أحمد الزاوي جميع تحركات الشيخ سليمان الباروني في مقاومة الاستعمار الإيطالي مع غيره من المجاهدين الأحرار والشهداء الأبرار في عاصمة ليبيا طرابلس.

٣- تاريخ ليبيا[٢] : هو من تأليف ن.إ بروشين وقد حدد زمنه في نهاية القرن ١٩م حتى عام ١٩٦٩م، الذي ترجمه إلى العربية عماد حاتم، لم يتعرض لرحلات الباروني إلا بالقدر الذي تتطلبه مرحلة مقاومة الاستعمار الإيطالي في ليبيا.

٤- صحافة ليبيا في نصف قرن : تأليف علي مصطفى المصراتي الذي أصدره عن دار الكتاب بيروت سنة ١٩٦٠ في طبعته الأولى فقد خصص صفحات منه لنشاط الشيخ الباروني في رحلته الثانية إلى القاهرة[٣] عندما أصدر صحيفته العظيمة "الأسد الإسلامي" نصف أسبوعية مع الإشراف على تسيير مطبعة الأزهار البارونية هناك كما أشار إلى رحلاته الأخرى قبل سنة ١٩٠٨م، فقال: "وساح سليمان الباروني سبعة أشهر زار فيها مرسيليا ومالطة وتونس والجزائر وكان يود أن يسجل رحلته في صحيفته أو في كتاب خاص"[٤].

٥ - بحوث في التاريخ العربي الإسلامي[٥] من تأليف أبي القاسم سعد الله الذي جمع فيه بحوثاً ومحاضرات قيمة لمناسبات مختلفة وفيه أفرد بحثا عن الشيخ الباروني بعنوان: "سليمان الباروني أضواء وملاحظات" وفيه تتبع حركات

(١) صدر عن دار المدار الإسلامي في طبعة رابعة سنة ٢٠٠٤ بيروت
(٢) صدر في طبعة ثانية عن دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت سنة ٢٠٠١
(٣) المصراتي: صحافة ليبيا في نصف قرن ص ١٢٠
(٤) المصراتي: صحافة ليبيا المرجع السابق ص ١٢٥.
(٥) صدر عن المغرب الإسلامي، ط١، بيروت ١٤٢٣/٢٠٠٣.

الباروني في السلم والحرب والعلم والسياسة والصحافة والطباعة، ثم جمع رحلات الباروني في قوله: "وقد تنقل الباروني في العالم العربي والإسلامي من أقصاه إلى أقصاه من صحراء الجزائر إلا بلاد الهند، وتنقل بين اسطنبول وأوروبا وعمل في مصر وبغداد ومسقط، وحارب في طرابلس وعبر البحر الأدرياتيكي والأبيض المتوسط في غواصة إلى ألمانيا ليتولى قيادة المقاومة ضد الإيطاليين، ولقد رأى النور في جبال نفوسة الليبية ثم انطفأ ذلك النور في بومباي الهندية"[1].

٦ – وأما محمد مسعود جبران فإنه قد تعرض في كتابه "سليمان الباروني[2] وآثاره الأدبية" إلى دراسة أدبية قيمة لشعر الباروني ونثره الفني.. ومن خلال هذه الدراسة يتعرض لمحطات من رحلات الباروني.. بعد أن تتبع مراحل حياة الباروني في الترجمة وبين أهمية هذه الرحلات وآثارها العالية في حياته.

٧ – وأجد نفس المؤلف السابق محمد مسعود جبران أستاذ في كلية اللغات بجامعة الفاتح قد كتب بحثا قيما عن رسائل الباروني ومكاتباته، في مجلة الوثائق والمخطوطات الصادرة عن مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية من ٢٣٣ إلى ٢٥٠ في العدد ٦ من السنة ٦ عام ١٩٩١م.. وقد درسها دراسة فنية أدبية مهمة، ومن خلال مكان الإرسال تظهر رحلات الباروني وتحركاته داخل ليبيا وخارجها.

٨ – ولم يألُ جهدا هذا العالم الكريم الأستاذ محمد مسعود جبران من التأريخ للشيخ سليمان الباروني من خلال محاضرة بعنوان: «من مظاهر الحركة الفكرية والأدبية في ليبيا: الرحلات العلمية وتوثيق السند العلمي في العصر

(١) د.أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، ص٣٩٨.
(٢) هذا الكتاب عبارة عن رسالة ماجستير قدمها في كلية اللغات جامعة الفاتح بطرابلس ليبيا سنة ١٩٨٢، ط١،صدر عن الدار العربية للكتاب ليبيا، عام ١٩٩٩م.

الحديث» شارك بها في المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا واقعها وآفاق العمل حولها سنة ١٩٨٨م[1]» وقد تعرض فيها إلى رحلات سليمان الباروني إلى سلطنة عُمان وما قام فيها من أعمال جليلة للإصلاح الاجتماعي والسياسي (من سنة ١٩٢٣م إلى سنة ١٩٤٠م) حين وفاته في بومباي الهندية.

٩ – وأما الدراسة القيمة التي ألفها الشيخ أبو القاسم الباروني بعنوان "حياة سليمان باشا الباروني زعيم المجاهدين الطرابلسيين[2]" فإنها تعتبر أول ترجمة واسعة عن الباروني ورحلاته وجهاده بالسيف والقلم داخل ليبيا وخارجها لأنها صدرت الطبعة الأولى منها بعد عام من وفاة الباروني أي سنة١٣٦١هـ/١٩٤١م.

١٠ – وعندما نلتقي مع الأستاذ علي مصطفى المصراتي في كتابه[3]"مؤرخون من ليبيا مؤلفاتهم ومناهجهم عرض ودراسة" نجده قد تعرض إلى تحليل كتاب الباروني في التاريخ الموسوم بـ«الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية» والذي خصصه لعرض تاريخ الدولة الرستمية في الجزائر[4]، وفي نهاية الدراسة يقول: «وقام سليمان الباروني قبل تأليفه هذا الكتاب بزيارة لأطلال تيهرت وسياحة في بلاد الجزائر[5]».

١١ – وأما كريمة الشيخ الباروني «زعيمة البارونية» فقد أحسنت صنعا عندما جمعت وثائق والدها أيام الحرب مع إيطاليا في كتاب بعنوان «صفحات خالدة من الجهاد[6]» وقسمتها إلى ثلاثة فصول: الأول قبل الجهاد

(١) الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢ ليبيا ص ٢٢٧.
(٢) الطبعة الثانية صدرت بالقاهرة سنة ١٣٦٧/١٩٤٨.
(٣) صدر عن الدار الجماهيرية ط٢، عام ٢٠٠٢.
(٤) الدولة الرستمية هي أول دولة إسلامية مستقلة في شمال إفريقيا (١٦٠هـ-٢٩٦هـ) قرب تيارت غرب الجزائر أسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسي(ت ١٧٠هـ) (أنظر د.إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية).
(٥) الباروني الأزهار الرياضية ص ٢٧٥
(٦) الطبعة الأولى في مطابع الاستقلال الكبرى بالقاهرة ١٩٦٤م.

والذي خصصته لجمع مقالات من جريدة «الأسد الإسلامي» ثم الفصل الثاني لأوائل الحرب وأما الثالث فهو خاص لذكر بعض وقائع أواخر أيام الجهاد، وختمت هذه المذكرات برسالة «خاطرات الباروني"[1].. ونجد الفصل الباروني في هذه الصفحات عبارة عن صاعقة متحركة بين مدن ليبيا شمالاً وجنوباً، شرقها وغربها، بل حتى تحركاته بين مصر وطرابلس واسطنبول.

١٢ – وهذه العالمة البارة بوالدها قامت أيضا بإعادة نشر ديوان والدها بعنوان «ديوان الباروني"[2] الذي خلد فيه والدها تهانيه وتعازيه وآماله وآلامه داخل ليبيا وخارجها يوم ظعنه ويوم إقامته في السراء والضراء وحين البأس.. وقد قسمته إلى جزأين الجزء الأول يمثل القسم الذي نشره أبوها في حياته.. وأما الجزء الثاني فهو عبارة عن قصائد لم ينشرها الباروني بل نشرتها لأول مرة.. ومن خلال هذه القصائد تظهر تحركات الشيخ الباروني في ليبيا ورحلاته الميمونة في مصر والعراق وفرنسا وسلطنة عُمان.

١٣ – وأما مجلة المنهاج التي كان يصدرها في القاهرة الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش الجزائري صديق الباروني خلال سنوات ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٣٠ فقد كانت تتبع أخبار الباروني[3] وتحركاته في مختلف أطراف الجزيرة العربية (بغداد، الحجاز، سلطنة عُمان).

١٤ – وأما عز الدين إسماعيل فقد نشر مع مجموعة من الباحثين كتابا بعنوان «سليمان الباروني المعلم المقاتل[4]» تتبع فيه رحلات الباروني من خلال

(١) كتبت باللغة العربية والتركية، طبعت بمطبعة العدل باسطنمبول عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م.
(٢) صدرت الطبعة الأولى في حياة الباروني وقد طبعه في مطبعة الأزهار البارونية سنة ١٣٢٦هـ بالقاهرة، وأما الطبعة الثانية فقد صدرت بالقاهرة سنة ١٩٧٢م مع الجزء الثاني من الديوان.
(٣) أنظر ج٢، مجلد(١)جمادى الثانية ١٣٤٤هـ، ورجب ١٣٤٤هـ، وشعبان ١٣٤٤هـ، ومحرم ١٣٤٥هـ، ومحرم ١٣٤٧هـ، وذو الحجة١٣٤٧هـ.
(٤) وهذا ضمن سلسلة نوابغ العرب رقم (١٣) صدر عن دار العودة ببيروت في الطبعة الأولى عام ١٩٧٥م.

استعراض مراحل حياته في الجهاد داخل ليبيا وخارجها وكأنه معلم ميدان في الحروب وغيرها رغم أنه لم يجلس للتعليم يوما من الأيام.

١٥ – ولعل أروع دراسة وافية عن جميع رحلات الباروني من خلال حياته هي التي كتبها صديق الباروني الشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى بعنوان «سليمان الباروني باشا في أطوار حياته"[1] والقيمة العلمية لهذه الدراسة هي العلاقات الأخوية التي تجمع المؤلف بالباروني في جميع أطوار حياته ويظهر ذلك في المراسلات الشعرية والنثرية التي ربطت بينهما.

١٦ – وأما سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمي فقد أرّخ بالتفصيل لرحلة الباروني إلى سلطنة عُمان في كتاب بعنوان: «غاية السلوان في زيارة الباشا الباروني لعُمان"[2].

١٧ – ولعل أحدث دراسة جامعية هي التي أنجزتها الطالبة هادية مشيخي وهي رسالة ماجستير في الحضارة المعاصرة تحت إشراف الأستاذ محمد الناصر النفزاوي بعنوان: «سياسي إباضي مغربي سليمان الباروني (١٨٧٣-١٩٤٠م)[3]» وقد تتبعت جميع رحلاته بصفة مفصلة في جميع حياته.

١٨ – وأما الشيخ سليمان الباروني فقد أرخ لرحلاته من خلال مراسلاته التي كان يبعثها إلى أصدقائه في ساحات الجهاد أو أثناء وجوده في المهجر، ولعل الرحلة الوحيدة التي أرخ لها بتفصيل هي التي قام بها إلى «تيهرت» عاصمة الدولة الرستمية في الغرب الجزائري سنة ١٨٩٨م في ذيل

(١) صدر عن المطبعة العربية الجزائرية في طبعة أولى سنة ١٩٥٦م.
(٢) فقد صدر في طبعة أولى عن مطابع النهضة بعُمان سنة١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
(٣) نوقشت هذه الرسالة في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم اللغة والأداب والحضارة العربية بجامعة تونس سنة ٢٠٠٦م، بحث مرقون بحوزة جمعية أبي إسحاق إبراهيم اطفيش لخدمة التراث – غرداية تحت رقم(٣٣٥).

كتابه الذي خصصه لتاريخ الدولة الرستمية وأصدره بعنوان: «الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية[1]».

وأنا أطمح من خلال هذا العرض إلى إبراز أهمية الرحلات في حياة الشخصية الإيجابية، سواء منها ما كان من اختيارها أو ما كان من إملاء الظروف وتغيرات الأوضاع المحيطة بالفرد.. والنموذج الأعظم لذلك هو المجاهد العظيم سليمان الباروني..

كما أقصد من هذه الدراسة المساهمة مع غيري من الباحثين في إعطاء النموذج الأمثل ليقتدي به الشباب المعاصر من رجال التاريخ الذين هم قريبو عهد إلينا، وأريد أن أهمس في أذنهم أن العظمة تؤخذ ولا تعطى حتى يكونوا مثلهم خير خلف لخير سلف. قال السهروردي:

فتشبهوا إن لـم تكونوا مثلهم إن التشبـه بالـكرام فـلاح

في سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م ولد سليمان بن عبد الله بن يحي الباروني في مدينة جادو[2] بجبل نفوسة غرب ليبيا وتربى في أحضان والديه الكريمين:

ووالده: الشيخ عبد الله بن يحي الباروني أحد أقطاب العلم والدين في جبل نفوسة أخذ العلم عن مشائخ الجامع الأزهر بمصر ثم درس الطلبة في رواق المغاربة كما اضطلع بمهمة التربية والتعليم في مدارس مختلفة بجبل نفوسة بليبيا، إضافة إلى ممارسة مهمة الإشراف العام على الجبل الغربي مكلفا من قبل الدولة العثمانية خلال عهد الوالي مصطفى نظيف وقد ترك مؤلفات مفيدة نثرا وشعرا

(١) وقد طبع منه الباروني القسم الثاني في طبعته الأولى في مطبعة الأزهار البارونية سنة ١٩٠٧ بمصر ص ٣٠١، وأما الطبعة الثانية للكتاب فهي بتحقيق حاج أحمد كروم وعمر بازين ومصطفى بن ادريسو سنة ١٤٢٣/٢٠٠٢ ص ٤٠٢.

(٢) أبو اليقظان: سليمان الباروني باشا، ج١، ص ٤٧.

تشهد له بالتمكن العلمي والذوق الأدبي، نذكر منها: رسالة سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة العلم والدين[1](مطبوع)، وله ديوان شعر[2](مطبوع)، وقد توفي رحمه الله سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م[3] ودفن في مدينة كاباو بجبل نفوسة غرب ليبيا. ووالدته هي السيدة عزيزة بنت سليمان[4] تخشيشة البربرية من الجبل الغربي بليبيا وقد توفيت قبل والده بثلاث سنوات أي سنة ١٣٢٩/١٩١١م [5].

وكان له أخوان الشيخ أحمد[6] بن عبد الله الباروني والشيخ يحي[7] بن عبد الله الباروني. ولوالده أخوان هما عماه الشيخ عيسى بن يحي الباروني والشيخ الحاج أحمد بن يحي الباروني. وله ابنان هما سعيد[8] وإبراهيم[9] ابنا سليمان الباروني، وله بنتان هما: زعيمة[10] وعزيزة بنت سليمان الباروني. وجميعهم قد تقلدوا مسؤوليات ووظائف عالية في مجتمعاتهم داخل ليبيا وخارجها.

الرحلات العلمية للباروني

لقد بدأ الشيخ سليمان الباروني حياته العلمية في مسقط رأسه على يد والده العلامة الشيخ يحي الباروني سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م، ثم رأى والده أن يواصل ابنه دراساته العليا خارج وطنه في ثلاث حواضر علمية عظمى بشمال إفريقيا

(١) مطبوعة طبعة حجرية بمصر سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م علق عليها ابنه سليمان الباروني.
(٢) مطبوع طبعة حجرية في مصر بعد سنة ١٣١٠هـ.
(٣) الزاوي: أعلام ليبيا ص ٢٤٦/ التراث: معجم أعلام الإباضية قسم المغرب ص ٥٨٤ رقم (٦٠٤).
(٤) جبران: سليمان الباروني وآثاره، ص٢٥.
(٥) أبو اليقظان: سليمان الباروني باشا ج١، ص٨٨.
(٦) شارك مع أخيه في حرب طرابلس فتولى القضاء بليبيا إلى أن توفي سنة ١٩٥٤م(معجم أعلام الإباضية ج٢، ص٩١).
(٧) مجاهد في حرب طرابلس توفي سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م. (معجم أعلام الإباضية ج٤، ص٩٦٩).
(٨) ضابط في الجيش العثماني شارك والده في حرب طرابلس(معجم أعلام الإباضية ج٣، ص٣٦٧).
(٩) عالم من علماء ليبيا تقلد عدة مناصب في العراق وسلطنة عُمان له كتاب بشائر الإسلام وتقدمه(معجم أعلام الإباضية ج٢، ص٢٩) .
(١٠) تقلدت عدة وظائف في قطاع التربية والتعليم بليبيا وشاركت في جمعية النهضة النسائية في طرابلس لها،كتاب:صفحات خالدة من الجهاد، القصص القومي" توفيت سنة ١٩٧٦م." (دليل المؤلفين العرب الليبيين ص١٣٧).

وهي: تونس: في سنة ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م قصد جامع الزيتونة فغرف العلم من فطاحل العلماء هناك مثل: الشيخ عثمان المكي[١]، والشيخ محمد النخلي شيخ التفسير (ت ١٩٢٤م)، والشيخ محمد المكي بن عزوز (ت١٩١٦م)، والشيخ محمد النجار، والشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ سالم بوحاجب[٢] (ت١٩٢٤م).

لقد عرفت بداية هذه الرحلة ولم تعرف نهايتها بالضبط إلا بتقدير خمس سنوات.. ولكن الشيخ سليمان الباروني أشار إلى رجوعه إلى تونس للاستشفاء في حمام قربص المعدني وهو راجع من مصر، وأمضى فيه مدة ٢٥يوماً وقد شفي من مرضه تماما والحمد لله[٣].

وفي سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م توجه الطالب الطموح إلى جامع الأزهر في القاهرة بمصر ليواصل دراساته العليا هناك فقال «كنت ارتحلت من مصر بعد أن جاورت في الأزهر العامر نحو ثلاث سنين إلى المغرب الأوسط سنة ١٣١٣هـ[٤]». ولكن لم تبين لنا المصادر العلوم التي كان يزاولها ولا العلماء الذين أخذ عنهم العلم ولا الرفاق الذين كانوا معه في هذه الرحلة العلمية الكريمة. وفي سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م توجه الباروني إلى مدينة بني يزقن بوادي ميزاب شمال الصحراء الجزائرية حيث معهد العلامة الجليل الشيخ امحمد بن يوسف بن عيسى بن صالح اطفيش ليكمل ما تبقى من دراساته العليا في الشريعة واللغة العربية كآخر محطة علمية يرحل إليها الباروني بكل شغف وإخلاص، يقول الشيخ سليمان الباروني: «كنت ارتحلت من مصر بعد أن جاورت في الأزهر العامر نحو ثلاث سنين إلى المغرب الأوسط سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م فقصدت

(١) أبو اليقظان: سليمان الباروني ج١، ص٤٧.
(٢) جبران: سليمان الباروني ص ٢٨.
(٣) سليمان الباروني : الديوان ص١٢٥.
(٤) سليمان الباروني : الأزهار الرياضية، ص٣٠١.

جبال بني مصعب من أعمال الجزائر لطلب العلم من عالم الإسلام إمام الأئمة الأعلام أستاذي الشيخ امحمد بن يوسف الميزابي[١]».

ويذكر الباروني بفخر واعتزاز الحظوة التي نالها من هذا العالم في حلقته قائلا: «فأقمت عنده ملازما مجلسه نحو ثلاث سنين أيضا أظهر رضي الله عنه في أثنائها من الاعتناء بشأني والاجتهاد في إرشادي ما لا أقدر قيمته ببيان، فجزاه الله عني بما هو أهله وأسكنه بعد عمر طويل غرف الجنان»[٢].

ويقول محمد مسعود جبران: «وقد أخبرني الشيخ يوسف بكير[٣] آخر تلاميذ القطب أثناء زيارتي للعطف من قرى وادي ميزاب بما كان ينعم به الباروني في تلك الفترة من حظوة، حيث كان يجعله الشيخ اطفيش على يمينه أثناء الدرس، ويقدمه للقراءة ويكبر فيه ألمعيته، ويخصه بما لا يخص به غيره من زملائه وأنداده[٤]».

ويذكر الباروني بعض العلوم التي نالها في حلقة أستاذه الشيخ اطفيش مثل: كتاب الكافي في العروض والقوافي، يقول الباروني: «أمرني أستاذي الإمام لما ختمت قراءة شرح الكافي في العروض أن أقول شيئا على سبيل الارتجال فقلت بعد تدبر قليل[٥]» فقال قصيدة وختمها بقوله:

(١) الباروني: الأزهار الرياضية ج٢، ص٤٠٣، ثم يصف أستاذه قائلا:«صاحب الصيت البعيد والذكر الحميد الذي عرفت الدول حق قدره فرصعت صدره بالنياشين المعتبرة بدون أن يسألها أو يتصدى لها، وناهيك من رجل حاز ذلك على بعد مكانه وقلة الوسيلة من أمير المؤمنين وسلطان المسلمين المعظم عبد الحميد بن عبد المجيد خان العثماني، صاحب مملكة القسطنطينية العظمى، ومن السلطان المعظم ملك زنجبار، ومن الدولة الفرنساوية الكبرى» ولمزيد من تفاصيل حياة هذا العالم الجليل أنظر: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية ج٤، ص٨٣٥ رقم (٨٦٤).
(٢) الباروني: الأزهار الرياضية ج٢، ص٤٠٣.
(٣) هو الشيخ يوسف بن بكير حمو علي أحد أعلام المنطقة (١٨٨٧-١٩٨٤م) وقد أدركته وعرفته وجلست إليه وأنا حديث السن وهو خريج جامع الزيتونة وكان مدرسا في المعهد الجابري ببني يزقن ومفتيا. (جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية ج٤ ص١٠١٧).
(٤) جبران: سليمان الباروني وآثاره، ص٣٢.
(٥) الباروني: الديوان ص٤٨.

لغوامض الكافي أبان فكان لي بختامه طرب وصفق باليد[1]

ويقول محمد علي دبوز: «وقد درس الباروني على شيخه هذا -فيما نرجح- العلوم الشرعية والفنون الأدبية مثل: كتاب جامع الوضع والحاشية والإيضاح للشماخي، وكتاب النيل للشيخ عبد العزيز الثميني، وكتاب التوحيد للشيخ أبي عمار عبد الكافي، وكتاب معالم الدين للشيخ الثميني، كذلك بعض تفسير البيضاوي، وتفسير الكشاف للزمخشري، وتفسير هميان الزاد للشيخ أطفيش، ونال قسطا من العلوم العربية مثل: كتاب سعد الدين التفتازاني وغير ذلك من الكتب التي اتفقت الروايات على تدريس القطب لها[2]».

رحلات إخوانية استطلاعية

وكان الباروني يغتنم فرصة وجوده في بعض المناطق من العالم للقيام برحلات تعارفية مع الإخوان والأصدقاء وبرحلات أخرى استطلاعية لبعض المناطق التاريخية نذكر رحلات الباروني داخل قرى وادي ميزاب: وفي أثناء إقامة الباروني عند الشيخ اطفيش ببني يزقن كانت له زيارات إخوانية يرافق فيها أستاذه الشيخ اطفيش في رحلاته الدعوية داخل قرى وادي ميزاب يقول عنها الشيخ أبو اليقظان:" وفي أثناء مقامه هذا زار القرارة بمعية أستاذه الشيخ أطفيش سنة ١٣١٤هـ، وزار العطف سنة ١٣١٥هـ"[3]. وفي نهاية أيامه الدراسية عند العلامة الشيخ اطفيش عام ١٣١٦هـ حينما قرب الرجوع إلى وطنه ليبيا استأذن الباروني شيخه أن يزور مدينة تيهرت التي سمع شيخه يذكرها كثيرا خاصة في حلقة التاريخ، يقول سليمان الباروني «ولما كنت أسمعه كثيرا من أستاذي هذا

(١) الباروني: الديوان ص٤٨.
(٢) محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة ج١، ص٣٧١ - ٣٧٤
(٣) أبو اليقظان ،م.س ،ج١ ص ٤٩. / سليمان الباروني ديوان الباروني ص١١١.

على تيهرت وعمرانها، وبني رستم وعدلهم فيها، اشتاقت نفسي إلى زيارة أطلالها والوقوف على ما بقي من آثارها، واعتبارا بمن مضى، وتزودا من بركات من وطئوا أثرها وعمروا بذكر الله سهلها ورباها، استأذنت الإمام في السفر وبعد مماطلة وتسويف طويل أنعم بالإذن وشيعني مسافة أخجل من بيانها لعلو مقامه وصغر مقامي[1]».

ثم توجه إلى الجزائر العاصمة وامتطى قطار السكة الحديدية نحو مدينة تيارت غرب الجزائر حيث قصد بعد كرم الضيافة أطلال مدينة تيهرت فوصف ما شاهد قائلاً: «وإذا هي لم يبق منها إلا آثار ورسوم وأنقاض متراكمة يجمعها الفلاحون ليحرثوا أماكنها، وبقي من سورها شيء قليل في ناحية يدل على منعته وقوته[2]...».

ثم يصف مشهد السور عندما اقترب منه قائلاً: «انفردت إلى أعلى جهة منها أكيف هيئاتها وأرمي بناظري إلى أرجائها[3]...». ثم يصف المشهد وهو يقول: «إلى أن لاحت لي قطعة السور الباقية منه فانتقلت إليها فإذا هي بزاوية من زواياه محكمة البناء متينة الأساس كأنها بقية برج فاسترحت في ظلها...[4]».

وأما بقية آثار أخرى فإنه يصفها على أنها دار السلطان فيقول: «وفي جانب منها هنشير عظيم ذو أنقاض كثيرة يعرف الآن بدار السلطان، ولعله بقية من دار الإمارة الأولى والله أعلم[5]»

ومما زاره الشيخ الباروني غارا لبعض الزهاد مشهورا بكرامات هو قريب لأطلال تيهرت فيقول: «وزرنا الغار الموجود فيها بالقرب من الشجرتين اللتين

(١) سليمان الباروني: الأزهار الرياضة ص ٤٠٤.
(٢) سليمان الباروني: نفس المرجع ص ٤٠٥
(٣) سليمان الباروني: الأزهار الرياضية ص٤٠٦.
(٤) سليمان الباروني: الأزهار الرياضية ص ٤٠٦.
(٥) سليمان الباروني: الأزهار الرياضية ص ٤٠٦.

يقال: إنهما من وقت عمرانها، والمشهور عن الغار أنه معبد لبعض الزهاد في ذلك الوقت[1]».

وقد حاول الباروني الالتقاء به مباشرة ولكن ظروف السفر لم تسمح له بذلك، ثم تنتهي الرحلة بإنشاد قصيدة[2] يخلد فيها مشاعره الجياشة إزاء عظمة الزمان والمكان.

وتتمكن هذه المشاهد العظيمة من نفس سليمان الباروني حينا من الدهر حتى تدفعه إلى جمع تاريخ الدولة الرستمية في كتاب موسوم بعنوان «الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية» طبعه في حياته سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.

ولعل أبرز هذه الرحلات رحلته التي قام بها إلى الجزائر سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م والتي خلدها الشيخ سليمان الباروني في ديوانه[3] بقصائد كريمة وقد قدمها بهذه المقدمة قائلا: «عزمت في أواخر جمادى الثاني سنة ١٣٢٥هـ على زيارة الوطن وبعد أن أزف الترحل كما قيل:

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا

وكان قد فاجأني ما صدني عن ذلك فلويت العنان إلى مدينة الجزائر على طريق مرسيليا للسياحة فلاقيت كل ترحيب واحترام من إخواني الجزائريين مطلقا، خصوصا بني ميزاب قابضي غالب أزمة التجارة هناك. وفي أثناء السياحة نزلت بمدينة برج أبي عريريج ولم أقم فيها إلا قليلا[4]»

(١) سليمان الباروني: الأزهار الرياضية ص٤٠٤ – ٤٠٥.
(٢) سليمان الباروني: ديوان الباروني ص١٠١.
(٣) سليمان الباروني:ديوان الباروني ص ١٣٧.
(٤) الباروني: الديوان ص ١٣٧

ثم يصف الباروني حفاوة الاستقبال الذي حظي به وتلاوم الإخوان على كتمان حضوره خاصة عندما حضر هذا اللقاء الشاعر الشيخ عاشور[1] المنفي هناك في مدينة برج بوعريريج ووقع تبادل الشعر بينهما إلى أن قال: «ثم طلبوا مني بمكاتبة في نهاية اللطف أن أجعل مدينتهم طريقا عند رجوعي من الصحراء للذهاب إلى تونس فلبيت دعوتهم وقصدتها من الجزائر على سكة من الحديد الليلية ومعي شقيقي الفاضل الحاج أحمد فاستقبلت في المحطة جماعة وكان الثلج يتساقط بكثرة والبرد شديد جداً. وإذا بالشيخ عاشور في مقدمتهم[2]».

وفي هذه الرحلة قام بزيارة إلى وادي ميزاب يتذكر فيها مقامات دراسته وأيامها الغالية عند أستاذه الشيخ اطفيش الذي ما يزال يواصل مسيرته الخالدة مع التدريس في بني يزقن.

وقد سجل الشيخ أبو اليقظان بعضا من المواقف التي حضرها وهو تلميذ عند الشيخ اطفيش فقال: "ومن ذلك ما تراءى لنا عيانا من حب الشيخ اطفيش له وعطفه الشديد له حينما زاره سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧، فقد حضرنا هناك مجالسه معه ومباحثاته له في مواضيع شتى لاسيما في قضية كروية الأرض، وهو وإياه كتلميذين متحابين يتباحثان في مسألة دقيقة في مستوى واحدا تواضعا وإنصافا وصدقا وإخلاصا[3]".

ثم يبين احتفاء وادي ميزاب وأصدقاء الباروني بهذه الزيارة التي دامت شهراً كاملاً فيقول: «وما رأيناه كذلك من احتفائه به وإكرامه له منه ومن جميع أصدقاء قطب الأئمة وتلاميذه ومريديه في قرى ميزاب مدة شهر كامل[4]».

(١) الشيخ عاشور هو قدور بن عاشور شاعر زجلي صوفي له كتاب "كنوز الأنهار في ديوان الستر والنور، توفي سنة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م (عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر ص٢١٢).
(٢) الباروني: ديوان الباروني، ص ١٣٧.
(٣) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ج١، ص٧١.
(٤) أبو اليقظان: نفس المرجع.

ويتذكر الشيخ أبو اليقظان ذلك الأنس العظيم الذي وجده أثناء زيارة سليمان الباروني لوادي ميزاب في هذه الرحلة المباركة ويقول: "وفي أواخر سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م نزلنا نحن وإياه ضيوفاً عند قطب الأئمة الشيخ اطفيش هو للزيارة ونحن لطلب العلم، فكنا معه في سائر الاجتماعات والضيافات ومجالس العلم والأدب حيث كانت في قرى ميزاب مدة نحو شهر، فكان لنا من الأنس به شيء كبير[١]".

وكان خلالها يستنهض الهمم ويستجِدُّها لمقاومة الاستعمار الأوروبي على البلاد الإسلامية ومن ذلك قوله للشيخ حمو بن باحمد بابا وموسى[٢] والشيخ الحاج إسماعيل زرقون[٣] رحمهما الله اللذين وجدهما في حلقة الشيخ اطفيش كما تركهما قبل عشر سنوات. "إلى متى تعتكفون تحت الرف وأنتم -إبارك فيك، إبارك فيك؟ فمتى تخرجون من تحت الرف فتخوضوا المعامع وتستقلوا بحركاتكم؟".

وفي ختام هذه الرحلة ودع شيخه العلامة الشيخ اطفيش في محطة الحافلات خارج مدينة غرداية بثلاث قصائد شعرية مجيدة، والشيخ اطفيش حاضر أمام جمع من أعيان وادي ميزاب وهو يمدح شيخه ويعترف له بالفضل عليه وعلى الإسلام جميعا فيجيبه الشيخ اطفيش رحمه الله وهو يربت على كتفه قائلا: «ستكون أميرا، وإذا زرتني مرة أخرى فإنك تزورني وأنا تحت التراب[٤]». وهو الذي وقع تماما إذ لم يزره إلا عند وفاته سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م.

(١) أبو اليقظان: نفس المرجع ص٥٧.
(٢) جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج٢، ص.
(٣) جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية ص .
(٤) أبو اليقظان، سليمان الباروني باشا ج١ ص٧٠-٧١.

"وساح سليمان الباروني سبعة أشهر زار فيها مرسيليا ومالطا وتونس والجزائر[١]». «وقد قام في أثناء هذه الإقامة بمصر برحلة إلى المغرب زار فيها عن طريق مالطة ومرسيليا تونس والجزائر ووهران ومدينة تلمسان منتهى حدود الجزائر بالغرب من مملكة فاس ثم عاد بعدها إلى مصر، وبقي فيها فترة غير طويلة، حيث انتهت إقامته الثانية بهذه الديار بكل مظاهرها الحيوية سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م[٢]".

كان سليمان الباروني رحمه الله آية من آيات الله في التاريخ والأدب فهو يخلد جميع رحلاته السياحية ولقاءاته الفكرية شعرا زلالا يظهر ذلك من خلال ديوانه القيم والذي يتتبع فيه جميع طريق الرحلات الثلاث التي قام بها إلى الجزائر أيام التلمذة قبل الحرب وأثناء الحرب سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٤م. فقد زار مدينة بوسعادة والجلفة وقالمة وبرج بوعريريج ومستغانم وسيدي بلعباس ومدينة لمدية ومدينة شلف وقصر البخاري ومدينة تلمسان ومدينة البليدة وجميع مدن وادي ميزاب : مليكة، غرداية، القرارة، والعطف وبريان وبنورة[٣].

في سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م قام سليمان الباروني برحلة إلى الجزائر لأداء واجب العزاء لإخوانه في وادي ميزاب حين وفاة شيخه العلامة الشيخ اطفيش رحمه الله في شهر ربيع الثاني ١٣٣٢هـ/١٩١٤م، وكانت رحلته من تونس إلى وادي ميزاب في شهر أفريل سنة ١٩١٤م.

يقول الشيخ أبو اليقظان: "حينما عاد من ميزاب لتعزية آل اطفيش رحمه الله في أفريل سنة ١٩١٤م وفي رفقته من الجزائر الإخوان الفاضلان المرحوم

(١) المصراتي، المصدر نفسه، ص١٢٥.
(٢) جبران: سليمان الباروني وآثاره، ص٤٢.
(٣) وقد خلد جميع هذه اللقاءات في ديوانه شعراً.

السيد العنق الحاج عمر والسيد الزواي الحاج ووجهته من الجزائر إلى تونس رأسا لأن سفره كان بالشكليات الرسمية[1]".

ولكن الإخوان في مدينة قالمة ترصدوه ودبروا له مكيدة حتى أنزلوه في حمام مسخوطين ثم حولوه إلى حفل استقبال عظيم في مدينة قالمة فقال لهم قولته المشهورة: «يا رسول الله الناس يسرقون الأموال وأنتم تسرقون الرجال[2]". وقد حاول الإخوان تكرير نفس المكيدة من إنزاله في سوق أهراس لكنهم لم يتمكنوا من ذلك لتفطن الشيخ لذلك فقال لهم: "إن المؤمن لا يلدغ من جحر أفعى مرتين[3]" ثم توجه إلى تونس.

رحلات البارونى أثناء الجهاد ضد الاستعمار الإيطالي

لم تزل الخطوب والمحن تحف بهذا العالم البطل العظيم منذ أن أتم دراساته العليا في الجزائر ولا يزال يتحرك في كل مكان وعلى أكثر من صعيد ليخدم وطنه ليبيا ويحرره من الاستعمار الإيطالي، وعندما ملأ البارونى وطابه بالعلم شد الرحال عائدا مسرورا إلى وطنه العزيز ليبيا لكنه فوجئ في مراكز التفتيش العثمانية بتهم باطلة لا أساس لها من الصحة سنة ١٨٩٨م بأنه يعارض نظام الدولة العثمانية ويعيبها على ما وصلت إليه من وهن في بعض مذكراته الخاصة بقوله: "وأما الدولة العثمانية فهي أشبه بسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا[4]" ومما يثبت ذلك ويحققه هو الخط الغليظ[5] الذي وجدوه

(١) أبو اليقظان: سليمان البارونى باشا ج١، ص٧٥.
(٢) أبو اليقظان: سليمان البارونى باشا ج١، ص٧٥.
(٣) أبو اليقظان: سليمان البارونى باشا ج ١ ص ٧٦.
(٤) د. عز الدين إسماعيل: سليمان البارونى، ص١٧.
(٥) أبو اليقظان: سليمان البارونى باشا ج١، ص٧٩.

في بعض كراريسه «السلطان سليمان البارونى» فقرر البوليس في طرابلس محاكمته بالسجن المؤبد لأنه عمل ضد أمن الدولة[1].

ولكن الشعب الليبي أحس بالمؤامرة فتحرك لرفع التهمة عنه[2]، فاستجابت الدولة العثمانية لضغوطات الشارع فخففت عنه هذا الحكم إلى الإقامة الجبرية لمدة خمس سنوات على يد الوالي «هاشم باشا» بعد إمضاء والده على الكفالة عليه والحلف على المصحف في مجلس خاص[3] بين يدي الوالي بعد أن قضى في السجن مدة شهرين ونصف[4].

وفي سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م وقع نقض الحكم السابق بحكم آخر يقضي بإبعاد البارونى خمس سنوات عن بلاده[5] فقضى في السجن ستة أشهر.. وبعد مساعي حميدة قام بها والي طرابلس «حافظ باشا» وقع تخفيف الحكم بتقديم ضمان عليه من أعيان طرابلس وأعيان جبل نفوسة. ثم شددوا عليه الإقامة الجبرية وأنه ممنوع عليه الاختلاط بالناس وأصدقائه لمدة ستة أشهر أخرى.. حتى صدر في حقه العفو النهائي من الباب العالي بالقسطنطينية بعد جهود كريمة من وساطة "موسى عارف بك" اليفرني حتى مدحه في قصيدة[6] رائعة وذلك سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م.

(١) د. عز الدين إسماعيل، م س، ص١٧.
(٢) وقد شارك أستاذه العلامة الشيخ اطفيش في الدفاع عنه والتوسط لدى السلطات العثمانية برسالة يزكي فيها ساحة تلميذه وبراءته من هذه المؤامرة.
(٣) سليمان البارونى، الديوان، ص٢٦.
(٤) جبران: سليمان البارونى، ص٣٤.
(٥) أبو اليقظان: سليمان البارونى، ج١، ص٨٠.
(٦) البارونى: الديوان ص٣٦ – ٣٧، مطلعها:
الله أكبر ســـاد الحق وانتـــــصرا وأنجز الســـعد والإقبال ما نذرا
(أبو البقظان: سليمان البارونى ج١، ص٨٢).

وفي سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م تلقى والي طرابلس الغرب أمرا بإرسال سليمان الباروني إلى استمبول إلا أن هذا الوالي رجب باشا نصحه بالتوجه إلى مصر أو إلى تونس فاختار مصر لأن السلطات الفرنسية منعته من الذهاب إلى تونس.

ففتحت له هذه الرحلة آفاقا جديدة وعلاقات كريمة مع علماء مصر وأدبائها فشمر الباروني عن ساعدي الجد وقام بمنجزات جليلة نذكر منها ما يلي:

أ- مطبعة الأزهار البارونية[1]:

أنشأ الباروني في السنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م وفي هذه البلاد المزدحمة بالفكر والمفكرين مطبعة سماها «مطبعة الأزهار البارونية» مع أخويه يحي وأحمد في حي الحبانية بشارع محمد علي رقم (٣٦) القاهرة.

يقول الباروني: «بتوفيق الله تعالى وإعانته أسسنا مطبعتنا هذه بمصر سنة ١٣٢٥ هجرية، وكان افتتاح العمل فيها بكتاب الأزهار الرياضية الذي سميت باسمه في غرة أفضل الربيعين شهر سيد الكائنات عليه أفضل الصلاة والسلام تيمنا بذلك».

ثم بين الغرض من إنشائها فقال: «ورجاء أن تكون خادمة للدين ناشرة للآداب ولكل ما فيه نفع وإرشاد للأمة والهيئة الاجتماعية، مرقية في درج التقدم، وعلى الله الاعتماد وهو ولي الأمر والتدبير[2]». وفيها طبع كتبا قيمة نذكر منها:

- **كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية:** هو من تأليف الباروني خصص الجزء الثاني منه للحديث المفصل عن مدينة تيهرت خلال ازدهارها في عهد الدولة الرستمية بغرب الجزائر، إلى حين انحدارها وزوالها.

(١) أبو اليقظان: سليمان الباروني باشا، ج١، ص٨٣ / زعيمة البارونية: صفحات من الجهاد ص٩.
(٢) زعيمة البارونية: صفحات من الجهاد ص٤٩.

وأما الجزء الأول فقد فُقد بالحريق الذي أصاب المطبعة وفقد الثالث ولم يعلم مكانه.

- **كتاب ديوان الباروني[1]:** هو مجموعة قصائد تاريخية تشهد على أحداث عاصرها الباروني أو شارك في صنعها قبل حرب طرابلس سنة ١٩١١م، وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م.

- **ديوان السيف النقاد[2]:** هو من تأليف إبراهيم بن قيس الحضرمي (ت٤٧٥هـ).

- **ديوان القلائد الدرية في مدح خير البرية:** تأليف الشيخ عمرو التدمرتي النفوسي الليبي وقد طبعه على نفقة المدرسة البارونية في مطبعة الإسلام بأول شارع الدواوين بمصر سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.

- **كتاب وفاء الضمانة بأداء الأمانة:** هو من تأليف أستاذ الباروني الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش رحمه الله (ت ١٣٣٢هـ/١٩١٤م) في رواية الحديث وقد طبع الجزء ٢ و٣ سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م وأما الجزء الأول فإنه طبع في المطبعة البارونية للشيخ محمد بن يوسف الباروني سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م.

- **كتاب حاشية على الجامع الصحيح للربيع بن حبيب:** هو من تأليف العلامة الشيخ عبد الله بن حميد السالمي العُماني (ت ١٣٣٢هـ/١٩١٤م) طبعه

(١) وقد أحسنت صنعا العالمة المعلمة زعيمة بنت الشيخ سليمان الباروني عندما أعادت طباعة ديوان والدها سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م طرابلس ليبيا وقد ضمت إليه الجزء الثاني الذي يضم ٢٥ قصيدة مما جمعته من الجرائد والمجلات التي يكتب فيها الباروني.
(٢) لم يذكر المحقق الباروني أنه طبع في مطبعة الأزهار البارونية وإنما ذكر له إشهارا في جريدة الأسد الإسلامي (صفحات من الجهاد ص٤٨) وقد جدد طباعة هذا الديوان في عُمان بتحقيق الأستاذ بدر بن هلال اليحمدي وطبع بمطابع النهضة بعُمان سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

على نفقة السلطان فيصل بن تركي سلطان مسقط سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م في جزئين.

ب- جريدة الأسد الإسلامي:

يقول سليمان الباروني: «عزمت على إصدار جريدة في مصر بعنوان: «الأسد الإسلامي» وأصدرت منه فعلا عددا واحدا في مطبعة الأزهار التي أنشأتها هناك[١] وذلك سنة ١٣٢٥/ ١٩٠٧م».

وكتب تحت عنوانها «جريدة دينية سياسية أدبية أسبوعية» صاحب الأسد ومحرره سليمان الباروني[٢] وشعارها قوله تعالى:« وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً » الإسراء ٨١.

يقول علي مصطفى المصراتي: «وجريدته كانت ذات أربع صفحات فساح عراض، كل صفحة ملؤها خمسة أنهر من الكلام الدفق الرقراق[٣]». وذلك سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م. وقد أصدر منها ثلاثة أعداد ثم توقفت لظروف أرغمتها على ذلك سنة ١٣٢٦/١٩٠٨[٤].

وفي يوم ١٧ جمادى الثاني ١٣٢٦هـ/٢٤ جويلية ١٩٠٨ أعلنت الدولة التركية عن استئناف الدستور العثماني ورفع الحظر عنه منذ أن توقف عن النشاط سنة ١٨٧٧م وكان من بين التنظيمات الإدارية الجديدة هي إنشاء البرلمان العثماني الموسوم بـ«مجلس المبعوثان» وهو يجمع تمثيل الولايات العثمانية.. وبطلب من الشعب الليبي شارك الشيخ سليمان الباروني في

---

(١) زعيمة البارونية: صفحات من الجهاد ص٥٧.
(٢) زعيمة البارونية : م، س ، ص٣٥.
(٣) علي المصراتي، صحافة ليبيا في نصف قرن، ص١٢٢.
(٤) زعيمة البارونية : صفحات من الجهاد، ص٥٣.

الانتخابات ففاز بمقعد تمثيل مقاطعة الجبل الغربي التابعة لولاية طرابلس[١] يوم ١٦ شوال ١٣٢٤هـ/ ٢٦ تشرين الأول ١٩٠٨م[٢] في مقره بـ«يفرن» فأصبح سليمان الباروني همزة وصل بين الشعب الليبي في الجبل الغربي والباب العالي في تركيا يدافع عن همومه ويصلح أحواله ويحافظ على أمنه بكل إخلاص.. وخاصة لما شاهد تخاذل الباب العالي عن إبعاد التحركات الإيطالية في وطنه ليبيا وهي تعد العدة لاحتلال ليبيا فقدم تقريرا سريا إلى الباب العالي أشار فيه إلى أطماع إيطاليا ونواياها في احتلال ولاية طرابلس الغرب ودعا فيه إلى ضرورة حمايتها والدفاع عنها.

وكان سليمان الباروني يمثل بلاده أحسن تمثيل حيث لا ينفك عن الالتزام بلباسه الوطني داخل قبة البرلمان. ولا يأبه من نظرات الآخرين ولسعاتهم فيقول لهم: «بما أنني أمثل بلادي بينكم فمن الواجب أن أمثلها بزيها المعتاد[٣]» وقد تعرف من خلاله على رجال الفكر والسياسة.

وعندما سافر إلى الأستانة دار الخلافة الإسلامية في أول أمره عكف على تعلم اللغة التركية في مدة شهرين[٤].

وعندما احتلت إيطاليا سواحل طرابلس مساء يوم الخميس ٢٨ سبتمبر ١٩١١م أعلن الشيخ سليمان الباروني الجهاد ضد الاستعمار الإيطالي في نداء وجهه إلى أهالي طرابلس يناشدهم إلى البدار نحو الجهاد في سبيل الله، ويعلن فيه أنه أول من سجل اسمه في قائمة المجاهدين[٥]. وهنا تظهر تحركات الشيخ سليمان الباروني بين دار الخلافة بتركيا وجبهات القتال بمدينة طرابلس في

---

(١) أبو اليقظان: سليمان الباروني باشا، ج١، ص٨٧.
(٢) زعيمة البارونية: صفحات من الجهاد، ص١٢١.
(٣) أبو اليقظان سليمان الباروني باشا، ج١، ص٧٦.
(٤) جبران: سليمان الباوني وآثاره، ص٤٣.
(٥) أبو اليقظان: سليمان الباروني باشا، ج١، ص٩٥ – ٩٦.

رحلات لا تعرف الكلل ولا الملل بصفته نائبا عن طرابلس في مجلس المبعوثان العثماني.. خاصة عندما اضطرت تركيا لعقد صلح مع إيطاليا يوم ١٨ أكتوبر ١٩١٢م في معاهدة «أوشي» مع منح طرابلس استقلالها الذاتي في ذي القعدة ١٣٣٠هـ، ولكن الشيخ الباروني لم يرض بهده المعاهدة الاستسلامية بل واصل الحرب إلى آخر رمق حيث اضطرته الظروف إلى السفر إلى تونس.

وفي شهر مارس سافر سليمان الباروني مع عائلته إلى تونس للتفاوض مع مندوب إيطاليا لتخرج من بلاده ولم تسفر المفاوضات والإغراءات الإيطالية بعد عام كامل على شيء، فسافر على متن باخرة إلى الأستانة بتركيا في شعر أفريل ١٩١٤م[١].

وعندما وصل الباروني إلى تركيا في شهر أفريل ١٩١٤م على طريق ألمانيا ولندن كافأته الدولة العثمانية فعينت الشيخ سليمان الباروني باشا عضوا في مجلس الأعيان العثماني نتيجة بطولاته الحميدة في الدفاع عن وطنه ليبيا[٢].

وبمناسبة اندلاع الحرب العالمية الأولى في شهر أوت ١٩١٤م وانضمام إيطاليا إلى الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) اغتنم الباروني الفرصة وألح على تركيا أن تساعده بالسلاح ليواصل الجهاد في بلاده طرابلس، خاصة وأن تركيا قد انضمت إلى ألمانيا ضد الحلفاء فوافقت تركيا وأرسلته على متن غواصة إلى برقة في شهر فبراير سنة ١٩١٥م.

وبعد عام من الخلافات بينه وبين محمد إدريس السنوسي الذي اعتقله عن الجهاد في ناحية السلوم بالحدود الليبية المصرية رجع إلى اسطنبول حيث عينه

(١) المصدر السابق: ج٢، ص١٠٤.
(٢) هادية مشيخي: سياسي إباضي مغربي، سليمان الباروني، ص٩٤.

السلطان العثماني حاكما على طرابلس وقائدا لقوات المجاهدين[١] في بداية سنة ١٩١٦م، وعندما رجع إلى بلاده شمر عن ساعدي الجد والاجتهاد لتنظيم إدارة البلاد ورأب الصدع بينه وبين السنوسي ومواصلة المقاومة ضد الاستعمار الإيطالي إلى أن أعلن قيام الجمهورية الطرابلسية بعد هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى وذلك يوم ١٩١٨/١١/١٦م.

وبعدها شارك في مفاوضات مع إيطاليا أسفرت عن توقيع القانون الأساسي[٢] للقطر الطرابلسي يوم ١٩١٩/٠٤/٢١م.

وحينها سافر إلى تركيا لمواصلة نشاطه في مجلس الأعيان العثماني.. لكنه بعد ثلاثة أشهر فوجئ بالانقلاب الكمالي «كمال أتاتورك» حيث تم حل مجلس الأعيان العثماني نهائيا فتحطمت آماله في إرجاع الدعم العثماني لبلاده ضد إيطاليا[٣].

رحلات الباروني بعد حرب طرابلس وآثارها:

وبعد أن سدت أبواب الرحلة أمام الباروني إلى أي بلاد عربية أو إسلامية مستعمرة من قبل الإنجليز أو فرنسا اضطر إلى الذهاب إلى باريس عن طريق رومانيا سنة ١٩٢٠م، و سجن هناك لمدة عامين بين مارسيليا وباريس[٤]. لا يؤذن له بالخروج منهما، وقد عبر عن عدم رضاه بصيام شهر رمضان في بلد لا يعترف بالصوم في قصيدة[٥] مطلعها:

(١) هادية مشيخي المصدر السابق ص ٩٧. أبو اليقظان: سليمان الباروني ج١ ص ١٦٢.
(٢) أبو اليقظان: سليمان الباروني ج١، ص١٥٠.
(٣) المصدر السابق، ج١، ص١٥٣.
(٤) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ج١، ص١٨٥.
(٥) أبو اليقظان: المرجع السابق، ج١، ص١٩٣.

شهر الصيام قد ارتحلت مـودعاً فعليك يا شهر الرضاء سلام

وذلك سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٢م، وفي أثناء هذه الإقامة الجبرية زاره في مرسيليا في بداية عام ١٩٢٤م الإخوان حاج عمر[١] العنق والسيد الحاج سليمان ترشين من وادي ميزاب بالجزائر يحاولان التوسط لدى السلطات الفرنسية أن تسمح له بالإقامة في تونس[٢] أو الجزائر ولكن الاستعمار ملة واحدة لم يقبل منهما ذلك.

في شهر أوت ١٩٢٣م زار الباروني تونس فالتقى به الشيخ أبو اليقظان رئيس البعثة العلمية الميزابية بتونس.. ولكن التحركات الأمنية حالت دون جلوس أعضاء البعثة معه إلا بالمراسلات الأخوية المختلفة[٣]حيث طرده البوليس إلى باخرة أرجعته إلى فرنسا. وخلال هذه الإقامة الجبرية كان الباروني يعاني الفقر المدقع لأنه حرم من جميع حقوقه المادية والأدبية.

أرسل الباروني رسالة إلى الشريف حسين بن علي أمير مكة وملك الحجاز عندما كان في مرسيليا يطلب منه أن ييسر له السبل الإدارية للذهاب إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج فأنعم عليه بدعوة كريمة وجهها إليه في أوت سنة ١٩٢٤م[٤] ليتحرك عن طريق الإسكندرية ثم بيروت ثم مدينة جدة.. وقد تعرض في هذه الطريق للمضايقات والاستفزازات الانجليزية حتى يغتالوه ولكنه تنبه للمكائد الاستعمارية عليه فلم ينزل من هذه الباخرة الفرنسية حتى وصل بيروت لينتقل إلى باخرة أخرى تحمل الحجاج إلى جدة..

(١) الحاج عمر العنق هو علم من أعلام القرارة تعلم عند الشيخ اطفيش مع الباروني، شارك في تاسيس الجمعية الصديقية في مدينة تبسة التي انشأت أول مدرسة قرآنية عصرية في الجزائر سنة ١٣٣١هـ/١٩١٣م اشتغل بالتدريس في وارجلان وبسكرة وقسنطينة إلى أن توفي سنة ١٩٥٦م (معجم أعلام الإباضية ج٣ ص ٦٢٨).
(٢) أبو اليقظان المرجع السابق، ج١، ص١٨٧.
(٣) أبو اليقظان: المرجع السابق ج١، ص١٨٦-١٩٠.
(٤) جبران/سليمان الباروني، ص٥٢-٥٣ ، هادية مشيخي/سياسي إباضي مغربي، سليمان الباروني، ص١٣٣.

ويقول لصديقه الحاج عمر العنق في رسالة خاصة: "وصلت يوم ٢٨ ذي القعدة ١٣٤٢هـ/٣٠ أوت ١٩٢٤م إلى جدة، وما وضعت رجلي في البر حتى رأيت جماعة على كراسي عند ممر الحجاج من الباخرة إلى البر يسألون هل فيكم «سليمان باشا الباروني» فأشار بعضهم إليّ فقاموا وسلموا فقال رئيسهم «أنا الشريف طه معتمد صاحب الجلالة سيدنا أيده الله، وقد أمرني باستقبالك والقيام بما فيه راحتك وراحة من في معيتك، وهو يهنئك بالسلامة» فشكرته[١]» ثم ختم الرسالة قائلاً: «وقد صدرت إدارة صاحب الجلالة بتوجيهي إلى مكة في أطومبيل خصوص أيده الله.. فهذه وضعيتي الآن بعد أن تخلصت من أسر أوروبا والحمد لله على فضله[٢]»

وأثناء إقامته في الحجاز أكرم الملك حسين مثواه فقلده أكبر وسام في دولته هو وسام: «الاستقلال الهاشمي» ثم رحل إلى مسقط في سلطنة عُمان بعد وساطة كريمة من الملك حسين لدى الإنجليز وذلك يوم ٢٠ ذي الحجة ١٣٤٢هـ/١٩ سبتمبر ١٩٢٤م[٣].

وتعتبر من أبرز أيامه في الكفاح السياسي لا تقل أهمية من الكفاح الحربي الذي واجه به الاستعمار الإيطالي في بلاده ليبيا لأنه قام بأعمال جليلة في الجزيرة العربية أضافت له مقامات عالية إلى مقاماته السابقة.. ويمكن تقسيم هذه الرحلة المباركة إلى ثلاث محطات أساسية هي:

أعمال الباروني في سلطنة عُمان: بدعوة من سلطان عُمان وصل سليمان الباروني إلى ميناء مسقط يوم ٠٧ محرم ١٣٤٣هـ/٠٨ أوت ١٩٢٤ نظم له

(١) أبو اليقظان: المرجع السابق، ج١، ص٢٠٤.
(٢) أبو اليقظان: المرجع السابق، ج١، ص٢٠٥.
(٣) أبو اليقظان: المرجع السابق ج١، ص ٢٠٦.

استقبال عالي المستوى بحضور وزراء جلالة السلطان تيمور بن فيصل[1] الذي كان غائبا في الهند وأبرق إليه قائلا: «قدوم مبارك لبلادنا أرجو أن شعبي قد استقبلكم بكل احترام[2]».

وقد أقيمت له احتفالات ومآدب وقصائد وخطب ولقاءات في عاصمة الساحل مسقط وعاصمة الداخل نزوى، وخاصة لما أرسل إليه الإمام محمد بن عبد الله الخليلي[3] رسالة يدعوه فيه بزيارة الداخل كما زار الساحل.. وتتابعت الولايات والمدن والقرى العُمانية تحتفي بهذا البطل الكبير لمدة شهر ونصف مثل: ولاية العميرات وولاية بوشر و سمائل ثم قرية الدريز[4] في الشرقية ثم القابل مرورا بمطرح وروي وفنجا ووابل وغيرها..

وعندما رجع السلطان تيمور من الهند رجع الباروني إلى مسقط لمقابلة السلطان الكريم يوم ١٧ رجب ١٣٤٣هـ/١٢ فبراير ١٩٢٥م.

وكان أول عمل قام به في وطنه الثاني عُمان هو إزالة الجفاء الذي كان بين سلطان الساحل وإمام عُمان في الداخل حيث نبههما إلى المخاطر المحدقة بهما إن لم ينسقا الجهود لتفويت الفرصة على الاستعمار.

وقد أثمرت جهوده المباركة تقاربا إيجابيا بين الضفتين لأنه وجد أهداف السلطان والإمام واحدة ولكن الوسائل مختلفة بينهما فأصبحا يتبادلان الرسائل بينهما بدون وساطة[5].

(١) تيمور بن فيصل بن تركي البوسعيدي سلطان عُمان إلى سنة ١٣٥٠هـ اتفق مع إمام عُمان سنة ١٩٢٠م على الدفاع عن عُمان (معجم أعلام الإباضية ص ٧٥).
(٢) د. سعيد الهاشمي: غاية السلوان في زيارة باشا الباروني لعُمان، ص٣٧- ٣٨.
(٣) محمد بن عبد الله الخليلي هو إمام بعُمان من سنة ١٩١٩م إلى حين وفاته سنة ١٩٥٣م (معجم أعلام الإباضية، ص٤١٢).
(٤) هي قرية قبيلة البروانة التي ينتسب إليها الباروني (الهاشمي: غاية السلوان ص٤٢).
(٥) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ج٢، ص٥٩.

وفي سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م أصدر الإمام الخليلي نداء إلى جميع ولايات عُمان من أنه فوض الباروني بتنظيم أمور المملكة العُمانية في جميع القطاعات "المالية، الإدارية، والتربوية والصحية والعسكرية والداخلية والخارجية[1]". فاجتهد الباروني في القيام بهذه المهمة النبيلة في عاصمة الإمامة نزوى وغيرها من مناطق عُمان رغم مرض حمى الملايا الذي كان يصارعه من حين لآخر مع بعض المعارضة[2] التي وجدها من بعض المناطق، فنظم المالية، وأنشأ مدرسة عصرية في سمائل[3]، كما نظم الدفاتر لإحصاء الذخائر الحربية للجيش وأسماء العساكر[4].

وأما الجانب الصحي فإنه أعد مستشفى وطنيا لذلك ولكنه لم يجد له طبيباً مسلماً ماهراً[5]. ولما كانت حمى الملايا يثيرها هواء الساحل الرطب استأذن الشيخ الباروني سلطان مسقط أن يواصل نشاطاته الإصلاحية في الداخل فزار الشرقية والجبل الأخضر بنزوى ومدينة سمائل وغيرها عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م. ولكن هذا الداء العضال دبّ في جميع أفراد عائلته التسعة ولم يشفهم دواء ولا طبيب حتى حوّلهم إلى بغداد في العراق[6] عام ١٣٤٨هـ/١٩٢٨م.

وفي سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٣م أرسل جلالة سلطان مسقط وإمام عُمان الشيخ سليمان الباروني باسمهما الشخصي إلى الحجاز ليتوسط في صلح كريم بين ملك نجد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود مع أمير مكة المكرمة الملك الحسين بن علي المتخاصمين على حكم الحجاز وذلك لحقن دماء المسلمين في البقاع

(١) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ج٢، ص٣٢.
(٢) هادية مشيخي: سياسي إباضي، مرجع السابق، ص١٦٢.
(٣) المرجع السابق ج٢، ص٤٥.
(٤) المرجع السابق ج٢، ص٥٠.
(٥) أبو اليقظان، المرجع السابق، ج٢، ص٥٢.
(٦) أبو اليقظان، المرجع السابق، ج٢، ص٨٢ – ٨٣.

المقدسة.. هذه الوساطة أثمرت خيرا وأحبطها الاستعمار[1] فأسفرت عن تنازل الشريف الحسين بن علي عن العرش وانسحب إلى العراق يوم ١٧ ديسمبر ١٩٢٥م[2].

والدليل على موافقة الباروني على هذا الحل الأخير هو قوله عندما وصل جدة يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٢٤م «وقد قلدني جلالة الملك نيشان «الاستقلال الهاشمي» وهو أكبر نيشان عنده أيده الله وحماه وبتوسط حكومته رخص لي الإنجليز في الذهاب إلى مسقط، ولم أقدم بيعة الخلافة كما بايع غيري[3]».

وبعد أن ألح عليه مرض حمى الملاريا كاتب الملك فيصل ملك العراق أن يأذن له بدخول العراق ووافقه على ذلك فرحل إليها يوم ١٨ صفر ١٣٤٨هـ/٢٦ جويلية ١٩٢٩م. حيث عالج هناك لمدة ثلاثة أشهر[4]. ولكن تردده على عُمان جعل المرض لا ينفك عنه، ثم يضطره إلى الرجوع إلى بغداد للعلاج هو وأفراد عائلته التسعة خاصة لما حرمهم المرض بعد وصولهم من طرابلس إلى عُمان للاستقرار في سمائل يوم ١٢ جمادى (١) ١٣٥٠هـ/٢٥ سبتمبر ١٩٣١م. ولما لم يُجْد العلاج في مسقط اضطر للتنقل هو وأفراد عائلته إلى بغداد في شهر صفر ١٣٥١هـ/جوان ١٩٣٢م.

ثم قرر الاستقرار في بغداد بالعراق لمدة تزيد عن ست سنوات وفيها فرج الله عنه الأزمة المالية التي كان يعانيها حيث كان ابنه إبراهيم كاتبا في الوزارة

(١) جبران: سليمان الباروني، ص٥٤.
(٢) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ج١، ص٢٠٦.
(٣) هادية مشيخي، سياسي مغربي، ص١٤٨.
(٤) د. سعيد الهاشمي، غاية السلوان، ص٦٢.

العدلية بعُمان ثم عين ابنه إبراهيم[1] بعد علاجه كاتبا في بلاط الملك حسين ببغداد يتقاضى راتبا محترما هو وأبوه سليمان.

وفي بغداد التقى برجال الفكر والسياسة وكتب المقالات العريضة في المجلات والجرائد المختلفة وشارك في القضايا العالمية آنذاك مثل قضية فلسطين وقضية التسلح والوحدة الإسلامية التي استقطبت اهتمامه في حوار جاد مع شكيب ارسلان والدفاع عن وطنه والخلافة الإسلامية وغيرها من القضايا المصيرية في العالم.

وفي سنة ١٩٣٨م دعاه جلالة السلطان سعيد بن تيمور للرجوع إلى عُمان لكي يكون مستشارا له في البلاط فرجع بكامل أفراد عائلته إلى مسقط وبقي في هذا المنصب حتى وفاته سنة ١٩٤٠م/ربيع الأول ١٣٥٩هـ[2].

وبعد أن اشتد به الداء العضال استأذن السلطان سعيد للعلاج في الهند فرافقه في رحلته، فلما وصل بومباي الهندية سقط مغشيا عليه فنقل إلى المستشفى على جناح السرعة ولكنه فجأة فقد السيطرة على وعيه حتى فارقته الروح العظيمة[3] يوم ٢٣ ربيع الأول ١٣٥٩هـ/غرة ماي ١٩٤٠م.

من خلال هذا العرض السريع لرحلات الشيخ سليمان الباروني في مختلف مراحل حياته نجد لهذه الرحلات آثارا واضحة المعالم في حياة الشعوب التي زارها الشيخ الباروني، وآثارا أخرى في حياته الخاصة نذكر منها ما يلي:

الرحلة لطلب العلم والمعرفة رفعت من قدر الشيخ في تكوين شخصيته العلمية والتربوية. والرحلة إلى الحواضر العلمية مثل القاهرة وبغداد ساهمت في

(١) أبو اليقظان، المرجع السابق، ج٢، ص١٠٥-١٠٦.
(٢) جبران، سليمان الباروني، ج٢، ص٥٧ - ٥٨.
(٣) أبو اليقظان، سليمان الباروني، ج٢، ص٢٤٤.

نشر أفكاره العالية من خلال ممارسة الصحافة. و الرحلة إلى القاهرة من أجل إنشاء مطبعة لنشر الكتب ساهمت إلى حد بعيد في إثراء المكتبة الإسلامية بالدراسات العلمية القيمة. والرحلة إلى تيهرت للتعرف على آثار الدولة الرستمية في المغرب الأوسط أثرت في شخصيته التاريخية فكان ذلك سببا لربط الحاضر بالماضي. والرحلة إلى سلطنة عُمان كان لها الأثر الفعال في وحدة المسلمين داخل السلطنة وخارجها. والرحلة إلى بغداد للعلاج تركت آثارا قيمة في الدفاع عن القضايا العربية والإسلامية مثل : شجب الاستعمار والتسلح والتنبيه إلى أهمية الدفاع عن القضية الفلسطينية. والدفاع عن الوحدة الإسلامية. والرحلة إلى البقاع المقدسة أثرت إيجابا في إكمال أركان الدين وتزكية النفس. وإصلاح ذات البين. والرحلة إلى اسطنبول في تركيا تركت في نفس الشيخ آثارا بليغة جعلته يتبوأ مقامه العالي بين عظماء الباب العالي في الخلافة الإسلامية. والتحركات التي قام بها الشيخ الباروني في ساحات القتال للدفاع عن وطنه ليبيا جعلت منه جنديا عظيما يهابه الاستعمار في كل مكان. وأما السجون والمضايقات التي اضطر إليها خلاله سيرته ضد الاستعمار فقد أثرت في شخصيته وأبرزت الصبر واليقين الذي كان يمتاز بهما الشيخ الباروني طوال حياته.

هذه هي بعض الآثار التي تركتها هذه الرحلات في شخصية الباروني وفي حياة الإسلام والمسلمين في العصر الحاضر، فهي تبين أن الباروني صاحب أهداف عالية في الحياة وصاحب طموحات كبرى لاتسع أيامه المعدودة في الحياة. وصدق المتنبي إذ يقول:

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

الخاتمة

بعد هذا العرض الذي رافقنا فيه الشيخ سليمان الباروني في رحلاته المضنية عبر مراحل حياته خلال نصف قرن من الزمان وهو يتجول بنا عبر القارات الثلاث (آسيا وأوروبا وإفريقيا) شاهرا سيفه وقلمه لخدمة قضايا وطنه الكبير بلاد الإسلام عموما وقضايا وطنه الصغير ليبيا خصوصا اكتشفنا من خلالها رجلا عظيما من عظماء جبل نفوسة بليبيا والذي كون شخصيته بالجد والاجتهاد في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، راسخ المبادئ لا يخاف في الله لومة لائم، غايته رضى الله تعالى، فسخر فكره وقلبه وقلمه وأولاده وماله وآماله وآلامه لخدمة الإسلام وتطوير حضارة المسلمين في كل زمان ومكان حل فيه صحيحا كان أو مريضا، مقيما أو مهاجرا، في الحرب والسلم، حتى عاد مرجعا سياسيا لكثير من القضايا في العالم، ولكثير من الحكومات تستنير به في دروب الكفاح ضد الاستعمار والفقر والجهل حتى اعترفوا له بالفضل فأهدوا له نياشينهم التكريمية.

شاهدنا من خلال هذه الرحلات رجلا متحركا لا يقر له قرار، يصنع الأحداث قبل أن تصنعه، يحب الخير للجميع. وتعرفنا من خلال هذه الرحلات على بطل صبور كريم النفس يدعو إلى الوحدة والتعاون والتآزر لتقوية صف الإسلام والمسلمين في ليبيا وتركيا والعراق ومصر والجزائر وتونس والسعودية وسلطنة عُمان وبل حتى في بلاد فرنسا خلال إقامته الجبرية فيها.

وأختم هذا العرض بالكلمة القيمة التي قالها الأستاذ علي مصطفى المصراتي في بداية الحديث عنه «الشخصيات الخصبة كثيرة العطاء متعددة الجوانب تعيش في حياتها متعبة، وأيضا تتعب في دراستها الكتاب والباحثين..

فوفرة العطاء وخصوبة الإنتاج وتعدد الجوانب بلا شك يجعل الدارس الباحث في حيرة التعب أو تعب الحيرة.

وهذه الشخصية النضالية العلمية عاشت غير مرتاحة وأيضاً هي تتعب الذين يكتبون عنها[1].

(١) علي مصطفى المصراتي، مؤرخون من ليبيا، ص٢٥٩.

رحلة سليمان باشا الباروني العلمية إلى معهد القطب وأثرها في تكوينه الفكري والعلمي

أ. زهير باباواسماعيل(*)

مقدمـة

عرف سليمان باشا الباروني بنضاله وجهوده الجبارة في ميادين عدة، وعاش في عصر تكالبت فيه القوى الاستعماريّة على العالم الإسلاميّ حتى كادت تطمس معالمه الحضاريّة والثقافيّة، فعمل على استنهاض الهمم لتحرير العالم الإسلاميّ من ربقة الاضطهاد. فكان قائدا وزعيما وثائرا وأديبا ومؤرخا، عجزت أنامل الدارسين عن إحصاء آثاره فضلا عن دراستها وسبر أغوارها.

وقد كان للبيئة التي ترعرع فيها سليمان الباروني، والأسرة التي نشأ في أحضانها الأثر البالغ في تكوين شخصيته، والارتقاء بها هذه المنزلة الرفيعة، إضافة إلى جملة من الأسفار والرحلات العلمية – التي تعتبر من أهم العوامل المساهمة في تنمية المعارف الشخصية للمتعلم– واحتكاكه بعلماء وشخصيات نفخت فيه روح التحدي والعزم على الإصلاح والتغيير، والتطلع إلى قيادة الأمة للتخلص من براثين الاستعمار، وإعادة عزها التليد الذي فقدته منذ أمد بعيد.

ولعل من أهم الرحلات العلمية التي أخذت حيزا مهما في حياة الباروني الحافلة بالأسفار؛ الرحلة العلمية التي قادته إلى معهد قطب الأئمة الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش (١٢٣٧هـ / ١٨٢١م – ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) والذي كان حينها قبلة للطلبة من كافة قرى وادي مزاب ومن خارجها، وقد دامت ثلاث

(*) أ.زهير بابا وإسماعيل، جامعة غرداية، الجزائر.

سنوات (من ١٣١٣هـ إلى ١٣١٦هـ)، كان لها الأثر البليغ في تكوينه العلمي والقيادي والثوري.

وسأحاول من خلال هذه الورقة العلمية تسليط الضوء على هذه المرحلة المباركة من حياة المجاهد الباروني في رحاب معهد القطب، مبرزا المكانة التي حظي بها لدى شيخه والتي خصه بها دون غيره من الطلبة، وأثر ذلك في حنينه إلى زيارته في مناسبتين، إضافة إلى بيان العلاقة الطيبة التي كانت بينه وبين تلامذة القطب الذين حملوا لواء الإصلاح والجهاد من بعده، من أمثال أبي إسحاق إبراهيم اطفيش، والشيخ إبراهيم أبي اليقظان، الذي ألف كتابا عرض فيها جوانب مشرقة من حياة الباروني، وجمع فيها العديد من رسائل الباروني ومراسلاته التي كانت بينه وبين زملائه والسلاطين والحكام،[1] لأعرج في الأخير إلى بيان أثر تكوينه عند القطب في مآثره وأعماله الجليلة التي طبعت حياته الحافلة.

١- علاقة العائلة البارونية بوادي مزاب عامة وبقطب الأئمة خاصة:

ينتمي سليمان باشا الباروني إلى العائلة البارونية التي استقرت بجبل نفوسة بليبيا منذ القرن الخامس الهجري،[2] هذه العائلة العريقة الضاربة جذورها في تاريخ الأمة الإسلامية عموما وجهاد أهل جبل نفوسة بليبيا خصوصا، بثلة من الرجال الذين تصدروا العلم والإفتاء في الجبل عبر تاريخ ليبيا المجيد، وتقلدوا المناصب في قيادة الشعب الليبي للدفاع عن وطنهم وعن بيضة الإسلام، وصدق فيهم قول الله ﷻ: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ

(١) يعد هذا الكتاب من أهم مصادر حياة الباروني لدى الدارسين لشخصيته؛ لذا فقد اعتمدت على الكتاب في معظم جوانب هذه الورقة البحثية.

(٢) جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، من ق١هـ إلى ١٥هـ"قسم المغرب"، (ط١؛ غرداية: جمعية التراث، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م)، رقم: ٣٨٥.

وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً»[1]. وقد وصفهم الباروني بقوله: "إن المطالع يرى سيرتهم كسيرة الصحابة والتابعين، لا تعاظم ولا تكبر، مع العفة التامة والعلم الغزير والاعتناء بالدين والعدل ... إن هم جلسوا للحكم عدلوا، وإن تصدروا للتعليم أجادوا وأحيوا، وإن قاموا للدفاع عن وطنهم وملكهم أبلوا ونصروا..."[2].

ترتبط أهل نفوسة بوادي مزاب علاقات نسبية وأخرى أخوية فرضتها وحدة الدين الإسلامي، وعزّزتها الرابطة المذهبية والعرقية، كما كانت بين آل بارون ووادي مزاب علاقات حميمية وعلمية، تجسدت في العديد من الزيارات والمراسلات بين العائلة ومزاب في مختلف الحقب الزمنية.

فقد قدم الشيخ محمد بن زكرياء بن موسى الباروني (ت: ٩٩٧هـ / ١٥٨٩م) مؤلف رسالة نسب الدين إلى مزاب في ٩٦١هـ، فتتلمذ على يد أبي مهدي عيسى بن إسماعيل المليكي حوالي عشر سنوات، حيث عاد إلى وطنه بعد وفاة شيخه (٩٧١هـ)[3].

ولعل العلاقة الوطيدة التي كانت بين والد سليمان الباروني الشيخ عبد الله بن يحيى بن أحمد الباروني (١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م - ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م)، وقطب الأئمة، سهلت سبل الابن سليمان للانتساب إلى معهد القطب. فقد كانت بينهما مراسلات وصف القطب في إحداها الشيخ عبد الله الباروني بأنه عالم وورع نفوسة[4].

ومن بين تلك المراسلات ما أورده أبو اليقظان في كتابه في مناسبتين، الأولى كانت في سنة ١٢٩٩هـ، لما أتم القطب شرحه لشرح مختصر العدل والإنصاف في

(١) سورة الأحزاب، الآية٢٣.

(٢) أبو اليقظان الحاج إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، (دط) المطبعة العربية- الجزائر، ١٣٧٦هـ/١٩٦٥م، ٦/١.

(٣) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ٢٩/١-٣٠؛ جمعية التراث: مرجع سابق، ٨١٦.

(٤) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ٣٤/١.

أصول الفقه والاختلاف والذي سماه بـ:"فتح الله"، فكتب إليه الشيخ عبد الله الباروني تقريظا أجاد فيه وأبدع في مدح العالم وعمله، والثانية لما نفي القطب إلى بلدة بنورة من قبل بعض حساده من بلدته، ومكث بها حوالي سبع سنوات فكتب إليه الشيخ عبد الله الباروني قصيدة بليغة يسلّيه بعبارات شبّه فيها ما وقع بينه وبين قومه بما حدث لسيدنا يوسف مع إخوته، ونوه فيها بخصال القطب ومكانته[1].

وتقديراً لمكانة القطب، وتبحره في مختلف العلوم لم يكتف الشيخ عبد الله الباروني بإرسال سليمان إليه فحسب، فقد ذكرت بعض المصادر أن من بين تلاميذ القطب الذين وفدوا إليه من خارج مزاب يحيى بن عبد الله بن يحيى الباروني (ت: ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م) الذي تتلمذ في تونس، وفي الأزهر بمصر، ثمّ انتقل إلى معهد قطب الأئمة بميزاب، [2] وكذا الشقيق الأصغر لسليمان الباروني باشا، أحمد بن عبد الله بن يحيى الباروني (حي في: ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م) الذي أخذ المبادئ الأولى للعلوم في نفوسة، ثم درس في كلٍّ من: تونس، ومصر، وميزاب؛ وذكر أن زيارته للقطب في وادي مزاب كانت عام ١٣٢٦هـ[3]. غير أنه قال في ملحق سيره: «...لم أعرف هل حضر على القطب أو على بعض تلامذته»[4].

وفي رحلته الحجازية الثانية (١٣٠٣هـ) التي زار في طريقه العديد من البلدان واتصل بعلمائها ووجائها، توقف القطب في جبل نفوسة وزار الشيخ عبد الله الباروني، واستقبله أهل نفوسة استقبال العظماء[5].

(١) المصدر نفسه، ١/٣٧-٤٠.
(٢) جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب)، رقم: ١٠٠٧.
(٣) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ١/٤٢.
(٤) إبراهيم أبو اليقظان: ملحق لسير الشماخي، (مخ، مصور بمكتبة عمي سعيد بغرداية، رقم: خ.ص:٠٦-٠٧)، ٣٣٧.
(٥) محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، (ط١؛ المطبعة التعاونية، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م)، ١/٣٥٠-٣٥١؛

ومما يؤكد المكانة التي يحظى بها القطب لدى العائلة البارونية قيام الشيخ محمد بن يوسف الباروني:

- **(النصف الثاني ق: ١٣هـ/١٩م)** بطبع بعض كتب القطب في مطبعته بمصر، مثل كتاب شرح النيل، ووفاء الضمانة، وجامع الشمل في الحديث، وتحفة الحب في أصل الطب وغيرها[1].

٢- سفر الباروني إلى معهد القطب:

تلقى الباروني مبادئ التعليم في مسقط رأسه على يد أبيه الشيخ عبد الله الباروني، وبعدها استأذنه الباروني بأن يرحل في طلب العلم والعلا إلى حيث تصبو نفسه ليملأ وطابه بما لم يجده عند أبيه، فأذن له ونظم له قصيدة بديعة جامعة للحكم والنصائح التي يحتاجها المغترب في طلب العلم[2].

فرحل الباروني إلى تونس سنة ١٣٠٥هـ-١٨٨٧م وعمره آنذاك أربعة عشر سنة، وتتلمذ في جامع الزيتونة على يد علماء مشاهير منهم: الشيخ محمد النخلي[3].

ولما استطال باعه في شتى العلوم الدينية على المذهبين الإباضي والمالكي انتقل في حوالي سنة ١٣١٠هـ- ١٨٩٢م إلى مصر ومكث بها حوالي ثلاث سنوات مغترفا من مناهل الأزهر الشريف[4].

وفي سنة ١٣١٣هـ- ١٨٩٥م عاد من مصر إلى تونس للتداوي في حمام قربص، ثم انتقل إلى وادي مزاب لاستكمال تكوينه العلمي من معين بحر العلوم قطب

(١) أبو اليقظان: ملحق السير، ١١٩.
(٢) نخبة مختارة من العلماء والأدباء: نفحات من الأدب الإسلامي (ديوان الشيخ عبد الله الباروني وغيره)، (دط؛ مكتبة الضامري- السيب، عُمان، د ت ن)، ص٢٩-٣٥.
(٣) أبو القاسم الباروني: حياة سليمان باشا الباروني زعيم الجاهدين الطرابلسيين، (ط٢؛ دن، ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م)، (مقدمة أبي إسحاق اطفيش، ص١٢.
(٤) أبو اليقظان: ١/٤٧، ٤٨.

الأئمة، والذي يعتبر في عهده مرجع الإباضية. ومكث الباروني في معهد القطب مدة ثلاث سنوات[1]، واعتبرت محطة معهد القطب "الرافد الأخير الذي تأصلت به علوم الباروني وعقليته، وتوسعت فيه مداركه"[2].

٣- برنامج معهد القطب، وتخصيص القطب برنامجا خاصا للباروني:

لقد أحب القطب مهمة التدريس، لأنّه كان يراها أكبر عبادة، وأحسن وسيلة لإنقاذ الإسلام و المسلمين من براثين الاستعمار، فجلس للتدريس مع أخيه إبراهيم وهو في سن الخامسة عشر، واستمر في جهاده طيلة عمره، في الحضر و السفر دون انقطاع، وحتى في أيام العطل[3].

ولما بلغ العشرين من عمره أصبح أكبر عالم في وادي ميزاب، ففتح معهدا للتدريس في داره،[4] فكان أول معهد أنشأ في وادي ميزاب تدرس فيه جميع الفنون، و يؤمه أكبر عدد من الطلبة، من ميزاب وغيره، مما أزعج السلطات الفرنسية فصارت تراقب كل نشاطاته[5].

حرص القطب على استغلال وقته، فوضع لتدريسه برنامجا محكما من الفجر إلى آخر الليل موزعا كالآتي:[6]

- بعد صلاة الصبح : يلقي دروسا في المسجد لعامة الناس.

(١) أبو القاسم الباروني: حياة سليمان باشا الباروني، (مقدمة أبي إسحاق اطفيش، ص١٢.
(٢) سليمان بن عبد الله الباروني باشا، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية القسم الثاني (تح:أحمد كرم وآخرون، ط٣؛ دار البعث: قسنطينة الجزائر، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)، ٤٠٣؛ أبو اليقظان: ٤٧/١، ٤٨؛ محمد مسعود جبران: سليمان الباروني، آثاره، (دط) الدار العربية للكتاب: ليبيا، ١٩٩١م، ص٣١.
(٣) إبراهيم بن أبي بكر بن بابه حفار: السلاسل الذهبية بالشمائل الطفيشية، (مخ مصور بمكتبة عمي سعيد بغرداية، رقم: خ.ص: ٧٠)، ٤٨؛ دبوز: نهضة الجزائر، ٣٠٢/١.
(٤) دبوز: مصدر سابق، ٣٠٢/١.
(٥) ينظر: التقرير الذي بعثه القائد عيسى فضلي إلى السلطات الفرنسية حول إحصاء المحاضر الموجودة في بني يزقن بتاريخ ٢٠سبتمبر١٩٠٧م. الحاج سعيد يوسف: تاريخ بني ميزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، (ط٢؛ غرداية-الجزائر: المطبعة العربية، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦)، ١٦٣.
(٦) حفار: السلاسل الذهبية، (مخ)، ٤٥-٤٦؛ دبوز: نهضة الجزائر، ٣٠٩/١-٣١٠.

- بعد الضحى إلى أول الزوال : يخصص دروسا لتلاميذه على شكل حلقات.

- بعد العصر إلى المغرب : يعرض عليه العزابة أهم المشاكل للإدلاء برأيه فيها، ثم يجلس في مكتبه فيستقبل الناس للإجابة على أسئلتهم وفتاويهم..

- بين المغرب والعشاء : يخصصه لتحضير الدروس.

- بعد العشاء إلى ساعة متأخرة من الليل : يشتغل بالتأليف.

وقد التزم هذا البرنامج طيلة أيام الأسبوع إلا الجمعة. وكان يعمل حوالي (١٦) ساعة في اليوم تقريبا[1] وكان يتولى التدريس بنفسه في معهده[2] الذي يشتمل على ثلاث مراحل: مرحلة المبتدئين، ومرحلة المتوسطين، ومرحلة الكبار[3].

وقد وضع شروطا لقبول الطلبة في حلقاته منها[4] :

- الاستقامة في السلوك و التمسك بالدين.
- حفظ القرآن الكريم.
- حفظ عدد من المتون التي تعتبر أساسا في بعض الفنون التي يدرِّسها.

وقد تخرج على يده جمع من الطلبة يصعب إحصائهم رغم بعض المحاولات. قال إبراهيم حفار (١٣٠٨-١٣٧٣هـ): «لا تجد من رجال الأوطان عينا سيالا، ولا عرقا قطارا إلا من فياض محيطه، ورد واستمد إما مباشرة أو

(١) دبوز: مصدر سابق، ٣٠٨/١.
(٢) وقد استعان في آخر عمره بتلميذه إسماعيل زرقون؛ لتدريس بعض الفنون للمتوسطين. ينظر: دبوز: نهضة الجزائر، ٣٧٠/١.
(٣) دبوز: المصدر نفسه، م ن.
(٤) دبوز: المصدر نفسه، ٣٦٣/١-٣٦٥.

بواسطة»[1]. فإنّ من تلاميذه من انقطع قبل إتمام المراحل التعليمية، وتصدى للعمل في الميدان الاقتصادي، داعيا ومصلحا[2]. ومنهم من واصل المسيرة إلى المرحلة العليا، ثم تفرغ لخدمة الصالح العام. فكان منهم: القضاة الشرعيون، والمصلحون، الأساتذة و المعلمون الذين أسسوا المعاهد و المدارس[3]. ومنهم الصحافيون والقادة العسكريون الذين تصدوا لمواجهة المستعمر بالقلم والسيف، وكان منهم سليمان باشا الباروني.

خص القطب تلميذه الباروني على غرار بعض التلاميذ الغرباء والنجباء والمتفوقين بأوقات إضافية للتدريس، فكان يجلس إليه في بعض أوقات راحته، وكذا الفترة الليلية المخصص للتأليف، لما التمسه فيه من شغف العلم، وسرعة التحصيل، واتقاد الفطنة [4].

ومن أهم نفائس الكتب التي قرأها على شيخه كتاب النيل وقد وضع عليه تعليقات تلقاها من شيخه[5].

٤- مكانة الباروني لدى شيخه قطب الأئمة:

لقد أحب الشيخ اطفيش تلميذه حبا شديدا لم يحظى به غيره من تلامذته، فكان محل تقديره وعنايته واهتمامه، وخصه بما لا يخص به غيره من زملائه وأنداده؛ لمّا توسم فيه بوادر الرجل القائد الذي يتطلع إلى مستقبل ثري حافل بالإنجازات، وفي هذا الصدد يقول الباروني: "ولقبني بما لا أتحمل حمله، مما لم

(١) حفار: السلاسل الذهبية، ٤٦.
(٢) دبوز: نهضة الجزائر، ٣٧٧/١.
(٣) يحيى صالح بوتردين: الشيخ محمد بن يوسف اطفيش ومذهبه في تفسير القرآن الكريم، بالمقارنة إلى تفسير أهل السنة، (رسالة مرقونة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الآداب بجامعة عين شمس بمصر، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م)، ٥٥-٥٦.
(٤) جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، رقم: ٨٦٤.
(٥) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ٤٩/١.

يجد به لغيري، وزودني من دعائه الصالح وتوجهاته القلبية ما لم أزل أستمد منه الرشد والتوفيق ولا أضام معه بإذن الله ما دمت حيا"[1]. كما كان محل إجلال واحترام من إخوانه، وذاك لسمو أخلاقه ولطف أدبه كما شهد له صديقه أبو اليقظان[2].

وكان القطب يجلس الباروني عن يمينه ويقدمه للقراءة ويكبر فيه ألمعيته[3]. ويصطحبه في كل الزيارات التي يقوم بها إلى قرى وادي مزاب[4]. من ذلك: زيارته للقرارة سنة ١٤١٣هـ، وزيارته للعطف سنة ١٤١٥هـ. ومن أهم آثار هذه الزيارات احتكاكه برجال العلم والأدب وحتى المال؛ فتوطدت العلاقات بينه وبينهم، والتي كان لها الأثر الحسن على مسيرته العلمية والسياسية فيما بعد[5].

وكانت للشيخ أطفيش اليد الطولى في التوسط لدى السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٥٨-١٣٣٧هـ/١٨٤٢-١٩١٨م)، ومراسلته لاستصدار أمر بالعفو عن الباروني بعد محنة سجنه في طرابلس سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م[6].

ومما يؤكد هذه المكانة التي حظي بها الباروني لدى شيخه قطب الأئمة، أن لما أذن القطب للباروني بزيارة أطلال تيهرت رافقه إلى مسافة لم يستطع الباروني ذكرها خجلا وتواضعا أمام شيخه[7].

(١) الباروني: الأزهار الرياضية، ٤٠٤.
(٢) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ٤٩/١.
(٣) محمد مسعود جبران: سليمان الباروني، آثاره، ص٣٢.
(٤) وتجدر الإشارة إلى أنّ القطب لم يخرج من وادي ميزاب إلا يسيرا، من ذلك ما كان ينظمه من رحلات موسمية إلى قرى وادي مزاب كبريان والقرارة، وأخرى إلى ورجلان. إضافة إلى رحلتيه إلى البقاع المقدسة، الأولى كانت سنة ١٢٩٠هـ، والثانية سنة ١٣٠٣هـ. ينظر: دبوز: نهضة الجزائر، ١٤١/١، ٣٥٠-٣٥١.
(٥) أبو اليقظان: سبيمان الباروني، ٤٩/١.
(٦) جمعية التراث: معجم مصلحات الإباضية، رقم: ٤٥٧.
(٧) الباروني: المصدر السابق، ٤٠٤.

وقد تكرر ذات الأمر معه حينما تجشم الأستاذ الصعاب من برودة الجو وظلمة الليل، لتوديع تلميذه عند خروجه من مزاب في زيارته سنة ١٩٠٧م، وقد سرد الباروني ما حدث مقدّرا موقف أستاذه بقوله: "أوعز إلي الأستاذ الأكبر قطب الأئمة شيخي الحاج محمد بن يوسف أطفيش إنه سيرافقني إلى محطة غارداية ليلة رجوعي من مزاب إلى الجزائر سنة ١٣٢٥هـ، فعظم علي الأمر نظرا لمقامه العالي فرأيت أن أقابل ذلك ببعض أبيات في حقه أقدمها له عند حضوره، ثمّ لما حل السفر وكان البرد شديدا والليلة غير مقمرة والمحطة بعيدة ذهبت إليه مع جماعة من الوجهاء وسألناه أن لا يكلف نفسه الخروج من محله وبعد أخذ ورد قبلنا منه الوصول إلى باب المدينة فكان ذلك"[١].

وقد أيد القطب تلميذه سليمان الباروني في ثورته ضد الاستعمار الإيطالي على ليبيا، بجمع الأموال، وكان يشفق على الباروني وجنوده في ثغور المعركة خلال الحرب ويتحسر على حالتهم، ويدعو له ولجنوده بالنصر والغلبة، ويطلب من طلبته تكثير الدعاء لهم والإلحاح فيه،[٢] وذكر أبو اليقظان أنه كثيرا ما يكون في وسط الدرس وقت الهجيرة فيتوقف فجأة ويتنفس الصعداء ثم يقول لتلاميذه: "إن الشيخ سليمان الباروني وأبطاله الآن في حالة الجهاد في هذا الحر الشديد والعطش والماء الكدر الحار والجوع والأكل الخشن، بين كثبان الرمال ومقابلة الرصاص بصدورهم من بنادق ومدافع العدو، ونحن في ظل ظليل في الماء البارد والأكل الشهي الهنيء، والراحة التامة بالقيلولة في الدهاليز الباردة؛ أولا نعنيهم ولو بالدعاء فهلموا بنا ندعو الله لهم بالحفظ والنصر والعون والتأييد"[٣].

(١) زعيمة سليمان الباروني: صفحات خالدة من الجهاد، (دط) مطابع الاستقلال الكبرى، ١٩٧٤م، ص٩٠.
(٢) دبوز: نهضة الجزائر، ٣٣٢/١..
(٣) أبو اليقظان، سليمان الباروني، ٧٢/١.

٥- رحلة الباروني إلى تيهرت وتأثره بآثار الأئمة الرستميين

رغب الباروني استغلال فترة تواجده بمزاب وقربه من مآثر الرستميين فطلب من شيخه مرارا أن يأذن له بزيارة أطلال عاصمة الرستميين بتيهرت - تيارت حاليا-، لكن القطب كان يرفض كل مرة ويماطله قصد استكمال التلميذ لمعلوماته[١].

وفي سنة (١٣١٦هـ-١٨٩٨م) أذن له في ذلك، انتقل الباروني إلى الجزائر ومنها إلى مدينة تيارت بمعية بعض الأصدقاء، ولما نزل تيهرت القديمة لم يجد منها إلا الآثار والرسوم والأنقاض المتراكمة، وشيئا من سورها المنيع. والذي أصبح مزارا للمزابيين المقيمين في تيارت آنذاك.

وقد بدا تأثر الباروني بالغا بما آل إليه هذا البناء المتين والصرح المخلد لتاريخ الإباضية المجيد، "فأدركته رقة لانت لها الطبيعة الجامدة والقريحة الكاسدة" فقال وقلبه في حسرة وانكسار والدمع من عينيه يدمع[٢]:

قفا نبك أطـــلالا تقلـــص ظلها ... وننـــدب آثـــار الـــذين بـقوا ذكرا
بني رستم مـن قام بالعدل ملكهم ... فأمست بهم تيهرت كالروضة الزهرا[٣]

وكان لزيارته تلك الأثر الطيب على تأليفه لكتاب الأزهار الرياضية، الذي خصص جانبا منه للحديث عن الأئمة الرستميين، كما أتحف ديوانه بالعديد من الأشعار المخلدة للذكرى[٤].

(١) المصدر نفسه، ٤٩/١، ٧٠.
(٢) الباروني: الأزهار الرياضية، ٤٠٦-٤٠٨.
(٣) سليمان بن عبد الله الباروني: ديوان الباروني، (دط؛ مطبعة الأزهار البارونية- مصر، ١٣٢٦هـ)، ١٠١-١٠٣.
(٤) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ٤٩/١، ٧٠.

٦- علاقات الباروني بأقرانه من تلاميذ القطب:

إنّ الفترة التي قضاها الباروني في كنف معهد القطب كانت كافية لربط علاقات حميمية مع تلامذة القطب ممن حملوا لواء النهضة الإصلاحية بعده في ميزاب وخارجها، ولم تنقطع هذه العلاقات بعودة الباروني إلى وطنه واشتغاله بأمور بلده، بل استمرت عبر مراسلات وزيارات تارة في ميزاب وأخرى في تونس بل تعدتها إلى ما وراء البحار.

١- علاقته بالشيخ أبي اليقظان إبراهيم بن عيسى، حمدي، (١٣٠٦-١٣٩٣هـ).

هو شيخ الصحافة الجزائرية المجاهدة، ومن علماء القرارة بميزاب، حفظ القرآن وتلقى مبادئ العلم ببلدته، ثم انتقل إلى معهد القطب سنة ١٣٢٥هـ، وكان من أبرز تلامذته؛ ثم توجه نحو جامِع الزيتونة بتونس سنة ١٣٣٠هـ، وترأّسَ أوّل بعثة علمية جزائرية ميزابية بتونس. وهو من الأعضاء الإداريين المؤسّسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. أصدر ثماني جرائد وطنية إسلامية باللغة العربية، ومن مؤلفاته: "سُلَّم الاستقامة"، و"سليمان باشا الباروني"، و"ديوان أبي اليقظان"، و"ملحق سير الشماخي"، وغيرها[١].

ويعتبر أبو ايقظان من أعز أصدقاء الباروني وأقرانه الذين درسوا على قطب الأئمة وخصهم بالعناية والتقدير، حيث استمرت المراسلة بينهما من سنة ١٣٢٥هـ إلى سنة ١٣٥٧هـ، وبخاصة لحظة تواجده خارج ليبيا كمرسيليا بباريس، وعُمان، فكان يشاركه في كل صغيرة وكبيرة، ويطلب رأيه في بعض القضايا

(١) ينظر ترجمته في: أحمد محمد فرصوص: أبو اليقظان إبراهيم كما عرفته، (دط) قسنطينة-الجزائر: دار البعث، د ت ن، كله؛ جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، (قسم المغرب)، رقم: ٤٢.

والمواقف التي كانت تعترضه[١]. فكانت هذه المراسلات المادة الخام لتأليف أبي اليقظان لكتاب يروي جوانب من حياة المجاهد، وقد اعتبر ذلك فرض عين عليه دون غيره، نظرا للعلاقة الحميمية التي كانت بينهما. كما علق أبو اليقظان على الكتاب الذي ألفه أبو القاسم بن سعيد الباروني حول حياة سليمان الباروني[٢].

ولم تقتصر العلاقة بين التلميذين على الكتابة والمراسلة وإنما تعدتها إلى بعض اللقاءات المباشرة، من ذلك اللقاء الذي وقع بينهما خلسة بتونس عندما زارها الباروني من مرسيليا في سبتمبر سنة ١٩٢٣م، وكان أبو اليقظان يومها في الزيتونة. وقد نظم أبو اليقظان قصيدة بالمناسبة مطلعها:

هـلا لان هـلا بالرحـاب والقـا وبدران من أفق السماءين أشرقا[٣]

غير أنه لم يتمكن من إلقائها حيث أجبرت السلطات الفرنسية الباروني على الرجوع إلى فرنسا ولمّا تكتمل فرحة اللقيا[٤]. كما التقيا في حضرة شيخهما لما زاره الباروني سنة ١٩٠٧م، وحينها كان أبو اليقظان لا يزال طالبا في معهد القطب[٥].

وإيمانا من الباروني بأهمية جهاد الكلمة، وأنه بديلا لا مناص منه عن جهاد السيف، فقد كان نعم السند لرفيقه أبي اليقظان في إنشاء المطبعة العربية، وإنشاء صحف وجرائد وطنية سنحت بنشر عدد من المقالات الثورية النارية التي كان يخطها الباروني[٦].

(١) ينظر على سبيل المثال: رسالة مؤرخة في ١ رجب ١٣٤٢- ٧ مارس ١٩٢٤م، أبو اليقظان: سليمان الباروني، ١/٥١-٥٥.
(٢) المصدر نفسه، ١/٣، ٤.
(٣) أبو اليقظان: ديوان أبي اليقظان، (جمع: محمد ناصر، ط٢؛ جمعية التراث- غرداية، د ت ن)، ١/٧٣-٧٤.
(٤) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ١/١٨٦-١٨٧.
(٥) أبو القاسم الباروني: حياة سليمان باشا، ١٥٠؛ أبو اليقظان: سليمان الباروني، ١/٥٦، ٥٧.
(٦) جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، رقم: ٤٥٧.

٢- علاقته بالشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اطفيش، (١٣٠٥-١٣٨٥هـ)، الذي أخذ مبادئ العلم ببلدته بني يزقن عن القطب، وعن الحاج إبراهيم زرقون (ت: ١٣٤١هـ/١٩٢٢م)، ثم سافر إلى تونس، فكان من مؤسسي حزب الدستور التونسي. ثم أبعد عن تونس، فاختار التوجُّه إلى القاهرة، فاستقرَّ بها، وشرع في أداء رسالته ونشاطه، في التأليف والتحقيق والطبع والفتوى. قام بطبع وتحقيق العديد من مؤلفات القطب. وله مؤلفات خاصة منها: "الدعاية إلى سبيل المؤمنين"، و"موجز تاريخ الإباضية"، ورسالة "الفرق بين الإباضية والخوارج"، وغيرها[١].

كان أبو أسحاق من أعز أصدقاء الباروني الذين تشابهت صفحات كفاهم، بداية من جلوسهما جنبا إلى جنب ينهلان من معين القطب، مرورا بتعرضهما إلى النفي من قبل السلطات الاستعمارية، وتنقلهما عبر العديد من البلدان العربية والإسلامية، ووصولا إلى تكرم العائلة البوسعيدية باستقبالهما في أرض عُمان، فوجدا فيها فسحة للعمل في سبيل إعادة مجد الأمة الإسلامية، وتحرير بلدانها من وطأة القوى الاستعمارية، كما قام كل منهما حين نزولهما بمصر بطبع التراث الإباضي وبخاصة تركة شيخهما قطب الأئمة.

لم تنقطع المراسلة بين العالمين طوال فترة جهادهما، وتخليدا لأعمال الباروني ووفاء لواجب الصداقة التي كانت تجمعهما فقد قام أبو إسحاق بتصدير كتاب أبي القاسم الباروني حول حياة سليمان الباروني بمقدمة ذكر فيها صفحات

(١) ينظر ترجمته في: أبواليقظان: ملحق السير، (مخ)، ٣٤٣؛ جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، رقم: ٣٧.

مشرقة من حياة وجهاد الباروني[١] كما افتتح كتاب زعيمة الباروني حول صفحات خالدة من جهاد وسيرة أبيها؛ بكلمة وفاء واعتراف[٢].

لما أصدرت السلطات الفرنسية سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م حكما بإبعاد أبي إسحاق من تونس واختار القاهرة، حاول التوسط للباروني -الذي كان بمرسيبيا- لدى الوزارة في مصر بغية استقباله بأراضيها لأجل الاستقرار بها هو وعائلته، غير أن تحكّم القوى العظمى في مستعمراتها ومحمياتها حال دون إجابة الطلب[٣].

٣- علاقته بالحاج عمر بن إبراهيم، العنق (و: ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م-ت: ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م):

علم من أعلام التربية والإصلاح، بدأ دراسته بمدينة قسنطينة، ثم أكمل حفظ القرآن بمسقط رأسه القرارة، ليتوجَّه بعدها إلى معهد القطب ببني يسجن للاستزادة من المعارف سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م، واشتغل بعد انتهاءه من الدراسة بالتجارة في مدينة تبسة.

رغم انقطاع الحاج عمر العنق عن مجال التعليم وانشغاله بالتجارة إلا أنه كان وفيا للصداقة التي كانت تجمعه مع أقرانه في معهد القطب، ومن أبرز هؤلاء سليمان الباروني، حيث لم تنقطع المراسلة بينهما واستمرت إلى آخر حياته[٤].

(١) أبو القاسم الباروني: حياة سليمان باشا الباروني، (مقدمة أبي إسحاق اطفيش)، ص١٢-١٨.
(٢) زعيمة سليمان الباروني: صفحات خالدة من الجهاد، (كلمة الأستاذ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش)، ص١.
(٣) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ١/١٩٢-١٩٣؛ جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، رقم: ٣٧.
(٤) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ١/٥٧-٥٨.

وفي سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م كان الحاج عمر من الذين رافقوا الشيخ سليمان باشا الباروني لتعزية آل الشيخ أطفيّش، في وفاة أستاذهما القطب. كما كان ضلعًا مساعدًا للباروني في تأسيس البعثة العلميّة الميزابيّة بتونس[١].

وفي سنة ١٩٢٤م انتقل الحاج عمر العنق بمعية السيد تيريشين سليمان إلى صديقه الباروني المتواجد آنذاك بمرسيليا، فأقاما معه بضعة أيام أزالوا عنه وحدة الأسر ووحشة الغربة بروائع القصص، والحكم البليغة والدعابة المريحة. كما حاول الاتصال ببعض الأعيان المزابيين في الجزائر للتوسط لدى السلطة الفرنسية لتمكين الباروني من الإقامة مع عائلته في إحدى مستعمراتها الجزائر أو تونس، لكن دون جدوى[٢].

٧- حنين الباروني إلى مزاب واهتمامه بشؤونه:

١- اهتمامه بقضايا مزاب:

إن اعتكاف الباروني ثلاث سنوات في أحضان قطب الأئمة، وتعرفه على أقطاب العلم والأدب والجاه في وادي مزاب، وامتزاجه العلمي والأدبي والاجتماعي مع تلامذة القطب، جعله يعدّ ميزاب وطنه الثاني؛ لا يختلف حبه له عن حبه لمدن جبل نفوسة، فكان يفرح لفرح مزاب ويألم لآلامها، ولم تفتر علاقته بمزاب رغم محنه التي مر بها.

ومن ذلك نذكر على سبيل المثال لا الحصر قضية التجنيد الإجباري الذي فرضته السلطات الاستعمارية على الجزائريين منذ سنة ١٩١٢م باعتبارهم مواطنيين تابعين للجمهورية الفرنسية، وهو ما يتعارض مع معاهدة ١٨٥٣م التي

(١) جمعية التراث: المصدر السابق، رقم: ٦٤٨.
(٢) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ١٨٧/١-١٨٨.

أبرمتها السلطات الفرنسية مع أعيان وادي مزاب، والتي دخلت المنطقة بموجبها تحت الحماية[١]. فقد ساند الباروني رفض المزابيين لهذا القانون من خلال مراسلاته مع رفيقه الحاج عمر العنق خلال ١٣٤٤هـ/١٣٤٥هـ؛ ثمّن فيها الجهود التي يبذلها أعيان المنطقة في التفاوض مع السلطات الاستعمارية، ومنوها بالتقدم المحسوس الذي تعرفه القضية في كل مرة[٢].

٢- رحلة الوفاء إلى وادي مزاب: في ذي القعدة من سنة ١٣٢٥هـ، الموافق لشهر نوفمبر سنة ١٩٠٧م:

ولعل هذه الزيارة جاءت ترويحا للباروني عن الزيارة التي أجهضت إلى وطنه، في جمادى الثانية من نفس السنة، إثر الإشاعات التي راجت بأن الباب العالي أصدر في حقه أمرا يقضي بمنعه من الرجوع إلى وطنه[٣].

وقد زار الباروني في هذه الرحلة شيخه في بني يزقن ونزل في ضيافته رفقة طلابه من أمثال أبي اليقظان، ومكث حوالي شهرا كاملا زار فيها بعض قرى وادي مزاب[٤].

وعند وداعه لشيخه عند باب المدينة عزم الباروني أن يتلو عليه ثلاث قصائد كان قد هيأها ردا للجميل؛ غير أن قطب الأئمة استصعب الفراق ورق قلبه، وطلب منه أن لا يكون ذلك بحضوره، ثم ربت الشيخ على كتفيه وقال له: "ستكون أميرا، وإذا زرتني مرة أخرى تزورني وأنا تحت التراب"[٥].

(١) أبو القاسم سعد الله: سليمان الباروني، أضواء وملاحظات، مجلة الثقافة، عدد ١١٠-١١١، صادرة عن وزارة الثقافة السنة ٢٠، الجزائر، سبتمبر/ديسمبر ١٩٩٥، ص٢٤٢.
(٢) أبو اليقظان، سليمان الباروني، ٢١١/٢.
(٣) المصدر نفسه، ٨٢/١.
(٤) المصدر نفسه، ٥٧/١.
(٥) وعلق على هذه العبارة صديقه أبو اليقظان بقوله" قلت فكان الأمر كذلك". حيث لم تكن له زيارة لشيخه بعدها إلا التي كانت بعد وفاته، ينظر: أبو اليقظان: سليمان الباروني، ٧٠/١-٧١؛ زعيمة الباروني: صفحات خالدة، ٩٠.

ولما وصل الباروني إلى المحطة وجد بها أعيان قرى وادي مزاب وفي مقدمتهم قضاة القرى، وقيّادها، وخواص تلامذة القطب، وأصدقاء الباروني، وفي ازدحام كبير تلا عليهم القصائد الثلاث[1] ومطلع القصيدة الأولى:

سلام يا إمام المسلمينا ويا نور الهدى للمؤمنينا[2]

٣- زيارته لمزاب عند وفاة القطب:

في فجر يوم السبت ٢٢ ربيع الثاني ١٣٣٢هـ، الموافق لشهر مارس سنة ١٩١٤م، توفي القطب عن عمر يناهز ستة وتسعين سنة. وذلك بعد مرض أضعف قواه لمدة ثمانية أيام[3].

نزل خبر وفاة قطب الأئمة على الباروني -وهو في تونس- كالصاعقة، وتلقاه ببالغ التأثر، حيث قال لأبي اليقظان والحاج علي لخبيطي الذين حضرا لتعزيته وعيناه تدمعان: " أصبت في أعز حاشيتي وأحبائي وقواد جيشي وخيرة جنودي في حروب طرابلس فقابلت كل ذلك بجلد، ولم تدمع عيناي إلا مرتين: عند موت والدي، وعند موت أستاذي الشيخ أطفيش هذا رضوان الله عليهما " [4].

وفي جمادى الأولى من سنة ١٣٣٢هـ الموافق لشهر أفريل سنة ١٩١٤م رافق كل من الحاج عمر العنق بمعية بعض وجهاء مزاب الشيخ سليمان باشا

(١) زعيمة الباروني: المصدر السابق، ٩٠.
(٢) ومطلع القصيدة الثانية : هذا ابن يوسف حجة الإسلام كنز العلوم وروضة الأكمام
ومطلع القصيدة الثالثة : للمغرب أنت وللمشارق مرجع منك المعاند والمعادي يرهب
ينظر: سليمان الباروني: ديوان الباروني، ٤٩-٥٢.
(٣) حفار: السلاسل الذهبية، (مخ)، ٤٦ أبو اليقظان: ملحق السير، (مخ)، ١٦٧.
(٤) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ٧٠/١.

الباروني لتعزية آل الشيخ اطفيّش، وزيارة ضريحه في بلدة بني يزقن بوادي مزاب[1].

وكان وصوله إلى مدينة غرداية يوما مشهودا، حيث التف به إخوانه المزابيين، واكتظت بهم شوارع مزاب، مظهرين حفاوتهم به. كما استقبلته السلطات العسكرية الفرنسية باحترام كبير، وأقيمت له موائد فاخرة، وفرشت له الشوارع بالرمل حيثما حل، فزار كلا من بنورة والعطف ومليكة وبني يزقن وغرداية مقر السلطات الفرنسية آنذاك[2].

وقد تليت بالمناسبة خطب وقصائد من ذلك: كلمة ألقاها زكري واسعيد،(١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م- ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م) [3] وقصيدة أقاها عبد الله بن إبراهيم أبو العلا (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م- ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م)، مطلعها:

إنَّ مع العسر يسرين لمن صبرا على الشدائد والأهوال والمحن[4]

وكانت تلك الأيام التي أقامها بين إخوانه المزابيين كأيام عيد، لم يفارقه أهلها ووجهاؤها، وذكّره هذا المشهد بالأيام التي كان فيها إماما على طرابلس الغرب[5].

(١) زعيمة الباروني: صفحات خالدة، ٤٥٠ جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، رقم: ٦٤٨.
(٢) زعيمة الباروني: مصدر سابق، ص٤٥٠-٤٥١ أبو القاسم سعد الله: سليمان الباروني، أضواء وملاحظات، مجلة الثقافة، ٢٤١.
(٣) زكري واسعيد: خطابان حول وفاة القطب، وزيارة الزعيم سليمان الباروني لميزاب، بخط يده، [جمادى الثانية ١٣٣٢هـ/أفريل ١٩١٤م]، منها نسخة بمكتبة إبراهيم أوزكري ببني يسجن، ٤.
(٤) جمعية التراث: مرجع سابق، رقم: ٥٧٨.
(٥) زعيمة الباروني، مصدر سابق، ٤٥٠.

٨- أثر قطب الأئمة في تكوين شخصية الباروني

عمّر القطب قرنا من الزمن، فكانت حياته حافلة، خلّف إثرها تراثا ضخما، عجز المعاصرون عن حصره؛ ناهيك عن الإلمام بمضمونه ومحتواه. واجتمعت فيه خصال قل ما تجتمع في شخص.

ولما علم القطب أنّ سبب تدهور أوضاع المجتمع، وتحكيم وطأة الاستعمار المقيت عليه هو الجهل، وأنّ أي تغيير لابد أن يكون مبنيا على أسس علمية، أدرك أنّ المسؤولية ملقاة على عاتقه؛ نظرا لقلة العلماء في عصره، فجعل الاشتغال بأمور المسلمين من أولوياته، وتصدى للإصلاح الاجتماعي والتجديد، واتخذ القطب لتحقيق ذلك وسائل متنوعة أهمها:

١- التأليف: الذي كان يراه أحسن وعاء لحمل أفكار الإصلاح، وضمان استمرارية النهضة الفكرية التي يقودها، فكان – رغم عوزه – يبذل النفيس لاقتناء أي كتاب يسمع به، إما عن طريق الحجاج الميزابيين، أو بتأجير من ينسخها له من أهل البلد الذي يوجد فيه الكتاب، فكوّن مكتبة حوت على نفائس الكتب في زمانه. ساعدته على تكوينه العصامي والتأليف، كما خصص للتأليف أغلب أوقاته، فكان لا ينقطع عنه، حتى في سفره وهو راكب على دابته[١].

٢- التدريس: حاول القطب العناية بالشباب، وتسليحهم بالعلم، الذي يعتبر أحسن وسيلة للنهوض بالأمة، وتخليصها من ربقة المستعمر، فأنشأ لذلك معهده، وقام بتصدير هذه المزايا لتلاميذه الذين تخرجوا من معهده وحملوا لواء الجهاد والإصلاح في مختلف الأقطار، وكان من بين هؤلاء الذين تأثروا بشخصية أستاذه؛ الشيخ سليمان الباروني، ويتجلى ذلك من خلال الأعمال الجليلة الآتية:

---

(١) أبو اليقظان: ملحق السير، (مخ)، ٥٥/٢.

١- مقاومته للاستعمار :

لا يخفى على كل دارس لتاريخ الباروني أن أهمّ مراحل حياته كرسها في الدفاع عن وطنه، وحمل لواء الجهاد بالسيف والقلم؛ لتخليص بلاد الإسلام من ربقة الاستعمار، فلم يستكن لمحاولات النيل من عزيمته هو وجنوده. فقد حاولت الدولة الإيطالية أن تستميله إليها بشتى الوسائل والإغراءات المادية، لمّا قويت شوكته، وكبر شأنه واستطاع أن يضم تحت لوائه المجاهدين من سائر بلاد ليبيا الغرب، فلم يغنها ذلك شيئا، رغم الظروف الصعبة التي مر بها والاضطهاد الذي مورس عليه، وتخلي الخلافة العثمانية عنه في أحلك الأوقات[١].

من ذلك أنه لما نزل بتونس ساومه الإيطاليون في ترك الجهاد وعدم التدخل في شأن طرابلس مقابل مبلغ مالي لكنه أبى ذلك ورفض الطلب[٢] وقال في إحدى رسائله: " إن حكومة إيطاليا تحققت نزاهتي وعفتي من زمن الحرب التركية فلم تتجاسر على مخاطبتي في شأن الرشوة كما فعلت مع غيري؛ لأنها لما أشارت إلي ذلك في بعض مكاتباتها الأولى التي أجبت بأنني أنا ورجالي لا نرضى إلا بالموافقة على الاستقلال الذي تفضل به علينا السلطان، وإلا فإننا سندافع عنه إلى أن تغلبنا القوة ونخرج من أوطاننا..."[٣].

٢- اشتغاله بالتأليف:

إن المشاغل العديدة والأسفار والمحن التي مر بها، والتنقلات بين مختلف البلدان، والمناصب التي تولاها في العهد العثماني، وكذا عند نزوله في سلطنة عُمان لم تثن من عزيمة الباروني في التصدي لمهمة التأليف التي اعتبرها من

---

(١) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ١٠٧/١، ١٠٨.
(٢) أبو القاسم الباروني: حياة سليمان الباروني، (مقدمة أبي إسحاق)، ١٣؛ أبو اليقظان: سليمان الباروني، ٦١/١.
(٣) زعيمة الباروني، صفحات خالدة، ص٤٦٧.

أهم وسائل الإصلاح والمقاومة، قال أبو إسحاق: " أما قلمه فقد كان ينبوعا زاخرا في الترسل والشعر والسياسة وكانت لآرائه مكانة بين أقطابها في الشرق والغرب "[1].

فكانت له الكثير من المقالات توّجها بإنشاء جريدتي الأسد الإسلامي بمصر سنة ١٣٢٤هـ-١٩٠٦م، وجريدة الباروني في تركيا بعد إبرام الهدنة بين الدولة العثمانية والحلفاء سنة ١٩١٨م. إضافة إلى مؤلفات منها[2]:

١- كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية. (مط)
٢- ديوان الباروني. (مط)
٣- مختصر تاريخ العائلة البارونية، (مخ).
٤- تاريخ الحرب في طرابلس: والذي لم يكتب له الصدور بعد أن عاجلته المنية.

٣- إنشاؤه للمدارس البارونية:

تعلّم الباروني من شيخه أن استمرار النهضة لايمكن أن يتحقق إلا بأجيال من المتعلمين، الذين يحملون الفكرة بعد زوال الرجال، فأنشأ لذلك مدرستين:

الأولى: المدرسة البارونية: أنشأها حوالي ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م بمدينة يفرن بجبل نفوسة على أنقاض مدرسة قديمة، أنشئت في صدر المائة الثالثة عشر. وكان الشيخ عبد الله الباروني العضد الأيمن لابنه سليمان عند تأسيسه لهذه المدرسة، حيث كان هو المشرف على التدريس فيها. وقد أوقف لها الباروني أوقافا كثيرة بتونس والقاهرة، والتحق بها عدد كبير من الطلبة.

(١) أبو القاسم الباروني: مصدر سابق، (مقدمة أبي إسحاق)، ص١٧.
(٢) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ٨٤/١-٨٥؛ دبوز: نهضة الجزائر الحديثة، ١١/٢؛ جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، رقم: ٤٥٧.

وبما أن المكتبة روح المدارس، ومرتع الطلاب، فقد أنشأ الباروني بجانب مدرسته مكتبة، سميتِ بالمكتبة البارونية، زودها بأمهات الكتب في مختلف العلوم[1].

الثانية: المدرسة البارونية بسمائل بعُمان: أسس سليمان الباروني مدرسة في سمائل العُمانية، حينما أخذ في تنظيم مملكة عُمان بتفويض من الإمام الخليلي، سنة ١٣٤٨هـ، سميت بالمدرسة البارونية، وكانت مدرسة عصرية، غير أن حلمه لم يتحقق، ولم يتم برامجه التي كان يطمح تحقيقها في المدرسة بعد أن أنهك المرض قواه وأقعده الفراش[2].

٤- الاعتزاز بإسلامه وعروبته، وشغفه بالوحدة الإسلامية:

تيقن الباروني أن أي نصر للأمة لا يمكن أن يتحقق إلا بوحدتها دون اعتبار لجنس أو مذهب، وكان يصبو إلى إعادة المجد للأمة الإسلامية عن طريق الدولة العثمانية التي كانت ملجأ المسلمين يومئذ وملاذهم[3]. كما كان فكره ساميا عن النزعة المذهبية الضيقة والعصبية القبلية المقيتة، ديدنه إعلاء كلمة الله، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، شأنه شأن شيخه الذي يروي عنه الباروني نفسه قصة حدثت معه عندما كان تلميذا في معهد القطب، وذلك سنة ١٣١٥هـ لما تأثر القطب بصور عرضها عليه الباروني لجيوش عثمانية محاربة وجيوش يونانية هاربة منهزمة، فقال لتلاميذه : هلموا بنا نرفع أكفنا إلى الله فندعو للدولة الإسلامية العثمانية بالنصر والغلبة، " فقال أحد المتنطعين في المجلس كيف

(١) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ٨٢/١، ٨٣.
(٢) المصدر نفسه، ٨٤/١.
(٣) أبو القاسم الباروني: حياة سليمان الباروني، (مقدمة أبي إسحاق)، ١٤-١٥؛ أبو اليقظان: سليمان الباروني، ٥٠/١.

ندعو ياشيخ بالعز والنصر لقومنا؟ فما كاد يتم كلامه حتى زجره الشيخ وعنفه وطرده من مجلسه "[1].

٥- اهتمامه بحفظ التراث ونشر كتب الفكر الإباضي:

كان الباروني شديد الحرص على جمع الوثائق وشراء الكتب مهما بلغت تكلفتها، ففي إحدى مراسلاته إلى أبي اليقظان بتاريخ ٢٨ شعبان ١٣٥٠هـ. طلب منه استرداد نسخة له من كتاب النيل، كتب عليها تقريرات مما تلقاه عن شيخه قطب الأئمة، وشراء كل ما كان بخط يد أبيه أو أحد أجداده البارونيين، من جملة ما بيع من كتب الجبل في سوق الكتيبة بتونس بعد فتن طرابلس[2].

ولما رحل إلى مصر افتتح بشارع محمد علي بالقاهرة مطبعة كانت تعرف بمطبعة الأزهار البارونية. وكان ذلك سنة ١٣٥٢هـ، وكان أول إصدار للمطبعة الجزء الثاني من كتابه الأزهار الرياضية فسميت المطبعة باسمه[3].

ومن أبرز الكتب التي تولى طباعتها شرح صحيح الربيع بن حبيب للإمام نور الدين السالمي، والجزء الثاني والثالث من كتاب وفاء الضمانة بأداء الأمانة في فن الحديث لشيخه قطب الأئمة، وأيضا ديوان السيف النقاد للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن قيس الحضرمي، وكذا ديوان القلائد الدرية للشيخ عمر التندميرتي في الأدب وغيرها [4].

---

(١) أبو اليقظان: سليمان الباروني، ٧٤/١.
(٢) المصدر نفسه، ٢٢٢/٢-٢٢٣.
(٣) أبو القاسم الباروني: حياة سليمان الباروني، (كلمة بقلم البوزباشي محمد إبراهيم لطفي المصري)، ٤١؛ زعيمة الباروني: صفحات خالدة، ٤٩.
(٤) أبو القاسم الباروني، مصدر سابق، (مقدمة أبي إسحاق)، ص١٧-١٨؛ أبو اليقظان: سليمان الباروني، ٨٣/١؛ زعيمة الباروني: مصدر سابق، ص٥٠-٥١؛ محمد مسعود جبران: سليمان الباروني، آثاره، ٣٨.

الخاتمة:

إن الذي يحاول الإلمام بحياة الباروني إنما يحاول عسيرا و شططا، إنْ في الجانب السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي، والسبب في ذلك يعود إلى كون الباروني عاش في مرحلة تميزت بالبناء الحضاري والحركات العلمية، في ظل تعرّض ليبيا كبقية العالم الإسلامي إلى حملة استعمارية شرسة، أتت على كل المقومات والدعائم.

إضافة إلى ذلك فإن الباروني، كانت حياته حافلة، خلّف إثرها أعمالا جليلة وأبلى بلاء حسنا في شتى المجالات وفي مختلف الأقطار التي انتقل إليها، لذا فمن الصعوبة ببال على أي باحث الوصول إلى أعماله وإحصائها، ناهيك عن الإلمام بمضمونها ومحتواها.

لكن حسبنا –في خاتمة هذا العمل– أننا وقفنا على فترة زمنية مباركة عاشها الباروني في أحضان وادي مزاب يغترف من منابع العلوم على يد شيخه قطب الأئمة، صال وجال في ربوع الوادي والجزائر، وربط علاقات مع علماء وأدباء وقضاة، كان له الأثر العميق في الصمود أمام المحن التي مر بها، والرقي في مصاف الزعماء والأدباء.

رقم الإيداع المحلي: ٤٣٧ / ٢٠١٣
رقم الإيداع الدولي: (ISBN) 978-99969-0-220-8